أحمد حسن الفقرة

الديموقراطية بين الوهم والحقيقة



«الديموقراطيةُ وهمٌ وأسطورة،
منذ عصر العبودية، وحتى يومنا هذا»

الديموقراطية
بين الوهم والحقيقة

أحمد حسن الفقره

الديموقراطية
بين الوهم والحقيقة

الديمقراطية وهم وأسطورة
منذ عصر العبودية وحتى يومنا هذا

اسم الكاتب : أحمد حسن الفقرة
اسم الكتاب : الديمقراطية بين الوهم والحقيقة
تصميم الغلاف : ضحى المصري

الطبعة الأولى
٢٠٠٧م

نور للطباعة والنشر والتوزيع



E. mail: nour-p@scs-net.org
موبايل: ٠٠٩٦٣ ٩٣ ٣٢٩٥٥٥
هاتف: ٠٠٩٦٣١٥٧١٠٣٢٥

الإهداء

إلى مَنْ يُصغون إلى صوت العقل!

إلى مَنْ يبحثون عن الحقيقة الموضوعية!

إلى المستَغلّين على هذا الكوكب!

أهدي هذا الكتاب

أحمد حسن الفقره

محتويات الكتاب

• مقدمة

أخبر ماركس أحد أنصاره وهو سيغفريد ماير بأنه: «قد ضحى بالصحة والسعادة والأسرة» بغية إنجاز كتابه، وكتب إليه يقول: «إنني أستهزئ بأولئك الناس الذين يسمّون بـ «العمليين» وكذلك بفطنتهم. فالمرء الذي يودّ أن يصبح بهيمة يمكنه بالطبع أن يدير ظهره لآلام البشرية ويهتم بشؤونه الخاصة وحسب. ولكنني سأعتبر نفسي غير عملي حقاً فيما لو انقضى أجلي قبل أن أنجز بالكامل كتابي ولو على شكل مخطوطة»[١].

من يودّ أن يصبح بهيمة، ليدر، ظهره لآلام البشرية!

بهذا الشعور الإنساني الرفيع، وضع ماركس المسألة... مسألة ما تعيشه البشرية من عذابات، ونسي صحته وأسرته، وراح يكتب (رأس المال) لتشخيص هذه العذابات ووصف علاجها... وعلى هذه القاعدة من الشعور بالواجب نحو الإنسانية المعذبة... ورغم أن العتمة تدهم عينيّ، إلا أنني قررت المجازفة بما تبقى لديّ من قدرة على الرؤية... على أنه أدير ظهري لهذا السعير الذي بدأت البشرية السقوط فيه، في هذه المرحلة من التاريخ.

إن البشرية اليوم في طاحونة نهب الإمبريالية الأمريكية المتوحشة... والأنكى من ذلك، تخطيط هذه الإمبريالية لتقييد هذا الطحن ضد مجهول في محاولتها قلب معادلة: الحق والباطل... والخطأ والصواب، من أجل عرقلة وعي الجماهير في فهم حقيقة ما يجري. يقول توني بلير رئيس وزراء بريطانيا: «أعتقد أحياناً أن السياسة المعاصرة، أصبحت مؤامرة ضد قدرة الإنسان على الفهم»[٢] والسؤال!

- لماذا أصبحت السياسة ضدّ الفهم...؟

لم تصبح هكذا صدفة، وإنما في استراتيجية إمبريالية للتعتيم على حقيقة ما تفرزه سياسة نهبها، هنا، تُصبح مسؤولية مَنْ لا يود أن يصبح بهيمة واجباً إنسانياً، لا يرقى إلى مرتبته واجب آخر... وعلى هذا المفصل، تصبح مسؤولية الأديب خطيرة الشأن من شقين:

«الأول أن الأديب الذي يحتضن قضية من قضايا المصير الإنساني ويجعل منها قضيته، ثم يجعل من قضيته هذه رسالة هو رسولها، يكون ذا شخصية تبلغ من العظمة مبلغ القدرة على إضفاء روعتها وحجمها وأبعادها إلى إبداعها الأدبي نفسه، وإن كان إبداعها هذا لا يرقى إلى وزنها روعة ولا حجماً ولا مدى... أي إن عظمة الشخصية في

الأدب مستمدة من عظمة القضية التي يحتضنها إلى حد أنه لا يشتفي بمجرد التعبير عنها، وإنما يبقى يهزه أبداً لاعج من الشوق إلى أن يحقق منها بالعمل ما يعبر عنه بالكلمة.

والأمر الآخر. هو أن الأديب الذي لا قضية له، لا ثقل له «في موازين الاعتبارات والمصائر الإنسانية» حتى في حال أن يكون لأدبه حجم أكبر من شخصيته، ففي هذا الحال لا ينفع الحجم الأدبي – مهما كبر – ما دامت الشخصية غير ذات ثقل في موازين الاعتبارات والمصائر الإنسانية»[٣]، وهي كذلك لعدم رؤيتها هذه المصائر من منظور الحقيقة الموضوعية الذي يحكي التاريخ علاقاتها الصحيحة، ووفق هذه العلاقات «فمن لا ينصر قومه إذا كانوا مستعمرين مضطهدين، ولا يطالب لهم بحق التحرر وحق السيادة والسعادة في أوطانهم، فليس بإنسان، وليستتر ما شاء بأن قوميته هي الجنسية البشرية، وأن وطنه هو الأرض... فإنه برغم ذلك يبقى إنساناً مزيفاً ولم يُصنع من عصب التحدي الإنساني للظلم والباطل، وإنما صُنع من عجين الفلسفات المائعة... إني لا أعرف مبدأً إنسانياً يمكن أن يعتنقه ابن شعب مستعمر مضطهد إلا أن يكون التحرر القومي محوره الذي عليه يدور»[٤]... يدور من أجل التحرر وبسط الحق والعدل جوهر الديموقراطية الحقيقية... هذه هي القضية... فمن لا يبالي بها ولا يتحزب لها... لم يُدر ظهره لآلام البشرية وحسب... بل هو يسند الطاغوت الذي يعمق ويوسع هذه الآلام... يقول لينين: «ولكن هذه اللامبالاة لا تعني الحياد، لا تعني الامتناع عن النضال، لأنه لا يمكن أن يكون هناك حياديون في النضال الطبقي، ولا يمكن «الامتناع» في المجتمع الرأسمالي عن الاشتراك في مبادلة المنتوجات أو قوة العمل. والحال، تلد المبادلة حتماً النضال الاقتصادي، وفي أثره النضال السياسي أيضاً، ولهذا لا تعني اللامبالاة بالنضال أبداً بالفعل الابتعاد عن النضال، أو الإمتناع عنه، أو الحياد... أن اللامبالاة تعني المساندة الصامتة للقوي، للسائد»[٥]... ولم يكن هذا وحسب... بل تعبد الطريق لعربدة هذا «السائد» في الاتجاه الذي يريد... وذروة ما يريد هو النهب... ولنهب بتقانة يعمل على تزييف الوعي، ومحو ما جاء في أرشيف التاريخ وما حفظته الذاكرة الإنسانية، لتهيئة التربة الخصبة لاستمرار نهبه وطغيانه... ولتمرير هذا المكر السيء، يرمي بالجبهة بكل وسائل إعلامه، ومن هنا، «فقد أحدثت وسائل الاتصال فجوة معرفية تزداد باستمرار مما أوقع البلدان الفقيرة في فخ التقصير وعدم القدرة على اللحاق بالبلدان المتطورة.

ولم يقف الأمر عند السبق الكبير في مجال الاتصال الذي أحدثه التقدم التكنولوجي

المذهل، وإنما قد تعدّى هذه الحدود لتقوم وسائل الاتصال ومخازن المعلومات بعملية تزييف مقصودة للذاكرة على المستوى الفردي أو الشخصي للفرد فحسب، وإنما طالت الذاكرة الجمعية أيضاً. فغدا التلاعب بالذكريات أحد أهم الأهداف التي تسعى لتحقيقها الأيديولوجية المسيطرة في محاولة جادة ومحكمة تغسل أدمغة الأفراد، وتدخل الشك إلى ما تختزنه من معارف وصور مهما تمتعت به هذه المعارف والصور من مصداقية وثبات وقرب من اليقين، ومثل هذا التلاعب ستقود شيئاً فشيئاً إلى التغيير في العقائد والاتجاهات»[٦].

ولفضح هذا، جاء هذا الكتاب:

- ليكشف الغطاء عن ديكتاتورية الطبقة المستغِلّة في العملية التاريخية.
- ليكشف الغطاء عن كذب ما تدعيه الإمبريالية من عشقها لـ (الديموقراطية – حقوق الإنسان – التدخل الإنساني).
- ليكشف الغطاء عن الديموقراطية الحقيقية التي تفرزها الاشتراكية.

وأرجو أن أكون قد وُفقت في هذه المساهمة المتواضعة من أجل إنقاذ الإنسانية من ديكتاتورية الرأسمال.

المؤلف

أحمد حسن الفقره

هوامش المقدمة

١- ستيبانوفا – ماركس (سيرة حياته) – دار التقدم (موسكو) – الطبعة الرابعة ١٩٨٨ – ص ٢٩٣.

٢- قالوا – مجلة العربي (الكويت) – العدد /٥١٢/ ٢٠٠١ – ص٣٥.

٣- حسين مروّة – سلسلة دراسات في الفكر والأدب – دار الفارابي (بيروت) – الطبعة الأولى ١٩٩٣ – ص١٠٢.

٤- المصدر السابق – ص١٠٧.

٥- لينين – في الأيديولوجية والثقافة الاشتراكية – دار التقدم (موسكو) طبعة ١٩٧٤ – ص٣٣.

٦- إسماعيل ملحم – الذاكرة والتضليل الإعلامي (تزييف الوعي وتزوير التاريخ – مجلة المعرفة (دمشق) – العدد /٤٨٤/٢٠٠٤ – ص٢٠٥.

الفصل الأول

الديموقراطية ما قبل البورجوازية

«أليس من أعقد مظاهر المشكلة أن يجيب أكثر من مئة عالم ومختص، هم من أبرز علماء السياسة والاجتماع في العالم، عن أسئلة وجهتها إليهم المؤسسة الدولية الثقافية التابعة للأمم المتحدة، في عام ١٩٥٠، بشأن الديمقراطية وما يرتبط بها من أمور عدّة، فإذا بإجاباتهم تتكشف عن خلاصة تقول بأن ليس من تحديد شامل متفق عليه لمدلول الديمقراطية والحكم الديمقراطي، بل تتكشف أيضاً عن التناقض بين مفهومات الديمقراطية عندهم إلى حد أن بعضها ينقض البعض الآخر»[1].

غريب، أكثر من مئة عالم ومختص، لم يتفقوا على تعريف موحد للديمقراطية، والأكثر غرابة، لو طلب منهم، تعريف الديكتاتورية، لقالوا بلسان واحد (إنها الاستبداد والقهر والقمع)، والسؤال!

- ما السرّ في عدم الاتفاق على تعريف الديموقراطية؟

الديموقراطية الحقيقية (حكم الشعب نفسه بنفسه)، والتي تعني العزة والكرامة، ولدت في المشاعة البدائية، وسُمّيت في المجتمع العبودي، ودونت في سجلاته المدنية... سُمّيت بعد أن دفنها معول الاستغلال... أي شُيّعت جنازتها بعد ظهور الملكية الخاصة... ولم يأخذ المجتمع العبودي الذي سمّاها بمفهومها من حيث (المحتوى)... بل أخذ بشكل هذا المفهوم للغش والخداع ولاستخدامه غطاءً مزركشاً لطغيان الطبقة النّهابة على طول مسار العملية التاريخية... وعلى طول هذا المسار كانت تختلف زركشة هذا الغطاء باختلاف طرق النّهب... وهذا يعني أن الديموقراطية الحقيقية، لم تصبح حقيقة موضوعية، منذ التشكيلة

العبودية... بل بقيت وهماً تسبح في عالم الأساطير المقدسة التي يعشقها الناس... ومنذ هذه التشكيلة ولدت الديكتاتورية التي ما تزال حيّة ترزق حتى يومنا هذا، ومن هنا، يأتي الاتفاق على تعريفها، كونها حقيقية موضوعية... مقابل عدم الاتفاق على تعريف الديموقراطية التي قُبرت منذ زمن سحيق وتوارت خلف الذاكرة على شكل أسطورة... تداولتها الأجيال المتعاقبة بصور شتى... ولهذا جاء تعريفها بصور شتى و«أن أخطر ما يمكن تسجيله للوعي الديموقراطي الزائف، أنه يبدأ من الديموقراطية باعتبارها مطلباً، والمطلب يتحول بها (أي بالديموقراطية) إلى أسطورة خلاص، والأسطورة تبقي على المحاسن وتذر الرماد في عيون القارئ البارد، الذي هاجسه المعرفة، وهنا بالذات يمارس (الأسطوريون) لعبة أستاذ الابستمولوجيا، فهم لا يتحدثون عن مساوئها، ليحرفوا المواطن عن رؤية الحقيقة، فضلاً عن كونهم لا يعرفون هذه المساوئ، فالديمقراطية أسطورة، والأسطورة مقدسة ليست قابلة للخطأ ولا مساوئ فيها»[٢]... ومن قداستها صُنع سيف الطبقة النهّابة، ولهذا «أصبحت المطالبة بالديموقراطية لاهوت الليبرالية الجديدة يتبناها كهنوت السلطة ومثقفو المعارضة على حد سواء، والشواهد تدل على أن أغلب التجارب النهضوية - التنموية نجحت في ظل التسلطية والتدخل الواسع للدولة في الاقتصاد، في الغرب والشرق على حد سواء أيضاً، وهذا ما يتناقض مع إدعاءات الفكر الغربي وبخاصة كون الديموقراطية شرطاً أساسياً من شروط التنمية، مما يضع التراث الفكري للتنمية موضع شك، ويطرح بدائل لا تلتزم بالضرورة بالنموذج الغربي المثالي المفترض للتنمية»[٣].

إذن: الديموقراطية الحقيقية، تحولت بعد قتلها إلى أسطورة... ثم حوّل النهابون هذه الأسطورة إلى (لاهوت)... ليكون نهبهم بني البشر معلباً لاهوتياً، يقول انفلز: «لقد أرست الثورة الفرنسية بداية الديموقراطية في أوروبا، والديموقراطية هي، برأيي، في آخر المطاف، مثل كل شكل آخر للحكم، تناقض في حد ذاتها، كذب، لا شيء غير النفاق (أو، كما نقول نحن الألمان،

لاهوت)»[٤]، وبهذا اللاهوت يتمسك «المتحضرون» لنهب «المتخلفين»، ولدراسة هذه الظاهرة «ينبغي علينا أن ندرس المجتمع وحركة التاريخ قبل أن ندرس الظاهرة نفسها»[٥]، والظاهرة نفسها في ميزان حركة التاريخ، يُكشف صحتها أو خطأها.. فحركة التاريخ هي الفصل في معرفة الحقيقة... هذا إذا كنا نريد معرفتها، فـ «نحن لا يمكن أن نفهم دون أن نتيح لشيء ما أن يقال لنا»[٦]... دون أن نتيح لحركة التاريخ أن تقول لنا أساس (قصة الديموقراطية) بعد أن توارت وراء الذاكرة.

أقول: الديموقراطية كما سمّاها الإغريق تعني (حكم الشعب نفسه بنفسه)... هذا كلام جميل، والسؤال!

- في أي ظروف يحكم الشعب نفسه بنفسه..؟

منطق التاريخ يقول: في الظروف التي تتوحد فيها مصلحة المجتمع... وهي لا تتوحد إلا في المجتمع الخالي من الطبقات... وهذا يعني أن الديموقراطية الحقيقية لم تر النور من حيث المحتوى منذ ظهور الاستغلال وانقسام المجتمع إلى طبقات:

- طبقة غنية تملك وسائل الإنتاج، هذا أولاً.
- طبقة كادحة لا تملك حتى سواعدها، هذا ثانياً.
- طبقة تركب أرجوحة بين (أولاً وثانياً)، هذا ثالثاً.

مصالح (أولاً وثانياً) في تضاد 180 درجة «وكان أكبر إسهام لسيسموندي هو الاعتراف بوجود طبقات اجتماعية، وتحديد سماتها المميزة. لقد كان «أحد أوائل الاقتصاديين الذين تحدثوا عن وجود طبقتين اجتماعيتين، الأغنياء والفقراء، والرأسماليين والعمال، ويرى أن مصالح إحديهما... في تعارض دائم مع مصالح الأخرى»[٧].. على ضوء هذه المعادلة.. فإن المنطق يقول: فرصة الحكم هي في سهم الأقوى في حلبة الصراع.. التاريخ يؤكد ذلك بلسان فصيح ويقول: أن الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج هي الطبقة السائدة في المجتمع... أي الطبقة التي تحكم الشعب وفق مصالحها... وللخداع تصور مصالحها وكأنها

مصالح المجتمع بأسره، ومن أجل طمس هذا المكر السيء، تلبس ثوب الديموقراطية لتمارس ديكتاتورية هي الأعنف والأفظع توحشاً. فـ «الديموقراطية»:

- إذا كانت في (هوى) الطبقة المستغِلّة، عنت تخليد ديكتاتوريتها... أي الحكم المؤبد على الإنسان بالعبودية.

- إذا كانت في (هوى) الطبقة المستغَلّة، عنت التعجيل في أجل ديكتاتورية البروليتاريا وتحرير الإنسان من كل عبودية.

وقد أشار لينين إلى أنه «في ظل الرأسمالية، تكون الديمقراطية مقيدة، مكبوسة، بتراء، يشوهها كل ظرف عبودية العمل المأجور»[8]، وهي كذلك، كونها تخضع لمصالح الطبقة الرأسمالية المبرمجة على عبودية الآخرين وفق آليات نهبها... فهم هذا الواقع، هو الخطوة الأولى على طريق الديموقراطية الحقيقية، التي جوهرها الحرية. يقول ماركس: «ليست الضرورة عمياء، إلا ما دامت غير مفهومة. الحرية فهم الضرورة»[9].

الحرية فهم الضرورة... ما تفسير هكذا كلام...؟

الحرية مركز دائرة الديموقراطية... وهذا يعني أن الديموقراطية فهم الضرورة... وكيف تفهم الضرورة..؟

- الديموقراطية في مجتمع الاستغلال، محكومة بالضرورة التي يحدد أبعادها مصالح الطبقة المستغِلّة... أي هي مقيدة من أجل تحقيق هذه المصالح، ومن هنا، يفقد منتجو الخيرات المادية حريتهم من أجل أن تسود حرية استغلالهم وعبوديتهم الأبدية.

- الديموقراطية في الاشتراكية محكومة بالضرورة التي يحدد أبعادها مصالح الشعب بأسره... وهي مقيدة في إطار هذه المصالح، ومن هنا، تصبح حرية الفرد هي حرية الشعب... في مجتمع خالٍ من الطبقات ومن ديكتاتورية البروليتاريا ومن كل أشكال العنف.

إذن: في مجتمع الاستغلال، تسود حرية النهب في عبودية أبدية... وفي مجتمع

الاشـتراكية، يُـدفن النهـب ومعـه العبوديـة، ويرافـق ذلـك عنـف مرحلـي ينتهـي بانتهاء النهابين في المجتمع... يقول نهرو: «لقد كان العنف شائعاً في المعسكرين (الشيوعي والرأسمالي)، ولكن عنف النظام الرأسمالي كان يبدو طبيعة من الطبائع الفطرية الملازمة لهذا النظام، أما العنف في روسيا فقد كان يهدف، على الرغم من كونه رديئاً، إلى إقامة نظام جديد مؤسس على السلم والتعاون والحرية الحقيقية للجماهير»[١٠]، التي هي في تضاد مع حرية النهّابين... تناقض هذه مع تلك هو في إطار التناقض الطبقي الذي يفرز وبنفس الدرجة التناقض بين ديموقراطية الجماهير وديموقراطية النهّابين.

أجـل: التنـاقض الطبقـي، هـو، الـذي يعكـس التنـاقض في مفهـومي الديموقراطية، و«ما دام التناقض الاجتماعي قانوناً في رأس القوانين الموضوعية العامة لحركة تاريخ تطور المجتمع، فلابد أن يكون له فعله المعين حتماً، في العمليـة التاريخيـة... وكـذلك التـدخل البـشري، أي تـدخل القـوى الاجتماعيـة المتناقضة المصالح طبقياً، أمر هو في حكم القانون، وهو العامل الموجه لقانون التناقض هذا: إما لدفعه العملية التاريخية باتجاه التطور والتقدم، وإما للجم العملية عن هذا الاتجاه وشدّها إلى وراء زمناً غير محدود.

عند هذا المفصل الخطر: إما أن نختار الديمقراطية، لكي يكون التدخل البـشري سـلمياً ديموقراطيـاً، أي تـدخلاً في سـبيل دفـع الـصراع بـين أطـراف التنـاقض الطبقـي باتجـاه يكفـل تعـديل ميـزان القـوى لـصالح الطـرف الأكثـر جدارة لوضع العملية التاريخية في مدارها الصحيح، مدار التطور والتقدم، أي مدار الديموقراطية الاجتماعيـة الأرقـى... وإما أن نختار الطريق الآخر المناقض للديموقراطيـة، أي أن نختـار أسـلوب معـاداة الديموقراطيـة، كالاسـتبدادية والفاشية، لقمع أحد طرفي الصراع في محاولة لكبح عميلة التاريخ، أي عملية التطـور الاجتمـاعي، عـن مـداها الطبيعـي، مـن أجـل مـصلحة الطـرف الآخـر للـصراع»[١١]، القائمـة علـى نهـب الآخـرين، ولاسـتمرار هـذا النهـب يـستمر الاسـتبداد والقمـع والقهـر للآخـر، لحبس العمليـة التاريخيـة في سـهم النهّـابين...

على هذا المفصل، يقوم الصراع الطبقي... صراع المصالح:

- المصلحة في النهب.
- المصلحة في دفن النهب.

صراع المصالح هذا، تحدد مساره القوة، ولا شيء غيرها «فإنه من العبث الاعتقاد في إمكان حماية المجتمع والأفراد تحت وهم القيم الأخلاقية وحدها، سواء كانت قيماً دينية أو غير دينية، ذلك أن غرائز الأفراد من تسلط وأنانية لن تلبث أن تهدر هذه القيم ذاتها، فتصبح الأخلاق الرسمية قناعاً للاستغلال والاستبداد»[١٢]، وهذا من مفرزات ذاك. «أن العالم الاجتماعي رينهولد تيبور يهاجم منطقياً علماء الأخلاق الذين يتصورون بأن أنانية الأفراد الذاتية تكبح وتضبط حثيثاً بنمو العقلانية والتعقل. أي نمو النية الطيبة الخالصة الموحى بها من العقيدة الدينية، والذين يتخيلون بأن إقامة الانسجام الاجتماعي بين جميع الاجتماعات والتعاونيات الإنسانية لا تتطلب أكثر من استمرار نمو العقلانية وازدهار النوايا الحسنة»... ويقول: أن علماء الأخلاق هؤلاء يغضون الطرف عن الضروريات والحاجات السياسية في الصراع من أجل العدالة في المجتمع الإنساني، وذلك بعدم إدراكهم لما في السلوك الجماعي المشترك للإنسان من عناصر تنتمي إلى القانون الطبيعي، ولا يمكن أن تخضع تماماً لسلطة العقل أو الضمير. إن هؤلاء العلماء لا يدركون بأنه عندما تستثمر السلطة الجماعية المشتركة، سواء اتخذت شكل نظام استعماري أو شكل تسلط طبقي، نواحي الضعف والضعفاء، فإنه لا يمكن خلعها من دست السلطان إلا بالقوة.

ويقول أيضاً: «بما أن العقل هو دائماً إلى حد ما خادم المصلحة ومطيتها في الكيان الاجتماعي، فإنه لا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية بالهداية الأخلاقية أو المنطقية وحدها... فلابد من صراع حتمي ولابد من تحدي القوة بالقوة في هذا الصراع».

إن الإنسان ليخدع نفسه إذا فكر بتحقيق العدالة بواسطة إقناع طبقة أو أمة بها إقناعاً مجرداً، أو إذا فكر بإمكان إزالة أسباب النزاع بالجدل المنطقي

وبالدعوة إلى التمسك بالعدالة.

وأنه لمن الأوهام الكاذبة أن نتصور بأن دولة استعمارية مهيمنة خليقة بأن تتنازل عن تسلطها على دولة أخرى، أو أن نتصور بأن طبقة ما ستتخلى عن مقامها الرفيع وامتيازاتها، ما لم تزاول ضدّها موجة ضغط فعّال يرقى إلى حد الإكراه والقسر»[١٣].

نعم: (العقل – الأخلاق – الجدل المنطقي)... هذه جميعها محكومة بقوة المصلحة... وبهذه القوة سادت الطبقة المستغِلّة كل التشكيلات الاجتماعية المتعاقبة منذ مجتمع العبودية... سادت، وساد استبدادها لاستمرار نهبها، وبعهر العاهرات، ألبست طغيانها ثوب «الديموقراطية»، ولتقانة التعتيم على هذه المسألة، أتقنت اللعب على الحبل، وبه، كان تشكيلها للبرلمانات «التي يزعم أنها تعبر عن إرادة الشعب، ولكنها تستر بالفعل خداع الشعب من قبل الأغنياء»[١٤]، ولمثل هكذا خداع، تُركّب البرلمانات وفق مصلحة السلطان. «وعندما قيل للنّواب، في البرلمان الأول عندنا الذي أقامه الخُديوي اسماعيل على ضفاف النيل، أن ينقسموا إلى يمين موالٍ ويسار معارض، أجابوا: إزاي؟ فهم جميعهم أعوان السلطان»[١٥]، ويحطبون في حبال طغيانه من حيث المحتوى، ومن حيث الشكل يمثلون مصالح الشعب... هكذا يدور اللعب غير النظيف من أجل نهب الشعب. ولقد علّق الشيخ الأفغاني «على مقترحات الخديوي بإقامة نظام نيابي تمثيلي عام ١٨٧٠ قائلاً: سيكون نوابكم صورة صحيحة تعكس الأوضاع السائدة، فسيكون النائب وجيها سلب بقسوة مكاسب فلاحه، أو جباناً هو أكثر خوراً من أن يعارض حاكماً ظالماً أو رجلاً يرى في إرادة الطاغية حكمة وبصيرة ويعتبر الدفاع عن الشعب ومعارضة أولي الأمر تهوراً وحمقاً»[١٦]، إذا كان الأمر كذلك، فلم يبق من وظيفة «لممثلي الشعب» سوى خدمة الطاغية... ولمثل هكذا خدمة تعمل البرلمانات في مجتمع الاستغلال، يقول نهرو: «لقد نمت الديموقراطية والرأسمالية معاً في القرن التاسع عشر، ولكنهما لم تكونا متلائمتين بشكل متبادل، فقد كان هنالك تناقض

أساسي بينهما، ذلك أن الديموقراطية تولي اهتمامها قوة الكثرة والعامة، بينما تعطي الرأسمالية القوة والسلطة الحقيقيتين للقلة. إلا أن الديموقراطية والرأسمالية سارتا معاً في ازدواج ربما كان على غير ما يرام، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى أن الديموقراطية البرلمانية السياسية كانت في حد ذاتها نوعاً محدوداً من الديموقراطية، وإلى أنها لم تكن تعرقل كثيراً نمو الاحتكارات وعمليات تركيز السلطات والقوى الاقتصادية والاجتماعية في أيدي القلة. ومع ذلك فإن الطلاق بين الديموقراطية والرأسمالية أصبح شيئاً محتوماً حان أوانه الآن. أجل إن الديموقراطية البرلمانية تقاسي اليوم العار والشنار، وإنها لتحاول التمرد على عارها بإطلاق مختلف أنواع الشعارات في الجو، وبسبب هذا التطور أصبحت الحكومة البريطانية في الهند أكثر رجعية، وجعلت هذا التطور عذراً تتذرع به لتمسك عن منحنا حق الأشكال الخارجية للحرية السياسية. على أن إخفاق الديموقراطية البرلمانية، لا يرجع إلى أنها قد اشتطت وذهبت إلى أبعد مما يجب، بل يرجع إلى أنها لم تذهب إلى الحد الكافي. ولم تكن ديموقراطية بما يفي بالغاية، ذلك لأنها لم توفر الديموقراطية الاقتصادية، كما أن مناهجها ووسائلها كانت بطيئة ومليئة بالعوائق وغير ملائمة لظرف زمني يتميز بأنه ظرف التغيرات السريعة»[١٧]، ولأنه هكذا، يعمل النّهابون بما ملكوا من صلاحيات الشيطان، على رجحان كفتهم في ميزان التناقض بسرعة تتناسب مع هذه التغيرات.. ووفق هذه المعادلة، يجري سطوهم السريع والمتوحش على ثروات الآخرين بمصطلحات حق ما أرادوا بها سوى نهب هذه الثروات، لإرواء ظمأ الطغمة المالية للمال الحرام. «إن جميع الاشتراكيين، إذ أوضحوا الطابع الطبقي للحضارة البرجوازية والديموقراطية البرجوازية والبرلمانية البرجوازية، قد عبّروا عن الفكرة التي أعرب عنها ماركس وانجلس بأقصى الدقة العلمية بقولهما: أن أوفر الجمهوريات البرجوازية ديموقراطية، ليست سوى آلة لقمع الطبقة العاملة من جانب البرجوازية، لقمع سواد الشغيلة من جانب حفنة من الرأسماليين»[١٨]... من النهّابين الذين شكلوا طاقم الذئاب الضارية في مجتمع

الاستغلال، يتلاعبون بوعي الجماهير لمصّ عرقها، فشكلوا برلمانات من أعوانهم، وجعلوا منها آلة لقمع الشغيلة، وإطلاق يد الطغيان في مقدرات الشعب فساداً ونهباً، وعلى هذا المحور قامت الديموقراطية البرجوازية التي أفرزت مسرحية تحكي الظروف الموضوعية، كاشفة النقاب عن حقيقة هذه الديموقراطية، حيث «تعالج هذه المسرحية كفاح العمال الأمريكيين من أجل تحديد ساعات العمل اليومي بثماني ساعات، وما أعقب ذلك من محاكمات فوضوية في شيكاغو عام ١٨٨٦، انتهت بصدور أحكام عشوائية بإعدام قادة العمال»[١٩]. في ذمة التاريخ أيها القادة، لقد أعدمكم «المتحضرون» من أجل «ديموقراطية» نهبهم... وعلى هذا المسار سادت الطبقة المستغِلة في التاريخ من أجل نهب متدفق دون عوائق. في مصر تمّ «استنزاف الطبقات الشعبية والمنتجة بشكل غير إنساني، خاصة طبقة الفلاحين، التي كانت تشكل غالبية السكان، والتي كان أفرادها يضربون بالكرباج لإجبارهم على دفع الضرائب المضاعفة، والتي كانت تجبى عدة مرات أحياناً في العام الواحد أما طبقة الأعيان، فكانت شبه ميسورة لأنها شكلت حلقة الوصل إذ أوكلت إليها الطبقة المسيطرة مهمة جباية الضرائب من جهة، ومنع الطبقات الشعبية من تنظيم نفسها للدفاع عن مصالحها الحيوية من جهة أخرى. واستمر الأعيان على امتداد الأرياف المصرية يمارسون دورهم التقليدي كطبقة استغلالية طفيلية تعيش على حساب الفلاحين، لكنها لا تنجو بعض الأحيان من نقمة الطبقة الحاكمة حين تشتد حاجتها إلى المال لتغطية البذخ والترف»[٢٠]، على حساب من يموتون جوعاً.. على هذه المعادلة الطاغية قامت «ديموقراطية» النّهابين وتمثلت بـ:

- إعدام العمال لمطالبتهم ببعض حقوقهم.
- ضرب المنهوبين بالكرباج لخطف لقمة عيشهم.
- منع المنهوبين من تنظيم أنفسهم للدفاع عن حقوقهم.

ولدوام هكذا «ديموقراطية» «نتذكر هنا أنه عندما أصبح شريف باشا

رئيساً لوزراء مصر، نتيجة للثورة العرابية في سبتمبر عام ١٨٨١. فقد تقدم في أوائل يناير عام ١٨٨٢ بمشروع الدستور إلى مجلس النواب المنتخب في ٢٦ ديسمبر عام ١٨٨١. ولكن إنجلترا وفرنسا عمدتا إلى إرسال مذكرة مشتركة إلى الخديوي لتأكيد دعمهما له، وللتعبير عن معارضتهما للحكم الدستوري»[٢١]، لعدم حاجة مصر إليه مع وجود «ديموقراطية» النهب التي هي أم الدساتير في قاموس «المتحضرين» «وهكذا ففي السنوات الخمس الأولى من عمر «الديموقراطية» في مصر، بين ١٩٢٣- ١٩٢٨، قدمت الحكومة البريطانية (العريقة في ديموقراطيتها) أربعة إنذارات للحكومة الدستورية الجديدة في مصر ضد محاولات تشريعية للبرلمان المصري بسن قوانين تعطي حرية نسبية أكبر للشعب المصري. وعندما أطيح بالحكومة البرلمانية الشعبية برئاسة مصطفى النحاس، وفرضت مكانها حكومة أقلية استبدادية من جانب القصر – (وزارة محمد محمود وحزب «الأحرار الدستوريين» الموالي للسلطة المحتلة في ١٩٢٨/٦/٢٧) – وجرى حلُّ البرلمان المنتخب، وتم تعطيل الدستور في ١٩٢٨/٧/١٩، عندما توالت هذه التطورات، ضدّ الديموقراطية المصرية، وهي في مهدها، لم يجد تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا «العظمى» ما يقوله أمام البرلمان البريطاني غير هذه المقولة الاستبدادية التهديدية: «لن نسمح لأي سلطة، سواء كان هناك دستور أو لم يكن هناك دستور، بأن تهمل التحفظات (البريطانية بشأن الإستقلال)، فمهما كان نوع الحكومة التي يختارها الملك فؤاد وشعبه فيجب عليهم أن يضعوا في حسابهم هذه التحفظات ويعطوا بشأنها الترضيات»[٢٢].. أي يعطوا آليات النهب مدارها في نهب الشعب المصري، وفق «ديمقراطية» بريطانيا «العظمى».. وهي بالفعل «عظمى» لتعاظِم كرشها بالمال الحرام... ومن أجل هذا الحرام «تمكن الإشارة إلى التجربة الليبرالية في العراق، حيث أدت قيام «برلمانات تعارض الإصلاح بالضرورة»، وقد وصف كاتب بريطاني هذا الوضع وصفاً دقيقاً بقوله: «ولهذا فقد وجد ملوك العرب ورؤساء وزاراتهم أنفسهم دائماً في موقف مريك محيّر، هو موقف الوسيط الذي

ينقل إلى البريطانيين ما يتعرض له من ضغط شعبي ممثل في المعارضة، وينقل إلى هذه المعارضة، إصرار بريطانيا على التمسك بسيطرتها وإشرافها». ولقد بلغت هذه المفارقة الصارخة ذورتها، في عام ١٩٤١ حين أعادت حراب الإنكليز الحكم الهاشمي إلى العراق، على حطام الثورة القصيرة التي قام بها رشيد عالي الكيلاني، وفي العام التالي فرضت الحراب البريطانية نفسها حكومة مصرية ترضى عنها «حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى»، يوم قامت الدبابات البريطانية بمحاصرة قصر عابدين في حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ المشهورة، وفرضت على ملك البلاد تكليف حزب الوفد بتشكيل حكومة جديدة في مصر، بل لقد طلب السفير البريطاني في مصر آنذاك عدم المساس ببلاده باعتبارها دولة حليفة لمصر في حملات المعركة الانتخابية، وقد تعهد له زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس بمنع أي خطب أو منشورات انتخابية فيها مساس بالحليفة بريطانيا، وذلك عندما علم أن السعديين والدستوريين يرددون «أن الوزارة الحالية جاءت على أسنة الرماح البريطانية»[٢٣]، وعلى أسنة هذه الرماح، تحقق نهب النهابين:

- نهبوا شعوبهم.
- نهبوا الشعوب الأخرى.

هذا النهب المركب، يتفاخر به اللصوص ويسمّون أنفسهم «ديمقراطيين» ويذكرنا هذا «برواية محاكمة الإسكندر للقرصان، ودفاع هذا الأخير عن نفسه بقوله للاسكندر: «أنا أسرق سفينة فأدعى قرصاناً، وأنت تسرق العالم فتدعى إمبراطوراً»[٢٤]. الاسكندر: سرق العالم وسُمّي «إمبراطور»... وفق هذا القلب للمفاهيم أصبحت الطبقة النهّابة «ديموقراطية»... أصبحت هكذا بالكرباج والقتل على طريق الإسكندر ذاته، وعلى هذا الطريق قتلت المناضل الكبير (الشيخ الكواكبي)، «بعد انتقاله إلى مصر، قد أزعج السلطات العثمانية ودفعها إلى تدبير عملية قتله مسموماً في القاهرة في الرابع عشر من حزيران ١٩٠٢»[٢٥].

في ذمة التاريخ أيها الشيخ، لقد أردت نصر المظلومين فقتلك الظالمون (نصرك وقتلك) جرى في ملعب الصراع الطبقي... أردت الدفاع عن الطبقة المضطهدة فقتلتك الطبقة المضطهدة... أردت الديموقراطية الحقيقية التي تحقق كرامة الإنسان، فردَّ عليك الطغاة بسيف ديكتاتوريتهم المتوحشة من أجل نهب الإنسان.. ما أردته وما حلّ بك جرى في حلبة صراع المصالح الطبقية المتضادة 180 درجة. «أن مختلف الأفراد لا يشكلون طبقة إلا بقدر ما يتعيّن عليهم خوض النضال المشترك ضد طبقة ما أخرى، ولكنهم، فيما عدا ذلك، يعارضون بعضهم بعضاً بعداوة بوصفهم منافسين. ومن جهة أخرى، تصبح الطبقة ذاتها بدورها شيئاً ما مستقلاً عن الأفراد، ولذا يجد هؤلاء ظروف حياتهم مقرّرة سلفاً: فإن الطبقة تحدد وضعهم في الحياة، وكذلك مصيرهم الشخصي، وتخضعهم لنفسها، وهذه ظاهرة من نوع ظاهرة خضوع مختلف الأفراد لتقسيم العمل، ولا تمكن إزالتها إلا عن طريق القضاء على الملكية الخاصة وعلى العمل بالذات»(٢٦).

الطبقة تحدد مصير الأفراد الذين يشكلونها في إطار مصالحها المتضادة مع مصالح الطبقة الأخرى... هكذا تجري الأمور في المجتمع الطبقي... وفي هذا المجتمع، ولتحقيق هدف ما... أنت تسعى وتبدي رأيك في الطريقة الموصلة لهذا الهدف... وأنا أسلك طريقاً آخر... غير أن الرأي الفائز بالكرة، هو الذي تدعمه الطبقة السائدة بعد أن تجد فيه ما يحقق مصلحتها الطبقية... هكذا يقول التاريخ: أبو ذر الغفاري ابن الطبقة الكادحة، رفع صوته عالياً (أن أبسطوا الحق والعدل بين الناس)، فنفته الأرستقراطية إلى دمشق. وفي دمشق تابع نضاله الطبقي... وتابع معاوية أيضاً نضاله الطبقي في توزيع الثروة من الأسفل إلى الأعلى: «حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا هشام بن حسان، عن الحسن، أن زياداً بعث الحكم بن عمرو على خراسان، فأصاب مغنماً، فكتب إليه زياد: أن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرني أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء، فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه وأقسم ما

سوى ذلك»[٢٧]... هكذا سلكت الارستقراطية الدمشقية طريقها الطبقي، وحتى لا تشكل صيحات الغفاري عقبات فيه أعادته إلى المدينة... ولنفس السبب نفي ثانية إلى الرّبذة، ومات هناك وحيداً، كما تنبأ له رسول الله ﷺ.

نعم: أن اصطفاء الذهب والفضة... أي بلع حقوق الآخرين، طريق درجت عليه الأرستقراطية... وتدرج عليه اليوم البرجوازية، وهذا يعني أن «ديموقراطية» النهابين لم تتغير، فإن استسلمت لنهبهم سلمت رقبتك، وإن قلت لا عليك أن تسلم الروح لباريها، ولم يكن هذا مجرد كلام للتسلية بعد أن وثقه التاريخ في أرشيفه. «في سنة ١٩٧١م تمت انتخابات في شيلي أتت بالزعيم الاشتراكي أليندي إلى الحكم، فبدأت الولايات المتحدة على الفور نشاطاً سرياً يهدف إلى زعزعة الوضع السياسي والإطاحة بالنظام الجديد، وقد نجحت في ذلك إذ اغتيل أليندي في انقلاب عسكري وقع سنة ١٩٧٣، ويروى أن كيسنجر قد علق على هذا الحديث بقوله: لست أرى ما يدعونا إلى أن نسمح لبلد ما أن يتحول إلى الماركسية لمجرد أن أهل هذا البلد قوم لا يشعرون بالمسؤولية»[٢٨].

كيسنجر «الغيور» على مصالح الشعوب... يجد في ميزان «ديموقراطيته» إن الشعوب التي تصطفي الصفراء والبيضاء للطغمة المالية في واشنطن، هي شعوب تشعر بالمسؤولية.. والشعب الذي يتجاوز هذا الخط الأحمر يجب تربيته (كيسنجرياً)... وهذا ما جرى في شيلي، حيث دَمّر نظام الحكم وقتلى أليندي الذي جاء نتيجة انتخابات ديموقراطية، لكن – والحق يقال – ليست كـ «ديموقراطية» البيت الأبيض.

أقول: ديموقراطية البيت الأبيض، هي، تدفق ثروات هذا الكوكب عليه دون عوائق... ومَنْ يتمرد على هكذا ديموقراطية، فصواريخ كروز من حقه لعدم شعوره بالمسؤولية... والشعور بالمسؤولية في فكر الإمبريالية، دعم الطبقة المستغِلّة، وبالتالي، دعمها في ملعب الصراع الطبقي، فإذا ما تمّ هذا تتحقق «الديمقراطية» الطبقية التي تحمل لواءها الاحتكارات الأميركية، وحتى لا يختلط الحابل بالنابل وثقت موقفها رسمياً «في الوثيقة تحت عنوان «توجيهات

التخطيط الدفاعي للسنوات من ١٩٩٤ – ١٩٩٩ الصادر عن وزارة الدفاع الأمريكية جاء فيه «أن على الاستراتيجية الأمريكية التركيز على منع ظهور أي منافس للولايات المتحدة على الصعيد العالمي»[٢٩]، لتتفرد في ترتيب الدول على شطرنج «ديموقراطيتها»، وحلّ جميع مشاكل هذا الكوكب وفق مصالح احتكاراتها. وضع أمريكا الطاغي هذا، نشأ في أعقاب تدمير الاتحاد السوفييتي، حيث «بدأ العالم يعيش عصر هيمنة القطب الواحد، الذي يملك أضخم ترسانة عسكرية وأقوى بناء اقتصادي في العالم. وتوالت تصريحات كبار الشخصيات الأميركية، عن حق الولايات المتحدة في حل المشاكل الدولية بل والتفرد بها، ولعل السيد هنري كيسنجر وزير خارجية أميركا الأسبق كان الأكثر صراحة في هذا الموضوع خلال خطابه في منتدى دافوس عام ٩٨. حيث قال: «العالم اليوم تغيّر منذ انهيار الاتحاد السوفياتي، صارت هناك حقيقة واحدة تحكم البشرية وتؤرخ لنفسها ولانتصارها، أي الليبرالية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، ثم يضيف أن الولايات المتحدة اليوم هي وضع خاص، لدينا القوة والسلطان اللذان يميزان دولة إمبراطورية، وليست هناك مشكلة في العالم يمكن حلّها بدون مشاركتنا»[٣٠]... وبمعنى آخر لا يمكن حلّها دون برمجتها على خدمة احتكاراتنا.

كيسنجر خلع أرديته بعد تلقفه الكرة، وعبّر عن طبيعة لعبه المتوحش على الشاشة البيضاء في منتدى دافوس... أي خرج من خلف مخابراته للسطو على الشعوب ونهبها دون أغطية كان لابدّ منها أيام كان الاتحاد السوفييتي... وهذا ما قصده في قوله: «أن العالم قد تغيّر»... تغيّر، إذ أصبحت السرقة تجري بياض النهار وبالقدر المطلوب، بعد أن كانت تتم في الظلام وبالقدر الممكن، وعلى ضوء هذا التغيّر، أخذ توحش «ديمقراطية» الإمبريالية مداه عمقاً واتساعاً... بعد أن كان محدود البطش والخبط في عتمة الليل... وفي هذه العتمة كانت تنفذ المخابرات مخططات الاحتكارات لنهب ثروات الشعوب.

إن طبيعة الإمبريالية لم تتغير من حيث إفراز السطو على ثروات الآخرين،

وكل ما في الأمر اليوم... أن التغير في هذه الطبيعة كشف حقيقتها وأصبحت أكثر وضوحاً بعد غياب الاتحاد السوفييتي، حيث انتقلت من:

- السرقة في عتمة الليل إلى السرقة رأد الضحى.

وفي رأد الضحى سطت على العراق... وفي عتمة الليل «قامت عن طريق المخابرات المركزية الأمريكية بما يسمى عملية «أجاكس» لإعادة شاه إيران إلى الحكم عام ١٩٥٣ إثر الانقلاب عليه من «مصدق» الذي قام بتأميم شركات النفط في إيران وكانت تهدف في هذا إلى إعادة مصالحها النفطية وإلى ضمان صديق أو عميل لها يحمي مصالحها ويمنع وصول حزب «توده» الشيوعي إلى الحكم في إيران»[٣١].

أجل:

- مصدق قرّر اصطفاء الصفراء والبيضاء للشعب الإيراني.
- «ديمقراطية» أمريكا، وجدت في قرار مصدق «عدم الشعور بالمسؤولية».

وفق هذه المعادلة، وثب الذئب الضاري «ديموقراطياً» لإسقاط من لا يشعر بالمسؤولية... من لا يشعر بعطش الإمبريالية للمال الحرام، وبوثوبه هذا حقق:

- إعادة النفط إلى مزراب البيت الأبيض.
- قطع الطريق على حزب «توده» ومنعه من الوصول إلى الحكم.

وفق هذا الطريق «الديمقراطي – الكيسنجري»، سادت الأمور في مجتمع الاستغلال وتحت عصا الطبقة المستغِلّة... هذه العصا التي لم تغب إلا في مجتمع الملكية المشتركة... للوقوف على حقيقة ذلك في العملية التاريخية.... نطوف أرجاء هذه العملية، ونبدأ:

أولاً: المشاعية البدائية:

المشاعية البدائية، هي، تلك المرحلة، التي بدأ الإنسان فيها خطواته الأولى في مسار العملية التاريخية، بعد أن حدّد «الانفجار الأعظم الذي حدث منذ ١٥ مليار سنة بداية كوننا دون شك – كوننا الذي نتطور فيه»[٣٢]، ونتيجة لهذا

التطور، جاء الإنسان كفرع من فروع أشكال الحياة على هذا الكوكب، ومن تناسله «كان القطيع البدائي أول شكل انتقالي للمجتمع الذي حدث فيه تكوين الإنسان. ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الإنسان عن عالم الحيوان وبدأ بإنتاج أدوات العمل، وما زال باقياً إلى أن تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء»[٣٣]، وبهذا التطور تشكل المنظمة القبلية التي كانت «أول شكل للمجتمع الإنساني جاء في أعقاب القطيع البدائي، ولعبت دوراً كبيراً في تطور المجتمع. ويفترض العلم أن النظام العشائري ظهر في العصر الحجري القديم، عندما ظهرت الملامح الفيزيائية للإنسان الراهن.

ولقد سمح تطور الإنتاج بنشوء جماعة بشرية أشد ثباتاً واستقراراً من القطيع البدائي، بل وجعل ذلك ضرورياً، وعندئذٍ ظهرت العشيرة التي كانت شكلاً معيناً لاجتماعية الناس، وخلية إنتاجية موحدة وشكلاً للتنظيم الاجتماعي في المجتمع البدائي في آن واحد. فالعشيرة كانت جماعة من الناس، يجمعهم صلة القربى من ناحية الأم، ويلتفون حول بعضهم بواسطة العمل الجماعي والدفاع المشترك عن المصالح العامة، وتربطهم اللغة والأعراف والتقاليد. وأن حساب صلة القربى من ناحية الأم يفسره الدور الذي كانت تلعبه المرأة في اقتصاد العشيرة، والزواج المتعدد الذي كان يصعب فيه تمييز الأب، ولهذا فقد سادت النسبة إلى الأمهات في العشيرة.

وكانت علاقات الزواج من أفراد العشيرة الواحدة ممنوعة، ولهذا، فلم تكن العشيرة لتقدر على الانعزال لوحدها. وكان منع زواج أفراد العشيرة من بعضهم يعني منع زواج الأخوة بالأخوات، لأنهم كانوا جميعاً تربطهم رابطة الدم. وكان هذا بحد ذاته خطوة تقدمية لما له من أثر على تقوية النسل. وكانت وحدة عشيرتين أو أكثر تؤلف القبيلة. وكانت علاقات الزواج تقوم بين أفراد العشائر المختلفة داخل القبيلة. ولهذا، فقد كانت القبيلة وحدة متماسكة قائمة بذاتها. وفي الفترة الأخيرة من النظام العشائري ظهر اتحاد

القبائل. لقد كانت القبيلة تملك بقاعاً معينة تختلف من حيث المساحة والاتساع، تعيش عليها وتصيد وترعى. وكان خرق حدود القبيلة يعتبر انتهاكاً وعملاً عدوانياً، ولهذا فقد كانت كل قبيلة تحمي أراضيها حماية صارمة. وكان زعماء القبيلة أو شيوخها هم الذين يتولون إدارتها معتمدين على قوة شخصيتهم من جهة، وعلى التقاليد من جهة أخرى. وكان جميع أفراد القبيلة متساوين في الحقوق.

لقد كان المجتمع العشائري القبلي شكلاً مرناً قابلاً للتكيف مع أكثر الشروط تنوعاً لحياة الناس في المجتمع البدائي. ولقد أمن هذا المجتمع العمل المشترك والدفاع المشترك ضد قوى الطبيعة وقوى القبائل المعادية، وتربية الجيل الصاعد، والاستراحة، والتسلية، والاستمرار في الإنتاج والأعراف والتقاليد، وإمكانية تقدم القوى المنتجة. ولهذا فقد كان ظهور النظام القبلي بمثابة قفزة هائلة في تطور المجتمع البدائي الأول، كان ظهوراً لذلك الشكل الاجتماعي الذي يؤمن المعيشة وتطور الإنتاج في تلك الشروط.

لم يكن عدد أفراد القبيلة كبيراً بالطبع، فقد كانت القبيلة الواحدة تعد مئات وألوفاً، وفي أحسن الأحوال عشرات الألوف من الناس، ولم تظهر في تلك الظروف مجتمعات أكبر من ذلك، لأن الصيد البري وصيد الأسماك والزراعة البدائية للأرض لم تكن جميعها تقدر على تأمين وسائل المعيشة. وإلى جانب ذلك، فقد أدّى تطور الإنتاج في النظام القبلي إلى تغيير النظام ذاته. فبالنسبة للقرابة تغيرت أشكال الزواج المتعدد الجماعي إلى العائلة المزدوجة التي كان فيها الزوج والزوجة متساويين في الحقوق. ومع ظهور الزراعة الفأسية وتربية الماشية بدأت الثروات لدى بعض الأسر. وكان هذا كله من شأنه أن يؤدي إلى استبدال القرابة عن طريق الأم بالقرابة عن طريق الأب، وصار الأب قادراً على أن يسلم ممتلكاته وثروته إلى أبنائه من بعده، واختفت المساواة بين الرجل والمرأة، واحتل الرجل المقام الأول في الأسرة والقرابة، وظهر النظام الأبوي، وكان ظهوره علامة تفسخ النظام القبلي والانتقال إلى المجتمع الطبقي»[٢٤].

ما تقدم يقول: العملية التاريخية بدأت بـ:

- العمل المشترك.
- الدفاع المشترك.
- التساوي في الحقوق.
- التساوي بين المرأة والرجل.

وبعد تحسن أدوات الإنتاج، وظهور الزراعة، ظهرت الملكية الخاصة، فكان:

- تراكم الثروة في بعض الأسر.
- سيادة الأب.
- توريث الأب ثروته لأبنائه.
- ظهور المجتمع الطبقي.

وبظهور المجتمع الطبقي، ظهر الصراع الطبقي الذي أفرز «حرب الجميع ضد الجميع»، فعكست هذه الحرب تغيّراً في الأخلاق والعادات بين الناس. ففي التشكيلة البدائية، فـ «إن الطابع البدائي للإنتاج، والمصاعب الهائلة في الكفاح من أجل البقاء، وإن علاقات الإنتاج في العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين أعضاء الجماعة الواحدة كانت تؤلف المظهر الخارجي لهذه التشكيلة.

إن كثيراً من الباحثين، لدى دراستهم لإنسان التشكيلة البدائية الأولى يولون فائق اهتمامهم إلى أن الناس في تلك الفترة مع كل ضعفهم وارتباطهم التام بالطبيعة، فقد فرضوا علينا احترام سذاجة تصوراتهم بما كانوا يتمتعون به من احترام النفس والإخلاص والصراحة وقوة الشخصية والشجاعة وغيرها من الصفات الإنسانية الحقيقية الأخرى»[٣٥]، التي فُقدت كلية مع ظهور المجتمع الطبقي وعلاقاته الصدامية التي طردت الإنسان من داخل الإنسان. «لقد بين انجلس في كتابه الشهير «نشوء الأسرة والملكية الخاصة والدولة»، أنه إذا كان ضعف الإنسان مرتبطاً بالمستوى المنخفض لتطور قوى الإنتاج، فإن

التراث الأخلاقي لأناس ذلك المجتمع كان نتيجة مباشرة للتنظيم العشائري القائم على الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج، وعلى المساواة الاقتصادية بين أفراد الجماعة كلهم وعلى علاقات العمل الجماعي الرفاقي والتعاون المتبادل. ونحن، إذ نعجب بمزايا الناس الأخلاقية في التشكيلة البدائية، لا يسعنا إلا أن ندفع ضريبة الاحترام لتلك البداية الإنسانية الحقيقية التي تجلت في أسلافنا بكل بساطتها البدائية»[٣٦].

نعم: كانت بداية إنسانية بامتياز، أفرزتها الملكية المشتركة التي أفرزت بدورها العمل المشترك، والدفاع المشترك عن المصالح العامة للمجتمع، هكذا وضع عكس الأخلاق الكريمة، فكان التعاون الرفاقي والاطمئنان والراحة النفسية. «وقد ذهب (روبرت نزيت) – وهو بصدد تفسيره لتصور دور كهايم للاغتراب – إلى أن حالات الضجر، والقلق، واليأس، كانت غير معروفة نسبياً في المجتمع البدائي، في حين أنها تتصاعد وتتزايد في المرتبة. ودور كهايم هنا يشير لحالة عدم للسعادة البشرية التي تصاحب التقدم. كما يؤكد على تناقض السعادة بتزايد تطور تقسيم العمل، وأن الأوقات التاريخية تكون بالضرورة مليئة بالقلق والتشاؤم»[٣٧]، اللذان لم يُعرفا في المجتمع البدائي الخالي من الطبقات لخلوه من الملكية الخاصة التي زرعتهما في النفوس.. وزراعتها هذه، في نمو متزايد مع تطور أدوات الإنتاج، الذي يفرض كل تطور لها تقسيم عمل جديد ومنهوبين جدد.. بعد أن كانت الملكية المشتركة تزرع الحب والإخاء والتعاون.. حيث كان الفرد للكل، والكل للفرد، «وقبل /١٢,٥٠٠ق.م/ مرت البشرية الأولى (الهوموإركتوس Homoerectus) بالشرق الأدنى»(٣٨)، وجماعات هذا الهوموإركتوس «تطورت ضمن المجموعة الإنسانية الواحدة، التي تعاونت في السرّاء والضرّاء، فكانت تعيش متكافلة متضامنة تدافع عن نفسها كجماعة، كما تجوع أو تشبع معاً، واستهلكت من موارد الطبيعة الحرّة ما يكفي لسدّ حاجاتها فقط، ولم تشعر برغبة التملك الخاص، بل كانت خيراتها مشاعية فبقيت بعيدة عن متاهات تجميع الثروة وصراعات

الفقر والغنى»[٣٩].. أي بقيت بعيدة عن الصراع الطبقي، ومن رحم بُعدها هذا، وُلدت ديموقراطيتها الحقيقية التي تمثلت بـ:

- صفات إنسانية حقيقية.
- عمل مشترك ودفاع مشترك.
- تضامن وتعاون.
- الشبع أو الجوع معاً.

هذا لخلق الكريم... هذا التعاون والتضامن... تحلّى به أسلافنا البدائيون، وشكّل ديموقراطيتهم الحقيقية يوم كانت ملكيتهم مشتركة.. وبعد أن تحوّلت هذه الملكية إلى ملكية خاصة.. أفرزت هذه الأخيرة حكم الطبقة المستغِلة التي أخذت تبرمج المجتمع على خدمة مصالحها في نهب الآخرين، ومن هذه البرمجة كانت ديكتاتوريتها المتوحشة... وهذا يعني:

- تحوّل الملكية المشتركة إلى ملكية خاصة.
- حوّل الديموقراطية الحقيقية إلى ديكتاتورية مستبدة

والسؤال الآن!

- كيف قُلبت المعادلة في العملية التاريخية 180 درجة..؟

تطور أدوات الإنتاج فكّك المجتمع في التشكيلة البدائية، وأفرز الصراع الطبقي، والأقوى في هذا الصراع – بالطبع – الطبقة المالكة وسائل الإنتاج... وبهذه الوسائل «فالتقانة ليست – لسوء الحظ – حيادية من حيث القيم، إنها كتلة من القيم صمّاء وغاشمة تدمّر كل القيم الأخرى التي تواجهها، يقول د. حسن قبيسي في هذا الصدد:

«وكان الأنّاس المعروف ألفرد مترو، قد وضع في الخمسينات من القرن العشرين، دراسة تحت عنوان: ثورة الفأس. وقد تحدث فيها عمّا أحدثه دخول الفؤوس الحديدية على حياة بعض القبائل التي لم تكن تعرف الحديد من قبل. ناهيك بالفأس الحديدية. لقد كان دخول الفأس مدعاة لتخريب نظام مجتمعي بكامله، ونسف نمط حياة كان لا يزال صامداً في وجه أسباب التغيير منذ

قـرون... تغـيرت وتـيرة الحيـاة، وطبيعـة القـيم والتبـادلات والعلاقـات المجتمعيـة والاقتصادية، بل ونصوص أساطير متوارثة منذ آلاف السنين. مما آل إلى حالة تسبب كاملـة مـا لبثـت أن أدت إلى انهيـار فعلـي تفككـت علـى أثـره هـذه القبائل، وتاه أفرادها في الفيافي، وما لبثوا أن انقرضوا، شأنهم شأن جديس وطسم وأهل الرس.

ويخلص الأناس المذكور إلى أن اختلال النظام المجتمعي، الذي يحصل بناء على ظواهر كهذه، إنما ينتمي إلى ما يمكن تسميته «علم أمراض المجتمعات البشرية» الذي لاقى العلماء كثيراً من العنت، وبذلوا كثيراً من الجهد، لتحديد ورصد معالمه. بل أن الباحث المذكور لا يتردد في القول إن هذه القبائل المصابة بالمرض المذكور كانت ضحية وفرة الخبرات التي أتاحتها التقنية الجديدة وليس – كما يسرع إلى بعض الأذهان – نتيجة لادقاع مادي أو اقتصادي. لقد انهار النظام المجتمعي بانهيار مقوماته جميعاً، رغم أن المستوى الاقتصادي كان قد ارتفع، وقد كان تبني الفأس الفولاذية، رغم كونها تقنية أشدّ اتقاناً وفعالية من الفأس الحجرية مرعية الاستعمال (بل بسبب كونها أشدّ فعالية)، هو الذي أدى إلى انهيار النظام المجتمعي، وإلى تفسخ الجماعة» (٤٠).

الفأس الحديدية في أعقاب الفأس الحجرية، ساهم في انهيار المجتمع وتفسخ الجماعة – رغم وفرة الخبرات المادية – بداء «أمراض المجتمعات البشرية». ما أحدثه الفأس الحديدية تحدثه التقانة في المجتمعات الرأسمالية، والسؤال!

- كيف تتغلب الرأسمالية على «مرض المجتمعات البشرية»...؟

الرأسمالية كان يمكن أن تنهار مجتمعاتها وتتفسخ وتلحق بأهل الرس لولا تصريف منتوجاتها في البلدان التي تستعمرها، ليستمر عمل «فأسها» وإبعاد مجتمعاتها عن التفسخ.

إن تطور أدوات الإنتاج، يشكل علاقات إنتاج جديدة... وعلى هذه القاعدة، تغيرت علاقات الإنتاج في التشكيلات الاجتماعية المتعاقبة. وهذا يعني أن

علاقـات الإنتـاج البورجوازيـة سـتتحول إلى علاقـات إنتـاج اشـتراكية في نهايـة المطاف رغم ما تقوم به الإمبريالية من سطو واستعباد.

إذن: تطـور أدوات الإنتـاج يخلـق علاقـات إنتـاج جديـدة «فالآلـة في نهايـة الأمـر محاولـة مـن الإنسـان لمحاكـاة الطبيعـة»[٤١] واسـتيلادها الجديـد، الـذي إذا مـا تراكم كان القاعدة لتشكيلة جديدة، وهكذا «ومع تطـور قـوى الإنتاج تنشأ في أحضان المجتمع القـديم علاقـات إنتاجيـة جديـدة تكـون قطاعـاً معينـاً مـن الاقتصاد. وهكـذا يتم ظهـور أسـلوب الإنتـاج الجديـد(*) في كنـف القـديم. إن أسلوب الإنتاج العبودي يولد في كنف المجتمع البدائي الأول ونتيجة لتطوره. ثم أن أسـلوب الإنتـاج العبـودي يتعلـق بالأسـلوب الإقطـاعي الـذي يظهـر في كنفـه، ومنه إلى الأسلوب الرأسمالي الذي يظهر في كنف أسلوب الإنتاج الإقطاعي»[٤٢].

هكذا، سارت وتسير العملية التاريخية منتقلة من شكل علاقات إنتاج إلى شـكل علاقـات إنتـاج جديـدة.. وبـدأت مـسارها هـذا بعلاقـات إنتـاج الملكيـة المشتركة فكانت كرامـة الإنسان في ديمقراطيـة حقيقيـة وبعد الانتقال إلى علاقات إنتاج الملكية الخاصة.. كان إهانة الإنسان وإذلاله في ظل ديكتاتورية متوحشة... كل هـذا كـان نتيجـة لتطـور القـوى المنتجة(**)، ومـع تغـير مـستوى تطورهـا «يجـب أن تـتغير علاقـات الإنتـاج(***)، وهـذا هـو القـانون الاقتـصادي، الذي اكتشفه ماركس، حول التطابق بين علاقات الإنتاج وطابع القوى المنتجة ومـستوى تطورهـا، إن هــذا القــانون يكــشف الأســاس الاقتـصادي للثـورات الاجتماعيـة. فعنـدما تتـأخر علاقـات الإنتـاج عـن تطـور القـوى المنتجـة وتعرقـل تقدمها، يستعاض عنها، لا محالة، بعلاقات جديدة.

---

* أسلوب الإنتاج: (القوى المنتجة – علاقات الإنتاج).

** القوى المنتجة: (وسائل الإنتاج + الناس الذين يملكون التجربة الإنتاجية).

*** علاقـات الإنتـاج: (أشـكال ملكيـة وسـائل الإنتـاج – العلاقـات بـين الطبقـات والفئـات الاجتماعية في الإنتاج – أشكال توزيع الخيرات المادية).

ففي مجتمع منقسم إلى طبقات متناحرة، يتم دائماً تغير علاقات الإنتاج عن طريق الثورة الاجتماعية. لماذا كانت الثورة الاجتماعية محتمة..؟

لأن الطبقات الاجتماعية التي تتفق علاقات الإنتاج القديمة مع مصالحها، لا تتخلى عن مواقعها طوعاً واختياراً» [٤٣].. أي لا تتخلى عن مصالحها الطبقية. التي تحققت من خلال تطور القوى المنتجة، وبداية هذا وقع في المشاعية البدائية الخالية من الطبقات، حيث «أسفر تطور القوى المنتجة عن زيادة محسوسة في إنتاجية عمل الإنسان وفي سيطرة الإنسان على الطبيعة، ووفر له المزيد من منتجات الاستهلاك. ولكن هذه القوى الجديدة في المجتمع لم يعد في وسعها أن تبقى في إطار علاقات الإنتاج القائمة. فإن إطار الملكية المشاعية الضيق، وتوزيع منتجات العمل بالتساوي أخذا يعوقان تطور القوى المنتجة، ولم يبق أي مبرر لضرورة العمل المشترك، وظهرت إمكانية وضرورة العمل الفردي. وإذا كان العمل المشترك قد تطلب الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، فإن العمل الفردي قد تطلب الملكية الخاصة. وهكذا انبثقت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ونشأ معها التفاوت في الثروة بين الناس سواء بين العشائر أم في داخل العشيرة بالذات، وظهر الأغنياء والفقراء» [٤٤]. وبدأ الصرع الطبقي بين هؤلاء وأولئك.. بين النهابين والمنهوبين، على محور الملكية الخاصة التي شكلت بؤرة الشر على هذا الكوكب وطردت الإنسان من داخل الإنسان... وأصبحت في الرأسمالية وحشاً يلهث وراء بلع بني البشر في إطار ديكتاتورية هي الأعنف في التاريخ. «فالملكية الخاصة – على سبيل المثال التاريخي المتبلور – هي مضمون علاقات الإنتاج التي قامت عليها التنمية الرأسمالية منذ انطلاقتها أوائل القرن السادس عشر وإلى اليوم، إلا أن أشكال هذا المضمون قد تطورت خلال هذه المرحلة الطويلة من عمر الرأسمالية، من الملكية الخاصة الفردية إلى الملكية الخاصة الصغيرة، فالمتوسطة، وصولاً إلى الأشكال الجماعية الكبيرة للملكية الرأسمالية المعاصرة التي مثلها النموذجي هو الشركات المتعددة الجنسيات. أن المنحى البياني لهذا التطور يشير إلى أن «الاشتراكية» بمعيار

الملكيـة الاجتماعيـة لوسـائل الإنتـاج هـي المـستقبل «الحـسابي» للبـشرية»[٤٥] والمستقبل الحسابي هـذا، سيعكس وضعاً جديداً، تكون فيه الديمقراطية الحقيقية هي المستقبل الحسابي الآخر للبشرية، عندئذ تقلب المعادلة، ويصبح «كيسنجر» لا يشعر بالمسؤولية، وتصفي الشعوب حسابها معه بقطع رزقه الحرام.

ثانياً: التشكيلة العبودية!

في المشاعية البدائية، كان المجتمع الخالي من الطبقات... فكانت الديموقراطية الحقيقية المولودة من العدل الذي يلد الكرامة الإنسانية... وما أن تطورت أدوات الإنتاج، حتى دخلت في صدام مع علاقات الإنتاج... فكان المجتمع الطبقي... وكان استغلال الإنسان للإنسان... وكان ديكتاتورية الطبقة المستغِلّة لقهر المنهوبين... وهكذا تحوّلت الكرامة والحرية إلى ذُلّ وعبودية... هذا التحول دفع روسو ليهتف منذ زمن «بأن الإنسان يولد حراً، ومع هذا فهو يكبل بالأصفاد في كل مكان!! إن علاقات الملكية الخاصة هي التي تضع هذه القيود في أعناق الناس»[٤٦]، لمصّ عرقهم من أجل نموّ هذه الملكية، و«حسب نظرية روسو، كان الناس في بادئ بدء يعيشون في ظروف الحالة الطبيعية حيث كان الجميع متساوين، إن ظهور الملكية الخاصة وتطور اللامساواة في الملكية قد اشترطا انتقال الناس من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية، وأدّيا إلى نشوء الدولة المرتكزة على عقد اجتماعي. ولكن تطور اللامساواة السياسية لاحقاً يفضي إلى مخالفة العقد الاجتماعي، وإلى انبثاق حالة طبيعية جديدة. وإزالة هذه الحالة هي من واجب الدولة العاقلة المرتكزة على عقد اجتماعي جديد»[٤٧]. والدولة «العاقلة» التي تعمل على إعادة المساواة في عقد اجتماعي جديد.. هي دولة المجتمع اللاطبقي.. وليس دولة الطبقة المستغِلة التي يتراكز «عقلها» في كيفية نهب الآخرين لتنمية ملكيتها الخاصة أمُّ اللامساواة بين بني البشر... أمُّ الصراع الطبقي. يقول انفلز: «بما أن الملكية

الخاصة تعزل كلاً في وحدته الفظة بالذات، وبما أن لكل فرد نفس المصلحة، التي لجاره، فإن مالك الأرض يواجه مالك الأرض بعداوة، والرأسمالي يواجه الرأسمالي والعامل يواجه العامل. وفي هذه العداوة بين المصالح المتماثلة، من جراء تماثلها على وجه الضبط، تكتمل لا أخلاقية حال الإنسانية الراهن، وهذا الاكتمال هو المزاحمة»[٤٨]... هو الصراع الذي يطرد الإنسان من داخل الإنسان. يقول روسو في «كتابيه «آراء عن أصل عدم المساواة» و«العقد الاجتماعي» طرح التطور الشائع أن الإنسان بدأ حياته وسط الطبيعة في سعادة.. وبظهور الملكية الخاصة بدأت المشاحنات والصراعات وعدم المساواة، وعنها ظهر الكذب والخداع والبؤس»[٤٩]... ومن هذا كله ولد المجتمع الفاسد، يقول روسو: «إن أوّل إنسان أحاط قطعة أرض بسياج وقال: هذا ملكي، ووجد أناساً بسطاء صدقوا ما قاله لهم، إنما هو مؤسس المجتمع الفاسد»[٥٠]، والظالم أيضاً، و«حين نتحدث عن «قدسية الملكية»، فيجب أن نتذكر دائماً أن مثل هذه القدسية لا تسري بالقدر نفسه على ملكية الأرض. لا أحد قد صنع الأرض، إنها الملكية الأصلية لكل أنواع البشر، وملكيتها يجب أن تكون، على وجه العموم، للمنفعة العامة، وحين تكون الملكية الخاصة للأرض ليست للمنفعة العامة، فإن هذا شكل من أشكال الظلم... أن من الصعوبة بمكان أن تولد في هذا العالم، ثم تكتشف أن كل عطايا الطبيعة مملوكة ملكية خاصة»[٥١]، ولم يكن هذا وحسب، بل تكتشف: أن توحش هذه الملكية تجاوز حدود نهب المال الحرام إلى السطو على المحرمات. «وباعتبار أن القوانين المصرية تنقل الملكية من الأم إلى أكبر بناتها، أكثر من نقلها من الأب إلى الابن، فقد يلجأ الأب إلى الزواج من ابنته (وقد تزوج الابن أخته) من أجل منع ثروة الأسرة من الوقوع تحت حكم من خارج الأسرة»[٥٢]، وبمعنى آخر: أصبحت الكبائر من أطيب الحلال عند «الإله المال» من أجل الملكية المولودة من رحم السطو على حقوق الآخرين. يقول برودون: «إن كل عائدات الملكية، الريع، والأرباح، وخاصة الفائدة، كلها أشكال من اللصوصية. ومن ذلك جاءت أشهر

عباراته: «الملكية هي السرقة»[٥٣]... والسرقة لا تحدث إلا إذا فُقدت كل مقاييس القيم والأخلاق... ومن الفقدان هذا، كان «الزواج من المحرمات»... هذا الزواج الذي تجاوز بالإنسان البهيمة شراً... يؤكد ذلك الحكيم زينون الأكبر عندما سئل: «بأي شيء يخالف الناس في هذا الزمان البهائم، قال بالشرور»[٥٤]، وقال «محبة المال وتد الشر، لأن سائر الآفات تتعلق بها»[٥٥].

محبة المال وتد الشر! ما تفسير هكذا كلام..؟

المال الشر... ليس المال الذي يسد حاجات الإنسان، وإنما هو المال (الولود)، الذي يلد مالاً بعد سرقته عمل الآخرين، ومن موقعه هذا، يصبح آفة اجتماعية، وصفها ببراعة (الفاروق) – الخليفة الراشدي الثاني – حيث كان: «يخاف من الثروة ويعدها أساس الشرور الاجتماعية»[٥٦]، وهي كذلك في ركضها وراء بلع الحق... ومن مفرزات هذا الركض كان:

- المجتمع الفاسد: حسب تعبير روسو.
- المجتمع الذي تميز الناس فيه عن البهائم بالشرور: حسب تعبير زينون الأكبر.
- المجتمع الذي تكونت فيه الملكية من السرقة: حسب تعبير برودون.
- المجتمع الذي تصبح فيه الثروة أساس الشرور: حسب تعبير الفاروق

هذه الصورة البشعة لمجتمع الملكية الخاصة المستغِلّة، بدأت مسارها في التشكيلة العبودية... ومع مسارها هذا لم يبق من الديموقراطية الحقيقية غير اسمها... حيث كان الرّق «أول أشكال الاستثمار في التاريخ، وأشدّها سفوراً وفظاظة، وقد وجد عند جميع الشعوب تقريباً»[٥٧]، ووجد معه الصراع الطبقي الذي ولد الدولة، يقول لينين: «إن الدولة هي آلة لصيانة سيطرة طبقة على طبقة أخرى، فعندما كان المجتمع خالياً من الطبقات، وعندما كان الناس قبل عهد العبودية يعملون في الظروف البدائية... أي حين كانت تسود مساواة أكبر، وكانت إنتاجية العمل ما تزال منخفضة جداً، وعندما كان الإنسان البدائي لا يحصل على ما هو ضروري لمعيشته البدائية الخشنة إلا بصعوبة، عندئذ لم ينشأ

ولم يكن بالإمكان أن ينشأ فريق خاص من الناس يتفردون خصيصاً للحكم ويسيطرون على بقية المجتمع. وعندما ظهر الشكل الأول من أشكال انقسام المجتمع إلى طبقات، عندما ظهرت العبودية، عندما أصبح بإمكان طبقة معينة من أناس تمركزوا على العمل الزراعي بأخشن أشكاله أن ينتجوا فائضاً ما من المنتوج لم يكن ضرورياً ضرورة مطلقة للإبقاء على شعلة الحياة في العبد، وكان يقع في يد مالك العبيد، وعندما توطد، بالتالي، وجود هذه الطبقة من مالكي العبيد، ولكي يتوطد، كان لابد من أن تظهر الدولة. وقد ظهرت الدولة، وهي دولة مالكي العبيد، أي الجهاز الذي وضع في أيدي مالكي العبيد زمام السلطة، أي هيأ لهم إمكانية حكم جميع العبيد»[٥٨]، واستغلالهم في إطار علاقات إنتاجية عبودية.. ولاستمرار هذه العلاقات، كان ظهور «بنيان فوقي يختلف نوعياً عن البنيان الفوقي في التشكيلة البدائية التي كانت تعزز علاقات التعاون المتبادل.

ومن أجل حماية علاقات السيد والمسود وإدارة المجتمع تحتاج الطبقة المسيطرة إلى أشكال جديدة ووسائل جديدة. ومن أجل هاتين الغايتين ظهرت الدولة، لأول مرّة في التشكيلة العبودية ومعها كل أدوات السلطة – الجيش، والشرطة، وجهاز الموظفين، ونظام القوانين الذي تحرسه الدولة وتعززه، وظهرت العلاقات الحقوقية والعلاقات السياسية أيضاً»[٥٩].

نعم: من هذا الذي ظهر لأول مرة في التاريخ، قُلبت المعادلة في العملية التاريخية، حيث:

- تحوّلت الديموقراطية الحقيقية في التشكيلة البدائية الخالية من الطبقات... إلى ديكتاتورية متوحشة تمارسها الطبقة المستغِلّة لسرقة عمل منتجي الخبرات المادية وفق شرائع سنتها على قدر.

للدخول في صلب هذا الموضوع، لابدّ من كشف الغطاء عن دور كهنة اللاهوت في دعم الطبقة المستغلّة على طول المسار منذ التشكيلة العبودية، ودعم هذه الطبقة لهم... فكانوا هم هي وهي هم... بحيث أصبحت

الديكتاتورية في مجتمع الاستغلال (ديكتاتورية)٢، من أجل نهب الدنيا.

كهنة اللاهوت يدعمون الطبقة المستغلّة، وتدعمهم هذه الطبقة ليتابعوا دورهم في خدمتها من خلال سيطرتهم على التدين الشعبي بتعاليم وفتاوى تبرر الاستغلال والإذعان للطاغوت.

هذا الدور الذي لعبه كهنة اللاهوت جعل منهم قوة «موجودة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي. فعلى الصعيد الاقتصادي كان لرجال الدين حق معلوم من محصول اللبان ابتداء من جمعه ومروراً بتسويقه وانتهاءً بنقله. وهنا يحدثنا الكاتب الروماني بلينيوس عن الإلتزام الشديد بالمراسم الدينية التي كانت تصاحب جمع اللبان. كما يذكرنا أن أحمال هذه السلعة المجزية كان لا يسمح لها بأن توضع في سوق شبوه (عاصمة حضرموت) قبل أن يحصل رجال الدين منها على الحصّة المخصصة للإله. والشيء ذاته كان يحدث عندما تمر القوافل التجارية بهذه الأحمال في منطقة قتبان، فهنا كذلك كان لرجال الدين حصة من الطيوب لابدّ من الوفاء بها، ولنا أن نتصور مقدار الثروة التي كان يحصل عليها رجال الدين من «حقهم» في هذه الطيوب إذا أدخلنا في اعتبارنا عاملين: أحمدهما هو مستوى البذخ الذي كانت عليه المعابد التي رأينا كيف أنها كانت من نفس مستوى القصور الملكية، والآخر هو الأثمان الباهظة التي كانت تباع بها الطيوب في العصر القديم كما رأينا في مناسبة سابقة، وهكذا قد لا نبتعد كثيراً عن الصواب إذا قلنا أن طبقة رجال الدين كانت، إلى جانب ما تحرقه من هذه الطيوب بالضرورة في المعابد. كانت تحصل على دخل كبير من التجارة التي كان لابدّ أن تمارسها في هذا المجال.

ولعل هذه القوة الاقتصادية هي التي انعكست على الصعيد السياسي في واحدة على الأقل من هذه الممالك العربية الجنوبية، وهي مملكة سبأ، التي رأينا رجال الدين فيها ينتزعون الصلاحيات الدينية من يد الملوك بعد أقل من قرن ونصف قرن من قيام هذه المملكة. لينفردوا بها (منذ حوالي ٦١٠ ق.م) نحو خمسة قرون كاملة، وقد كانت السلطة المترتبة على الصلاحيات الدينية في

العصر القديم هي إحدى السلطات الرئيسية في نظم الحكم في المجتمعات المستقرة. والمركز الذي يتمتع به رجال الدين في ممالك العربية الجنوبية، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية، نجد شبيهاً له في العربية الشمالية في مملكة تدمر. فهنا كذلك نجد رجال الدين على قدر كبير من القوة والنفوذ في هاتين الناحيتين، وعلى سبيل المثال فالكهنة الذين كانوا يقومون على معبد الإله بل (كبير الآلهة) وتابعيه الإله يرحبول (إله الشمس في أحد مظاهره) والإله عجلبون (إله القمر) كانوا لا يسمحون لأحد أن يدخل ضمن صفوفهم إلا إذا كان ينتمي إلى الأرستقراطية التجارية في تدمر، كذلك كانت موافقتهم لازمة لتعيين الموظفين الكبار في الدولة، وهكذا فإن النصوص التي تشير إلى أن الإله يرحبول قد سمّى أحد الأشخاص ليشغل إحدى هذه الوظائف معناها في الحقيقة أن مجموعة هؤلاء الكهنة قد اختاروا هذا الشخص للوظيفة المسمّاة»[٦٠].

الكهنة نهبوا ما نهبوا من المال الحرام... نهبهم هذا أكسبهم العضوية العاملة في نقابة النهّابين... ومن عضويتهم هذه كان لهم الحق:

- عدم السماح لمن كان من غير الأرستقراطية دخول صفوفهم.
- ضرورة موافقتهم عند تعيين كبار موظفي الدولة.

على هذا المفصل أصبح الكهنة (الشطار) شركاء في إدارة المجتمع الذي أصبح بين فكي كماشة:

- طبقة أرستقراطية تنهب.
- طبقة كهنوتية تنهب.

وبين النهبين طُحنت الجماهير طحناً مركباً... حتى ذُلّت وفقدت كل كرامة... فقدت كل شيء ما عدا الجوع الذي أصبح ملكيتها الخاصة المرافقة لها في كل تشكيلات الاستغلال واللاهوت.

الأديان التوحيدية – ما عدا اليهودية – جوهر تعاليمها بسط الحق والعدل بين الناس... إلا أن الكهنة سحبوا منها الكثير من المذاهب والفرق... كانت

من حيث المحتوى أحزاباً سياسية... ومن حيث الشكل فرقاً دينية ليتمكن قادتها من جرّ التدين الشعبي إلى ساحة لعبهم من أجل جرّ الدنيا. وكان الأبرز في هذا اللعب غير النظيف (طبقة فقهاء السلطان)، التي دعمت السلطان، ودعمها السلطان، ومن هذا وذاك كانت (ديكتاتورية)٢، أهانت الجماهير ونهبتها... للدقة في البحث نسأل!

ما هو الدين... ما هو اللاهوت...؟

الدين غير اللاهوت... فهذا الأخير هو: مجموعة الأفكار، التي نسجها الكهنة ليدركوا بها جمع الحطام منذ ظهور المجتمع الزراعي، حيث «ظهر معه المجتمع المركب، المتفاضل في التنظيم العائلي، والمتفاضل بسبب ظهور الطبقات والمقامات، مع ظهور وظائف وأدوار متعددة ومتخصصة. ومن هنا ظهرت ضرورة تنظيم سلوكيات تعاملٍ وحوارٍ تتطلب ظهور وكيلٍ أو نائبٍ مستقل عن آنية التعامل ومقترن بنمط فكري مسبق له، بقدر ما أصبحا، أي التعامل والحوار، بمنظومات مترابطة ومتماسكة، وإلا ارتبك تنظيم المجتمع ومن هنا ظهرت المنظومات الفكرية اللاهوتية، التي طوّرت مفاهيم الأديان والأساطير وجعلت منها نمطاً فكرياً لاهوتياً.

يتحوّل نمط الفكر الديني ويغدو نمطاً لاهوتياً، بعد أن يمرّ بحالة تنظيم تجعله بمثابة منظمات فكرية مغلقة، مدعمة بتنظيمات متفرغة ومتخصصة، تصنع المفاهيم والأدلوجات، وتسهر على نشرها والإلتزام بها. اللاهوت حديث العهد، إذ لم يظهر للوجود إلا مع ظهور المجتمع المركّب، وقد تطور وأصبح مركّباً طرداً مع تطوّر المجتمع الزراعي.

ومع ظهور المجتمع الزراعي وبسببه، ظهرت مقوّمات تكونه، وهي المقوّمات التي بتفاعلها وتداخلها وتطوّرها... أخذت تنظم سلوكيات أفراد الجماعة، ونذكر من أهمها:

١- الفائض في الإنتاج، الذي أتاح ظهور التخصص، والتفاضل، والاستثمار بفائض الإنتاج، واحتكار سلطة إدارة تنظيم المجتمع، واستلاب

الفرد من إرادته.

٢- الاختصاص. عن طريق الاختصاص انتقل التعامل التقني والإنتاجي والإداري والغيبي، من كونه هاوياً – لا متفرغاً، وتلقائياً – لا منظماً بمنظومة أو مرتبطاً بها، وفي علاقات شفافة بين أفراد الجماعة، إلى مصالح محدّدة يتفرد بها الفرد المتخصص، سواء أكان الحاكم، أم اللاهوتي، أم الحرفي، أم المزارع الفلاح. فظهرت من تكوّن هذه الاختصاصات مصالح مستقلة في متطلباتها، وتقاناتها واستثمارها بموقع معيّن في المجتمع، بقدر ما كانت تستأثر كل من هذه المصالح بمقدار من الفائض المحقق، فتسعى كل منها إلى الحفاظ على ما استأثرت به: مادياً، فكرياً أو معنوياً. ولذا، فقد نظمت نفسها على شكل فئات متفاضلة، أو انتظمت في فئات ومنظمات شديدة الانغلاق في إدارتها وتفاضلاتها وجاهاتها المقامية. ومن هنا تهيأ الظرف الاجتماعي لظهور التنظيم والفكر اللاهوتي. إن الفرق الجوهري بين الدين في المجتمع ما قبل الزراعة والتنظيم اللاهوتي، هو أن الأول، الدين، لم يُدعم بمنظومة متفرغة ومتخصصة، ولها مصالح مستقلة عن مصالح الجماعة عامة، أي أن مصالح الأفراد الذين يقومون بوظيفة القيادة المعنوية والغيبية نيابة عن أفراد الجماعة كانوا يؤدون أدوارهم القيادية بسلوكيات شفّافة بالنسبة لباقي أفراد الجماعة.

٣- كانت هناك في المجتمع ما قبل الزراعة كضرورة بيولوجية، سيطرة أبوية، من قبل الأم والأب على الأطفال والأحداث، وكانت وظيفة هذه السيطرة تدريب الطفل على مواجهة متطلبات البيئة، وتلقيته المعرفة المتراكمة التي بحوزة المسنين وذوي الخبرة، إلى أن يشبّ عن الطوق. لكن، ما أن ظهرت الزراعة، واكتسبت الأرض قيمة مادية، وهيمن الرجل على الأرض، وعمل فيها واستصلحها، ودافع بقوة ذراعه عن حدودها وملكيتها، حتى اكتسبت الأرض قيمة مادية ومعنوية بالنسبة إليه، وأصبح مالكاً لها، بعد أن كانت مشاعة في مجتمع الصيد، فأصبح الرجل بموقعه هذا الجديد، مالكاً يحمل هماً جديداً، ألا وهو نقل الملكية إلى ذريته دون غيرها، ودون أدنى شك... ومن هنا تولدت

هيمنة الرجل المطلقة على أفراد العائلة، أي السلطة الأبوية. فابتدع عقد الزواج، أي إخضاع سلوكيات تناسل المرأة لإرادته، ليطمئن على انتقال مأمون للملكية الأرض، وتؤكد النصوص اللاهوتية على حرص الرجل المالك على انتقال الملكية إلى ذريته الحقيقية (...) ومع تقدم المجتمع وتوسّع تركيبه، تطورت هذه الهيمنة الأبوية إلى هيمنة لسلطة التفاضل الاجتماعي الطبقي والجاهي، مدعّماً بتنظيم تراتبي Heirarchial على مختلف صعد تكوين المجتمع.

ومع تبلور هذه المقوّمات المكوّنة للمجتمع الزراعي وترسخها، رسّخت المنظمات اللاهوتية وظيفتها وموقعها في تنظيم المجتمع... فلعبت دوراً فعّالاً في الهيمنة على فكر المجتمع، خاصة حين كانت متداخلة مع السلطة الحاكمة، وحين كان يدعم كل منها الآخر، ويمنحه شرعية، لممارسة هذه الهيمنة، فاصطنعت لها منشآت متعددة وضخمة، خصصت لسكن قادتها وحاشيتها ومراقد لآلهتها ومزارات لهم، كالمعابد والأضرحة وما إليها.

- مقارنة نمط الفكر اللاهوتي مع الأمثال:

تعرض منظمة Organisation اللاهوت نمط فكرها، أو تعرض النصوص التي تصطنعها كما لو كانت المعرفة التي تتبناها وتنشرها وتلتزم بها، تطابق بفحواها الحقيقة مطابقة مطلقة، ويعتبرها الجمهور المؤمن كذلك، لأن مصدرها أو مرجعيتها، في مخيلته، هي قوى فوقية، إلهية.. ولذا فهي مفاهيم جبرية ومُلزمة، ومسلّماتها غير قابلة للتعديل أو الرفض أو المساءلة، وبالتالي لا يجوز إنكارها أو إهمالها مطلقاً.

إن الإلتزام بهذه النصوص اللاهوتية واعتبارها مطلقة، هو، في الواقع، نكران حق إرادة الفرد في مساءلة واقعية النص أو جدواه. وهكذا يكون الفكر أمام النص مستلب الإرادة. ويتصف هذا الاستلاب اللاهوتي لإرادة الفرد بالاستلاخ، أي أنه استلاب لا يعيه الفرد المستلب الإرادة، وهو في الوقت عينه استلاب مقبول ومرغوب من قبل الفرد المؤمن، إن الفرق الجوهري بين الهيمنة على الفكر وإرادة الفرد، من قِبَل رجل الدين الهاوي، في المجتمع البدائي،

مجتمع الصيد، ورجل اللاهوت المتخصص في مجتمع الزراعة، هو أن الهيمنة عند الأول شفافة وعفوية، بينما هي عند الثاني منظمة ومحببة ولا يتبحرها إلا العراف، رجل اللاهوت.

إن تسخير إرادة الفرد – الإنسان العاقل، في تنظيم سلوكيات معاشه، هي حالة بيولوجية طبيعية كانت تطورت مع تطوّر فكر الإنسان العاقل، إذ من دون تسخير إرادته في تعامله مع البيئة تعاملاً متوافقاً مع متطلباتها، لا يتمكن الفرد الإنسان من اتخاذ قرارات يستطيع بموجبها أن يجابه متطلباتها وبالتالي تأمين بقائه. إنها حالة بيولوجية يتفرد بها الإنسان العاقل عن جميع الحيوانات الأخرى، لأنه كان قد فقد، في مراحل تكوّن الفكر العاقل، معظم استراتيجيات سلوكيات التعامل، لذا أمسى تسخير الإرادة في التعامل، في كل تعامل يومي، ضرورة بيولوجية لابدّ منها لتأمين البقاء، فأصبح الفرد المستَتْبَع لإرادة منظمة اللاهوت، اللاهوت الذي أخذ يؤلّف غالب أفراد المجتمع، فرداً لا يسخّر هو إرادته، بل تسخّر إرادته تلك المنظمة المستَتْبِعة لإرادته. وهذه العلاقة بين وظيفة الفكر لدى الفرد والهيمنة عليها، سببت خللاً جوهرياً في وظيفة العقل وفي آلية تشغيله في مواجهة متطلبات المُعاش، وهو خلل لا سابق له منذ أن تكوّن عقل الإنسان العاقل، ولم يظهر إلا مع ظهور الفائض والاستئثار به من قِبَل فئة من الجماعة، دون غيرها. فكان لابد للفرد الإنسان المستلب الإرادة، من أن يعوّض هذا الخلل، وإلا ارتبك العقل، وارتبك التعامل وتعرض البقاء نفسه للخطر. فأقدم واختار حلاً لفقدانه تسخير إرادته، هو الخضوع لإرادة فردٍ آخر، لإرادة مستَلِبة لإرادته، أخذت على عاتقها أن تقوم بوظيفة تنظيم إرادته المستلبة والخاضعة لهيمنتها.

وبما أن اللجوء إلى هذا البديل هو ملافاة للخلل الذي حلّ في وظيفة إرادة الفرد المستلب، فقد تمّ قبوله، وكان هذا قبولاً وخضوعاً عن طيب خاطر، ولم يكن له من بديل آخر، فقُبِل به براحة بال، لأنه خضوعاً هيأ للفرد تعاملاً منظماً له قِبَل الآخر، دون أن يستخدم هو إرادته، طالما أن هذه الإرادة مستَلَبَة

أصلاً، وهنا مصدر تحوّل الاستلاب إلى استلاخ وصيرورة هذا التحوّل النوعي في استتباع الإرادة.

ويعني ذلك أنه بهذا الاستلاب للإرادة، تكون الإرادة قد نقلت مسؤولية القرار إلى جهة غير ذاتها، وهذا يُهيئ لها، في بعض حالات المواجهة، الاطمئنان الذاتي وراحة البال، ولا سيما حين تكون الإرادة المهيمنة على إرادته فوقية ومتعالية، أي إرادة إلهية. وهذه هي وظيفة المنظمة اللاهوتية، كما هي وظيفة القائد «الكاريزمي» في تنظيم إرادة الجمهور. وما يدعم هذا الاطمئنان لحالة الاستلاب لإرادة الذات تصوّر المخيّلة، وهو تصوّر بأن الإرادة التي تنظم سلوكياتها، وتهيمن على ذاتها، عائدة إلى قوى جبّارة قادرة على كل شيء بقدر ما يكون الفرد مؤمناً بها، ومقتنعاً بجبروتها وبكمال عقلها، يخوّلها في مخيّلته، مسؤولية حمايته ودعم سلوكياته وتنظيم متطلباته المعاشة. إذ بهذه العلاقة المستّلِخة لإرادة الفرد، تصبح هذه القوى الخارجية، قوى مُحتمة. وفي علاقات مُستّلِخة كهذه، لا يكون للفرد خيار في الانتقاء من النصوص اللاهوتية أو تغييرها أو اعتماد بديل لها.

ويرجع الإنغلاق في الفكر اللاهوتي، وقبول المستَلَب الطوعي للنصوص اللاهوتية ومفاهيمها إلى سببين رئيسيين.

أولاً: لأن المعرفة التي تقدّمها وتحملها، تعتبر متكاملة، أو اكتملت باكتمال النصوص، لذا فلا سبيل معها للمساءلة أو التعديل أو التبديل، فهي مقوّمات ثابتة، تتجاوز الزمان والمكان.

ثانياً: لأن النصوص كانت قد قُبِلَت من جانب إرادة الفرد المستَتْبَع، وقُبلت بفحواها المعطى لها من قبل الإرادة المستلخة لإرادته، وقُبلت كبديل لإرادته هو، فتصبح بهذا القدر مقوّمات ثابتة ومستقرة في هويته، ولأنها ثابتة ومستقرة، فإنها تشكل مصدر اطمئنان وراحة بال. وباعتماد هذه المفاهيم مقومات في تكوين هوية الفرد، تصبح مصدر استقرار لهوية الفرد، وتبعاً لذلك مصدر استقرار للمجتمع ولتضامن أفراده. ولذا، فإنها أي محاولة، لتغيير هذه

المقومات ستغدو عاملاً يُربك هوية الفرد، وخاصة ذلك المحافظ الذي لا يمتلك في مخيّلته مقومات بديلة لها، أو لا يتصور أن هناك قدرة على إحداث بدائل.

وهكذا، بقدر ما يكون الفرد مؤمناً بالأدلوجات اللاهوتية، ويعتبرها مقدسة، أي عليائية، يكون بالقدر نفسه مستلخ الإرادة، وبهذا القدر تصبح مقومات هذه النصوص مقومات مُستلخة في هويته كموقف فكري من مختلف الظواهر الاجتماعية والطبيعية»[٦١].

وهكذا كان في المجتمع (العبودي – الزراعي):

- ظهور دولة الطبقة المستغِلّة، هذا أولاً.
- ظهور اللاهوت المتخصص وكهنته المتفرغين، هذا ثانياً.

ومن (أولاً وثانياً) تشكلت ديكتاتورية (طبقية – لاهوتية)، أحدثت تغيّراً كيفياً في البنية التحتية والفوقية للتشكيلة البدائية، حيث كان:

- المجتمع الخالي من الطبقات.
- الديموقراطية الحقيقية.
- اللاهوت غير المتخصص، وكهنته غير المتفرغين، لعدم وجود مصالح مستقلة لهم عن مصالح الجماعة... أي كانت القوى الدينية «ليست سوى التعبير المؤكد عن العقل الجمعي، أو هي العقل الجمعي أو هي العقل الجمعي في صورة مبادئ غيبية»[٦٢].

أقول: ظهور الطبقة المستغِلّة رافقه ظهور اللاهوت المتخصص، فدعم هذا ذاك فكان (ديكتاتورية)٢.

اللاهوت المتخصص دعم النهّابين باستلاب المنهوبين إرادتهم... وبسلبهم الإرادة هكذا، اعتبروا استغلالهم من طبائع الأمور... وهذه أكبر خدمة قدّمها اللاهوت للطبقة المستغلّة، وبها، طُمست معالم ديكتاتورية النهابين المتوحشة في إذلال الإنسان وإهانته وسرقة لقمة عيشه... بل الأنكى من ذلك اعتبار هذه الديكتاتورية (رحمة)، الشكر عليها فرض عين. أقول: قدرة اللاهوت المتخصص على استلاب إرادة الإنسان، ولدت من رحم قدرة اللصوص على

استلاب عمله... فشكلت هذه مع تلك قدرة مركبة أفرزت ديكتاتورية مركبة... وما كان لمثل هذا التركيب أن يكون، لولا تحول لاهوت العقل الجمعي إلى لاهوت (متخصص – طبقي) تحولاً «تدريجياً إلى أداة روحية رئيسية لاستعباد الجماهير»[٦٣]، استعباداً مستحباً رافضاً الجدل في حقيقته، ولمثل هذا، فإن اللاهوت المتخصص «يبرّر التناقض أو يؤوّله، بينما يسعى الفكر العلمي والفلسفي إلى إظهاره وبالتالي إلى تجاوزه»[٦٤]، ورغم سعيه هذا، بقي اللاهوت فارس الساح... فاللاهوت المعبّر عن العقل الجمعي في التشكيلة البدائية... استخدمته الطبقة المستغِلّة في المجتمع الطبقي لخدمة مصالحها الطبقية، بعد أن أدخل الكهنة المتفرغون عليه مفاهيم خلال تطور طويل، جعلوا منه لاهوتاً متخصصاً ومبرمجاً على خدمة الاستغلال... ومن التطور التدريجي والبطيء لمفاهيم الكهنة، وبحكم العادة وقوة الاستمرار كانت قوة اللاهوت على استقرار الإيمان به... ومن قوته هذه جاءت قدرته على تبرير التناقضات وتأويلها لصالح استمرار مصالح الطبقة المستغِلة. يقول نهرو: «إلا أن منظر ما يجري باسم الدين أو ما يدعى بالشعائر الدينية في الهند وغيرها قد ملأني بالهول والتقزز، بحيث أنني شجبت عدّة مرات هذه المهازل التي تمثل باسم الدين، ورغبت أن أنظف الهند منها تنظيفاً كاسحاً سريعاً، فالدين بصورته تلك يكاد يبدو دائماً مضارعاً للإيمان الأعمى والرجعية كما يكاد يتبلور في العقائد اليقينية (الممنوع الجدل فيها) وفي التدين المزمن،

ويكاد يبدو غالباً علماً على الخرافات وعلى استثمار الإيمان وعلى الجهد الدائم للحفاظ على مصالح الطبقات المهيمنة. هذا مع إنني أعلم أن في مفهوم الدين شيئاً آخر أنبل وأسمى، يمد الإنسان برجاء باطني عميق. وإلا كيف يتمتع الدين بتلك الطاقة الهائلة، على أن يغدق السلام والعزاء على ما لا يحصى من الأرواح المعذبة.

وهل يكون ذلك السلام مجرد ملجأ من صنع الإيمان الأعمى وانعدام السوء ومجرد اطمئنان ينبع من شعور الإنسان الآمن بأنه في ذلك الملجأ أمين على

نفسه، ومحمي من عواصف البحر؟ أو أنه شيء أكثر من ذلك؟

لا شك أن ذلك السلام الروحي هو في بعض الحالات شيء أكثر من شعور بالاطمئنان وليد الإيمان الأعمى والتسليم.

ولكن الشعائر الدينية مهما كانت مجيدة في ماضيها، تكاد في معظمها تكون اليوم خالية من المحتوى الحقيقي... ومن القيم الفعلية. وأذكر أن الأديب الإنكليزي تشيسترتون قد شبهها بقوقعة متحجرة لها شكل حيوان أو شكل جهاز عضوي، ولكنها فقدت كل مادتها العضوية مع احتفاظها بشكلها بفضل امتلائها بمادة تختلف كلياً عن مادتها الأساسية، وحينما تكون قد بقي فيها شيء ذو قيمة فإنه يكون محاطاً بمحتويات غريبة وضارة.

يبدو أن هذا هو ما جرى لدياناتنا الشرقية، وكذلك للديانات الغربية، ولعل الكنيسة الإنجيلية هي أوضح مثال على الدين الذي ليس ديناً بأي معنى حقيقي من معاني كلمة الدين.

إن هذا الكلام ينطبق جزئياً على كل الشيع البروتستانتيه، ولكن الكنيسة الإنجليكانية ربما قد تكون ذهبت في ذلك إلى أبعد من غيرها، فمنذ زمن طويل تحوّلت إلى دائرة سياسية حكومية، ومع أن كثيرين من رجالها كانوا على خلق عظيم رفيع فإن ما يثير الانتباه أن يدرك المرء مدى الخدمة التي آدتها الكنيسة لغايات الاستعمار البريطاني»(٦٥).

إذن: الكهنة المتفرغون لنسج اللاهوت المتخصص (أدّوا الأمانة):

- خدموا الطبقات المهيمنة في تعبيدهم طريق نهبها.
- خدموا الاستعمار في نهبه وإذلاله للشعوب.

هذه الخدمة - غير المباركة - تعني في أساس ما تعنيه دعم ديكتاتورية الطبقة المستغِلة في سبيل تحقيق مصالحها... وما يقوله الكهنة من حلو الكلام لخداع الجماهير لم يتعدّ في محتواه حدود هذا الدعم. يقول نهرو: «إن النظرة الدينية تبشر بالسلام، ومع ذلك تؤيد أنظمة وأجهزة ما قامت إلا من أجل العنف... إنها تشجب العنف والأخذ بالسيف... ولكنها لا تفعل شيئاً حيال العنف

الذي يأتي هادئاً وغالباً متنكراً بثوب المسالمة ليجمع الناس ويقتلهم... وأسوأ من ذلك لينتهك العقل ويسحق الروح ويحطّم القلب من دون أن يحدث ضرراً جسدياً ظاهراً»[٦٦].

نعم: اللاهوت المتخصص في مجتمع الاستغلال أصبح أداة لاستعباد الجماهير، ووضع كهنته المتفرغون أنفسهم في خدمة النهّابين المتعاقبين في كل التشكيلات الاجتماعية المتعاقبة، ودعموا ديكتاتوريتهم المتوحشة «بل أصبحوا من دعائم بقائها وتثبيتها حفظاً لمصالحهم ولمصالح حلفائهم من أرباب السلطة. هكذا كان رجال الكنيسة في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى حلفاء الأباطرة والملوك والأمراء وأتباعاً لهم، وإن هم خاصموهم، كما حدث بين الباباوات والأباطرة، فهو خصام على النفوذ والحكم والسيطرة، لا من أجل التحرير والإصلاح، وهكذا نراهم أيضاً: يحالفون رجال الإقطاع ويساندونهم، وعندما انتقلت السلطة من هؤلاء إلى التجار والصناع والرأسماليين، تحوّلت محالفة رجال الدين إليهم، فسندوا أنظمتهم ومؤسساتهم بالتعليم والتبشير والممارسة»[٦٧]، وبكل هذه الأسلحة وغيرها، خدم الكهنة النهابين فأدركوا... ولكثرة ما أدركوا دخلوا نسيج الطبقة المستغلة في كل زمان ومكان «وعلى العموم، بقيت المركزية، هي الأساس في التقسيم الطبقي القائم على اتفاق غير مكتوب لطبقة على أخرى... طبقات مستغِلة، وأخرى مستغَلة، الأولى: تضم الأسرة المالكة والإقطاعيين والتجار وكبار الضباط، ثم رجال الدين من الكهان. والثانية: تضم بقية طبقات الشعب من الصناع والزراع والحرفيين والعبيد»[٦٨].

الكهنة: ليسوا من طبقات الشعب... لماذا...؟ لاهوتهم الذي نسجوه على قدر، وسلبوا به إرادة هذه الطبقات، ودفعوا بها طائعة لخدمة ناهبيها... هذا اللاهوت هو الذي قبضوا ثمنه من الطبقات المهيمنة... وبهذا الثمن خرجوا من صفوف الشعب إلى صفوف أعدائه، وفي هذه الصفوف الأخيرة، تسابقوا مع حلفائهم على ذروة هذا العداء بما ملكوا من قوة، وهذا «هو ما وصل إليه رجال الدين

في العربية الجنوبية من سطوة تحوّلوا معها إلى طبقة لها امتيازاتها الواسعة التي كانت تزحف على سلطات الملك ذاته في بعض الأحيان (...) وقد كانت هذه السطوة التي تمثل بها رجال الدين تساند الطبقة الأرستقراطية من محتكري امتلاك غابات الطيوب والتجارة في نتاجها»[٦٩].. تساندها على مبدأ (شيلني تشيلك)، ووفق هذا المبدأ الدوني تساند الأرستقراطيةُ الكهنة بحصة من المنهوب، لإدراكها بأنهم يشكلون أداة تجهيل وتضليل للجماهير.. وبهذه الأداة تبقى الجماهير تغط في سبات عميق وسط رقياتها وتعاويذها تاركة... عرقها المقدس نهباً للطغاة... تغط هكذا بعد أن استلب الكهنة وعيها وزرعوا في نفسها الرعب والخوف من المجهول، حتى ارتمت في أحضانهم ملتمسة طريق النجاة عبر بركتهم والتبرك بهم: «توماس هوبس، صاحب نظرية التضليل الواعي، مثله مثل ديموقريطس وإن بشكل أعمق وأوسع، اعتقد أن الجهل مضافاً إليه الخوف هما اللذان يكمنان في أساس الدين. والسلطات حسب قول هوبس، تستفيد من هذه الحقيقة بشكل واعٍ من أجل بلوغ أهدافها، فالسلطات لا يخفى عليها أنه بفضل الجهل والخوف يسهل صنع العبيد من الأحرار، وتعلم أيضاً أن من دونهما ما من أساس آخر للدين، ومع ذلك تشجعه تلبية لمصالحها»[٧٠]، التي نشأت مع ظهور الطبقات... ولتلبية بتقانة، ظهر اللاهوت المتخصص الذي حوّل الأحرار إلى عبيد وطمس منبع الاستغلال. هذا الدور الكهنوتي ضرب على الوتر بدقة وتقانة... ولشدّ العقدة أكثر احتلّ (السلطان) ذروة اللاهوت، حيث جلس على عرش (الإله) بمباركة الكهنة، على هذا المفصل، أصبح النّهب «واجباً مقدساً» تقدمه الجماهير وهي لا تريد عليه سوى رضا (الملك – الإله) وكهنته الذين يحطبون في حباله. «فقد كان للميثولوجي والثيولوجي – العقيدي، الدور الأكبر في تحديد التقسيم الطبقي، وفئاته، ومهامه»، ووقعت الحضارات الشرقية، تحت هذا التقسيم، الذي انطوى على مداهنة وتواطؤ ثيولوجي – عقيدي وسياسي ضدّ الطبقات الأخرى. فقد كان للكهنة الدور الأكبر في خدمة الساسة والملوك. ومن خلال التبريرات الدينية

التي قدمت لتخدم مصالح طبقة الملوك والقادة. فالملوك (نواب) الآلهة في الحكم، يحكمون (بتفويض) رسمي من الآلهة، ويعملون من أجل استرضاء هذه الآلهة، ونيل عفوها ورحمتها، لهم وللشعب الذي يحكمونه.

وبذلك، كانت طقوس الكهنة في مراسيم التسليم، هي الورقة الأولى لدخول الملوك عالم الآلهة والميثولوجية. أي عالم السيادة الدينية والدنيوية»[٧١].

«وتشير الدراسات التاريخية، المبنية على الحفريات الأثرية، إلى أن نظام الإقطاع، هو التشكيل الاقتصادي المركزي الأول، الذي انبثق عن المشاعية البدائية لعصور ما قبل التاريخ. والذي وجد في الحضارة السومرية – كأس اقتصادي أول. إذ كانت العقارات الثابتة تسجل في الوثائق الإدارية. وكان على أصحاب الأرض تقديم نصيب من الغلة إلى الدولة لأن الأرض للآلهة التي قيّمت الملوك على إدارة شؤونها»[٧٢]، بصك توكيل عبّر عنه كهنتها في مراسيم تنصيب هؤلاء الملوك، وقد أوضحت «النقوش والكتابات أن ملكية الأرض في بلاد اليمن، كانت مبدئياً للآلهة، أما «المكربون» و«الملوك» فليسوا سوى خلفائهم عليها، والمسؤولين عنها، وعن تطبيق أوامر الآلهة ونواهيها بين الناس، وبشأنها.. وقد تصرف «الملك» أو «المكرب» بهذه الأرض، فغدت إما «ملكية للدولة» وتقوم الدولة بإدارتها واستغلالها وذلك إما بإقطاعها أو كرائها، أو «ملكية للملك» ويستأجرها كبار الناس، وهؤلاء يؤجروتها بدورهم لمن هم دونهم، ويكسبون من فروق الإيجارين، أو «ملكية للمعابد» وكانت واسعة، ويقوم باستغلالها الفلاحون استئجاراً، أو عمالاً بالأجر، أو «ملكية خاصة» أقطعت لكبار رجال الدولة المتنفذين، وللمحاربين، إقطاع تمليك دائم أو لأجل»[٧٣]، وكل هذا جرى بسلاح اللاهوت المتخصص في خدمة النهابين في المجتمع الطبقي... حيث «قامت الثيولوجيا العقيدية، ومن ورائها الميثولوجيا بدور كبير، في إرساء نظم الحكم السياسية لمنطقة الشرق العربي. فلم تكن الثيولوجيا الدينية، أكثر من خادمة لنظام الحكم، ومبررة له، عبر الموجود الميثولوجي الخلقي كأداة، فقد أنزل السومريون الآلهة إلى الأرض، وأقاموا لها

المعابد وجندوا الكهنة، لكي تحيا في وجود اجتماعي، رسمي وشعبي. وبسبب من روحانية هذه الآلهة (لا ماديتها)، كان لابد لها من تجسيد مادي في الواقع، يتجاوز ماهيتها (الروحانية) كممارسة، فخرج الكهنة بمفهوم (النيابة). ووضعوا الملوك (نواباً) للآلهة يسيرون هذا العالم، بقوة الآلهة، فالملك يستمد وجوده من الإله. بل إن الأمور تطورت إلى الحد الذي أصبح فيه وجود الآلهة رهناً بوجود الملوك، وموافقة الكهنة المتواطئين. فاستغاثت الآلهة دون جدوى، وفقدت مركزيتها كفعالية مباشرة، وأصبحت تحكم عبر الملوك. بل إن الأمور تجاوزت ذلك، إلى حقل الممارسة الإنسانية كقيمة اجتماعية – أخلاقية، في آن معاً، فقد برّر الكهنة للملوك كل ممارساتهم، السلبية والإيجابية، بصكوك الغفران، فالأفعال الجيدة والسيئة هي من الآلهة. مقدرٌ لها سلفاً أن تحصل، وسلوك الملوك السلبي والإيجابي، الجيد والسيئ، يتحمل مسؤوليته الآلهة، ويتلقى نتائجه الشعب. فنقمة الملك على الشعب، نقمة من الآلهة على الشعب، إنها قدرية جبرية في أكثر صورها زيفاً وخداعاً»[٧٤]، وعلى محور هذا الزيف والخداع تقوم (ديكتاتورية)؟.. الغريب فيها، تحوّل طغيانها بآلية اللاهوت إلى (رحمة إلهية) يجب الشكر عليها – إذ لا يجوز بحق الآلهة سوى الشكر – وبهذا الشكر تدوم مصالح الملوك في نهب الآخرين... هؤلاء الملوك الذين يصفهم الفارابي حيث يقول: «يكون كل واحد منهم إنما يدير المدينة التي هو مسلط عليها ليحصل هواه وميله»[٧٥]، وهواه وميله في ملء كرشه بالمال الحرام، بعد أن جعله اللاهوت أطيب الحلال... وبعد أن صرف أصحابه الشرعيين عن التفكير فيه إلى التفكير بالمجهول، حيث جاء في كتاب كهنة الهندوس: «السعادة لا سبيل لها في هذا العالم الذي خُلِقَت كل نفس فيه لتموت، كل شيء في هذا العالم سائر إلى الزوال والفناء، مسرات هذه الحياة ليست إلا خداعاً وأوهاماً، وقد سقطت الأفراح على الأحزان، أجل لم يشترنا أحد كما تشترى العبيد، ولكننا نعمل كأننا عبيد مسخرون»[٧٦]... مسخرون لخدمة الملك (الإله)، إذ «خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك لا

تحتقـرن ملكـاً وإن كـان طفـلاً رضـيعاً، لأنـه إلـه في صـورة إنـسان فـوق الأرض»[٧٧].

يا إلهي!!

الملك إله في صورة إنسان – العياذ بالله – والسؤال!

– كيف آمن الناس بهذا الهذيان...؟

من رحم المجتمع الطبقي ولد اللاهوت المتخصص لخدمة الطبقة المهيمنة، واستطاع كهنته المتفرغون بما نسجوا من أساطير وأوهام امتلاك العقل وبرمجته على تأدية الخدمة لمستغِلّيه... ولخدمة بتقانة جاء تأليه رأس الطبقة النهاية (الملك – الإله).. وجاء سوق الناس بعصا اللاهوت السحرية لطاعته وطلب مرضاته وقطع رقبة من يعصاه.

الجينية: قالت هذا رأد الضحى فأحبها الحكام والملوك. «إن الجينية مع إنها لا توقع أذى بذي روح توجب أن يطيع الشعب حاكمه، وتقضي بذبح من يعصي الملك أو يتمرد عليه، ولعل هذا هو الذي جعل الملوك والرجاوات يقبلون على الجينية يعتنقونها ويؤيدونها سواء في وادي الأندوس أو في الدكن.

وفي ابتداء العصور الوسطى حصلت للجينية رعاية من كثير من الملوك والحكام»[٧٨]... حصلت على ذلك بعد أن وجد فيها الحكام والملوك خير غطاء لطغيانهم ونهبهم، «وفي الهند – حيث نظام الطبقات – كان الشودرا (Sudra) والمنبوذون (Outcasts)... يمثلان الغالبية العظمى بين السكان الأصليين للبلاد، وكانت هاتان الطبقتان تكوّنان طبقة العبيد، وكان للبراهمة (الكهنة Brahman) الحق في أن يأخذوا من مال الشودرا ما يشاءون، فهذه الطبقة وأفرادها ملك خالص للبراهمة، أما طبقة المنبوذين، فلم يكن لها الحق أن تملك شيئاً، وكان من التفضل على أي من أفرادها أن يمتلكه أحد، وأن يخرجه من طبقة المنبوذين إلى المجتمع.

أما عند الفرس، فقد انتشرت نظرية الحق الإلهي وأصبحت عقيدة مرعيّة عند الجميع، وبمقتضى هذه النظرية اعتقد الملوك – واعتقد الناس معهم – أن

دماً من دماء الآلهة، تجري في عروقهم، وإنهم لذلك طبقة أخرى غير طبقة البشر، وأن من سواهم عبيد لهم، ولا ينال الشعب الرحمة من الآلهة إلا إذا رضي عنه الملوك، وعلى هذا يمكن القول إن سكان فارس كانوا آلهة وعبيداً»[٧٩]... كانوا هكذا في اللاهوت المتخصص لطمس حقيقتهم الموضوعية التي تقول: أنهم كانوا ناهبين ومنهوبين.

اللاهوت المتخصص بعد أن امتلك العقل قلب المفاهيم... فجعل الطغاة (قدس الأقداس)... وجعل المسحوقين (أشباه آدميين)... وعلى هذه القاعدة الدونية من فكر اللاهوت «نلاحظ وجود نظام اجتماعي يدعمه الدين في أولى مستويات المسؤولية في الإدارة، أي على مستوى الناحية، فقد أدّى دعم القوى الدينية القوية هناك أيضاً إلى تعزيز المكانة شبه المقدسة لحاكم الناحية نفسه. فقد كان في كل مدن الصين آلهة للمدن لهم معابد يتوجه لها الحاكم عند وصوله لتحية مسؤوليها الروحانيين»[٨٠]... لتحية من جعلوا من تسلطه «قداسة»، ومن نهبه الناس «آية الخير والبركة» ولمثل هكذا معادلة، عُبد الميكادو، حيث كان «رجال قبيلة «يماتو» أشدّ الناس إحياء لتوقير السلف من القبائل، وهم الذين صاروا أسياد اليابان فيما بعد، وكان زعيمهم المعروف بالميكادو مركز دينهم وعبادتهم. ثم زعموا أن الشمس تمُت إليهم بصلة القربى، ومنها تحدّر الميكادوا، فحسبوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض، وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة «يماتو» لها خير ممهد لهذه العقيدة الجديدة. وفعل رجال «يماتو» كثيراً في تبسيطها وتقريبها إلى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آلهة صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الفاتحة... وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير في وجود توقير يكاد يبلغ حدّ العبادة لشخص الإمبراطور»[٨١]، وحدّ العبادة يعني في محتواه التضحية من أجل المعبود (الإمبراطور – الإله)، ومن أجل ذلك كانت برمجة اللاهوت المتخصص.

الكهنة دعموا المتسلطين.. والمتسلطون دعموا الكهنة، وبهذا الدعم

المتبادل، اختلط الحابل بالنابل، وتشكل (ديكتاتورية)٢ لاصطياد الجماهير. التاريخ يروي ذلك بلسان فصيح حيث يقول: «إن الكهنة كانوا يتمتعون بسلطات دينية عظمى تمتد لما وراء الحياة، حتى أصبح كبار الكهنة هم المالكون من وراء الستار، فكان الفرعون بين يديهم سجين ألوهيته التي تعزله عن الشعب، بينما كانت أيديهم تمتد لتصريف كل شأن من شؤون الناس. والواقع أن الفراعنة لم يكونوا ببناء تلك المعابد الضخمة يسترضون الآلهة بقدر ما كانوا يسترضون الكهنة الذين يحتاجون إلى مساندتهم في دعم حكمهم. فكان كل معبد وكل طقس من الطقوس الاحتفالية يتطلب نفقة متزايدة، وبالتالي، كان يفقر خزانة الدولة الملكية، بينما كانت خزائن المعابد تكاد تنفجر بما تغص من أموال وأرزاق تحصل عليها من كدح الفلاحين وفتوحات الملوك.

وبينما كان رعمسيس الثالث، يستخدم العبيد الأرقاء، والجنود المرتزقة لإحياء عظمة مصر في آسيا، كان الكهنة يحكمون مصر ويتقاضون منه الشطر الأعظم من غنائمه وأسلابه، حتى أنهم باتوا في ذلك الحين يملكون ١٥ بالمائة من أرض مصر، بالإضافة إلى ٨٨ سفينة وإلى إيراد ١٦٩ مدينة في مصر وسوريا وكوش، وكان للمعابد عبيد أرقاء من السكان بنسبة ٢ بالمائة، وكان ثلثا هذه الأملاك والمصادر من نصيب كهنة آمون الذين كانوا أعلى الكهنة مراتباً في مصر.

ولاشك أن ألوهية الفرعون ظلت تمده بالسيطرة على العامة، إلا أنها ظلت تباعد بينه وبينهم، فكان الكهنة هم الذين يسدّون الثغرة بين الطرفين. أما الأرستقراطية الإقطاعية التي ظهرت وارتقت مع ظهور السلك الكهنوتي وارتقائه، فإنها لم تعد القوة التي يعتمد عليها الفرعون لحروبه، فكان الفرعون يشتري خدمات الجنود المتطوعين ويجنّد العبيد والأرقاء الذين غنمهم من الحروب السابقة ويقذف بهم إلى ساحات الحرب، أما المجنّدون من الشعب فكانوا يستخدمون في حراسة المعابد»[٨٢]، التي تغص بما سُرق من عرقهم،

حيث كان:

- الفرعون / الإله: يسرق الشعب.
- الفرعون / الإله: يسرق الشعوب الأخرى.
- الكهنة: يسرقون الشعب.
- الكهنة: يسرقون مما سرق الفرعون.

لاستمرار هذه اللصوصية... كان الكهنة يسدّون الثغرة في ديكتاتورية الفرعون إذا ما حدث تململ شعبي ضدها... يسدونها بأساطير لاهوتهم المتخصص في الحفاظ عليها... بل وشدّ عقدة طغيانها. يؤدي الكهنة مهمتهم هذه بخرافاتهم العجيبة التي مدت سلطتهم إلى ما وراء هذه الحياة... ومن هذه النقطة بالذات... جاء ارتماء الناس في أحضانهم يطلبون بركتهم وغفرانهم... إدراك الفرعون لقدرتهم العجائبية هذه، دفعه إلى رفعهم إلى المقام المقدس في المجتمع، وهكذا كان:

- طبقة مستغِلّة تملك القوة المادية، هذا أولاً.
- طبقة كهنوتية تملك القوة الروحية، هذا ثانياً.

ومن (أولاً وثانياً) تشكلت (ديكتاتورية)٢، حكمت التشكيلات الاجتماعية الاستغلالية... منذ التشكيلة العبودية... حكمت وفق مصالح الطبقة المستغِلة، وقادت الصراع الطبقي ضد المنهوبين من أجل استمرار هذه المصالح... للوقوف على ذلك بدقة نبحث الوضع في كل تشكيلة... والسؤال الآن!

- كيف دار الصراع الطبقي في التشكيلة العبودية..؟

الديموقراطية الحقيقية المولودة في التشكيلة البدائية... سُميت في مجتمع الإغريق... أي ظهر مصطلحها الذي يعني (حكم الشعب نفسه بنفسه).

أرستقراطية الإغريق حملت هذا المصطلح مقلوباً على رأسه، ليعني خدمة مصالحها الطبقية لا غير... على هذا سار النّهابون – حتى بوش هذه الأيام – في طريق استعباد الشعوب ونهب خيراتها... ولعبودية بتقانة تقوم الطبقة النّهابة

ولاهوتها المتخصص ببرمجة فكر المنهوبين على خدمة مصالحها.

فـ «الطبقة المسيطرة اقتصادياً وسياسياً مرهفة الإحساس طبقياً إلى حدٍّ بعيد، وهي - بما تلك من وسائل السيطرة والسلطة - لا تحمي أيديولوجيتها الطبقية وحسب، بل تحاول فرضها على نقائضها الطبقيين أيضاً، حتى يصبح هؤلاء أحياناً أشدّ حفاظاً عليها من أصحابها»[٨٣]، وعلى محور هذا المكر السيئ، سارت العملية التاريخية بدءاً من مجتمع الرّق الذي كان يتألف من الطبقات التالية:

أولاً - الأشراف: الطبقة الأرستقراطية.

ثانياً - الأحرار: الطبقة الوسطى.

ثالثاً - العبيد: طبقة «أدوات الإنتاج».

الأرستقراطية بقوتها الاقتصادية، سيطرت سياسياً لحماية مصالحها الطبقية - رغم وجود مصطلح الديموقراطية - وفق أيديولوجيتها، التي لم يدافع عنها فلاسفتها وحسب.. بل شنوا الحرب على كل من لا يحطب في حبالهم «أن النظريات المتقدمة لديموقريطس أثارت عليه حقد الأرستقراطية اليونانية التي كانت مثالية أفلاطون تعبيراً عنها، لأن أفلاطون متحدر من أرفع النبلاء»[٨٤]، ولتحدره هكذا، حمل فكراً طبقياً يدافع به عن مصالح الأرستقراطية في نهب الآخر. «ذكر بعض مؤلفي العهود القديمة، أن أفلاطون كان ينوي إحراق مؤلفات ديموقريطس كلها بقدر ما يستطيع أن يجمع منها. لكنه لم يفعل، لأنه وجد أفكار ديموقريطس قد انتشرت إلى حد أن إحراق كتبه لا يجدي شيئاً»[٨٥]. والسؤال!

- لماذا خاف أفلاطون أفكار ديموقريطس..؟

أفكار ديموقريطس، مناهضة لطغيان الأرستقراطية... مناهضتها هذه تشكل وعياً طبقياً عند الطبقة المنهوبة، خوفاً من هذا، جاءت حرب أفلاطون على أفكار ديموقريطس.. جاءت حرباً على الديموقراطية من أجل المصالح الطبقية، وفي جبهة الحرب هذه، حارب أرسطو أيضاً ضد الديموقراطية من

أجل حماية النّهابين. «ومن خلال الممارسة الفنية والفكرية اكتشف «بريشت» أهمية الوعي الجماعي، الذي أخذ يؤكده في أعماله، لأن الوعي الفردي غير مهم نسبياً، حيث أن التاريخ يمضي في مسيرته بقوة الوعي الجماعي وطاقته، ليس بقوة الوعي الفردي أو طاقته، ومن هنا كوّن «بريشت» وجهة نظر مخالفة للمفهوم الأرسطي المؤسس على فكر سياسي قائم على الطبقية، ومن ثم يمجد البطل الفرد المتميز طبقياً في التراجيديا كما جاء في وصف أرسطو. وقد اعتبر «بريشت» هذا رمزاً لمجتمع يقدس نظاماً هرمياً معيناً يقوم على التمييز الاقتصادي والاجتماعي لفئة محددة، وقهر الفئات الأخرى»[٨٦].. ولقهر مبرّر أيديولوجيا، كان (أفلاطون - أرسطو) يبرران حكم الطبقة الأرستقراطية الطبقات الأخرى وفق مصالحها... على هذا المفصل، كانت «ديموقراطية» الأغريق (ديكتاتورية)٢ متوحشة ذلّت الإنسان وأهانته «ففي كل الأوقات وفي كل الأماكن كان العالم الأغريقي يعتمد في تلبية احتياجاته على شكل (أو أشكال) من العمل التابع، سواء احتياجات عامّة أو خاصة... أعني بالعمل التابع العمل الذي يؤدي في ظل ظروف إكراه أخرى غير القرابة أو الالتزام تجاه الجماعة. وبما أنه لم تكن تدفع أجور مقابل العمل، فقد كان يترتب على ذلك أنه لم يكن هناك معنى لبحث كيفية تحديد الأجور. ولأن الرقيق كانوا يؤدون العمل، فإن العمل كان له جانب حاطّ بالكرامة ساعد على استبعاده من تفكير العلماء. وكان ذلك صحيحاً في أثينا وفي المدن الأغريقية بوجه عام. وبدلاً من ذلك أصبحت المسائل المهمة هي التبرير الأخلاقي للرق وشروط معاملة الرقيق، كما يقول أرسطو في دفاعه عن تلك المؤسسة: «إن الرقيق هم بحكم الطبيعة النوع الأدنى، ومن الخير لهم، مثلما هو لكل الفئات الأقل شأناً، أن يكونوا تحت حكم الأسياد... والحقيقة أنه ليس هناك فرق كبير بين استخدام الرقيق واستخدام الحيوانات المستأنسة»[٨٧].

أجل: الإنسان (المنتج) كالحيوان (المنتج)... حدث هذا بعد غياب الديموقراطية الحقيقية مع ظهور المجتمع الطبقي الذي أخضعت فيه الطبقة

النهّابة الشعب لمصالحها بسلاح ديكتاتورية اعتبرت منتجي الخيرات المادية حيوانات مدجّنة لتحقيق مصالحها في نسف المال الحرام... ومن أجل هذا كانت الحرب على أفكار ديموقريطس، وللسبب ذاته كانت الحرب على سقراط وإعدامه، «إن الديمقراطية الأثينية لم تتردد في إعدام سقراط وإسكات صوته. كما أن أفلاطون، وإن أدرج الفلسفة في أعلى مراتب نظامه التربوي المتخيّل، فإنه رفض رفضاً باتاً مبدأ النظام الديموقراطي»[88].. رفضه هكذا، بإيديولوجيته المثالية التي تعتبر استغلال الإنسان للإنسان من طبائع الأمور.. وطبائع الأمور هذه، هي ديكتاتورية الطبقة النّهابة لاستمرار هذا الاستغلال الذي يولد الشرّ والطغيان، اللذان استنكرهما سقراط – ابن الطبقة الكادحة – وراح يولد الأفكار المناهضة لهما... المناهضة للطبقة الأرستقراطية. «لم يكن سقراط رجلاً وسيماً تعشقه النساء، بل كان قبيح الخلقة، كث الشعر، ضخم الأنف، غائر العينين، ضخم الجسم، غير متناسق الأعضاء، وكانت زوجته تراه كريهاً، دعياً من أدعياء الكهانة والحكمة لا يقدرها حق قدرها كامرأة، فقد تزوجته وهو رجل من عامة الناس، كان أبوه صانع تماثيل، وكانت أمّه قابلة تقوم بتوليد النساء، وصار في صدر شبابه مثالاً كأبيه، ثم احترف في أواخر عمره صناعة أمّه، وهي «التوليد» ولكنه توليد من نوع آخر، كان يصفه هو نفسه ساخراً متهكماً بأنه «يولد» الحقيقة من أدمغة الرجال، كما كانت أمه تولد الأطفال من أرحام النساء..! والحق أن هذه الحقيقة التي كان يدعو لها سقراط الحكيم ويذيعها بين الناس نبعت حينما كان عصر سقراط عصر ازدهار فني واقتصادي على إثر انتصار اليونان على الفرس بما نجم عنه من تضخم مالي فأثرى الكثيرون من تلك الحرب، ونشأت معه طبقة من أثرياء الحرب، وكثرت الإباحية وضاعت معالم التربية الأثينية الموروثة، وانتشرت موجة من الانحلال الخلقي وإهدار القيم الأدبية واستباحة كل محرم»[89]، باختصار: أصبح المجتمع مرآة تعكس مفرزات الأرستقراطية النّاسفة المال الحرام، عندئذٍ، ومن موقع طبقي نهض سقراط «يولد» وعياً

طبقياً في مواجهة طغيان الطبقة النهّابة التي أدركت بحسها الطبقي خطورة ما يقوم به على مصالحها.. فسارعت إلى إعدامه قبل أن يستفحل أمره. «وفي الربيع من سنة ٣٩٩ قبل مولد المسيح، قرأ الأثينيون هذا الإعلان الذي علق على اللوحة الرسمية في دار الحكومة:

«إن مليتوس الأثيني الحرّ يتهم سقراطاً ابن صانع التماثيل بمجافاته للحقيقة والعدالة وتهديده لنظامها، لأنه أولاً ينكر وجود الآلهة التي تعترف بها الجمهورية الأثنية، ولأنه ثانياً: يدعو إلى آلهة جديدة، ولأنه ثالثاً: رجل فاسد مفسد للشبيبة الأثنية. وعقوبة هذه التهم: الإعدام..! ولما اقترب يوم المحاكمة أمام المحكمة التي تضم خمسمائة عضو اختيروا بالقرعة بحبات الفول.

قال حواري سقراط لأستاذه: ألا تعد دفاعك وتعنى بإعداده؟

فسأله سقراط متجاهلاً:

- وماذا كنت أفعل إذن طول حياتي؟ ما أظنني كنت أفعل شيئاً إلا إعداد ذلك الدفاع، فما انشغالي بالبحث عن كنه العدل والظلم، والشر والخير، والحق والضلال، إلا لعنايتي بتجنب الظلم والشرور، وإيثاري التزام العدل والخير وذلك هو أكرم دفاع..!

وأمام محكمة «الشعب» يبدأ سقراط بدفع التهمة وهدمها، ثم يعلل الحقد عليه بكرامة رسالته وشرف دعوته إلى الحق والفضيلة، وبدلاً من إرضاء قضاته والتذلل لهم، يعلن أنه لا يقبل أي تقييد لحريته في المستقبل، فهو مصمم على دعوته متى أطلق سراحه مهما يكن منهم بعد ذلك من شأنه من رأي أو قضاء..!

وعلت من القضاة الخمسمائة همهمة غضب واستنكار لما بدا في لهجة «المتهم» من جفاء وتعالٍ، واسترسل هو في هدوء باسم مطمئن فقال:

- إذا كان قولي هذا قد أغضبكم أيها الأثينيون، فاعلموا أنكم إن حكمتم عليّ بالموت، إنما تسيئون لأنفسكم، ولا تسيئون إليّ، لأن الشر يحيق بأهله، فضحية الشر والجور فاعلهما لا المقصود بهما، والشر هو ما يجلبه المرء

على نفسه بجريرته وجهله لحقيقة الخير. فلئن ذهب البريء ضحية لذلك الجهل، فليس ذلك بضائره في شيء لأنه ظل نقياً بغير دنس، أما المفتري الكاذب فذلك هو الخاسر الخسران المبين.

ولا تحسبوا دفاعي هذا عن نفسي خوفاً عليها، بل خوفاً عليكم أنتم أهل أثينا الأحبّاء. فإني أخشى أن تفقدوا بفقدي رجلاً لا يعوض، فإنكم وحق الآلهة لن تجدوا من بعدي أحداً يبصركم بعوراتكم لتركضوا في مهاوي الفتنة والضلال الذي دأبتم عليه... فاحكموا إذن أيها القضاة بما شئتم فذلك شأنكم أنتم، واعلموا أن نفوسكم هي التي في كفة الميزان لا نفسي، فاحرصوا على العدل والحق فهو خير لكم وأجدى عليكم.

وتداول القضاة شرّ تداول، وقد اشتراهم خصوم سقراط، وأحبّوا أن يفهموه مقدار سلطانهم فحكموا عليه بالموت بأغلبية ٢٨١ صوتاً ضد ٢١٩ على أن يكون موته بتجرع السم مذاباً في كأس من العسل.!

وحين أتى له الحارس بالسُّم تجرع سقراط كأسه ليموت، لكنه بقي حياً في ذاكرة الإنسانية»[٩٠]. والسؤال!

- لماذا بقي سقراط حيّاً في ذاكرة الإنسانية..؟

بقي هكذا:

- لأنه لم يعدم من أجل قضية فردية، بل من أجل قضية طبقية.

ديكتاتورية النّهابين، أعدمت سقراط لآرائه المناهضة بلع الحق، وما يفرزه هذا البلع من ظلم وطغيان وشرور... أي أعدمته في ملعب الصراع الطبقي، بعد أن وجدت أفكاره تشكل وعياً طبقياً متضاداً مع مصالحها، ويكشف عن الحقيقية الموضوعية تمهيداً لخلق واقع جديد برهبه ويخافه اللصوص، يقول لينين: «إن الوعي لا يعكس العالم الموضوعي وحسب، بل يخلقه أيضاً»[٩١]... أي يخلقه بشكل جديد، وخوفاً من هذا... كان الهجوم على سقراط «لتوليده» أفكار معرفة كنه العدل والظلم التي يخشاها الطاغوت. فلسفة سقراط على هذا المنحى شكّلت خيطاً في نسيج تراكمات الفكر الإنساني الذي ولدت من

رحمه الماركسية كتغيّر كيفي لهذا الفكر، يقول انفلز: «أنه في الأشكال المتنوعة للفلسفة اليونانية القديمة تظهر كل أنماط وجهات النظر في العالم تقريباً في شكلها الجنيني، أي في سير نشوئها وصيرورتها»[٩٢].. ومن هذه الأنماط كانت فلسفة سقراط – ابن صانع التماثيل – لكشف الغطاء عن منبع (الطغيان)... وكانت فلسفة أفلاطون – ابن النبلاء – لطمس هذا المنبع... على هذا المحور دار اللعب في ملعب الصراع الطبقي في الشوط الأول من العملية التاريخية، وأعدم سقراط لإعدام قضيته... لإعدام العدل وهدر كرامة الإنسان وتبرير عبوديته... يقول أرسطو: «لا وجود للصداقة والعدالة مع الأشياء الجامدة. كما أنه لا وجود لهما مع الفرس والثور والعبد بقدر ما هو عبد حقاً»[٩٣].

الإنسان / العبد والثور في منزلة واحدة... انحطاط الفكرة هذه، أفرزها (حبُّ النّهب) الذي يدافع عنه أرسطو من موقع طبقي... ومن هذا الموقع أضاف يقول: «وإن الرّق يبرره أنه في آن واحد مطابق وضروري لنظام الأشياء الطبيعي»[٩٤].

الرّق من «طبائع الأمور» في أيديولوجيا الطبقة المستغِلّة، ما دام يحقق لها تنامي ثروتها التي تعتبرها «من طبائع الأمور»، يؤكد ذلك أرسطو حيث يقول: «إن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام على خدمتها»[٩٥].

وظيفة العبيد هكذا، نسجت على نول ديكتاتورية الطبقة النّهابة لتحصيل الثروة، ومن هنا، جاءت مساواتهم مع الحيوانات التي تستخدم لتحصيل الثروة.

الحيوانات لا تحسب في عداد المواطنين.. وما دام العبيد في منزلتها، حرموا حق المواطنة... حيث يرى أفلاطون: «في الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد حق المواطنة، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم»[٩٦]، رؤية أفلاطون هذه، ضربت على الوتر الحساس الذي يبحث عنه اللصوص، فسارعوا إلى قوننته.. حيث جاء القانون الروماني لا «يعتبر الرقيق إنساناً له شخصيته ذات حقوق على الإنسانية، بل كان يعتبره شيئاً من الأشياء كسائر السلع التي يباح الاتجار بها»[٩٧].

أقول: الإنسان الذي تحققت إنسانيته بأروع صورها في التشكيلة البدائية، وعاش الديموقراطية الحقيقية... أصبح في مجتمع الاستغلال سلعة يباح الاتجار بها... أصبح ثوراً لتحصيل الثروة وعصا ديكتاتورية الذئاب الضارية فوق رأسه... هكذا قلبت المعادلة في العملية التاريخية مع ظهور الملكية الخاصة، وسيادة قوتها المتوحشة... أكّد هذا الماضي، ويؤكده اليوم الواقع البشري القائم «على سنن شريعة الغاية، شريعة الأقوى، وشريعة «الغاية تسوغ الواسطة». وهو يشهد في معظم الأحيان هزيمة السياسة الأخلاقية الإيجابية المتوجهة لخدمة مصالح وتكوين المجتمع الإنساني الآمن العادل... الحرّ الإبداعي، لصالح انتصار السياسة اللا أخلاقية السلبية المتوجهة لخدمة أغراض فردية أو سلطوية أو دولية فئوية لا قيمية، وعلى حساب هذه المصالح. حتى أرسطو الذي عاش مرحلة سيطرة العبودية في اليونان نراه في سياسته وهو يرسخها بإعطائها تسويغها البيولوجي الخلقي إذ يقول: «إن البعض أحرار بالطبع وإن البعض أرقاء بالطبع».

هنا يبرر دور نسبية مصداقية الاعتبارات والمعايير القيمية عند الإنسان في تحديد السلبي والإيجابي. الكل في جميع مراحل التاريخ الإنساني، بما فيها مرحلة فظائع النظام العالمي الأميركي وعولمته التي نعيشها اليوم، يدعو نظرياً إلى سياسة الخير والعدل والسلام، والوحدة العالمية، والمشروعية الدولية، والأعمار الأرضي، والأمن البيئوي الطبيعي العام، وقيم حقوق الإنسان، والمجتمع المدني وخاصة الديمقراطية، ولكن تحديد معايير تقويم معطيات هذه السياسة وممارساتها على أرض الواقع البشري المتضارع سلطوياً واقتصادياً وثقافياً وأيديولوجيا، دولياً وقومياً، هو أمر صعب، لأنها مختلفة باختلاف رؤاها المصلحية المتعددة»[٩٨]، واختلاف رؤاها المصلحية، يُدخلها ملعبين:

أولاً: ملعب الصراع الطبقي.

ثانياً: ملعب المصالح المتماثلة.

في الملعب الأول: يجري الصراع بين المستغِلّين والمستَغَلّين.

في الملعب الثاني: يجري الصراع بين النّهابين أنفسهم، على مبدأ (السمكة

الكبيرة تأكل الصغيرة).

الصراع في الملعبين يشكل «حرب الجميع ضد الجميع»، ولا سبيل للخروج من أتون هذه الحرب، إلا بالعودة إلى الملكية المشتركة... أي بالعودة إلى العمل من أجل المصلحة العامة... وبهذه العودة تتوحد الرؤى، ويغلق باب الصراع.. والسؤال!

- من أين تأتي المصالح..؟

«هل هي نتاج الإرادة والوعي الإنسانيين؟ كلا، إنها تصدر عن العلاقات الاقتصادية بين الناس، ومتى وجدت هذه المصالح، فإنها تنعكس بشكل أو آخر في وعي الناس، ذلك لأنه لابد للإنسان من أن يعي مصلحة معيّنة كي يدافع عنها»[99]، ولكن كيف..؟

- **الطبقة النهّابة:** تعي مصلحتها بدقة للمسها تدفق الثروة على جيبها رأد الضحى.

- **الطبقة المنهوبة:** لا تعي مصلحتها لجهلها الأسلوب الذي تُسرق به.

الطبقة النهابة للتغطية على ما تسرقه، تقوم في التعتيم عليه بكل ما تملك من أسلحة تجهيل الطبقة المنهوبة على حقيقة ما يجري. ولتقانة ذلك تسوّق مصطلحات حق لنسف الباطل... تسوّق مصطلحات لا تريد بها إلا صرف الجماهير عن الوعي الطبقي الذي يكشف لها طرق نهبها... ومن أجل تثبيت هذا تصفي الحساب مع كل من يعمل على تنوير الجماهير ورفع وعيها الطبقي... من هنا شنت الحرب على أفكار ديموقريطس وأعدمت سقراط.

أقول: وعي المصلحة الطبقية، هو، أساس الفوز في ملعب الصراع الطبقي... أساس الفوز نحو التقدم أو عرقلة هذا التقدم.

- **التقدم:** أسلوب إنتاج جديد يفرز فكراً إنسانياً أرقى.

- **عرقلة التقدم:** التمسك بأسلوب الإنتاج القديم وما يفرزه من فكر يبرّر العبودية.

نعم: أسلوب الإنتاج في المشاعية البدائية، أفرز فكر الأخوة الإنسانية.

أسلوب الإنتاج في الرّق أفرز منزلة، الإنسان / العبد مع الثور، يقول ماركس: «تختلف العصور بعضها عن بعض لا بما يُنتج، بل بكيفية إنتاجه، لذلك ليس من العيب ربط أسلوب إنتاج الأفكار بأسلوب إنتاج الخيرات المادية»[100]. من هنا، كان ربط فلاسفة الأرستقراطية أفكارهم بأسلوب إنتاج الخيرات المادية التي كان العبيد مصدرها... ولتبرير تسلط الأرستقراطية قالوا: الرّق من طبائع الأمور... قالوا ذلك: تعزيزاً لعلاقات الإنتاج الأرستقراطية التي أفرزت أفكارهم، حيث «الأساس المباشر للأفكار الاجتماعية ليس أسلوب الإنتاج ككل، وإنما جانب منه فقط، وهو علاقات الإنتاج»[101]، وعلاقات الإنتاج، هي أشكال ملكية وسائل الإنتاج التي تحدد العلاقات بين الطبقات، وتتحكم في توزيع الخيرات المادية... ومن أجل بقاء هذه الخيرات في سهم الأرستقراطية كان دفاع أفلاطون وأرسطو ومن لفّ لفّهم في ملعب الصراع الطبقي. الذي دار اللعب فيه في رحم المشاعية البدائية، حيث تنمو أدوات الإنتاج – القوى المنتجة – ومع نموها «شرع الإنسان ينتج من مقومات المعيشة أكثر مما ينبغي للقيام بالأود، وفي هذه الحال، أصبح من الممكن أن يستخدم فرد في استثماراته الخاصة شغيلة آخرين، يعطي عملهم كذلك فائضاً من المنتوجات. وهؤلاء الشغيلة كانت تؤمنهم الحرب، فأخذوا يحولون الأسرى إلى أرقاء، في البدء، ارتدى الرّق طابعاً بطريركياً (بيتياً) ثم غدا أساس وجود النظام الجديد، وقد آل عمل الرقيق إلى تفاقم التفاوت، لأن الاستثمارات التي تستغل الأرقاء كانت تثرى بسرعة، وفيما بعد لم يعد الأغنياء يقتصرون على تحويل أسرى الحرب إلى أرقاء، بل أخذوا أيضاً يفرضون الرّق على الذين يصبحون فقراء ومدينين من أعضاء قبيلتهم نفسها، الأمر الذي زاد من تفاقم التفاوت من حيث الملكية. وهكذا نشأ أول تقسيم طبقي للمجتمع، إلى أرقاء ومالكي أرقاء. وظهر استثمار الإنسان للإنسان، وابتداء من تلك المرحلة حتى بناء الاشتراكية، صار كل تاريخ البشرية تاريخ النضال بين الطبقات.

وقد أدى اشتداد التفاوت بين الناس إلى نشوء الدولة بوصفها جهازاً

لاضطهاد طبقة المستثمرين من جانب طبقة المستثمِرين، وهكذا نشأ الرّق على أنقاض أسلوب الإنتاج المشاعي البدائي»[١٠٢].

أقول: تطور أدوات الإنتاج، أدّى:

- إلى ظهور التفاوت في الثروة.
- إلى ظهور التفاوت في المصالح.
- إلى ظهور الصراع الطبقي.
- إلى ظهور الدولة.
- إلى ظهور استعباد الإنسان واستغلاله.

استعباد الإنسان واستغلاله.. يعني ظهور ديكتاتورية الطبقة المستغلّة لأول مرة في التاريخ في التشكيلة العبودية مجسدة فيما سمّي بـ «الدولة» آلة قمع الجماهير.

الاستغلال: قلب ميدان العلاقات الاجتماعية في المجتمع.. ومع تنوع أشكاله، كان يتصاعد التفاوت في الثروة، الذي يفرض التسارع في الركض وراء التفاوت في النهب، وعلى هذا المفصل، جرى اضطهاد المستثمَرين الذي كان يشتد باستمرار لنسف المزيد من المال الحرام باستمرار، وهكذا، و«مع توسع التجارة، ومع النقود والربا، ومع الملكية العقارية، والرهن العقاري، حدث بسرعة انحصار وتركز الثروات في أيدي طبقة قليلة العدد، كما اشتد في الوقت نفسه إملاق الجماهير وتزايد عدد الفقراء. ولقد أزاحت الأرستقراطية الجديدة، أرستقراطية الثروة، إلى المؤخرة نهائياً الأرستقراطية العشيرية القديمة (في أثينيا، وفي روما، وعند الجرمان). هذا إذا كانت لم توافقها منذ البدء. وإلى جانب تقسيم الأحرار هذا إلى طبقات وفقاً للثروة، ازداد عدد العبيد زيادة هائلة، ولا سيما في اليونان، إذ كان عملهم القسري يشكل الأساس الذي انتصب عليه البناء الفوقي للمجتمع بأسره»[١٠٣].. أي انتصبت عليه ديكتاتورية الطبقة المستغِلة، التي تسعى لامتلاك المزيد من العبيد لامتلاك المزيد من العمل القسري... وكان لها ذلك، إذ «بلغ عدد العبيد في مدينة

كونشيه، في زمن ازدهارها، ٤٦٠٠٠٠، وفي مدينة أيجين نحو ٤٧٠٠٠٠، وفي كلا الحالين كان يوازي عشرة أمثال عدد المواطنين الأحرار»[١٠٤]، هذه النسبة الصارخة، بين عدد «الأحرار» وعدد «العبيد»، تؤكد أن «الأحرار» أصبح لديهم فائضاً من «البضاعة»، الاتجار بها يعود عليهم بالمزيد من «الثروة»، يقول (د.جواد علي): «...والسبي – أي الأسر – تجارة نافقة في تلك الأيام، تدر على متعاطيه أرباحاً عظيمة وثروة كبيرة، وقد كانت الجزيرة من أهم الأسواق المستوردة لهذه البضاعة على اختلاف ألوانها من أبيض أو أسود، أو وسط بين الاثنين ومن كلا الجنسين. وقد كانت الدولتآن الكبيرتان: دولتا الروم والفرس، تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من أسرى حرب الفريق المغلوب في الأسواق، أو ترسل هذه البضاعة الغالية على أيدي العملاء إلى أسواق الجزيرة لبيعها هناك، وقد تهب آلافاً من الأسرى للمشايخ استرضاءً لهم، وهؤلاء يبيعون هديتهم هذه للراغبين في الشراء»[١٠٥].. وبين الشراء والبيع يقع «الربح» ومن أجله، جُلب الزنج «من أفريقيا الشرقية، جلبهم تجار الرقيق المسلمون الذي ضربوا بتعاليم الإسلام عُرْض الحائط، وجعلوا من بغداد محطة كبرى لتلك التجارة الوضيعة، الرابحة، التي دعَوْها النخاسة. أصبح العبيد، وبينهم الزنج سلعة تشرى وتباع»[١٠٦]... وبعبارة أخرى... أصبح الإنسان بضاعة من يملكها يملك الثروة... وأصبح الحصول عليها من طبائع الأمور في مجتمع الضواري... ومن أجلها شُنت الحروب، حيث «كان أسر العبيد بواسطة الحروب ووسائل العنف والقوة الأخرى، عملية أكثر ربحاً. فقد كانت الحروب، أعظم مزود بالعبيد لكثير من الدول العبودية (اليونانية والرومانية وغيرها). ولهذا فقد كانت الدول العبودية تشن حروباً مستمرة، وتقوم بنهب وسلب الشعوب المجاورة، فكانت تُقفر كثير من البلدان من ساكنيها الذين يتحولون إلى عبيد»[١٠٧]... إلى بضاعة... إلى ثروة، ويدلنا على كثرة الرقيق في البلاد ما نجده في المصادر من وفرتهم في دار الخلافة. فقد كان في دار المقتدر (٩٠٨- ٣٢) على ما روى أحد عشر ألف خادم خصي من اليونان والسودان. وقيل أن المتوكل

كان له أربعة آلاف سرية، وأهدى إليه أحد قواده مرة مئتي وصيفة ووصيف»[١٠٨]، «وقسم الوليد بالمدينة رقيقاً كثيراً عُجْماً بين الناس، وآنية من ذهب وفضة»[١٠٩].

الإنسان / العبد «بضاعة»، ولهذا، جرى توزيعه مع الذهب والفضة، على هذه القاعدة الدونية، قامت ديكتاتورية الطبقة النهّابة ضد منتجي الخيرات المادية، ولم يكن هذا وحسب، بل جنّدت العبيد المقهورين لقهر رفاقهم المسحوقين وحراسة مسروقاتها. حيث «كان «الملأ» المكي هو المظهر الأول لتجلي سيطرة قريش بشكلها الذي يمكن تسميته، في لغة عصرنا، بالشكل «السياسي»، فهو – أي الملأ – يمثل آنئذ البذرة الجنينية للدولة، أي المؤسسة السياسية للطبقة التي تهيمن على مجالات النشاط الاقتصادي في المجتمعات الطبقية. وهو في الوقت نفسه يمثل ولادة هذه الطبقة في المجتمع الجاهلي: فقد كان «الملأ» المكي هذا – وهو يتشكل تاريخياً من جماعة كبار التجار والمرابين ومالكي العبيد من أهل مكة – يجمع كل السلطات في هيئة واحدة، هيئة الملأ نفسه، وقد عززت هذه «الهيئة»، سلطاتها تلك بجهاز قمعي، كما تدل الأخبار التي تتحدث عن أحابيش مكة. فنحن نفهم من هذه الأخبار أن جماعة «الملأ» اتخذوا من الأحابيش هؤلاء شرطة مسلحين: يحرسون الكعبة، كما يحرسون منازل أعضاء «الملأ» أنفسهم. إن لهذه الحراسة دلالة هامة في موضوعنا. فإن إقامة شرطة لحراسة الكعبة كان يعني أمراً غير ما يتبادر للأذهان من رعاية قداستها الدينية فحسب، هو حماية أموال القرشيين الذين استغلوا هذه القداسة ليودعوا الكعبة خزائن أموالهم. أما إقامة شرطة لحراسة منازلهم، فكان يعني حمايتها من «غضبة الفئات الناقمة في المدينة (مكة)، ولنقمة الحجاج الفقراء»[١١٠]، ولقمع نقمة هؤلاء وأولئك:

- كان العبد شرطياً لحراسة أموال ناهبيه.
- كان العبد شرطياً لحراسة مستعبديه.
- كان العبد شرطياً ضد طبقته.

هكذا، وظفت الطبقة النّهابة العبيد في خدمة نهبها في ملعب الصراع الطبقي... وظفتهم، ولشدّة لؤمها المسحوب من لؤم (حوْمل)* لا تقدم لهم من أسباب الحياة إلا ما يكفل استمرار حياتهم لاستمرار استغلالهم، حيث كان السيد «يستولي على كامل ثمرات عمل الرقيق ولا يعطيه إلا قدراً زهيداً من مقومات العيش لكي لا يموت جوعاً ولكي يتمكن من متابعة العمل لأجله»[111]، كملكية خاصة... ولما كانت الملكية الخاصة هي (قدس أقداس) الطبقة المستغِلة.. من هذه الزاوية يحافظ على العبيد احتراماً لأسيادهم... ومن هنا، جاء أمر قائد جيش عبد الملك، بـ «نهي جنوده عن قتل العبيد الثائرين احتراماً لملكية «أسيادهم»»[112]، وليس لكونهم آدميين... فمثل هذا الاحترام غير موجود في قاموس المستغِلين الذين يلهثون وراء بلع الحق... ولبلع الحق هذا كان ركضهم وراء امتلاك المزيد من العبيد ليتأثّل عندهم الغنى من غير سعي، ومن هنا، مارسوا كل أساليب الخسّة من أجل هدفهم هذا، «وكان ممثلو الحفنة الثرية في المجتمع، وأصحاب الأراضي المرابون، يقرضون عادة أموالهم لأعضاء المشاعة الفقراء مقابل رهن هؤلاء أراضيهم لديهم، فإذا لم يقدر للمدينين دفع ديونهم في أوقاتها خسروا أراضيهم التي تصبح ملكية خاصة للدائنين... ثم أن شخص المدين نفسه يصبح ضماناً أيضاً لتأمين الدين إلى جانب الأرض. فإذا ما عجز عن دفع الدين أصبح عبداً للدائن. وكان فقْد الحرية الشخصية وتحوّل المدين إلى عبد لقاء الدين. ظاهرة واسعة الانتشار في العالم القديم»[113]. و«يصف انفلز أثر المال والربا في المجتمع الاثيني بأنه كان من العوامل التي ألحقت بالناس الظلم وحرمتهم الحرية. وفي هذا الصدد يقول انفلز: إنه لم يكن تشريع يلقي بالمدين على قدمي الدائن المرابي كتشريع الإغريق والرومان القدماء، والواقع أن هذا الوصف ينطبق، بوجه تقريبي، على

---

* حوْمل: امرأة عربية، كانت تجيع كلبة لها، تربطها بالليل للحراسة، وتطردها بالنهار وتقول: التمسي لنفسك لا ملتمس لك، فلما طال ذلك على الكلبة أكلت ذنبها من شدّة الجوع.

ما كان يجري في مكة وسائر المنطقة العربية الغربية حين بلغ تركز المال والثراء بأيدي زعماء قريش الذين أصبحوا يشكلون أرستقراطية المجتمع الجاهلي بأسره»[١١٤]، وبكلام آخر، فإن وصف انفلز في محتواه ينطبق على طبيعة الطبقة النهابة في كل زمان ومكان... فهذه الطبقة في ملعب الصراع الطبقي لا همّ لها سوى أحكام قبضتها على منتجي الخيرات المادية لنهب عملهم بهذا الشكل أو ذاك مهما اختلف شكل عبوديتهم ما دام نير الاستغلال في أعناقهم. وبهذا الصدد «تجدر الإشارة إلى أن الوثائق اليابانية تصف الوافدين الجدد بالبرابرة القادمين من الجنوب أو من الجنوب — الغربي. وسيبقى استخدام هذا المصطلح سائداً حتى نهاية العقد الأول من إصلاحات الإمبراطور ما يجي في السبعينات من القرن التاسع عشر. كما أن صورة المرسلين الأوائل لم تكن إيجابية لدى اليابانيين بسبب سوء تعاطيهم مع السكان المحليين، ومشاركتهم في الأعمال التجارية المربحة، وتجارة بيع بعض اليابانيين كعبيد في مراكز أو أسواق العبيد في المحيط الهندي»[١١٥]، كالثيران تماماً، وفق شريعة النهب... وللتعتيم على توحش هذه الشريعة، يقوم النهّابون بتجميلها بثوب فلسفي لتزييف وعي المهنوبين... ومن هنا جاء اختيار الرومان من كل الفلسفة الإغريقية «البولوتيك Politic» أي التنظيم، ودفعوا بمفاهيمه نحو القانون، بمعنى القسر الذي تمارسه نخبة مدينتهم «روما» على الآخرين، لا نحو الأخلاق من أجل سعادة السكان، أقول دفعوا بالتنظيم نحو القانون، كي يبنوا مجد «روما» وسيطرتها على تركة «الاسكندر» والإغريق، ولا مجد سوى هذا لدى هؤلاء الناس أو البرابرة إن شئت، تماماً كمجد السيطرة الذي تنشده كل دول العالم اليوم»[١١٦].. أي تنشده الطبقة المستغِلّة في دول العالم قديمها وحديثها.. وهذا ما قامت به «نخبة روما» لبسط تسلطها... ولتسلط بتقانة اختارت ديكتاتورية الإغريق التي حرمت العبيد حق المواطنة: «فحق المواطنة الرومانية، كان وقفاً على بعض السكان، المنتمين إلى إحدى القبائل الرومانية القديمة، ولا يَشملُ العبيد وبعض الفئات الكادحة التي اكتسبت قوتها اليومي بعرق الجبين...

يقول (أندريه إماروجانين أوبوايه) مؤلف (روما وإمبراطوريتها): فإن المواطن الطفيلي، سواء دان بغذائه للأغنياء الذين يجمعون أو يستعيدون ثرواتهم على حساب الولايات أم للخزانة العامة التي تموّلها الغنائم والغرامات، يعيش عالة على العالم الذي فتحته روما... إن المجتمع الروماني تحوّل إلى نقابة نهّابين»(١١٧)... أي نقابة لصوص أشرار استعبدوا الناس وسرقوهم لقمة عيشهم.. ولم يقف توحشهم عند هذا الحدّ، بل راحوا يتمتعون بقتل العبيد بعضهم بعضاً لارواء البهيمة فيهم، ومن أجل ذلك أقاموا الحفلات الصاخبة «التي تتخللها حفلات المصارعة الدموية، حيث مجالدة العبيد حتى الموت. كان ذلك على حساب شعوب الولايات التي تسلط عليها النظام الإمبراطوري الروماني وزبانيته»(١١٨)، الذين هم نقابته النهّابة... فبعد أن نهبوا الولايات التي سطو عليها، وحوّلوا شعوبها إلى عبيد تعمل لأجل تخمة الطاغوت، والفائض عن هذه الحاجة يقتل في حفلات المصارعة من أجل تسلية الطاغوت هذا و«بعد أن اجتاحت الفيالقُ الرومانية بلاد (داكية DACIA/ رومانية الحالية) بقيادة الإمبراطور (تريانوسي ٩٨- ١١٧) ما بين عامي (١٠١و١٠٧) عادت محمّلة بالغنائم، لا سيما مخزون داكية من الذهب، فأقام العاهل الروماني في مُدَرّج روما الكبير COLOSSEUM، احتفاءً بالنصر على «العدو البربري» حفلات دموية دامت ١٢٠ (مئة و عشرين) يوماً، صارع فيها حتى الموت ١٨ ألف عبد (مجالد/ مصارع)»(١١٩).

يا إلهي!!

- أي نصر أحرزه قائد النهّابين..؟
- هل السطو على الشعوب وتحويلها إلى عبيد: نصر.
- هل اللصوصية ونهب أرزاق الآخرين: نصر.
- هل قتل الآدميين للتسلية: نصر.

هذا التوحش، أفرزته ديكتاتورية الطبقة المستغلّة في التشكيلة العبودية، والتي تمثلت بـ:

- حكم الطبقة الأرستقراطية الشعب ونهبة وتمثل حكمها هذا بـ:
- منع الرأي الآخر... بل وقتل القائل به.
- انزال الإنسان منزلة الثور
- الحرب من اجل نهب الثروة ونهب البشر
- تحويل شعوب بكاملها إلى عبيد
- إقامة الحفلات للاستمتاع بقتل البشر
- برمجة اللاهوت على قدر طغيانها

هذه الديكتاتورية مارستها الطبقة المستغلة في ملعب الصراع الطبقي ضد الآخر، غير أن هذا الآخر/العبد، ثار على هذا الطغيان.. وكان من أبرز ثوراته تلك التي قادها (سبارتوكس العظيم).

ثورات العبيد، هزت المجتمع العبودي، ومع تطور أدوات الإنتاج –العامل الحاسم– بدأ المجتمع العبودي بالتفكك والانهيار، فاسحاً المجال لتشكيلة جديدة تقوم على علاقات إنتاج جديدة تتلاءم مع قوى الإنتاج الجديدة، (إن إدخال أدوات جديدة أكثر صلاحية كان يتطلب تغيير علاقات الإنتاج في المجتمع العبودي. وأن الضرورة الاقتصادية كانت مضطرة لرفض العبيد كعامل غير ذي مصلحة ولا اهتمام بالعمل. ولقد تجلت هذه الضرورة في التناقض الصارخ الذي كان مصدر تفسخ وانهيار النظام العبودي. وينحصر هذا التناقض في أن العمل (الذي هو الشرط الأساسي لوجود كل مجتمع) يصبح هنا غير قمين بالإنسان، يصير لعنة تصب على جماهير العبيد. وليس في وسع الناس أن يعيشوا بدون عمل، ولكن في وسعهم أن يعملوا كثيراً ويبقوا عبيداً، وأن المخرج من هذا التناقض هو في تحطيم علاقات الإنتاج العبودية والطبقات المرتبطة بها، وفي خلق علاقات إنتاجية جديدة تضمن للمنتجين المباشرين ولو جزءاً يسيراً من الاهتمام بالعمل.)[١٢٠].. ومع خلق هذه العلاقات الجديدة، ولد الإقطاع من رحم العبودية.

ثالثاً: التشكيلية الإقطاعية.

الإقطاع: ثالث التشكيلات في العملية التاريخية.. انتقل إليه استغلال الإنسان بشكل آخر غير ذاك الذي عرف في العبودية، وانتقل معه سلاحه الضروري لحياته، ألا وهو سلاح ديكتاتورية الطبقة المستغلة.

ديكتاتورية الرّق، أنزلت الإنسان منزلة الثور

والسؤال:

ما الذي ستفعله ديكتاتورية الإقطاع..؟

التاريخ يقول: ستُنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل من جهنم النهب، ويقدم دليلاً على قوله هذا، فلاح شوسر الذي ((كان ثور الحراثة يعلف عند نهاية فراشه، وخنازيره تحت العوارض، ودجاجاته فوقها. ومما لا شك فيه أن الحرارة الصادرة عن تلك الحيوانات، كانت تلاقي كل ترحاب في الشتاء، لأن المنازل الصغيرة كانت مبنية بشكل رديء، وكانت رطبة، وذات تيارات هوائية، ولم يكن من السهل أن يتوافر الحطب بشكل دائم.. (كان مأوى أكثر مما كان مسكناً، وغالباً ما كان غير مجهز حتى من أجل هذا... كان ذلك كل ما سبق لمعظم الأهالي (في بريطانيا) أن عرفوه (هذا ما يقوله المؤرخ (كارل برند بناو) عن المساكن التي كانت قائمة في العصور الوسطى، والمساكن التي سبقت المساكن المعاصرة، ثم يمضي برند بناو لينقل عن (توماس ناش) وصفه للكوخ النموذجي في القرن السابع عشر الذي لم يكن فيه أية نوافذ غير ما يفيد في إخراج الدخان، ولا أية ستائر غير ما يقدمه العنكبوت، ولا أسرة أو مناضد غير الأرض العارية، ولا ما يمكن النوم عليه غير القش البسيط.

ولم يكن الفقراء أفضل حالاً في المدن. كانت المساكن الصغيرة متلاصقة ومحشوة بالسكان ضمن أسوار المدينة المشادة لحماية التجار وأسواقهم، كانت تلك المساكن يتكئ بعضها على بعضها الآخر، وتنفتح على أزقة ضيقة عفنة تتلوى بعضها فوق بعض متصاعدة في سفوح التلال. ولكونها تسقف

بالقش وأوراق الأشجار، كانت تصبح عرضة لكوارث الحرائق.. فمن ذا الذي كان يستطيع تحمل نفقات القرميد..؟

وحتى نمو المدن كان من شأنه أن يضر بالفقراء بدلاً من أن يساعدهم، حيث كانت تحشرهم معاً بكثافة أكبر من ذي قبل، أو تدفعهم للنزوح من تحت أي سقف مهما كان نوعه. كان تجديد المدن يعني نزوح سكان الأحياء الضيقة القذرة لمدة طويلة جداً. وقد ذكر عن مدينتي كوفنتري وناتنجهام خلال القرن السابع عشر أن (عدداً ضخماً من سكانهما- والفئة الأشد فقراً بشكل خاص- كان يتآوى تحت القناطر والأقبية والمغاور والكهوف، التي كانت محفورة في الصخور داخلها وخارجها، وبالنسبة لهؤلاء من (سكان المدن.. طبقة العمل والسغب واليأس..) ما كانت فكرة البيت، فكرة الحياة العائلية تخطر على بال أي منهم))[١٢١]، بعد أن سلبهم الإقطاع هذه الفكرة، وحولتهم ديكتاتوريته إلى جرذان أزقة تعيش تحت القناطر وفي الكهوف.. وهنا نسأل!

- كيف دار الصراع الطبقي في التشكيلة الإقطاعية..؟

- التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، يشكل جوهر اللعب في ملعب الصراع الطبقي.. وكل شوط من أشواط هذا اللعب، يحسم بظهور علاقات إنتاج جديدة. يقول ماركس: ((إن العلاقات الإنتاجية بمجموعها تؤلف ما يسمى بالعلاقات الاجتماعية أو المجتمع، وبهذا فإنها تؤلف مجتمعاً موجوداً في مرحلة معينة من مراحل التطور التاريخي، مجتمعاً ذا طابع مميز خاص به، أن المجتمع القديم والمجتمع الإقطاعي والمجتمع البرجوازي لهي مجموعات العلاقات الإنتاجية التي تصنع كل مجموعة منها مرحلة معينة في التطور التاريخي للإنسانية))[١٢٢]، وفي هذا التطور، تشكلت علاقات الإنتاج الإقطاعية، حيث ((كانت ملكية الإقطاعي الخاصة للأرض وملكيته المحدودة للفلاح القن أساس علاقات الإنتاج في المجتمع الإقطاعي))[١٢٣]، وهذا الأساس تشكل في معظم بلدان العالم تقريباً، ودخل ملعب الصراع الطبقي

ليلعب شوطه مع قوى إنتاجية جديدة تتحكم بها ديكتاتورية الإقطاعيين، وفي ((عهد الإقطاع كانت فئة الإقطاعيين تكتفي بامتلاك الأراضي، وتشغيل العامة، في زراعتها وحراثتها، مقابل أجور تدفعها لها، أو مقابل لا شيء إلا لقمة العيش السوداء، أو مقابل لا شيء أبداً، أي بالسخرة، وكان الإقطاعي يأخذ كل المحصولات، ويقتسمها بينه وبين الخزينة الملكية، من قبيل الجزية، عما تخوله إياه السلطة الملكية من حق التحكم بالجماعات القاطنة في إقطاعيته.

وكان الإقطاعي، يسوق هذه الجماعات للحرب ضد غيره من الإقطاعيين أو يضعها تحت تصرف الملك، كي يجندها في حرب ما ضد دولة معادية، ولم يكن الإقطاعي يطمع بأكثر من دوام رضى مليكه، ما دام مليكه يكفل دوام عبودية الناس البسطاء له))[١٢٤].. يكفل له ذلك مقابل حصة من المال الحرام:

- الإقطاعي يسرق عرق الفلاحين.
- الإقطاعي يدفع جزءً مما سرقه للملك.

على مبدأ الخسة هذا، يدعم الملك تسلط الإقطاعي، ويدعم هذا الأخير تسلط الملك، وبين التسلطين، يطحن الفلاحون في طاحونة الجوع التي استمر طحنها على طول عمر الإقطاع الطويل.. ولقد استعملها الصليبيون على الأراضي العربية، حيث ((لم يكن الفلاحون المسلمون، أو حتى الفلاحون المسيحيون الشرقيون، أحراراً، فلم يكن يستطيع أي منهم أن يمتلك أي شيء، وبالتالي لم يستطيعوا التصرف في الأراضي الزراعية التي عملوا فيها سواء بالبيع أو بالمنح أو حتى بتوريث العمل بها، وبدلاً من ذلك، كان الفلاحون المسلمون بمنزلة مستأجرين لأراضيهم الأصلية من السيد الإقطاعي الصليبي، المالك الجديد للأراضي الزراعية الذي لم يكتف بالحصول على نصيبه من المحاصيل الزراعية، بل اعتبر الفلاحين ضمن ممتلكاته الشخصية تقريباً.

وعانى الفلاحون المسلمون بشكل عام من حالة الفقر الشديد، كما كانوا ينتقلون مع ملكية القرية من سيد إقطاعي إلى سيد آخر، ولم يكونوا

يستطيعون الانتقال بإرادتهم من قرية لأخرى من أجل كسب رزقهم. ونظراً للالتزام القوي للفلاحين المسلمين والمسيحيين الشرقيين بالعمل في أملاك السادة الإقطاعيين، لم تبرز حاجة الآخرين لاستخدامهم في أعمال السخرة COVEE، على الرغم من وجود بعض الإشارات التي تدل على تعسف الإقطاعيين الصليبيين مع الفلاحين المسلمين والمسيحيين))[١٢٥].. والمنطق يقول: أن التعسف والقهر، لا يحتاج إلى أية إشارات، ما دام الفلاح من ممتلكات الإقطاعي الشخصية كالبقرة الحلوب، ينعم بحليبها مع تركها تعيش على الحشائش دون تكلفة: ((هكذا كان النظام الإقطاعي الصليبي.

- الذي يقضي بأن جميع الإقطاعات الزراعية تابعة لملك بيت المقدس- قائماً على عاتق الفلاحين البؤساء، الذين أجبروا، بجانب العمل اليومي في الحقول على دفع العديد من الضرائب العينية والنقدية لأسيادهم الإقطاعيين، فقاموا بتسليم ثلث المحصول، بمقتضى ضريبة تسمى Garragium (ويبدو أنها تحريف لضريبة الخراج الإسلامية). بالإضافة إلى ذلك قام الفلاحون المسلمون بتقديم هدايا إجبارية للسادة الإقطاعيين الصليبيين ثلاث مرات سنوياً. في الكريسماس، وفي بداية الصوم الكبير، وفي عيد الفصح))[١٢٦].. أي تقديم هدايا في الأعياد الدينية.

لاحظوا: كيف يُعبِّر النهابون عن حبهم (للمقدس)، وذلك بإجبارهم البؤساء تقديم لقمة عيشهم (هدية) لهم في أعيادهم (الدينية). بهذه الهدايا اختلط (الحرام بالمقدس)، فأفرز الخليط حقيقة موضوعية تقول: أنه لا مقدس عند اللصوص سوى النهب.. أنه لا وطن للصوص سوى النهب أينما وجد هذا النهب، ومن أجله، يدخل النهابون على هذا الكوكب في وحدة طبقية يدعم بعضهم بعضاً في إطار وحدة طبقية لبلع الحق.. وفي هذا الإطار ((وجدت الحكومة الفرنسية في الإقطاعيين الموارنة وقيادتهم الروحية سندها الأساسي. أما بريطانيا فقد اعتمدت بشكل رئيسي على الإقطاعيين الدروز، ولهذا حاولت كل من هاتين الدولتين العظيمتين الدفاع بأية وسيلة عن مصالح الفئات

الإقطاعية المذكورة، يكتب بازيلي بهذا الصدد سنة ١٨٤٢: (إذ لم تكن كل تصرفاته السابقة (يقصد القنصل العام الإنكليزي I.Srose) نابعة من تصوراته وإحساساته الذاتية، فإنها تفسح المجال للشك بمواقف حكومته من سكان سورية. انه حليف غيور للمبدأ الإقطاعي، و.. يرى واجبه الديني في مساندة هذا المذهب، خاصة وأنه ملائم للأوضاع السياسية في سورية، ويفسح في المجال أكثر لنجاح النفوذ الأجنبي))[١٢٧].. وهذا يعني أن الواجب الديني لهذا (الزاهد) يفرض عليه دعم المبدأ الإقطاعي الذي يعبّد الطريق للنفوذ الأجنبي، يؤكد هذه الخسّة: (أرشيف سياسة الروسيا الخارجية:

(السفارة في القسطنطينية (L.٨.Dv٣٦(ثم AVDR). في أيلول سنة ١٨٤٤ أثناء اجتماع بازيلي مع العقيد روزي، أكد الأخير بأن سياسة بريطانيا العظمى في لبنان تعمل على دعم الإقطاعيين وحفظ حقوقهم في إقطاعاتهم F.AVPR والسفارة في القسطنطينية) L.٢S٨.D١٨٠))[١٢٨] وهذا يعني حفظ حقوقهم في نهب الفلاحين:

- الطبقة النهّابة في الخارج تدعم
- الطبقة النهّابة في الداخل.
- الطبقة النهّابة في الداخل تدعم نفوذ الطبقة النهابة في الخارج.

هذا الدعم المتبادل، شكل ديكتاتورية سحقت الجماهير سحقاً.. وحتى لا تفتش هذه الجماهير عن أسباب مصيرها هذا.. دخل كهنة اللاهوت المتخصص اللعبة.. وبدخولهم أصبحت ديكتاتورية الطبقة المستغلة (ديكتاتورية)٢... إذ عمل هؤلاء الكهنة على تغييب وعي الجماهير لصرفها عن قضيتها المركزية نحو هدف آخر هو التبرك بهم وطلب الغفران.. في هذا الوضع يتدفق النهب على النهابين دون عوائق.. ويصبح الجوع والإملاق قدراً، العمل على رده، يخرج الإنسان من دائرة (التقوى والورع).. حتى لو حاولت الدولة التخفيف من حدته، فإن محاولتها هذه، تبقى مجرد حبر على ورق أمام قوة الطبقة المستغلة. ودليل ذلك حين ((طبقت التنظيمات العثمانية في مركز السلطنة وما تبقى لها من

ولايات لم تحدث هزة عنيفة في الأوساط التقليدية الحاكمة التي سارعت إلى تعميق سيطرتها على المجتمع مستخدمة الإصلاحات لتثبيت سيطرتها التقليدية بأسلوب عصري تجلى بشكل خاص في بروز الملكيات العقارية الخاصة على نطاق واسع. فشكلت مرحلة التنظيمات والخطوط الهمايونية وما رافقهما من قوانين عصرية فرصة ذهبية للقوى الإقطاعية المسيطرة لكي تستفيد من الإدارة الجديدة إلى الحد الأقصى عن طريق تحويل ملكية التصرف القديمة إلى ملكية خاصة، منظمة، ومحمية من قبل القانون، وبات على الجيش العثماني أيضاً أن يقدم الحماية العسكرية للنهب المنظم الذي تعرضت له الأراضي المشاع، أو الأراضي المتروكة، والأراضي الموات، والأراضي المرفقة، وغيرها، ولم تسلم ملكيات الفلاحين الصغيرة من ذلك النهب.

وقام كبار المتنفذين، من سياسيين وعسكريين وإداريين ومرابين وتجار، بالاعتداء الفاضح والمستمر على أراضي الدولة. وتمت السيطرة أيضاً على الأراضي السلطانية بعد انهيار السلطنة واعتبرت أراضي الدولة. وهو تقليد مازال سائداً في جميع مناطق بلاد الشام نظراً لاتساع حجم أراضي الدولة فيها. وفي حين شكلت الوظيفة السياسية أو العسكرية أو الإدارية منطلقاً مهماً للإثراء غير المشروع على حساب الدولة من جهة، وعلى حساب الطبقات والفئات الشعبية من جهة أخرى، كانت الفرق الصوفية، وفرق الدراويش، وفئات المنجمين، وعلوم السحر والشعوذة تنتشر على نطاق واسع في جميع أرجاء السلطنة، وبتشجيع منها لتشويه الوعي الشعبي عبر زيادة مضطردة في نسبة الأمية لدى الذكور والإناث، ونشر الأساطير الخرافية، ومحاربة الاتجاهات العلمية الحديثة، ونعت القائلين بها بالهراطقة والعداء للدين. وتشويه التراث، وعدم احترام التقاليد الموروثة)) [١٢٩]... نعتهم هكذا ضرب عصفورين بحجر:

- دفن الاتجاهات العلمية قبل أن تولد، هذا أولاً.
- فتح الباب على مصراعيه أمام الخرافة، هذا ثانياً.
- (أولاً وثانياً)- هيأ التربة المناسبة، لـ:

- سيطرة الطبقة النهابة على وسائل الإنتاج والاقتصاد، هذا أولاً
- سيطرة طبقة الكهنوت المتخصص على الوعي الشعبي، هذا ثانياً

(أولاً وثانياً)، شكل (ديكتاتورية)٢ لاستغلال الإنسان وهدر كرامته دون مشاكسة بعد أن ضمن الكهنة ذلك بما نسجوا من أساطير وخرافات كانت الجرعة التي ساعدت على تصاعد تخمة النهابين وعلى هبوط الجماهير إلى قاع الإملاق والعيشة الضنكا، ((فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن القرن الثامن الهجري. يمثل بالنسبة للعالم الإسلامي ذروة الطرقية الصوفية التي أفرزت بنية فكرية متخلفة شكلت عصر الانحطاط، وبرزت كنظام اجتماعي ومؤسسة شعبية تدعمها النظم الإقطاعية العسكرية التي حرصت على تأسيس الزوايا والخوانق والتكايا، مما تمخض عنه توقف عجلة تطور المجتمع الإسلامي بسبب حالة الجمود الفكري التي فرضها الحكام العرب آنذاك))[١٣٠]. حالة الجمود الفكري هذه المدعومة من الإقطاع، بُرمجت على هدف إبقاء الكرة قبضة اللصوص.. ولقبض بتقانة صُرفت الجماهير إلى زوايا الصوفية وتكايا الدراويش.. وبهذا وذاك بُلع الحق دون غصّة.. بُلع في عتمة سلطت الضوء عليها فلسفة أبيقور، في ((محاولة إجابة على ما عبر عنه (ديوجين) وأمثاله من الزهاد بالتصوف، كرد على محاولات الآخرين استعبادنا من خلال نتاجهم المثالي- الديني والأخلاقي- وحتى المادي- أي الواقعي- فإذا كان الإله العارف بشرور هذا التواجد عاجز عن إصلاحه فهو معاق، وإن كان لا يريد هذا الإصلاح فهو شرير، وبكلا الحالتين تسقط الدعاوى المثالية والدينية والأخلاقية، ولا يبقى أمام الإنسان إلا أن يستمتع بما يجب قبل فقدانه بكل معنى المتعة المادية.

تلك هي منطلقات الفلسفة الأبيقورية اللادينية والمادية إن شئت، وهدفها بالبحث عن المتع بشكل عقلاني بحث قام به مفكر واحد لا مدرسة فكرية اسمه (أبيقور Epicurs ٢٧٠- ٣٤١ ق.م) بهدف تحرير الإنسان من سلطة الإنسان الآخر عليه، عبر إثارة مخاوفه من مجهولات التواجد والوجود))[١٣١]

وإثارة ذلك (بيت قصيد) اللاهوت المتخصص، خدمة لنقابة النهابين.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بعد أن تمكنت المخاوف التي أثارها الكهنة من تهيئة العقل على قبول فكرة (الملك/الإله)، على هذا المنحى تكون الكرة في ملعب الصراع الطبقي قد غابت نهائياً عن بصر وبصيرة المنهوبين، حيث تشير ((الدراسات التاريخية، المبنية على الحفريات الأثرية، إلى أن نظام الإقطاع، هو التشكيل الاقتصادي المركزي الأول، الذي انبثق عن المشاعية البدائية لعصور ما قبل التاريخ. والذي وجد في الحضارة السومرية- كأس اقتصادي أول. إذ كانت العقارات الثابتة تسجل في الوثائق الإدارية. وكان على أصحاب الأرض تقديم نصيب من الغلة إلى الدولة، لأن الأرض للآلهة التي قيّمت الملوك على إدارة شؤونها.

وقد ساهم الاقتصاد المركزي في التأسيس السياسي. إذ كان الملوك نظراً لهذه المركزية، يقومون باقتطاع أراض من المملكة عقب الحروب، يهدونها لقادة جيوشهم، معفاة من الضرائب، مقابل المحافظة على النظام في إقطاعاتهم، وتقديم العتاد والجند للملك عند الحاجة))[١٣٢].

تأملوا كيف تخدم أطراف طبقة النهابين بعضها بعضاً لنهب الآخرين.. وكيف يطمس اللاهوت سلوكها الطاغي هذا، بجعله الملوك وكلاء الآلهة على الأرض.. من هذا المنهج اللاهوتي الماكر، ولد مكر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، حيث كانت: ((مركز الإقطاعية العالمي الكبير. فرغم جميع الحروب الداخلية. كانت تضم أوروبا الغربية الإقطاعية كلها في كل سياسي كبير، مضاد لعالم الروم الأرثوذكسيين المنشقين وللعالم الإسلامي على السواء، وقد توجت النظام الإقطاعي بهالة من النعمة الإلهية. ووضعت تسلسل المراتب الكهنوتية وفقاً للنموذج الإقطاعي، وكانت أخيراً أكبر سيد إقطاعي، لأنها كانت تملك ما لا يقل عن ثلث الأراضي في البلدان الكاثوليكية. وقبل شن النضال الناجح ضد الإقطاعية الزمنية في كل بلد وفي مختلف مجالاتها. كان ينبغي تحطيم منظمتها المركزية المقدسة هذه))[١٣٣].

أقول: اللاهوت المتخصص ظهر مع ظهور الطبقات خدمة للطبقة المستغلّة، ولما كانت هذه الطبقة متغيّرة مع تغيّر التشكيلة الاجتماعية.. كان على اللاهوت أن يغير ثوبه وفق مقاس نهب الطبقة الجديدة، وهذا ما فعله اللاهوت الكاثوليكي خدمة لنهب الإقطاع، وأمانة لهذه الخدمة، رتب الكهنة وفق النموذج الإقطاعي، فاختلط اللاهوت بالإقطاع وشكل الخليط (ديكتاتورية)٢.

- (وفي التطور اللاحق.. وبعد صعود البرجوازية، ظهر اللاهوت البروتستانتي على قدر ما يحتاجه نهب هذه البرجوازية -كما سنرى في الفصل الثاني). اللاهوت الكاثوليكي.. زرع في أمخاخ الفلاحين قداسة الإقطاع وأنه نعمة (إلهية).. لا يجوز سوى شكر (الإله) عليها.. وشكر الإله يعني في هذه الحالة، تقديم العرق والجهد للإقطاعيين بأجر قدره مباركة الكهنة. هذه الخدمة الكهنوتية، دفعت الإقطاعيين إلى غمر الكهنة بالمال الحرام.. ومع تزايد هذا المال، تزايد تسلط الكهنة حتى ملكوا ثلث الأراضي في البلدان الكاثوليكية... أي ملكوا معظم علاقات الإنتاج في هذه البلدان.. وبسلاح هذه الملكية أصبحوا أكبر قوة من الملوك والأباطرة.. ومن هنا ولدت سلطة رئيس أساقفة روما الذي نال ((نفوذاً أكبر لعدة عوامل:

- فروما كانت العاصمة وكان رئيس الأساقفة بها يطمع في نفوذ يعادل مكانة البلدة التي يشغل منصبه بها. كما كان اعتقاد أن كنيسة روما قد أسست ST.Peter بتفويض من عيسى نفسه، ثم إن الذين تولوا هذا المنصب في العصور الأولى، كانوا أقوياء ورجال سياسة مبرزين، فوجهوا أنظار الناس لهم. وأخيراً كان لروما أثر واضح في الدعوة المسيحية، وفي سنة ٤٤٥ أصدر الإمبراطور قراراً يجعل رئيس أساقفة روما رئيساً عاماً للكنائس المسيحية كلها. وفي عهد هذا الرجل حدث حادث عظيم هو استيلاء هذا البابا على السلطة السياسية في روما وظل السلطان السياسي في أيدي البابوات اثني عشر قرناً.

- وبعد ذلك بعدة سنوات أخذ رئيس كنيسة القسطنطينية رياسة الكنائس الشرقية.

- الكنيسة تضم السلطان السياسي للسلطان الديني

- وقد تم استيلاء هذا البابا على السلطان السياسي عندما بدأت الإمبراطورية الرومانية تتشطر، فبادرت كنيسة روما فعزلت نفسها من السلطة السياسية للإمبراطورية. ثم استولت على الأمور السياسية بالإضافة إلى الروحانية وكونت الكنيسة بذلك دولة. وكانت الكنيسة غنية قوية، فساعدها ذلك على ادعاء أن لها الحق في أن يمتد حكمها فيشمل جميع المسيحيين في كل البقاع وأذاعت أن مكانتها أسمى من مكانة الملوك والأباطرة، وأن البابا له السيادة العليا في القضاء والإدارة، وأنه المشرع والمفسر النهائي للكتاب المقدس، وأنه مالك مفتاح الرحمة وباب السماء، وجبت الكنيسة الضرائب، وسيطرت على القضاء، واستعملت حق الحرمان كأكبر عقوبة تنزلها بمخالفها، واستصدرت قانوناً جديداً عكف على إعداده عدد كبير من القسس. وأصبح يعاقب بمقتضاه القسس إذا أخطئوا، كما يعاقب بمقتضاه جميع المذنبين في حق الكنيسة كالمنشقين والمارقين والفساق والذين يمسون الأشياء المقدسة بدنس.

- وأصبحت الكنيسة تمثل الغنى والترف، وكان غناها من إيراد الممتلكات الواسعة التي كانت تمتلكها. ومن جمع الزكاة، ومن الهبات التي طالما كان يوصي بها الناس للكنيسة قبل موتهم لتضمن لهم نعيماً في الحياة الآخرة، وبالتالي أصبحت الكنيسة مركز نشاط اجتماعي وثقافي، فأشرفت على المدارس والمستشفيات ووزعت الصدقات وسيطرت على الجامعات ودور النشر.

- واجتمع في يد الكنيسة جميع شئون الأسرة كالزواج والطلاق وتقييد المواليد والوراثة والوصايا، وأصبح للكنيسة سعاة يجمعون لها الأخبار ويبلغون عنها التعليمات، وعد رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله، فأخذوا حق قيادة

أفكار الناس وأعمالهم، وأعلنت الكنيسة بقوة أنها تسيطر على باب الله، وأنها منفذ الرحمة، وبهذا أبرزت خطر الحرمان الذي هو حاجز بين المحروم وباب السماء.

- وجذبت هذه المكانة التي استمتع بها رجال الدين كثيرين من الناس ليدخلوا الكنائس ولينضموا إلى رجالها لينعموا بهذا النفوذ. وقد استطاع كثير من هؤلاء أن يحققوا أملهم وأن يصيروا من رجال الكنيسة. وتسبب عن ذلك أن أصبح هناك عدد كبير من الجهلة ورجال الأطماع وعبدة الدنيا محسوبين في عداد رجال الدين.

- ولما ازدادت قوة الكنيسة وأهميتها زادت طقوسها المقدسة عدداً. وتنوعت هذه الطقوس، وامتدت لها يد الحبك والزخرفة، وتدخلت هذه الطقوس وهذه الأسرار في كل شيء، وفي حياة الإنسان وبعد موته، ثم أنقصت الكنيسة الطقوس إلى سبعة أهمها:

١- تعميد الأطفال عقب ولادتهم لتمحى عنهم آثار الخطيئة الأصلية، وليعطى الطفل شيئاً من الحرية والمقدرة لعمل الخير.

٢- العشاء الرباني: وهو يكون بالماء أو الخمر ومعه الخبز الجاف، وقد ارتبط هذا القداس بخبر إعجازي، وهو تحوّل هذا الماء أو الخمر إلى دم عيسى وتحوّل الخبز إلى عظامه، ويجري هذا القداس مرتبطاً بالأنوار والعطور والزهور.

٣- الاعتراف، ويتبع الاعتراف الغفران، وكان الاعتراف يتكرر عدّة مرات مدى الحياة، ولكن منذ سنة ١٢١٤ أصبح لازماً مرة واحدة على الأقل،

٤- حضور القسيس عند الزواج ليقيم وحده بين الرجل والمرأة.

٥- حضور القسيس عند الموت ليمسح المريض المشرف على الموت بالزيت،ة وخاصة أعضاء الحواس والصلب والأقدام.

(انتهى ما كتبه Berry)

ولنا تعليق سريع على ما كتبه Berry ذلك هو أن رأي هذا العالم الأوروبي لا

يجعل أي ارتباط بين عيسى وبين المسيحية الحالية. ويؤكد أن المسيحية الحالية من صنع بولس))[١٣٤]

أقول: اختصاص اللاهوت الكاثوليكي تعزيز تسلط الإقطاع لنهب الفلاحين... وإلباس هذا النهب ثوب القداسة بعد رفع الإقطاع إلى مرتبة (النعمة الإلهية). غير أنه –أي اللاهوت- في هذه المرحلة التاريخية لم يرفع السلطان إلى مرتبة وكيل الله على الأرض.. بل رفع البابا إلى هذه المرتبة بعد أن ملكه مفاتيح أبواب السماء وحق تقرير مصير الإنسان بعد الموت.. قلب المعادلة هكذا، قلب ميزان القوى في مسار العملية التاريخية.. إذ امتلكت الكنيسة قوة الدنيا وقوة الآخرة أي قوة الطبقة المستغِلّة وقوة اللاهوت.. وبامتلاكها هاتين القوتين ملكت قوة الدولة.. ملكت الاستبداد ونهب الناس دون رحمة، وللتعتيم على ذلك نسج الكهنة (الشطار) أساطير ثبتوها في أمخاخ الناس بشعائر ابتكروها من خيالهم الرخيص، ولاستمرار هذا اللعب غير النظيف، سيطرت الكنيسة على كل كبيرة وصغيرة في المجتمع، وبرمجة العقول على قبول ذلك، ونقله إلى الأجيال التالية وكأنه من طبائع الأمور.

هذا الاستبداد شخصه بدقة المصلح الكبير (الشيخ الكواكبي) في طبائع الاستبداد حيث يقول: ((تظافرت آراء أكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، والبعض يقول إن لم يكن هناك توليد فهما أخوان أبوهما التغلب وأمهما الرياسة، أو هما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة، على التعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما. أنهما حاكمان أحدهما في مملكة الأجسام والآخر في عالم القلوب)) [١٣٥] واستطاع الكهنة تسنم عرش الاثنين بعد أن هيأت لهم الظروف ذلك.. فوضعوا حاكم القلوب في خدمة حاكم الأجسام.. فكان بهذا وذاك، نهر النهب الذي لا يعرف منبعه ولا مصبه.. وهذا هو أشد أنواع الطغيان، لقد كان ((الطاغية الغبي قد يضطهد العبيد ويقهرهم مستخدماً في ذلك السلاسل الحديدية، ولكن السياسي الحقيقي الماهر

يستطيع أن يقيدهم بسلاسل أقوى من سلاسل الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم، وهو قيد يستمد قوته من أننا لا نعرف المادة التي صنع منها))[١٣٦]، وهذا ما فعله الكهنة بالضبط، بعد أن نسجوا لاهوتهم قيداً من الرعب والخوف في نفوس بني البشر، ونسبوا مادته إلى المجهول، وقالوا باحتوائه الحقيقة المطلقة التي لا تدرك كنهها إلا الكنيسة.. من هنا جاء واجب الإيمان بما تقوله هذه الكنيسة دون جدل أو نقاش، و((على الناس أن يتلقوا قولها بالقبول، وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولاً قالته أو مبدأ دينياً أعلنته أن يروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع فعليه أن يشك في العقل ولا يشك في قول البابا))[١٣٧]، بعد أن أصبح قوله العقل المطلق، الذي لا يسمح لعقل الإنسان (الصغير) سوى استقبال ما يصدر عنه.. وبكلام آخر فإن حق الناس حبس في تنفيذ ما يجود به عقل البابا من أقوال.

التاريخ يقول: أن أقوال البابا اختصت من حيث الجوهر في حماية الهوة بين التخمة والجوع وما يصدر عنها من شرور، واعتبارها قدراً لا سبيل إلى رده..، ويؤكد التاريخ قوله هذا، بما قاله البابا ليو الثامن في منشوره الصادر عام ١٨٩١.. حيث قال: ((أن معاناة الشظف والآلام هي القدر المكتوب لبني الإنسان.. ومهما جرب الناس وحاولوا فإن ما من قوة أو وسيلة تستطيع إطلاقاً أن تنجح في تنقيح الحياة الإنسانية مما يعشعش فيها ويلازمها من علل ومتاعب ومصائب.

وإذا كان هناك من يزعمون خلاف ذلك فإن هؤلاء يخدعون الناس ويغشونهم وبالتالي، فإن وعودهم الكاذبة لن تؤدي إلا إلى جعل الشر أسوأ مما كان عليه قبلاً، وأقصد بهم أولئك الذين يزعمون إمكان تحرير الناس من الألم والشقاء وبتوفير الراحة المستديمة والهناء المقيم لهم.. فليس هنالك أفيد من رؤية العالم كما هو فعلاً، ومن التطلع إلى ناحية أخرى التماساً لعلاج يشفي علله).

ويمضي المنشور البابوي ليخبرنا عن موضع تلك (الناحية الأخرى) فيقول: (أن

أمور الدنيا لا يمكن أن تفهم وتقدر التقدير الحق دون الأخذ بعين الاعتبار الحياة التالية. الحياة الأبدية.. أن الحقيقة العظمى التي نتعلمها من الطبيعة بالذات هي كذلك العقيدة المسيحية العظمى التي تستند إليها الديانة كأساس لها.. إنها العقيدة القائلة أننا سنبدأ فعلاً بالحياة عندما سننتهي من هذه الحياة الراهنة وسنتخلص منها. إن الله لم يخلقنا من أجل أمور دنيوية هالكة زائلة، إنما خلقنا من أجل أمور سماوية أبدية، لقد منحنا العالم كمنفى ولم يعطنا إياه كمقام حقيقي، إن الأموال وغيرها من الأشياء التي يدعوها الناس بالأغراض الطيبة المستساغة التي قد نمتلكها بوفرة أو قد نريدها كلها مجتمعة، إنما هي أشياء لا قيمة لها وعرض زائل فيما يتعلق بالسعادة الأبدية).

إن هذا الرأي الديني مرتبط بعالم مغرق في القدم كان فيه الرجاء بالعالم الآخر .. عالم ما بعد الموت هو المهرب الوحيد من الشقاء والبؤس.

ولكن مع أن الأوضاع قد تغيرت، ورفعت الرفاهية المادية للإنسان إلى مستوى لم تصل إليه أكثر أحلام الأجيال الماضية تطرفاً، فإن قبضة الماضي الخانقة لا تزال تمسك بالأذهان محولة إليها إلى الاهتمام ببعض القيم الروحية المبهمة المستعصية على القياس.

فالكاثوليك يعتبرون عهد القرنين الثاني عشر والثالث عشر، الذي يدعوه الآخرون بعصر الظلام، العصر الذهبي للمسيحية حيث ظهر الكثيرون من القديسين، وحيث أبحر الأمراء والحكام المسيحيون في حملات صليبية إلى الديار المقدسة لمقاتلة المسلمين، وحيث انتشر الكاتدرائيات القوطية الطراز.

ففي رأيهم أن ذلك العهد كان عهد (الديموقراطية المسيحية الصحيحة التي تحققت في ظل إشراف النقابات الحرفية أكثر مما تحققت من قبل أو من بعد).

أما المسلمون فيتطلعون بتوق وحنين إلى (ديمقراطية الإسلام) التي قامت في ظل الخلفاء، إلى انتصاراتهم وفتوحاتهم المدهشة. وكذلك يفعل الهندوس، فيعتبرون عهود الملاحم الفيدية عصورهم الذهبية.

ولكن التاريخ مع ذلك يخبرنا بلسان فصيح أن جماهير الشعب كانت تعيش

في أشنع البؤس والفقر في تلك الأيام الخوالي، وكانت تفتقر إلى الطعام وإلى الحاجات المجردة، وإذا كان بعض الكافة الأرستقراطية قد انغمسوا في الحياة الروحانية، لأن ترفهم وتوفر وسائلهم أتاحا لهم ذلك، فإنه من الصعب أن نتصور أن العامة الذين يؤلفون الأكثرية العظمى فقد فعلوا شيئاً أكثر من النضال المستميت المستمر من أجل الحصول على ما يقوم بأودهم وبأدنى احتياجاتهم.. فالجائع لا يطيق ترف الثقافة والتسامي الروحي، لأن أفكاره تكون مركزة على طعامه وعلى التفكير بالطريقة التي يستطيع أن يسد بها جوعه))[١٢٨]، بعد أن سرقت الذئاب الضارية لقمة عيشه، وقيدت القضية ضد مجهول.. والسؤال!

- كيف حدث ذلك..؟

في ملعب الصراع الطبقي (ناهبين ومنهوبين) وعي المنهوبين الطبقي، يحدد نتيجة الصراع، ولتغييب هذا الوعي دخل اللاهوت المتخصص كحكم بين اللاعبين.. وقال للمنهوبين ما قاله (البابا). أن الشظف والآلام هي القدر المكتوب لبني الإنسان ولا سبيل إلى رده.. وأضاف (قداسته): إن هذه الحياة عرض زائل.. والخير كل الخير في الحياة الأبدية.. في السماء التي ملك مفتاح دخولها.. وأنه لا يدخل إليها إلا من آمن بما يقول.. ودفع الثمن إليه وإلى زبانيته ليحصل على غفران الخطايا. لسوق الناس بهذا الهذيان، نسج الكهنة المتفرغون أساطير الرعب والخوف التي أصبحت الشغل الشاغل للعقل.. وبها، صُرف المنهوبون عن التفكير بقضيتهم المركزية.. واستمر استغلالهم... واستمر ناهبوهم في تلقف الكرة في ملعب الصراع الطبقي.. ومما زاد الطين بلة ظهور طبقة كهنوتية تشارك الطبقة المستغلة استغلال الجماهير ونهبها، وتركها (تنعم) بديموقراطية الجوع والذل والمهانة، ولاستمرار هكذا ديموقراطية، قُلبت عصور الظلام إلى عصور ذهبية، إن ((المنحى الاجتماعي الأساسي الذي عملت المسيحية على استمراره هو المساواة بين كل البشر، وبما أن الجميع هم أبناء الله، فهم جميعاً، نتيجة لذلك متساوون في أخوة الإنسان. ووفقاً لهذه

الوصية كانت هناك شبهة حتمية في الثروة باعتبارها تمييزاً بين الأخوة، ومصدراً لقدر من عدم المساواة في النفوذ والمكانة والاستمتاع، وبقليل من التوسع كان هناك أيضاً إحساس بالفضيلة الروحية للفقراء، وكان من الطبيعي أن تتالى التساؤلات فيما يتعلق بمؤسسة الرق، وتساؤلات أخرى فيما يتعلق بالثروة والسعي إليها، إلى درجة أنه كانت تعزى بعد ذلك إلى المسيحي الذي يتحلى بالفقر منزلة خاصة.

وخلال الألفيتين التاليتين، حتى العصر الحديث، كان مالك الرقيق المسيحي الكبير أو الرجل الثري الورع، يلزمه أن يجد دعماً لاهوتياً خاصاً لحظه الطيب، وهو دعم كان يسهل الحصول عليه عادة بتكلفة متواضعة. والحقيقة أنه في أيام بابوات عصر النهضة أصبحت الكنيسة تتغاضى عن جمع القساوسة للثروة، وكان الغفران يباع بطريقة منظمة، وكان للمناصب الكنسية سعرها المقرر، وبات الأغنياء الذين كان يُعتقد في الماضي أن أمامهم طريقاً شاقاً إلى الجنة، يمكنهم الآن أن يدخلوها بطريقة حثيثة، إذا أن الأحياء منهم القادرين على دفع الثمن اشتروا لأنفسهم مروراً فورياً من خلال المطهر، وهو تخطيط لابد أنه سبب ازدحاماً خطيراً للفقراء الصالحين في تلك المحطة غير المضيافة.

ومع ذلك فإن المواقف المسيحية تجاه كل من الثروة وتساوي منزلة الجميع عند الرب قد نجت من هذا الضلال)) [١٣٩]، نجت من حيث الشكل وبكلام فارغ يباع في السوق مجاناً للضحك على اللحى.. أما من حيث المحتوى فهي في الحضيض من الضلال، بعد أن أصبحت المنزلة عند الرب انعكاساً للمنزلة في الواقع الموضوعي.. إذ أصبح المرور إلى الجنّة من خلال المطهر في سهم الأغنياء لقدرتهم على دفع ثمن ذلك.. أما الفقراء الذين اعتبر (البابا) فقرهم قدراً محتوماً ووعدهم خيراً في الحياة الأبدية، فإن وعده هذا أصبح مع وقف التنفيذ لعدم قدرتهم على دفع ثمن بطاقة الدخول إلى الجنة.

- الأغنياء- لاهوتياً- ملكوا جنة الأرض والسماء.

- الفقراء- لاهوتياً- ملكوا جهنم الأرض والسماء.

هذه المعادلة التي أفرزها اللاهوت المتخصص، تؤكد وحدته الطبقية مع الأغنياء على هذه الأرض وفي السماء أيضاً.. وللتعتيم على وحدته هذه لاهوتياً، ابتدع الكهنة (الشطار) (المطهر).

وفي كتابه (تاريخ جهنم) لمؤلفه (جورج مينوا): ((يتحدث المؤلف عن ((المطهر)) باعتبارها فرعاً مهماً لجهنم المسيحية، موضحاً أن جاك لوغوف هو الذي وضع في كتاب شهير أصول مفهوم المطهر الذي كان نطفة منذ عصر آباء الكنيسة. لقد بدا للبعض أن الانقسام الثنائي (جهنم- الجنة) وكأنه ممعن في البدائية والأصولية، فالكثيرون من المؤمنين وإن كانوا لا يستحقون جهنم، لا يكونون عند موتهم في حالة تتيح لهم التمتع مباشرة بسعادة سكان الجنة التي تتطلب طهارة مطلقة. من هنا جاءت فكرة التطهير.

فكرة (التطهير) من الخطايا العرضية بواسطة (نار مطهرة) تختلف عن نار جهنم، مثل مطهر القديس باتريك.

جاء ظهور المطهر ليقوي سلطة الكنيسة إلى حد بعيد في موقفها التوسطي بين الله والناس عن طريق نظام الغفرانات. (فمن الممكن أن نخفف عذاب المطهر بتلاوة الصلوات وإقامة القداديس التي تشترى لقاء تعريفة محدودة)، وسرعان ما غدا المطهر موضوع مساومة في سوق تجارية تدر الأرباح على رجال الدين. ومع مرور الأيام أصبح موضوع الجحيم وجميع فروعه موضوع استغلال في مجالات أخرى))[١٤٠].. بل في كل المجالات، ليسرح النهب ويمرح في كل المجالات، بعد تغييب الوعي الطبقي للجماهير الشعبية.

الكهنة المتفرغون، نسجوا لاهوتاً متخصصاً، أصبح بضاعة البضاعة في سوق العرض والطلب.. أصبح كذلك بعد غياب العقل في إجازة لاهوتية مفتوحة.. ومع غيابه هذا بقيت الكرة في ملعب الصراع الطبقي في قبضة نقابة النهابين.. ولم يكن هذا وحسب، (بل فتح (المطهر) طريق نهب جديد، يملأ جيوب الكهنة بالمال الحرام.

فالمطهر المسيحي منطقة بين جهنم والجنة ((وقف فيها دانتي طويلاً، ومن أهم ميزاتها وأدوارها هي أن صاحب الذنوب المنتقل من الأولى إلى الآخرة. يمكث فيها حتى يتطهر من ذنوبه، فيصبح صالحاً لدخول الجنة))[١٤١].

وحتى يكون كذلك، يجب ((أن يكون الاعتراف أمام كاهن، وأن يكون الاعتراف كاملاً وواضحاً، ومن ثمار هذا الاعتراف الحصول على غفران الخطايا، ويمنح الكاهن هذا الغفران.. فالمال هو الغاية والغفران هو الوسيلة، (لقد كان جمع المال في أول الأمر وسيلة للإعفاء من الاشتراك في الحروب الصليبية، ثم أصبح وسيلة لغفران – الذنوب- ما مضى منها وما هو آت، دون حاجة إلى توبة أو رد ظلامة))[١٤٢]، وما الحاجة إلى التوبة أو رد الظلامة.. ما دام مالك مفتاح السماء قد غفر ما تقدم وما هو آت. بانحطاط الفكرة هذه، ضرب الكهنة عصفورين بحجر:

- الوفاء لنقابة النهابين باستمرار تغييب الوعي الطبقي للجماهير.
- نفع أنفسهم.

نفع أنفسهم، اختصاص فرعي سحبوه من اختصاصهم العام لنهب المال الحرام مباشرة دون وسائط: ((وفي العام ١٢١٥ أصبح منتدى الضمير مفتوحاً للجميع، وطلب من جميع المسيحيين أن يذهبوا للاعتراف، وذلك لامتلاكهم ملكة الضمير، ومن الطبيعي أن يرغبوا في التخلص من الخطيئة الأخلاقية))[١٤٤].

طُلب الاعتراف رسمياً، وفق تسعيرة محددة.. فأصبح الغفران (نقداً).. على هذا المحور من المكر السيء:

- اغتنى الكهنة
- استمر نهب نقابة النهابين المريح.

العيشة الضنكا، كانت المادة التي نُسج منها فكرة الغفران للوصول إلى السعادة الأبدية.. هذه الفكرة الدونية ضربت على وتر الخلاص من الواقع المؤلم. ((وفكرة «الخلاص» بمفهومه المسيحي، ثم الصوفي، هي - في

الأساس- صدى لأشواق الجماهير المسحوقة إلى التخلص من أنواع الظلم الاجتماعي التي تعانيها منذ بدأ تاريخ المجتمعات الطبقية))[١٤٥]، التي رافق ظهورها، ظهور اللاهوت المتخصص لخدمة الطبقة المهيمنة في هذه المجتمعات.. جاعلاً (ديكتاتوريتها)٢، بعد أن جعل جهنم الدنيا على الفقراء برداً وسلاماً بما نسج من أساطير وخرافات أذهبت الوعي الطبقي عند الجماهير المسحوقة حتى لا تطاردها، حيث ((يطارد تولستوي ودوستوفسكي جهنم المختبئة في البنى الاجتماعية وفي قلب الإنسان: جهنم الفقراء، وجهنم الوعي الفردي المسجون بين وخز الضمير والضيق))[١٤٦].

مطاردة جهنم في البنى الاجتماعية.. يعني مطاردة اللاهوت المتخصص الذي يخفيها بعد أن نقلها من (إطار زائل) إلى (إطار آبدي) يمكن الخلاص منه بغفران الكاهن. سلوك اللاهوت هذا حافظ على جهنم البنى الاجتماعية، وبالتالي حافظ على مواقع النهابين في المجتمع.. على هذه القاعدة من اللؤم الكهنوتي، أنشئ جيش الخلاص، وهو ((منظمة دينية خيرية رجعية أسسها في انجلترا الواعظ بوتس في عام ١٨٦٥، ثم وسعت نشاطها إلى بلدان أخرى (اتخذت اسمها هذا في عام ١٨٨٠ بعد إعادة تنظيمها حسب الشكل العسكري).

حظيت هذه المنظمة بكبير التأييد من البرجوازية، فقامت بالدعاية الدينية على نطاق واسع، وأنشأت شبكة كاملة من المؤسسات الخيرية بغية صرف الجماهير الكادحة عن النضال ضد المستثمرين. لجأ بعض وعاظها إلى الديماغوجية الاجتماعية وإلى التنديد الظاهري بأنانية الأغنياء))[١٤٧]، والتنديد هذا، هو، لعب اللاهوت غير النظيف في ملعب الصراع الطبقي، فالمسألة ليست مسألة أنانية، وإنما هي بنية طبقية تفرز بلع حق منتجي الخبرات المادية.. هذه البنية، هي، التي يعمل اللاهوت المتخصص على صرف وعي الجماهير عنها، حتى لا تناضل ضد المستثمرين.. ولتقانة هذا الخبث اللاهوتي نسجت أساطير تغييب الوعي لامتلاك الجسد، حيث ((كان الإنسان في جملة (أملاك)

اللاهوت ومؤسساته الكنسية. كان (رعية) لـ (الراعي) الرسولي وموضوعاً لصكوكه وسلطانه. ولم يغير من ذلك أن المسيحية البوليسية- التي أعادت رواية اليسوعية.. أعادت بناء تعاليمها وامتد تأثير قراراتها إلى المسيحية الرومانية- ساهمت في أسطرة Mystification النظرة إلى الإنسان من خلال تألية الذات اليسوعية (التي لم يغير فيها الجدل اللاهوتي بين اليعاقبة والنسطوريين حول الحيزين اللاهوتي والناسوتي في شخص يسوع المسيح) -إلا أن التاريخ الكنيسي اللاحق لم يحتفظ من هذا التقليد بشيء، إذ نُكل بأتباع المسيح لمجرد أنهم عصوا أمر البابوات. وكان أكبر دليل على ذلك التنكيل- فضلاً عن صيغته الدينية الممتدة من إصدار وثائق الحرمان البابوية إلى محاكم التفتيش – شرعة الكنيسة لاستبداد الملوك والأمراء، ووقوفها إلى جانب الاستغلال الاقطاعي الوحشي لجماهير الفلاحين المعدمين. وبالجملة، ما كان الإنسان إنساناً في عهد الكنيسة وحلفائها، ولا كان ذاتاً ماديةً واعتبارية مستقلة وذات حُرمة: كان موضوعاً فحسب لفعل أوامري كنسي تأخذ فيه (الرعية) شكل القطيع بالمعنى الكامل للعبارة! ولعله بهذا المعنى تمثل الانسانوية قطيعة حاسمة مع نظرة لاهوتية قروسطية صادرت كيان الإنسان باسم الإيمان))(١٤٨).. صادرت عرقه ودمه لتتخم كروش الكسالى الساقطين من حلفائها الإقطاعيين... وعلى هذه الخسّة كانت وحدة (الكهنة- الإقطاعيين)، ومن أجل استمرار وحدة الشيطان هذه، كانت محاكم التفتيش لقطع كل رأس بدأ الوعي يتحرك فيه لرفض الواقع (الكهنوتي- الإقطاعي، الطاغي، والسؤال!

- لماذا محاكم التفتيش..؟

طغيان الإقطاع ونهبه لقمة الفلاح، يُفرز في نهاية المطاف الثورة، ولهذه الثورة قادتها الذين يزرعون الوعي الطبقي الضروري لنجاحها.

تدخل الإقطاعيين لقمع الوضع الثوري الناشئ يزيد حجم الثورة وقوتها ضد الطغيان.. هذه الحقيقة يدركها تماماً الإقطاع واللاهوت، ولمواجهتها نخل

الثنائي المشئوم خبث أفكاره.. فوجد الحل يقع على عاتق اللاهوت، بحجة خسيسة لا يدرك كنهها التدين الشعبي الذي لا يخضع لأحكام العقل والمنطق.. حيث كانت هذه الحجة مكافحة (الهرطقة والمهرطقين)، وبها، ضُرب عصفورين بحجر:

- تصفية القيادات المناهضة للإقطاع
- تحويل الصراع الطبقي إلى صراع لاهوتي.. وقف فيه الإقطاعيون ضد (المهرطقين).
- وفق هذه المعادلة، تصبح القضية، هي، الدفاع عن كلمة (الله) ويُصبح الإقطاعيون (أتقياء ورعين) وموضع ثقة الجماهير: ((ومما يلفت النظر في تاريخ (محاكم التفتيش البابوية) التعاون الذي تم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية في الغرب الأوروبي ضد المهرطقين. فعلى الرغم من الصراع المزمن بين هاتين السلطتين، فقد دعم حكام الغرب هذه المحاكم للأسباب التالية: أولاً – رغبة هؤلاء الحكام في التظاهر أمام رعاياهم بالتقوى والحرص على حماية المسيحية من ناحية وخوفاً من غضب البابوات في التشكيك بمسيحيتهم فيما لو قصروا في التعاون معهم ضد المهرطقين من ناحية أخرى. ثانياً – رغبة هؤلاء الحكام في الحصول على نصيبهم من ممتلكات المهرطقين المصادرة، حيث كانت هذه الممتلكات توزع عادة بين الحكام والكنيسة، ولكن في بعض البلدان مثل فرنسا، كان الملك.. يستحوذ على كل المصادرات ولا يترك للكنيسة شيئاً. وهذا يفسر لنا حماس التاج الفرنسي لمحاكم التفتيش. ثالثاً– خوف الحكام من أن تكون وراء حركات الهرطقة هذه أهداف سياسية تهدد أمن بلادهم ومستقبلهم السياسي، أي أن تكون الهرطقة قناعاً يخفي خلفه المهرطقونَ مطامح سياسية))[١٤٩].
- أقول: تحرك الوعي الطبقي عند المنهوبين، حرك مخاوف الطغاة على مسروقاتهم فتحركت (ديكتاتوريتهم)٢ للهجوم على المسحوقين باسم الخوف على الإيمان.. فكانت محاكم التفتيش.. وكانت شرائعها المستمدة من شرائع

(الإلـه المـال)، فأزهقـت الأرواح، وتـشاطر (العيـارون الـشطار) ممتلكاتهـا، فتضاعف نهبهم من المال الحرام ملفوفاً بثوب التقى والـورع. (أن معظم معلوماتنا عن (محاكم التفيش البابوية) تعكس رأي أعضائها، أما وجهة نظر الضحايا فقـد ذهبـت مـع رمـادهم أو دفنـت في مقـابرهم، ولكـن علـى الـرغم مـن ذلـك، يمكننـا تلمـس بعـض مظـاهر الاضـطهاد الـذي مارسـته هـذه المحـاكم ضـد المسيحيين في العصور الوسطى.

١- أن أول مظاهر هذا الاضطهاد هـو أنها كانـت – في معظم الأحيـان- حكمـاً علـى المهرطـق بنـاء علـى الـشبهة ودون تـوافر البينـة أو الأدلـة القاطعـة، وكان شـعارها أن كـل متهم مدان حتـى تثبت براءته، وليس كـل متهم بريئاً حتى تثبت إدانته، وبناء على هذا النهج، فقـد أزهقـت أرواح المئات، بـل الألـوف من الأبرياء الذي كـانوا ضحايا لخصومات شخصية أو عائليـة أو سياسية.. بـل غـدت تهمـة الهرطقـة في ذلـك العـصر (تقليـداً شـائعاً) وإحـدى الأدوات الـتي استخدمتها الدوائر الحاكمة السياسية والدينية للتخلص من خصومها.

٢- ومـن مظـاهر هـذا الاضطهاد، أن المتهم بالهرطقـة كـان محرومـاً مـن كل الوسائل التي ربما تساعده في تبرئة نفسه أو دفع التهمة الموجهة إليه. فمثلاً: لم يكـن يحق لـه مواجهـة الـذين اتهمـوه بالهرطقة وجهاً لوجـه أو التعـرف إليهم. وفي الوقـت الـذي كانـت فيـه هـذه المحكمـة تقبـل شـهادة زوجـة المتهم وأولاده ضـده، فإنهـا لا تقبـل شـهادتهم لتبرئتـه، بـل لا يحـق للمـتهم طلـب الـشهادة أو المساعدة من أحـد، كمـا لم يكـن يحق لـه الاحتجاج على قـرار المحكمـة لأي سلطة كانت بما في ذلك، سلطة البابوات أو الملوك.

٣- كانت محاكم التفتيش تقبل كـل المعلومـات الـتي تـصل إليهـا عـن أي شخص دون التحقق مـن مـصداقية المـصادر الـتي تنقلها، والـدليل علـى ذلـك، أن هـذه المحـاكم كانـت تقبـل شـهادة أنـاس محـرومين مـن الكنيـسة وشـهادة مهـرطقين سـابقين وحـاليين ضـد أحـد المتهمين، كمـا اسـتخدمت المحـاكم المخبرين السريين للحصول على معلومات عن مهرطقين، وقد ظلت أسماء هـؤلاء

المخبرين سرية خوفاً من انتقام المتهمين بالهرطقة أو أقاربهم، وكانت أعداد هؤلاء المخبرين في ازدياد مستمر، لاسيما أن قوانين بعض البلاد الأوروبية مثل إيطاليا، كانت تمنح المخبر السري هذا ثلث ممتلكات المهرطق الذي يبلغ عنه المحكمة بعد صدور الحكم بمصادرتها.

٤- كان التعذيب الذي استخدمته محاكم التفتيش، أثناء التحقيق مع المتهم، من أبرز صور الاضطهاد. وعلى الرغم من عدم وجود نصوص صريحة في القانون الكنسي تسمح بالتعذيب، ومع أن آباء الكنيسة الأوائل حرموا تعذيب المتهمين بالهرطقة، فقد بدأت محاكم التفتيش باستخدام التعذيب في حال الاشتباه بالهرطقة منذ عام ١٢٥٢م بأمر من البابا أنوسنت الرابع، وقد تنوعت أشكال التعذيب ومنها: الجلد علناً، والكي بالنار، وحرق الأقدام بالفحم المشتعل، وربط أطراف المتهم في إطار مثلث الشكل والتجويع التدريجي...إلخ.

٥- لقد كانت مصادرة ممتلكات المهرطق من أقسى أنواع العقوبات بالنسبة لذريته، حيث تؤخذ الزوجة والأولاد والأحفاد بجريرته. فيحرم هؤلاء من وراثة هذه الممتلكات ويعيشون حياة الفقر والتشرد، بل يضطرون إلى التسول وربما الدعارة بحثاً عن لقمة العيش، وكانت هذه الممتلكات المصادرة تقسم عادة بين الكنيسة والدولة والمخبرين.

٦- لقد كانت طريقة تعامل معظم المفتشين مع المتهمين بالهرطقة تتسم بالقوة والوحشية، فلم ينظر هؤلاء إلى أنفسهم كقضاة يبحثون عن الحقيقة، وإنما كمحاربين يطاردون أعداء المسيحية، وقد بلغت قسوة أحد المفتشين مع الهراطقة في منطقة الراين عام ١٢٣٣م، أن هاج الناس ضده وقاموا بقتله. ولعل أقسى أشكال العنف مع المتهمين هي التي صدرت من المفتشين الذين كانوا أصلاً من المهرطقين، ومن ثم تابوا وترهبنوا وانخرطوا في سلك محكمة التفتيش، ومن هؤلاء المفتشين روبرت الذي كان مهرطقاً سابقاً وعينه البابا جريجوري التاسع في محكمة التفتيش في جنوب فرنسا، وقد قام هذا المفتش عام ١٢٣٩م بحرق ١٨٠ متهماً بالهرطقة في يوم واحد))[١٥٠]

يا إلهي!!

- حرق ١٨٠ إنساناً في يوم واحد!!

هذه الواقعة وحدها، نضعها بين يدي القارئ، ونترك له حرية الاختيار بصياغة تسميتها، إن كان باستطاعته العثور على تسمية غير التوحش الفظيع الذي أفرزته ديكتاتورية الخاطفين ما بيد الغير.

خطف ما بيد الغير، يجري في ملعب الصراع الطبقي.. وفي هذا الملعب أخذ المخطوفة لقمتهم في التعبير عن عذاباتهم بأشكال مختلفة، أخافت الطبقة المستغِلّة، وبالتعاون مع حليفها اللاهوت أدرجت هذه الأشكال تحت مصطلح الهرطقة. فـ ((منذ أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ازدهرت الهرطقات والحركات المناهضة للبابوية في الغرب الأوروبي، نتيجة جملة من العوامل، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، الداخلية منها والخارجية. وقد تميزت هذه الحركات عن سابقاتها بأنها استهدفت تطهير الكنيسة والانحلال الخلقي والدنيوية وغيرها من المفاسد التي انتشرت بين رجالها، والتي أفاضت بذكرها المصادر التاريخية الغربية، كما أن بعض الحركات والهرطقات الجديدة استهدفت تغيير النظم السياسية والاجتماعية السائدة في الغرب آنذاك، فالطبقات الفقيرة، من فلاحين وأقنان وغيرهم، لم تجد وسيلة للتخلص من اضطهاد الملوك والأمراء الأقطاعيين المتحالفين مع القيادات الكنسية، سوى الانخراط في إحدى تلك الحركات آملاً في التخلص من الإضطهاد الطبقي القائم، وهذا يعد أحد الأسباب التي دفعت السلطات السياسية للتعاون مع السلطات الدينية ضدها))[١٥١].

تحالف السلطات السياسية مع السلطات الدينية شكل (ديكتاتورية)٢ حققت:

- إذلال الجماهير ونهبها.
- سلب العقل والإرادة

على هذا المحور من الخسّة دار لعب الوحدة الشيطانية (كهنة اللاهوت-

الإقطاع)- . و((يدرك الدارس للتاريخ الأوروبي أن البابوية والمؤسسات الدينية المرتبطة بها كانت قد هيمنت على شؤون الحياة في الغرب هيمنة كاملة طوال العصور الوسطى التي امتدت من القرن الخامس إلى الخامس عشر الميلادي، ولم تقتصر هذه الهيمنة على الجوانب الدينية والاجتماعية فحسب، وإنما شملت الشؤون الثقافية أيضاً، فقد أعلنت وصايتها على العقل الأوروبي وحددت له الإطار الذي يُسمح له بالتحرك فيه، بحيث جعلت المصادر الرئيسية للعلم والمعرفة هي الكتاب المقدس وسير القديسين وقرارات المجامع الكنسية وإرادة البابوات، وزرعت في العقل الأوروبي (عقيدة) مفادها أن تفسير الكتاب المقدس هو حق الكنيسة ورجالها، وأن أي حقائق لا تستند إليه هي من صنع الشيطان، وبالتالي، فإن نشر نظريات أو معلومات، في أي ميدان من الميادين، لا تقرها الكنيسة هو مغامرة يدفع صاحبها حياته ثمناً لها، وقد استخدمت الكنيسة الرومانية اسلحتها الروحية منها والمادية، لوضع (عقيدتها الثقافية) تلك، موضع التنفيذ، وكانت محاكم التفتيش من أكثر هذه الأسلحة فعالية.

كانت محاكم التفتيش قد أسست عام ١٢٣١ باسم (محاكم التفتيش البابوية) لملاحقة المتهمين بالزندقة والشعوذة والسحر، ونشرت الرعب على امتداد الغرب وارتكبت الكثير من المجاز وأحرقت الكثير من الأبرياء.

وفي بداية العصور الحديثة انتكست سلطة هذه المحاكم وساءت سمعتها وضعف نشاطها نتيجة المتغيرات التي اجتاحت أوربا في عصر النهضة، ولكن ظهور البروتستانتية وتحول الكثيرين من الكاثوليكية إلى البروتستانتية من ناحية، وانتشار بعض النظريات والأفكار العلمية والفلسفية التي تتناقض مع الكتاب المقدس وآراء رجال الكنيسة من ناحية ثانية، دفع ذلك كله البابا بولس الثالث (١٤٦٨- ١٥٤٩) إلى إصدار مرسوم بابوي يعلن فيه إحياء محاكم التفتيش تحت اسم جديد وهو (محاكم التفتيش الرومانية)، حيث شكل هذا البابا لجنة دائمة تألفت من ستة من الكرادلة المحيطين به في روما، ثم ازداد عددها حتى بلغ في عهد البابا سيكستوس الخامس (١٥٨٥- ١٥٩٠) ثلاثة

عشر كردينالاً، وقد أطلق على هذه الهيئة اسم (الديوان المقدس) وهي بمنزلة محكمة تفتيش مركزية مقرها روما، ومشرفة على فروعها المنتشرة في مدن الغرب، وعلى الرغم من أن البابا هو الذي يرأس هذه اللجنة (الديوان) عادة، إلا أنه كان يعهد إلى أحد الكرادلة، يرئسها أما فروع المحكمة في المدن فكان يرأسها أحد رجال الدين فيها وينفذ قرارات وتعليمات محكمة التفتيش المركزية، وكان لمحكمة التفتيش هذه هيئة استشارية دولية تضم بين عضويتها علماء ولاهوتين وأساتذة جامعات وقانونيين.. وكانت تتم استشاراتهم في بعض المواضيع المهمة.

- رقابة صارمة:

وكان من أول الأعمال التي قامت بها محاكم التفتيش الجديدة هذه وضع ما عُرف بـ(فهرست) الكتب المحرمة على المسيحيين Forbidden Books فقد اعتقدت البابوية أن الرقابة على المطبوعات تعد من أهم واجبات الكنيسة، وذلك حرصاً على ألا يتأثر المسيحيون بالأفكار الفلسفية والنظريات العلمية التي أخذت تنتشر في بطون الكثير من الكتب والمطبوعات آنذاك، وفي عهد البابا اسكندر السادس (١٤٣١- ١٥٠٣) اتخذت إجراءات صارمة في هذا الشأن منها تحريم طبع أي كتاب دون موافقة الكنيسة، كما عهد البابا بولس الرابع (١٤٧٦- ١٥٥٩) مسألة الرقابة على الكتب إلى محكمة التفتيش. ولهذا أحدثت هذه المحكمة سجلاً دونت فيه أسماء الكتب التي تحرم الكنيسة على المسيحيين قراءتها أو حيازتها، وعُرف باسم (الفهرست) والذي صدر عام ١٥٧٧، وكانت تعاد طباعته بين فترة وأخرى ليضم كتباً جديدة ترى المحكمة ضرورة إدراجها فيه، وعلى الرغم من احتجاجات طلاب العلم والناشرين في الغرب آنذاك على هذا الفهرست، فإن الكتب أخذت تُحرق بالآلاف هنا وهناك في مدن الغرب، ففي البندقية مثلاً احرق نحو عشرة آلاف كتاب في يوم واحد، ولا شك في أن هذه السياسة ألحقت الأضرار بالحركة العلمية التي كانت تتلمس طريقها بالدراسات اليونانية والرومانية، التي كانت

قد انتعشت فترة من الزمن)[١٥٢]، لم تدم طويلاً، حتى استيقظ اللاهوت على مدى خطورتها في تعزيز مكانة العقل والوعي الطبقي عند الجماهير الشعبية.. على هذا المفصل من مسار العملية التاريخية، تدخل اللاهوت لعرقلة هذا المسار وحبسه في سهم الوحدة الشيطانية (طبقة الاقطاع –طبقة الكهنوت)· فأحرق الكتب وأحرق البشر، وراقب دور النشر، وشن حرباً قذرة على المجتمع، ولإخفاء قذارتها، اختلق ذريعة الهرطقة، لتصفية كل الخصوم، واختلق (الفهرست) لتصفية كل الآراء التي لا تخدم النهب والاستغلال.. وتتضح قذارة حربه هذه ((من قرار المجمع الذي عقد في سنة ١٢١٥، إذ تقرر فيه استئصال الهراطقة وقد نفذت الكنيسة هذا القرار أو هذا الاستئصال بكل قسوة ونشاط، فاستعملت القتل والحرق ومحاكم التفتيش، فأحرق يوحنا هو بس وجيروم، وأحرقت كتب إبيلارد وسجن حتى الوفاة، وأوقعت محاكم التفتيش بالهراطقة والأبرياء دون تمييز، فقد كان الإيقاع بالناس دليل إخلاص إلى الكنيسة))[١٥٣]، ودليل الإخلاص هذا، هو، دليل الرعب الذي يعيشه الناس في مغارة (علي بابا والأربعين حرامي) على مبدأ (أنج سعد فقد قتل سعيد).. وعلى هذا المبدأ من الفزع والخوف، أصبح الناس واشون ضد بعضهم للكنيسة خوفاً على رقابهم من القطع.. ولم تقف كنيسة اللاهوت المتخصص عند هذا الحد من اللؤم في دعمها لنقابة النهابين، بل طورت خستها، بعد أن ((أمدّت الاستعمار والرأسمالية بستار أخلاقي مسيحي، ولقد حاولت الكنيسة كذلك أن تبرر بالاستناد إلى أرفع المقاييس الأخلاقية سياسة السلب والنهب التي كانت تتبعها بريطانيا في آسيا وإفريقيا، كما حاولت أن تنشر التسليم بفكرة أن كل شيء محلل للبريطانيين ومن حقهم))[١٥٤]، وبكلام آخر فإن النهب (لقمة حلال) للبريطانيين، على ذمة الكنيسة.. وعلى اتساع هذه الذمة جاء اتساع (خلقها الكريم) الذي برر وفق أرفع مقاييسه سياسة النهب والسلب البريطانية.. وهذا يثبت بالحجة الدامغة أن اللاهوت المتخصص ولصوص الدنيا من طبيعة واحدة، وأنهما يسعيان لهدف واحد، هو، (بلع الحق).. ولبلع دون غصة حاربا

الفلسفة والعلم وكل ما من شأنه رفع وعي الطبقة المبلوعة حقوقها. ((وهكذا فإن من الضروري أن ننظر إلى مشكلة نشوء العلم الحديث في الغرب دون سواه على أنها مجموعة من الصراعات الفكرية حول هذه المسائل بالذات. وهذه الصراعات هي بالدرجة الأولى صراعات فكرية في حقل القرارات الأخلاقية. فقد اضطر أناس مثل غاليليو، كما يذكرنا تاريخ الثقافة، الغربية، لأن يخوضوا معركة ضد السلطات الكنسية لدعم دعواهم الخاصة بصحة المعرفة العلمية التي توصلوا إليها وبقدرتهم الإنسانية على التوصل إليها))[١٥٥]. الكنيسة خافت على قدرة شعوذتها من هذه القدرات الإنسانية، فخبطت و((انطلقت من عقالها في حادثة غاليليو))[١٥٦]، ((أن غاليليو، العالم الإيطالي الذي كان من أوائل مكتشفي الجاذبية، وأول من صنع المنظار الفلكي، والذي أثبت بصورة عملية نظرية كوبر نيكوس في دوران الأرض حول الشمس، أن غاليليو هذا الذي لم يعش في القرون الوسطى، بل عاش في القرن السابع عشر، لم يسلم من حكم محكمة التفتيش الكنسية عليه عندما جاهر بنظريته العلمية.

وليس أدل على رجعية الكنيسة وقتئذ، ووقوفها موقف العداء ضد التقدم العلمي والحضاري من هذا الحكم الذي أصدرته عليه محكمة التفتيش. وهذا هو الحكم بنصه (بناءً على ما بلغ المجمع المقدس من أنك تؤمن بصحة المذهب الخاطئ(!) والقائل بأن الشمس مركز العالم.. وبناءً على أمر سيدنا بولس الخامس (البابا في ذلك الحين)، وأصحاب النيافة كرادلة المحكمة العليا.. يرى اللاهوتيون، أصحاب الرأي والتصريف، أن القضيتين المتعلقتين بسكون الشمس وحركة الأرض مناقضتان للعقل(!) ومغلوطتان في اللاهوت.. فالأول هرطقة صريحة.. والثانية فيها خطأ من ناحية الإيمان.. فنحن نقول، ونلفظ، ونحكم ونعلن، أنك أنت غاليليو المذكور، أصبحت في نظر المجمع المقدس، محل شبهة قوية بالهرطقة، باعتقادك وتمسكك بنظرية خاطئة ومناقضة للكتب الإلهية المقدسة. ونحن نأمر بمنع كتاب (محاولات غاليليو) بموجب مرسوم علني، ونحكم عليك بالسجن بالمدة التي نرى تحديدها))[١٥٧]، وبعبارة

أخرى: نحكم على أفكارك العلمية الكاشفة لخرافاتنا بالمدة الضرورية لاستمرار هذه الخرافات في تزييف وعي من نتبههم.. ورغم هذا الحكم الطاغي.. رغم سيف اللاهوت، ((لقد بلغ تأييد النظرية حداً سارع فيه جيوردانو برونو إلى التصريح علانية بصحة النظرية وبأنها حقيقة واقعة. فما كان من رجال الكنيسة آنذاك إلا أن طاردوه في كل مكان، ثم قبض على برونو في مدينة البندقية وأودع السجون لمدة ستة أعوام وأحرق بعدها وهو حي))(١٥٨).

في ذمة التاريخ يابرونو.. لقد أحرقت حياً، ليبقى توحش اللاهوت حياً مخيفاً كل عقل.. مفزعاً كل وعي: ((وقد جرت دراسة الطبيعة آنذاك في جو ثورة عامة، وكانت هي نفسها مفعمة تماماً بروح الثورة، ذلك لأنه كان لا يزال يتعين على هذه الدراسة أن تظفر لنفسها بحق الوجود. ومع الإيطاليين العظام الذين تبدأ الفلسفة الحديثة تاريخها منهم، قدمت شهداءها للمحارق ولأقبية محاكم التفتيش. ومما له دلالته أن البروتستانت تفوقوا الكاثوليك في قمع حرية دراسة الطبيعة. فقد أحرق كلفين سرفيت عندما أوشك هذا الأخير أن يكتشف الدورة الدموية، ناهيك عن أنه أجبر على حرقه حياً طيلة ساعتين، أما محاكم التفتيش فقد اكتفت على الأقل بمجرد احراق جوردانوبرونو))(١٥٩).

حرق العلماء، في محتواه حرق حركة العقل في البحث عن الحقيقة الموضوعية على هذا الكوكب.. ليبقى البشر في حضن اللاهوت مقيدين بقيد الرعب والخوف الذي نسجه الكهنة المتفرغون المتخصصون مع ظهور الطبقات.. ومن حضنهم هذا يحلبهم النهابون دون مشاكسة..على هذا المسار الطبقي سار اللاهوت في كل زمان ومكان.. وعليه سارت طبقة فقهاء السلطان في بلاد الإسلام. ((وقد تمكن علماء الإسلام وفلاسفته الطبيعيون من القيام بعملهم، وتوصلوا إلى مستويات عليا من المعرفة الفنية، بل من وضع التطور العلمي الذي ظهر في الغرب فيما بعد. ولكن بينما كانت أنماط الاستدلال والمنطق اليونانية معروفة لرجال الطب والفلسفة والعلم المتنورين، فإنها حوصرت من قبل

السلطات الدينية في الإسلام، بحيث لم تظهر مؤسسات اجتماعية، يمكنها أن تحمي (التفكير الحر) وتدعمه، وهذا التعبير يدل في العادة على الهرطقة، والعلم الحديث يبدو لعدد كبير من المسلمين الذي يعيشون في البلاد الإسلامية في هذه الأيام مناهضاً للإسلام، ويعتبر المشتغلون به أناساً خطو الخطوة (القاتلة) الأولى نحو الكفر))[١٦٠]، والكفر في نظر اللاهوت، هو، البحث عن الحقيقة الموضوعية. والسؤال الذي يثور الآن!

- لماذا يحارب اللاهوت العلم والمعرفة..؟

- العلم نور العقل،ومن رحمه تولد المعرفة العلمية للإجابة على الأسئلة التي تطرحها الحياة، وفق منهج متضاد مع إجابات اللاهوت على هذه الأسئلة... الاقتصاد هو المحور الأساسي الذي يدور حوله الواقع.. فعندما تصبح المعرفة العلمية أساس معرفة هذا الواقع.. عندئذ يفرز الظلم والعدل في هذا الواقع، ويكشف سر هذا التناقض:

- الظلم أن يعيش الإنسان من عرق الآخرين، هذا أولاً.
- العدل أن يعيش الإنسان من عرق جبينه، هذا ثانياً.

الطبقة المستغِلّة، اختارت طبقياً (أولاً)، ولتعزيز اختيارها هذا ظهر اللاهوت المتخصص، وبه وبها تشكلت (ديكتاتورية)٢ لنهب عمل الكثرة لصالح القلة من بني البشر.. هذه القلة تعيش كالعلق على دماء الآخرين. ... ومن هذه الدماء يتأثل عندها الغنى من غير سعي.. ولمثل هذا كان مسلك رجال لاهوت السلطان في الإسلام.. حيث حبسوا الوعي لحبس النهب في سهم نقابة النهابين وفي سهمهم أيضاً. يقول ابن خلدون: ((أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في ارفادهم. فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم وأسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير))(١٦١)، (وبيسرهم) هذا، كان تفانبهم (ليسرٍ أكثر للنهّابين، وبـ(اليسرين): ((فقدت القيم الإسلامية جوهر أصالته (طبعاً في مجال الممارسة)، وتم تزييف كثير من مفاهيم وتصورات الإسلام لتنسجم مع

مصالح الحكام، وتعبر عنها وتجسد في الآن الواحد مصالح وأغراض طبقة اجتماعية سياسية وعسكرية، رفعت مصلحتها فوق القيم وفوق كل عطاءات الإسلام الحقوقية والإنسانية. وفي هذا التوجه الدنيوي تحولت العقيدة إلى خادم للسياسة))[١٦٢].. إلى خادم للطغاة، حيث ((وجد الحكام بظلاماتهم من يشرع لهم ويبرر قبح أفعالهم، ويزين لهم بؤس أعمالهم. ومع سيادة تيار فقهاء السلطان وشعرائه طمست معالم حقوق الإنسان وغاب القبس الروحي الذي تمثل في الحقوق الكلية التي شرع لها الإسلام في قرآنه وفي سنته))[١٦٣]، وبمعنى آخر: مع سيادة تيار فقهاء السلطان وضع القرآن والسنة على الرّف، ونسج لاهوت متخصص في حبس وعي الجماهير الشعبية.. ليمرّ قبح أعمال الطبقة النهابة.. بل ولجعل هذه الأعمال القدر الذي لا بردّ – بالطبع- من يقول خلاف ذلك، فهو حمّال حطب.. مهرطق.. مرتكب الكبيرة يجب إقامة الحدّ عليه... وعلى قاعدة هذا المكر الطبقي، جاء ((اشتداد الإرهاب الفكري الذي كان قد بدأ سيطرته على الحركة الفكرية الفلسفية منذ انتقال علم الكلام من مرحلته المعتزلية إلى مرحلته الأشعرية، خلال القرن الرابع الهجري (العاشر). ثم استفحلت هذه الظاهرة في القرن الخامس (الحادي عشر) حين استقل الغزالي بزعامة الفكر الإسلامي السني (الرسمي) حاملاً لواء الدفاع عن المذهب الأشعري، الذي كان في الوقت نفسه لواءً هجومياً يحارب المذاهب الفلسفية بسلاح منطق الفلسفة نفسه. فلما جاء القرن السادس الهجري (الثاني عشر)، كانت الأيدي التي تحمل لواء هذه الحرب الفكرية قد تكاثرت في المشرق الإسلامي ومغربه كليهما، وأصبحت السيطرة على الفكر بأيدي الفقهاء المحافظين الذين أصبحوا السند الوحيد لإيديولوجية الجماعة الحاكمة))[١٦٤].. أي الإيديولوجية الأرستقراطية في تسلطها على المجتمع.. ولم يكن في موقف فقهاء السلطان من غرابة.. فهم والسلطان في فريق واحد في ملعب الصراع الطبقي لنهب الآخرين.. ولنهب لا يزرب كيسه كانت (ديكتاتورية)٢.. كانت أقبية التعذيب: ((وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنوراً

من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل مثل رؤوس المسال في أيام وزارته للمعتصم والواثق. فكان يعذب الناس فيه))[١٦٥]، وهكذا ((صرنا نرى الحجرات المقببة تحت الأرض تفرز لتعذيب المغضوب عليهم))[١٦٦].. والمغضوب عليهم في شريعة الطبقة النهابة، هم، المنهوبة لقمة عيشهم.. ولم تقف هذه الشريعة الطاغية عند هذا الحد.. بل تخصهم بالعقوبات دون ناهبيهم.. من هنا ((فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع. إلا في استثناء حدودها وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا اختفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك، فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعدهُ إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة، وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق وأفردوها من نظر القاضي ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم، ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدهماء، وأهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة))[١٦٧].. ومصطلح (الرعاع والفجرة) تماماً كمصطلح (الهرطقة)، الهدف منه تصفية الخصوم لتدفق المال الحرام على النهابين، كشف الغطاء عن هذا اللعب غير النظيف الحسين في قوله لأصحابه ((ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله))[١٦٨].

... أي حطّوا في مطار اللاأخلاق.. ومن هذا المطار جاء سلوك الخليفة المكتفي عندما أمر ((أن يتخذ له قصراً بناحية الشماسية بإزاء قرطبل، فأخذ بهذا السبب ضياعاً كثيرة ومزارع كانت في تلك النواحي بغير ثمن من مُلاكها، فكثر الداعي عليه))(١٦٩).

اغتصاب الممتلكات، وإلحاق أصحابها بـ(الواويات)، كان يلزمه تغييب الوعي الطبقي.. ولتغييب هذا الوعي بتقانة، كان على طبقة فقهاء السلطان اضطهاد الفكر الذي يعمل على تحريكه: ((أن الاضطهاد الذي نزل بالمعتزلة في عهد المتوكل نزل بالكندي نفسه، وكان من أشكال هذا الاضطهاد

مصادرة بني شاكر لمكتبة الكندي))[١٧٠] والسؤال الذي يثور الآن!

- لماذا اضطهاد الكندي وكتبه..؟

طبقة الكهنوت وطبقة النهابين شكلتا (ديكتاتورية)٢ لنهب الجماهير الشعبية، ولنهب دون مشاكسة، يجب إعطاء العقل إجازة مفتوحة.. على هذا المحور اضطهد الكندي لمحاولته إعادة العقل إلى وظيفته.. حيث جاءت ((نظرته إلى رجال الدين، فإنها تضفي على موقفه السابق حيال الفلسفة وتراثها العالمي طابعاً صارماً يضعه موضع (المتحزب) للفلسفة دون هوادة ودون مواربة، فهو يرى رجال الدين هؤلاء يتحاملون على الفلسفة، ويقذفون أنصارها والمشتغلين بها بتهمة (الكفر) و(الزندقة)، فيكشف القناع عن وجوههم بتحديد المنطق الحقيقي الذي يكمن وراء موقفهم ذاك، بحيث نراهم يعادون الفلسفة (.. ذباً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها (لأنفسهم) من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، وهم عدماء الدين، لأن من تجر بشيء باعه، ومن باع شيئاً لم يكن له. فمن تجر بالدين لم يكن له دين. وبحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها، وسماها كفراً، لأن في علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية، وعلم الفضيلة، وجملة كل علم نافع، والسبيل إليه، والبعد عن كل ضار، والاحتراس منه))[١٧١].

الكندي: كشف الغطاء عن اللعب غير النظيف في قوله للجماهير: إن فقهاء السلطان يتاجرون بالدين.. أي يبيعون كلاماً نسجوه بـ(نقد) وبـ(مشاركتهم الطغاة الرئاسة).. قول الكندي هذا، يعمل على زرع الوعي عند المنهوبين.. وهذا معناه دخوله حلبة الصراع ضد الاستبداد وخطف ما بيد الغير. وهنا يكمن سر اضطهاده وحرق كتبه.. ومن هنا أيضاً كان سر اضطهاد (غيلان)- أحد زعماء المعتزلة- حيث أمر الخليفة هشام ((بقطع يديه ورجليه))(١٧٢).

حب (غيلان) لبسط الحق والعدل، كان أقوى من المصيبة التي سقطت على رأسه، فتابع ثورته على الاستبداد، وعندما بلغ هشام ذلك، أمر ((بقطع لسانه

وضرب عنقه))[173].

في ذمة التاريخ يا غيلان، والسؤال!

- ما الذي فعله غيلان...؟

الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، طلب من غيلان مساعدته في تصريف أمور الدولة الأموية.. استجاب غيلان شرط أن ((يتولى بيع خزائن الأمويين ورد حقوق الناس إلى أهلها، فقبل الخليفة الأموي الصالح ذلك. فلما تولى غيلان هذا الأمر نادى أهل دمشق بقوله: (تعالوا إلى متاع الخونة (يقصد حكام بني أمية السابقين لعمر بن عبد العزيز). تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته، ثم أخذ يبيع أمتعة بني أمية وهو يقول في الناس المجتمعين حوله: (من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا متاعهم والناس يموتون من الجوع) وكان غيلان يقصد أن هذه الأمتعة ثمينة جداً كان يتمتع بها الحكام الأمويون في حين يموت الناس جوعاً))[174].

أرأيت عزيزي القارئ، كيف قتل غيلان في ملعب الصراع الطبقي...؟

غيلان دخل الصراع مع نقابة النهابين لبسط الحق والعدل بين الناس، وأخذ حريته في كنف الخليفة العادل... وبعد رحيل الخليفة هذا، انقض عليه النهابون وقتلوه بعد التمثيل به ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الوقوف ضد مصالحهم الطبقية.. ولهذه المصالح بالذات دفن عمرو المقصوص حياً، والسؤال!

- ما حكاية عمرو المقصوص...؟

عمرو المقصوص كان ((معلم معاوية الثاني (معاوية بن يزيد بن معاوية الأول مؤسس الدولة الأموية)، وأنه -أي عمرو المقصوص- قد أثر في تلميذه معاوية ذاك حتى صار قدرياً على مذهب معلمه. فلما مات والده يزيد وأراد بنو أمية مبايعته وريثاً لأبيه، وفقاً للتقليد الذي وضعه جده معاوية الأول، استشار استاذه عمرو هذا، فأشار عليه بقوله (إما أن تعدل، وإما أن تعتزل). فنظر معاوية الثاني في أمره: كيف يختار، وكيف يمكن أن يكون عادلاً إذا اختار البقاء في منصب الخلافة، فوجد أنه سيكون عاجزاً عن تحقيق العدل وفقاً لمشورة

أستاذه، لذلك قرر الاعتزال، أي التنازل عن الخلافة، وأعلن قراره في خطبة خطب بها أهل دمشق قائلاً:

(أننا قد بلينا بكم وابتليتم بنا، وأن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى منه وأحق (يقصد علياً بن أبي طالب)، فركب منه (أي من أمر الخلافة) ما تعلمون حتى صار مرتهناً بعمله، ثم تقلده أبي (يزيد)، ولقد كان غير خليق به، فركب ردعه، واستحسن خطأه، لا أحب أن ألقى الله بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم (أي: اترك لكم أمر الخلافة فتصرفوا فيه كما تريدون)، ولتولوه من شئتم، فو الله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها حظاً، وأن كانت شراً، فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها).

ويقول المؤرخون، أن معاوية الثاني خطب خطبته هذه متنازلاً عن الخلافة ثم اعتزل الناس، ومات بعد أربعين يوماً من تنازله، فقبض بنو أمية على عمر والمقصوص وقالوا له: أنت أفسدته وعلمته. ثم دفنوه حياً وكان شهيد مذهبه القدري المناهض للحكم الأموي القائم باسم الحق الإلهي، أي باسم قضاء الله وقدره (الجبر) كما كان يزعم بنو أمية)(١٧٥). وما زعموه كان يصب في مزراب مصلحتهم الطبقية.. وقد وجدوا من الفقهاء من نسج لهم لاهوتاً متخصصاً يعزز ما زعموه.. فكان (الجبر) هو هذا اللاهوت، ((وإذا نظرنا، أخيراً، في حكاية عمرو المقصوص أول شهيدي القدرية في البيئة الشامية، كما حكاها المقدسي، وإذا تأملنا خطبة معاوية الثاني في أهل دمشق حين اعتزم النزول عن عرش الخلافة الأموية عملاً بإشارة أستاذه عمرو المقصوص هذا، أمكننا أن نؤكد، مرة أخرى، استنتاجنا في الموضوع، وهو كون النظرية القدرية متصلة، من حيث المنشأ والأساس، بالواقع الاجتماعي – السياسي. فإن عمرو المقصوص قد أشار على تلميذه معاوية بن يزيد حين استشاره بأمر قبوله إرث الخلافة الأموية. فماذا كانت إشارته عليه..؟

رأيناه يشير عليه بقبول هذا الإرث إن كان قادراً على تحقيق العدل – ويقصد هنا: العدل الاجتماعي - وإلا فليعتزل هذا الأمر. فماذا يعني ذلك...؟

من الواضح –في رأينا– أن قضية العدل كانت هي القضية الأولى والأخيرة التي تدخل في حساب هذا الرجل القدري (عمرو المقصوص) حين أتيح له أن يقدم النصح لوريث أموي علمه مذهب القدرية. وفي خطبة معاوية الثاني الذي أعلن فيها اعتزاله الخلافة بيان واضح أيضاً بأن قراره في هذا الأمر قد استند إلى رؤيته أخطاء أسلافه، ثم رؤيته أنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤوليات الأخطاء وتبعات الظروف السيئة التي أورثه إياها جده معاوية الأول وأبوه يزيد بن معاوية، أي أنه لا يستطيع –وسط هذه الأخطاء وهذه الظروف الموروثة– أن يحقق العدل كما يقتضيه منه المبدأ الذي أخذ عن أستاذه عمرو المقصوص))[١٧٦].

أقول: بعض ما كشفت عنه خزانة التاريخ على سبيل المثال لا الحصر، نطق بلسان فصيح وقال:

إن الصراع الطبقي حكم مسار العملية التاريخية منذ نشوء الطبقات.. وإن الطبقة النهّابة لا تزال تتسنم سدة هذا الحكم، يدعمها في ذلك لاهوت متخصص في خدمتها.. شكل معها (ديكتاتورية)٢ لبلع المال الحرام، حيث كان في التشكيلية الإقطاعية:

- الفلاح من ممتلكات الإقطاعي.
- عقل الفلاح من ممتلكات الكاهن
- عرق ودم الفلاح من ممتلكات (الإقطاعي- الكاهن).

للحفاظ على هذه الخسّة كان

- حرق البشر بالنار
- دفن البشر أحياء
- حرق الكتب لحرق الرأي الآخر

هذا ما فعلته ديكتاتورية (الإقطاع- اللاهوت)... وفي رحمها كانت تتشكل (ديكتاتورية)٢ من نوع جديد، تفرزها طبقة جديدة هي (البرجوازية).. فإلى هذه الديكتاتورية في الفصل التالي.

هوامش الفصل الأول

١- د. حسين مروة- دراسات في الفكر والأدب- دار الفارابي (بيروت)- الطبعة الأولى ١٩٩٣- ص٢٤٢.

٢- د. عماد فوزي الشُعيبي- نقد أسطورة الديموقراطية – مجلة عالم الفكر (الكويت)- العدد/٣ المجلد/٣٠/٢٠٠٢- ص٢٠٨.

٣- د. خلدون حسن النقيب- الآفاق المستقبلية للفكر الاجتماعي العربي- مجلة عالم الفكر (الكويت)- العدد /٣/ المجلد/٣٠/٢٠٠٢- ص١٢.

٤- ماركس/انجلس- بصدد الدولة- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٦- ص٧٠.

٥- باربارا باومان/ بريجيتا أوبرله- عصور الأدب الألماني- ترجمة د. هبة شريف/مراجعة د.عبد الغفار مكاوي- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة/٢٠٠٢- ص٨.

٦- د. عبد الرحمن محمد القعود- الإبهام في شعر الحداثة- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة/٢٠٠٢- ص٢٩٣.

٧- جون كينيث جالبريث- تاريخ الفكر الاقتصادي/ الماضي صورة الحاضر- ترجمة: أحمد فؤاد بلبع- تقديم: اسماعيل صبري عبد الله- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة /٢٠٠٠- ص(١١١/١١٢).

٨- ماركس /انجلس/ لينين- بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٨- ص٣.

٩- لينين- المختارات في ثلاثة مجلدات- المجلد الأول/الجزء الأول- دار التقدم (موسكو) ١٩٧٦- ص٣٦.

١٠- جواهر لال نهرو- قصة حياتي- ترجمة: مروان الجابري- منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر- الطبعة الأولى/١٩٥٩- ص٢٧٦.

١١- حسين مروة- دراسات في الفكر والأدب سبق ذكره- ص٢٥١.

١٢- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة/٢٠٠٠- ص٢٢٢.

١٣- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره- ص٥٠٩.

١٤- ماركس/ انجلس/ لينين- بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية- سبق ذكره- ص٨٦.

١٥- د. أحمد علبي- قتيل لم يوار الثرى بعد- مجلة الطريق (بيروت)- العدد السادس/٢٠٠١- ص١٥٥.

١٦- توم ليتل- جمال عبد الناصر- ترجمة: لجنة من الأساتذة الجامعيين- منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر (بيروت)- الطبعة الأولى ١٩٥٩- ص٢٨٤.

١٧- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره- ص(٤٩٨- ٤٩٩).

١٨- ماركس/ انجلس/ لينين- بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية –سبق ذكره- ص٧٢.

١٩- د. عطية العقاد- تيار الوعي السياسي في المسرح الألماني- مجلة عالم الفكر (الكويت) العدد /٤/المجلد٣٢/٢٠٠٤- ص٢٢٥.

٢٠- د. مسعود ضاهر – النهضة العربية والنهضة اليابانية- عالم المعرفة (الكويت) – طبعة ١٩٩٩- ص٢٣١.

٢١- د.مجدي حماد- جامعة الدول العربية- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة/٢٠٠٤- ص٢١.

٢٢- المصدر السابق- ص٢٢.

٢٣- المصدر السابق- (٢٣/٢٢).

٢٤- د. محمد أحمد النابلسي- نهاية التاريخ وعصر النهايات- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدد الخامس عشر/٢٠٠٢- ص٨٩.

٢٥- د. ماهر الشريف- قراءة في (طبائع الاستبداد) و(أم القرى)- مجلة الطريق (بيروت) – العدد الخامس/٢٠٠٢- ص٨٥ الهامش.

٢٦- ماركس/ انجلس- بصدد الدولة- سبق ذكره- ص ١٣٤.

٢٧- الجاحظ- البيان والتبيين- تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون- دار الجيل (بيروت) – طبعة /١٩٩٠- أربعة أجزاء/ الجزء الثاني- ص(٢٩٧/٢٩٦).

٢٨- بيتر تيلور /كولن فلنت- الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر (الجزء الأول)- ترجمة: عبد السلام رضوان/د. اسحق عبيد- عالم المعرفة (الكويت) –

طبعة ٢٠٠٢- ص١٧٤.

٢٩- د. عيسى درويش- ملامح السياسة الأمريكية- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١١- ١٢) ٢٠٠١- ص٤٢.

٣٠- د. مصطفى أمين- (التدخل الإنساني).. ضد الإنسانية – مجلة الطريق بيروت)- العدد الخامس ٢٠٠٠- ص٦٤.

٣١- د.عيسى درويش- ملامح السياسة الأمريكية- سبق ذكره- ص٣٧.

٣٢- محمد الدنيا- قبل الانفجار الأعظم- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٤٩- ٢٠٠١- ص١٣.

٣٣- كيللي/كوفالزون- المادية التاريخية- ترجمة: احمد داود- دار الجماهير (دمشق) – ص٣٢٨.

٣٤- المصدر السابق- ص(٣٢٨/٣٣٠).

٣٥- المصدر السابق- ص١٥٨.

٣٦- المصدر السابق- ص١٥٨.

٣٧- د. طلال عبد المعطي مصطفى- الاغتراب في منظور علم الاجتماع- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٦١- ٢٠٠٢- ص٦٨.

٣٨- جاك كوفان - الأولوهية والزراعة- عرض وتقديم: محمد سليمان حسن- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٥٨/ ٢٠٠١- ص٢٢٤.

٣٩- د. سلطان محيسن- عصور ما قبل التاريخ- مطبوعات جامعة دمشق/١٩٨٨- ص٥٦.

٤٠- عبد الوهاب محمود المصري- نظرات في التنمية- مجلة دراسات عربية (بيروت) –العدد (٩- ١٠) ١٩٩٩- ص٣٠.

٤١- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- سبق ذكره- ص١٤٧.

٤٢- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص١٤٢.

٤٣- نيكتين –أسس الاقتصاد السياسي- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٤- ص٧.

٤٤- المصدر السابق- ص١٧.

٤٥- د. فيصل سعد- التخلف والتنمية – مجلة الطريق (بيروت)- العدد السادس ٢٠٠١ ص٨٠ الهامش.

٤٦- كيللي/ كوفالزن- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٧٦.

٤٧- ماركس /انجلس- بصدد الدولة- سبق ذكره- ص(٣٤٤- ٣٤٥).

٤٨- ماركس/ انجلس- منتخبات في (١٥) مجلداً- المجلد الأول- دار التقدم (موسكو)- ١٩٨٨- ص٨١.

٤٩- د. محمد محمد المفتي- الرحلة المزدوجة.. وراء الأفق- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٣١/١٩٩٩- ص١٢٦.

٥٠- د. حامد خليل- الوطن العربي والمجتمع المدني- مجلة دراسات استراتيجية (جامعة دمشق)- العدد الأول ٢٠٠٠- ص١٦.

٥١- راسل جاكوبي- نهاية اليوتوبيا- ترجمة: فاروق عبد القادر- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠١- ص٣١.

٥٢- جوناثان كيرتش- حكايا محرمة في التوراة- ترجمة: نذير جزماتي – دار نينوى للدراسات والتوزيع والنشر(دمشق)- الطبعة الأولى/٢٠٠٣- ص((٥٢- ٥٣).

٥٣- جون كينيث جالبريث- تاريخ الفكر الاقتصادي/ الماضي صورة الحاضر- سبق ذكره- ص١١٣.

٥٤- الشهرستاني- الملل والنحل- تحقيق محمد سيد كيلاني- الجزء الثاني- دار صعب (بيروت)- طبعة ١٩٨٦- ص١٠٠.

٥٥- المصدر السابق- ص٩٩.

٥٦- د. نجمان ياسين- أثر التطورات الاقتصادية في الأوضاع السياسية في الدولة العربية الإسلامية- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٩٣/ ٢٠٠٤- ص١٧٣.

٥٧- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص١٨.

٥٨- ماركس /انجلس/ لينين- بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية- سبق ذكره- ص(٧٩- ٨٠).

٥٩- كيللي /كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص١٦١.

٦٠- د. لطفي عبدالوهاب يحيى- العرب في العصور القديمة- دار النهضة العربية (بيروت)- طبعة ١٩٧٩- ص(٣٩٤- ٣٩٥).

٦١- رفعة الجادرجي- مقارنة بين ثلاثة أنماط فكرية/الأمثال، اللاهوت والفلسفة- مجلة دراسات عربية (بيروت)- العدد (٩- ١٠) ١٩٩٨- ص(١١/٨).

٦٢- د. علي سامي النشار- نشأة الدين- مركز الإنماء الحضاري (حلب)- الطبعة الأولى ١٩٩٥- ص١٣٦.

٦٣- كيللي/كوفالزون- المادية التاريخية – سبق ذكره – ص١٦٢.

٦٤- رفعة الجادرجي- مقارنة بين ثلاثة أنماط فكرية/الأمثال، اللاهوت والفلسفة- سبق ذكره- ص٥.

٦٥- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره- ص(٣٩٢- ٣٩٤).

٦٦- المصدر السابق- ص٤٧٨.

٦٧- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة- المجلد الثالث- مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)- طبعة ١٩٩٤- ص١٣٠٥/٨.

٦٨- محمد سليمان حسن – نظرة في مجتمعات الشرق القديم- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٢٧/ ١٩٩٩- ص٦٣.

٦٩- د، لطفي عبد الوهاب يحيى- العرب في العصور القديمة- سبق ذكره- ص(٣٩٠- ٣٩١).

٧٠- د. محمد الدروبي- اللغة والإله – مجلة دراسات عربية (بيروت) العدد (١- ٢) ١٩٩٩- ص٤٠.

٧١- محمد سليمان حسن- نظرة في مجتمعات الشرق القديم- سبق ذكره- ص٦٢.

٧٢- المصدر السابق- ص٥٩.

٧٣- د. ليلى صباغ- المرأة في التاريخ العربي- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق) ١٩٧٥- ص٤٣.

٧٤- محمد سليمان حسن- نظرة في مجتمعات الشرق القديم- سبق ذكره- ص٦٧.

٧٥- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الثاني)- دار الفارابي (بيروت)

١٩٨٥- ص٥١٤.

٧٦- د. أحمد شلبي- مقارنة الأديان (أديان الهند الكبرى)- مكتبة النهضة العربية (القاهرة)- الطبعة التاسعة ١٩٩٠- ص٧٥.

٧٧- المصدر السابق – ص٧٧.

٧٨- المصدر السابق- ص١٣١.

٧٩- د. احمد شلبي- مقارنة الأديان (الإسلام) – سبق ذكره- ص٢٣٩.

٨٠- توبي أ.هف- فجر العلم الحديث- ترجمة: د. محمد عصفور- عالم المعرفة (الكويت)- الطبعة الثانية/٢٠٠٠- ص٢٨٤.

٨١- الشهرستاني- الملل والنحل- الجزء الثاني (ذيل)- سبق ذكره- ص(٢٩- ٣٠).

٨٢- توم ليتل- جمال عبد الناصر- سبق ذكره- ص (٣١- ٣٢).

٨٣- حسين مرروة- النزعات المادية (الجزء الثاني)- سبق ذكره- ص٣١٤.

٨٤- المصدر السابق (الجزء الأول)- ص٧١١.

٨٥- المصدر السابق- ص٧١١ الهامش.

٨٦- د. عطية العقاد- تيار الوعي السياسي في المسرح الألماني- سبق ذكره- ص٢٢٩.

٨٧- جون كينيت جالبريث تاريخ الفكر الاقتصادي/الماضي صورة الحاضر- سبق ذكره- ص٢٥.

٨٨- محمد نور الدين أفاية- الفلسفة والديموقراطية- مجلة دراسات عربية (بيروت) –العدد (١/٢) ١٩٩٩- ص٦٢.

٨٩- سليمان مظهر- سقراط/ واختيار الموت- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٥١٨/٢٠٠٢- ص٨٢.

٩٠- المصدر السابق- ص٨٣.

٩١- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الثاني)- سبق ذكره- ص٤٦٢.

٩٢- المصدر السابق- ص٤٧٣ الهامش.

٩٣- كيللي- كوفا لزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٤٢٧

الهامش.

٩٤- د. عادل العوا- المدنية/سرابها ويقينها- مطبعة جامعة دمشق- الطبعة الثانية ١٩٦٣- ص٧٣.

٩٥- د. أحمد شلبي- مقارنة الأديان (الإسلام)- سبق ذكره- ص٢٤٠.

٩٦- المصدر السابق- ص٢٤٠.

٩٧- المصدر السابق- ص٢٤١.

٩٨- د. نجاح محمد- السياسة والإنسان والعالم- مجلة المعرفة (دمشق) – العدد /٢٠٠٤/٤٨٤- ص١٩١.

٩٩- بليخانوف- فلسفة التاريخ- دار دمشق للطباعة والنشر٠ ص٩٣.

١٠٠- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الأول)- سبق ذكره- ص٧١٨.

١٠١- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- سق ذكره- ص٧٤.

١٠٢- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره –ص١٧.

١٠٣- ماركس- انجلس- بصدد الدولة- سبق ذكره- ص(٢٨٨/٢٨٩).

١٠٤- المصدر السابق- ص٢٨٩ الهامش.

١٠٥- حسين مروة – النزعات المادية (الجزء الأول)- سبق ذكره- ص٢٠٠ الهامش.

١٠٦- د. أحمد علبي- ثورة الزنج- دار الفارابي (بيروت)- الطبعة الجديدة ١٩٩١- ص(١٠٣- ١٠٤).

١٠٧- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره ص١٦٤.

١٠٨- د. فيليب حتي- تاريخ العرب- دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع- الطبعة التاسعة ١٩٩٤- ص(٤١٠/٤١١).

١٠٩- الطبري- تاريخ الأمم والملوك (المجلد الرابع)- دار المكتبة العلمية (بيروت)- الطبعة الثالثة ١٩٩١- ص٩.

١١٠- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الأول)- سبق ذكره- ص٢٣١/٢٣٢.

١١١- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص١٩.

١١٢- حسين مروة – النزعات المادية (الجزء الأول- سبق ذكره- ص٤٨٧.

١١٣- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الثاني)- ترجمة: بدر الدين السباعي- دار الجماهير (دمشق)- ص٣٩٦.

١١٤- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الأول)- سبق ذكره- ص٢٢٣.

١١٥- د. مسعود ضاهر- النهضة العربية والنهضة اليابانية- سبق ذكره ص٤١.

١١٦- د. هاني يحيى نصري- دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٥٨/٢٠٠١- ص(١٢/١٣).

١١٧- د. محمد محفل- عولمة أمريكية.. وحداثة إنسانية- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد/٤٨٥/٢٠٠٤- ص(١٤٠).

١١٨- المصدر السابق- ص١٤٠.

١١٩- المصدر السابق- ص١٤١.

١٢٠- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية – سبق ذكره- ص١٦٥.

١٢١- اليزابيت جينبواي- مكانة المرأة في عالم الرجل- ترجمة: حسن بسام- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق) ١٩٨١- ص(٢١/٢٢).

١٢٢- كيللي/كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٧٨.

١٢٣- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص٢١.

١٢٤- د. جورج حنا- قصة الإنسان- دار العلم للملايين (بيروت)- الطبعة الرابعة ١٩٦٣- ص١٣٩.

١٢٥- د. حاتم الطحاوي- المسلمون في مملكة القدس- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٥١٧/٢٠٠١- ص٦١.

١٢٦- المصدر السابق- ص٦٢.

١٢٧- بازيلي- سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي- ترجمة: د. يسر جابر- مراجعة: د.منذر جابر- دار الحداثة (بيروت)- الطبعة الأولى ١٩٨٨ ص١٩.

١٢٨- المصدر السابق- ص١٩ الهامش.

١٢٩- د. مسعود ضاهر- النهضة العربية والنهضة اليابانية- سبق ذكره- ص(٣٤٨- ٣٤٩).

١٣٠- د. إبراهيم القادري بوتشيش- المجتمع العماني، عاداته وتقاليده من خلال رحلة ابن بطوطة- مجلة عالم الفكر (الكويت)- العدد/١/المجلد/٢٨/١٩٩٩- ص١٠٤.

١٣١- د. هاني يحيى نصري- دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة/ المدارس اليونانية في روما- مجلة المعرفة (دمشق) العدد /٤٥٨/٢٠٠١- ص١٧.

١٣٢- محمد سليمان حسن- نظرة في مجتمعات الشرق القديم- سبق ذكره، ص٥٩.

١٣٣- انجلس- الاشتراكية الطوباوية/ والاشتراكية العلمية -دار التقدم (موسكو) ص(١٤/١٥).

١٣٤- د. أحمد شلبي- مقارنة الأديان (المسيحية) سبق ذكره- ص(٨٥/٨٧).

١٣٥- د. عبد الرزاق عيد- سدنة هياكل الوهم- دار الطليعة (بيروت) – الطبعة الأولى- ٢٠٠٣- ص٦.

١٣٦- د. أحمد أبو زيد- الطريق إلى المعرفة- كتاب العربي (٤٦) (الكويت)- الطبعة الأولى ٢٠٠١- ص(٩٥- ٩٦).

١٣٧- د. أحمد شلبي- مقارنة الأديان (المسيحية)- سبق ذكره- ص٢١٢.

١٣٨- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره ص(٤٨٨- ٤٩٠).

١٣٩- جون كينيث جالبريث- تاريخ الفكر الاقتصادي/ الماضي صورة الحاضر- سبق ذكره- ص(٣٤- ٣٥).

١٤٠- جورج مينوا- تاريخ جهنم- ترجمة: انطوان الهاشم- عرض: محمد سيف حيدر- مجلة العربي (الكويت)- العدد/٥١٩/٢٠٠٢- ص(١٩١- ١٩٢).

١٤١- حسين إبراهيم أحمد- (تجاوز الرأسمالية؟.. شعار ملتبس- مجلة الطريق (بيروت)- العدد الخامس ٢٠٠١- ص٦٦.

١٤٢- د. احمد شلبي- مقارنة الاديان (المسيحية) – سبق ذكره- ص٢٠٣.

١٤٣- المصدر السابق- ص٢١٤.

١٤٤- توبي أ.هف- فجر العلم الحديث- سبق ذكره- ص١٢٨.

١٤٥- حسين مروة – النزعات المادية (الجزء الثاني)- سبق ذكره- ص٢٤٠.

١٤٦- جورج مينوا- تاريخ جهنم- سبق ذكره- ص١٩٣.

١٤٧- انجلس- الاشتراكية الطوباوية/والاشتراكية العلمية- سبق ذكره ص٨٥.

١٤٨- د. عبد الإله بلقزيز- العرب والحداثة- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٢٠٠٤/٤٨٥- ص٨٧.

١٤٩- د. عادل زيتون- وحشية محاكم التفتيش- مجلة العربي (الكويت) –العدد /٢٠٠٣/٥٣٦- ص٥٨.

١٥٠- المصدر السابق- ص(٥٨- ٥٩).

١٥١- المصدر السابق- ص٥٥.

١٥٢- د. عادل زيتون- سيف اللاهوت- مجلة العربي (الكويت)- العدد/٢٠٠٤/٥٤٦- ص(١٢٠- ١٢١).

١٥٣- د. احمد شلبي- مقارنة الأديان (المسيحية)- سبق ذكره- ص٢١٥.

١٥٤- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره- ص٣٩٤.

١٥٥- توبي أ.هف- فجر العلم الحديث- سبق ذكره- ص٨١.

١٥٦- المصدر السابق- ص٣٩٤.

١٥٧- د. جورج حنا- قصة الإنسان- سبق ذكره- ص(١٢٣- ١٢٤).

١٥٨- د. مصطفى محمد العدوي- العلم.. بين التاريخ والفلسفة والدين- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١١- ١٢) ٢٠٠١- ص١٨٥.

١٥٩- ماركس/ انجلس- المختارات في أربعة أجزاء (الجزء الثاني)- دار التقدم (موسكو)- ص٢٥٥.

١٦٠- توبي أ.هف- فجر العلم الحديث- سبق ذكره- ص٣٩٥.

١٦١- ابن خلدون- المقدمة- دار إحياء التراث العربي (بيروت) ١٩٨٨ ص٣٨٩.

١٦٢- د. عيسى محمد الأنصاري- التاريخ الإسلامي بين الخطابين الديني والسياسي- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٥١٥/ ٢٠٠١- ص٢٥.

١٦٣- المصدرالسابق- ص٢٥

١٦٤- د. حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الثاني)- سبق ذكره- ص٢٣٨.

١٦٥- المسعودي- مروج الذهب (الجزء الرابع)- منشورات دار الهجرة (إيران- قم)- ص٥.

١٦٦- د. فيليب حتى- تاريخ العرب- سبق ذكره- ص٣٨٦.

١٦٧- ابن خلدون – المقدمة- سبق ذكره- ص٢٥١.

١٦٨- الطبري- تاريخ الأمم والملوك (الجزء الثالث) – سبق ذكره- ص٣٠٧.

١٦٩- المسعودي- مروج الذهب (الجزء الرابع)- سبق ذكره- ١٩٢.

١٧٠- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الثاني)- سبق ذكره- ص٨٥.

١٧١- المصدر السابق- ص٥٩.

١٧٢- الطبري- تاريخ الأمم والملوك (الجزء الرابع)- سبق ذكره- ص٢١٩.

١٧٣- ابن عبد ربه- العقد الفريد (الجزء الثاني)- تحقيق: د: مفيد محمد قميحة- دار الكتب العلمية (بيروت)- ص٢٢٠.

١٧٤- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الأول)- سبق ذكره- ص٥٧١.

١٧٥- المصدر السابق- ص(٥٧٢- ٥٧٣).

١٧٦- المصدر السابق- ص(٥٨٠- ٥٨١).

الفصل الثاني
الديموقراطية البورجوازية

«إن الرأسمال يكره فقدان الكسب، كما يكره الكسب الضئيل، وكما تكره الطبيعة الفراغ. وليكن مضموناً ١٠٪، عندئذٍ يمكن استخدام الرأسمال في كل مكان. أما إذا كان ٢٠٪ مضموناً، فإنه يتحمس ويحمى. وإذا كان ٥٠٪، كان جسوراً جنوني التهور، وعند ١٠٠٪ يدوس بقدميه جميع الشرائع البشرية. وعند ٢٠٠٪ لا يكون ثمة جريمة لا يجرؤ على ارتكابها، حتى ولو تعرض للمشنقة. وحين تكون الفوضى والشقاق ملائمين للربح فإنه يشجعهما كليهما، والدليل على ذلك أعمال التهريب وتجارة الرقيق»(١).

إذا بلغ الربح ٢٠٠٪ تصاب الطغمة المالية بداء الكلب، وتنهش في كل الاتجاهات، دون أي حساب لرصاصة شرطي البلدية.. ليس في هذا الكلام من غرابة... بعد تأكيد التاريخ له بلسان فصيح.

الطغمة المالية تحكم البيت الأبيض وتدير المافيا الدولية لتهريب المخدرات وتجارة الآدميين... هذه الطغمة قيّدتها ثورة أكتوبر ١٩١٧ وحجّمت نهبها... للخلاص من وضعها هذا:

- صرفت مليارات الدولارات على المؤامرات وأعمال التخريب.
- جنّدت كل الشياطين على هذا الكوكب من أجل التآمر والتخريب.

صرفت.. وجنّدت.. من أجل تحطيم قيدها في ملعب الصراع الطبقي... وبعد أن تحقق لها تلقف الكرة، راحت تلهث وراء نهب ٢٠٠٪... تلهث ويدها على زناد صواريخها لقتل البشر في كل الاتجاهات... لا ينكر هذا الواقع المعاش إلا من كان (قطروزاً)* لهذه الطغمة أو في نفسه مرض.

---

* القطروز: الولد الذي يعمل في خدمة المزارع الكبير.

الطغمة المالية: هجمت على كل الشعوب بما فيها شعبها ذاته، وككل العاهرات علّبت منكر أعمالها بعلبة الأخلاق... فهي – لا بارك الله فيها – لا تريد نسف خيرات الشعوب... وإنما تريد الخير وغلبة الشرّ.. تريد لمّ شمل البشرية على (صحن واحد) مع التنعم بنعمة:

- الديموقراطية.
- حقوق الإنسان.

بسلاح الحق هذا، هجمت الإمبريالية تريد الباطل... ولقوننة هجومها صنّعت (١١ أيلول) ٢٠٠١، صنّعته من أجساد مواطنيها لاختلاق ذريعة الإرهاب وتحويلها «قانوناً» تستخدم به الدول في جمع ما تريد نهبه... وهكذا كان.

كان هجوم الشر مقونناً ومشروعاً، وبدأ العاهرون بعد التوكل على الشيطان سطوهم على أفغانستان.. وأمطروا هذا البلد نيران جهنمهم دون تمييز، حتى دمّروه وقتلوا رفاق الأمس (طالبان)، ونصّبوا عليه رمز «ديموقراطيتهم» «حامد قرضاي» بانتخاب مباشر أفرزته صناديق الإقتراع التي قذفت بها طائرات البنتاغون... وما كان للشعب الأفغاني أن ينعم بهذه «الديموقراطية» لولا هذه الطائرات، التي ما أن أنهت مجزرتها في أفغانستان حتى توجهت لفعل «الخير» في مكان آخر... في العراق، ولسباقها على فعل «الخير» ضربت بقرارات مجلس الأمن عرض الحائط وسط صراخ نمرودها (بوش) وهو يردد على مسامع الجميع «الوقت ينفذ»... أن السطو على العراق حاجة ملحّة من أجل سلامة البشرية، ..ومن أجل هذه «السلامة»، أسرع «ابن الأجاويد» هذا... وكان السطو على العراق... على بلد الحضارة الأولى... وتساقطت «النعم» على بلد الرشيد... وقُبض على بغداد في ٢٠٠٣/٤/٩ وهي تذرف الدمع الساخن الحزين على العرب والعروبة، وجُرَّ العراق إلى ما قبل آلاف السنين، فلا دولة... ولا جيش... ولا قانون... ما عدا (بريمر) الصهيوني بامتياز يجلس على عرش الرشيد في بغداد، ليصنع من العراق بلداً نموذجاً في المنطقة... ولمثل هذا النموذج... كانت النماذج المشينة التي قصّها سجن (أبو غريب).

سـجن أبـو غـريـب، هـو، التعبير الحقيقـي لخلـق سـاكني البيت الأبـيض في واشنطن، وهـم يلهثون وراء ربـح ٢٠٠٪... تماماً كمـا عبّـر زرع إسـرائيل عـن هـذا الخلق. سـجن أبـو غـريـب وإسـرائيل، حـدثان تاريخيـان، يعـبران أصـدق تعـبير عـن «الديموقراطيـة الإمبرياليـة» في سـلوكها لنهـب خـيرات الـشعوب... ولتعمـيم هـذا النّهب، يجب تعميم «الديموقراطية» التي يـأتي علـى صـهوتها (حـامـد قرضـاي) – (أبو رغال العصر الحديث)*.

لزرع هذا الحـامد وفق الطلب، لابدّ من تغيير الخارطة السياسية في المنطقـة... أي ترْكُ حلفاء الأمس بعد أن مضى زمن «موضتهم» التي تجاوزتها حداثة عبوديـة «قرضاي».

علـى هـذه الخسّة مـن مفـرزات الإمبرياليـة «خلـص التحليـل الأمريكـي الـذي بثته الولايات المتحدة في بياناتها الرسمية وخطابها الرسمـي إلى أن الديكتاتورية والإرهـاب في العـالم العربـي، وتعقـد حـل الـصراع العربـي – الإسـرائيلي يمكـن علاجهـا جميعـاً بإقامـة الديموقراطيـة في العـالم العربـي، بحيـث يـتم إعـادة بنـاء المجتمعـات العربيـة وخلقهـا خلقـاً جديـداً»(٢)، علـى يـد خـالق – أسـتغفر اللّه – أمريكـي، لا تقـف قدرتـه عنـد «خلـق عـراق جديـد»... بـل تتجـاوز ذلـك إلى خلـق «عـالم عـربي جديـد» يقوده «حامد قرضاي» جديد جداً، عنـد الانتهـاء مـن عمليـة الخلق هـذه:

- يُحل الصراع العربي – الصهيوني، هذا أولاً.
- تقبض أمريكا على مفاتيح الثروة العربية، هذا ثانياً.

ولتقانة (أولاً وثانياً)، تعمـل أمريكـا علـى قلـب المفـاهيم العربيـة في الثقافـة، لقلـب التـاريخ العربـي مـن أجـل إعـداد عقـل جمعـي عربـي يستـسلم لمـصالحها الطبقية دون مشاكسة، بل تتجاوز ذلك إلى إعداد عقـل جمعـي عـالمي يستسلم لهذه المـصالح. للوصـول إلى هـكـذا وضـع.. تـبطش أمريكـا وتقتـل كـل مـن لا

---

* أبو رغال: دليل أبرهة لهدم الكعبة.

يذعن، لهدف «ديموقراطيتها» «الخير النبيل» إمبريالياً... من هنا جاء توحشها الذي يكشف الغطاء عنه تشومسكي، عندما تساءل: كم قتل الوحش الأمريكي؟ «ثم يستعرض تشومسكي الدعم الذي قدمته أميركا في العقود الماضية لأنظمة إرهابية، فيذكر النظام العنصري في أفريقيا الجنوبية الذي مات من جرائه مليون ونصف مليون شخص، والنظام الأندونيسي الذي قام ابتداء من ١٩٦٥ بقتل مئات الآلاف من الأشخاص، مروراً بما قامت به أميركا في نيكاراغوا والعراق ودعمها لإسرائيل»(٣)، ودعمها لإسرائيل من نسيج توحشها... من طبيعتها الإمبريالية التي ولدت من رحمها هذه الإسرائيل، والسؤال الآن!

– كيف بدأ التوحش الرأسمالي طريقه..؟

في رحم ديكتاتورية (الإقطاع – الكهنوت)، كانت تتشكل ديكتاتورية طبقة جديدة، هي، الطبقة البرجوازية، بعد أن ملكت هذه الطبقة أدوات إنتاج جديدة غيّرت علاقات الإنتاج الإقطاعية إلى علاقات إنتاج برجوازية: «إن وسائل الإنتاج التي قامت البرجوازية على أساسها، نشأت داخل المجتمع الإقطاعي، ثم، لما بلغت هذه الوسائل حداً معيناً من التقدم والرقي، لم تعد الظروف التي كان المجتمع الإقطاعي ينتج ويبادل ضمنها، لم يعد النظام الإقطاعي للزراعة والصناعة، أي بكلمة واحدة، لم يعد النظام الإقطاعي للملكية يتفق مع القوى المنتجة في ملء تقدمها، بل أصبح يعرقل الإنتاج عوضاً عن تطويره، ثم تحوّل إلى قيود تكبله، وأصبح من الواجب تحطيم هذه القيود، فحطمت.

وحلّت محلها المزاحمة الحرة، يرافقها نظام اجتماعي وسياسي يناسبها، وقامت السيطرة الاقتصادية والسياسية للطبقة البرجوازية»(٤)، التي كانت قد بدأت خطوتها الأولى مع ظهور الطبقة الوسطى، فـ «عندما خرجت أوروبا من القرون الوسطى، كانت الطبقة المتوسطة النامية في المدن تشكل العنصر الثوري في هذه القرون. فإن الوضع المعترف به الذي كانت هذه الطبقة قد اكتسبته في النظام الإقطاعي في القرون الوسطى، غدا ضيقاً جداً لقدرتها

على التوسع. وقد أصبح تطور الطبقة المتوسطة، تطور البرجوازية، غير متلائم مع النظام الإقطاعي، لذا كان لابد أن يسقط النظام الإقطاعي»(٥).

سقط الإقطاع، الذي اعتبر الفلاح من ممتلكاته.. لتظهر طبقة برجوازية تعتبر العامل المأجور من ممتلكات الرأسمال.

نعم: سقط الإقطاع وحُيِّد لاهوته. أمام طبقة برجوازية ولاهوت متخصص جديد، لتتشكل منهما (ديكتاتورية)٢، كل هذا بعد أن «بلغ نضال البرجوازية الأوروبية الطويل ضدّ الإقطاعية ذروته في ثلاث من المعارك الحاسمة. المعركة الأولى هي ما يسمى بالإصلاح البروتستانتي في ألمانيا. فاستجابة لدعوة لوثر إلى النضال ضدّ الكنيسة، شبت انتفاضتان سياسيتان. في البدء انتفاضة النبلاء الصغار بقيادة فرانتس فون زيكينفن (عام ١٥٢٣) ثم حرب الفلاحين الكبيرة عام ١٥٢٥. وقد قُمعت الانتفاضتان، خصوصاً من جراء تذبذب برجوازية المدن، أي الحزب الذي كانت له المصلحة الكبرى فيها، وليس بوسعنا أن نبحث هنا أسباب هذا التذبذب، ومذ ذاك، تحول النضال إلى عراك بين الأمراء المحليين والسلطة المركزية، وانتهى بإمحاء ألمانيا، طوال قرنين، من بين الأمم الأوروبية التي تضطلع بدور سياسي نشيط. بيد أن الإصلاح اللوثري أقام فيها مع ذلك ديناً جديداً، هو بالذات ذلك الدين الذي كانت الملكية المطلقة بحاجة إليه. ولم يعتنق الفلاحون في شمال شرقي ألمانيا اللوثرية حتى تحولوا من أناس أحرار إلى أقنان»(٦).

أقول تطور أدوات الإنتاج، رافقه تطور اللاهوت المتخصص، وهذا وذاك، وضع في خدمة علاقات إنتاج جديدة تقوم عليها البرجوازية الصاعدة، ولهذا «فإن الناس لا يتخلون أبداً عما اكتسبوه، ولكن هذا لا يعني أنهم لن يتخلوا عن ذلك الشكل من أشكال المجتمع الذي اكتسبوا فيه قوى منتجة معينة. بل العكس. فلكي لا يفقد الناس النتيجة الحاصلة، لكي لا يخسروا ثمار الحضارة، ينبغي عليهم أن يغيروا جميع الأشكال الاجتماعية الموروثة عندما لا يبقى أسلوب تعاملهم (Commerce) متطابقاً مع القوى المنتجة المكتسبة -

وأنا أستعمل هنا كلمة (Commerce) بأوسع معانيها، بالمعنى الذي تستعمل به في الألمانية كلمة (Verkenr).

مثلاً: إن الامتيازات، وطوائف الحرف، والجمعيات، وكل بنية التنظيم الحرفي في القرون الوسطى، إنما كانت عبارة عن علاقات اجتماعية مطابقة وحدها دون غيرها للقوى المنتجة المكتسبة وللنظام الاجتماعي الموجود من قبل، والذي انبثقت منه هذه المؤسسات، وفي ظل بنية التنظيم الحرفي، تراكمت الرساميل، وتطورت التجارة البحرية، وأسست المستعمرات، ولو أن الناس أرادوا صيانة الأشكال التي نضجت في ظلها ثمار كل هذا، لكانوا حرموا أنفسهم من هذه الثمار. ولهذا دوت ضربتان كدوي الرعد، هما ثورتا ١٦٤٠ و١٦٨٨*. فإن جميع الأشكال الاقتصادية القديمة، والعلاقات الاجتماعية المطابقة لها، والنظام السياسي الذي كان التعبير الرسمي عن المجتمع المدني القديم، .... كل هذا تمّ تدميره في إنجلترا. وعليه تكون الأشكال الاقتصادية التي ينتج في ظلها الناس ويستهلكون ويتبادلون أشكالاً عابرة وتاريخية. ومع اكتساب قوى منتجة جديدة، يغيّر الناس أسلوب الإنتاج، ومع أسلوب الإنتاج يغيّرون جميع العلاقات الاقتصادية التي لم تكن علاقات ضرورية إلا لأسلوب الإنتاج المعين هذا»(٧).

إذن:

- أدوات الإنتاج الجديدة... تخلق.
- أسلوب إنتاج جديد... يغيّر.
- جميع العلاقات الاقتصادية... التي تغيّر.
- ميدان العلاقات الاجتماعية في المجتمع.

هكذا، يصنع التاريخ: «لقد برهن ماركس على أنه، بالرغم من أن الناس

---

* المقصود هنا الثورة البرجوازية في إنجلترا (١٦٤٠- ١٦٦٠) والانقلاب السياسي الذي وقع سنة ١٦٨٨ وانتهى بعودة سلالة ستيوارت إلى الحكم وأقام الملكية الدستورية على مساومة بين الأرستقراطية العقارية والبرجوازية الكبيرة.

هم الذين يصنعون التاريخ، فإن الذي يحدد تطور التاريخ ليست إرادة الناس ورغباتهم وإنما الظروف المادية للحياة الاجتماعية والقوانين الموضوعية التي تعمل في قاعدة الحياة المادية ذاتها.

ولقد فهم ماركس التاريخ، لأول مرّة، ديالكتيكياً – كعملية موضوعية مقوننة لتطور وتغيّر المجتمعات المختلفة»(٨)، مع تغيّر أسلوب الإنتاج الذي شكل «فصلاً حاسماً من فصول المعركة ضدّ القرون الوسطى ومواريثها، انتهى بانتصار العقل على اللاهوت و«الرعية» على طبقة رجال الدين، وإذا كان سائغاً أن يقال – وهو لا شك سائغ – إنه انتصار يعزز بـ – وتحقق من خلال وبانتصار مع – انتصار علاقات الإنتاج الرأسمالية الوليدة والصاعدة على نمط الإنتاج الإقطاعي، في حلبة الاقتصاد، وانتصار الثورة البرجوازية على الأنظمة الملكية المطلقة والمستبدة في حلبة السياسة، فإن ائتلاف العقلانية والرأسمالية والثورة في حلف مشترك كان الرّد التاريخي «الطبقي» والموضوعي الذي قاد إليه تحالف الثالوث القروسطي المزمن: الكنيسة والإقطاع والملكية. وفي الحالات جميعاً أذنت تلك الانتصارات بانتقال حاسم إلى عصر جديد هو عصر الإنسان»(٩)... هو عصر أسلوب إنتاج جديد، تقوده طبقة ملكت وسائل الإنتاج، واستعملت العنف ضدّ الآخر للسيطرة على ميدان العلاقات الاجتماعية، ليبقى النّهب في سهمها. إن العنف هو السمة التي يمتاز بها المجتمع الطبقي، والمرافق لتطوره من نمط إنتاجي إلى آخر في التشكيلات الاستغلالية المتعاقبة: «كالانتقال من نمط إنتاجي إلى آخر أكثر تطوراً منذ بداية الحضارات الإنسانية القديمة وحتى الآن.

فانتقال التجمعات البشرية الأولى منذ الألف العاشر ق.م وتعلّمها الزراعة، إلى حضارات الأنهر الزراعية، ثم الانتقال إلى نمط الإنتاج العبودي، فالإقطاعي، فالرأسمالي، وعلى مستوى العالم، هو انتقال طبيعي طالما هو صعود نحو الأعلى، ومع أنه انتقال طبيعي، إلا أنه لم يتم بخط مستقيم واحد بالنسبة لكل المجتمعات. والذي كان يحكمه ليس بؤرة حضارية واحدة

عممت أو «عولمت» نتاجها للحضارات الأخرى، إنما هو نتاج تفاعل الحضارات القديمة جميعاً (ويمكن لنا ملاحظة ذلك من خلال قراءتنا لاكتشاف الإنسان للزراعة قديماً، وكيف أصبحت الزراعة وسيلة إنتاج رئيسية على مستوى العالم عبر التاريخ).

وكما أن هذا الانتقال من طور اجتماعي واقتصادي وسياسي وفكري أدنى إلى طور أعلى، لم يتم بخط مستقيم كما ذكرنا، كذلك نجده لم يتم بشكل سلمي (أو طبيعي كما نريد أن نسميه) إنما كان العنف (أو القسر) هو العامل الحاسم الذي حسم الصراع لصالح الطبقات الأكثر تقدماً تاريخياً»(١٠)، وبكلام آخر، إن عنف الطبقة الأقوى – المالكة لوسائل الإنتاج – كان العامل الحاسم في تلقف الكرة.. وهذا يعني تسلط هذه الطبقة وقمعها الطبقات الأخرى في مرحلتين:

- الأولى: العنف للقبض على الكرة.
- الثانية: العنف لاستمرار القبض على الكرة.

وعلى محور العنف هذا، سارت العملية التاريخية منذ ظهور الطبقات... سارت هكذا «ضد هذا الشكل للملكية الخاصة لمصلحة شكل آخر لها. فقد كان يتغيّر المستغِلّون ويبقى الاستغلال»(١١)، إلى أن حط رحاله في الرأسمالية.. ومن أجل استمراره لاستمرار حياة هذه الرأسمالية، تطور من البسيط إلى المركّب بتناسب مع تطور الرأسمالية من الأدنى إلى الأعلى، إلى أن أصبح معقد التركيب يفرض عنفاً على شبهه.. ومن هنا تجاوز العنف في الرأسمالية كل توحش سبقه «ولقد سبق أن كانت هناك علاقة سيطرة وخضوع في القرون التي سبقت المرحلة الرأسمالية القائمة أيضاً على الأساس الاستغلالي، ولكن في كل من نظامي الرق والإقطاع، رغم الاحتلال من جانب بعض الدول لبعضها الآخر – لم تقم الدول المستعمرة (بكسر الميم) بالقضاء على الحياة الاقتصادية العادية لشعوب الدول المحتلة، ولم تعمل بنفس الوقت من أجل تطوير سريع للإنتاج. ويختلف الأمر لدى السياسة الاستعمارية في مرحلة

التكـون والتطـور لطريقـة الإنتـاج الرأسمـالي. وتتحـصر الفكـرة الأساسـية الرأسماليـة في إمكانيـة قـدرتها علـى اسـتثمار الثـروات المنهوبـة مـن الـدول المستعمرة، وتحويلها إلى رؤوس أموال احتكارية ذات طبيعة استعمارية»(١٢).. أي ذات طبيعة منتجة للعنف، والسؤال!

- كيف أصبحت الرأسمالية منتجة للعنف..؟

الرأسمالية بعد أن نهبت شعوبها بلغت مرحلة الاحتكار فأفرزت طبيعتها الاستعمار.

الاستعمار عنف لنهب خيرات الشعوب... والمنهوب من هذه الخيرات، يتحوّل إلى (بضاعة البضاعة) في خزائن الاحتكارات:

- يتحول إلى أداة عنف جديد، حيث يفرز إنتاجاً جديداً... يحتاج إلى أسواق جديدة... أي إلى استعمار بلدان جديدة لنهب خيراتها.

وهكذا دواليك... ومن هذه الدواليك تشتد عقد العنف فتفرز تقسيم العمل بين:

- بلدان تملك وسائل الإنتاج وتملك احتكاراتها «بضاعة البضاعة»، هذا أولاً.

- بلدان ضعيفة النمو الاقتصادي – لأسباب عديدة – هذا ثانياً.

(أولاً) سيطر على (ثانياً) بعنف مركب:

- نهب خيراته.

- منع تطوره.

ولنهبٍ ومنعٍ بتقانة، كان تقسيم العمل، وكان الاستعمار لضم الشعوب إلى هذا التقسيم (بالعصا).

«إن ضم الدول ضعيفة التطور إلى نظام تقسيم العمل الدولي واستغلال أراضيها، لم يساهم في تكوين البناء التقدمي للصناعة، بل على العكس تماماً، حيث تطورت بعض الصناعات الوحيدة الجانب، بما يتلاءم مع مصالح الرأسمال. وتطلبت هذه المصالح تحويل الدول النامية الضعيفة إلى أسواق

لتصريف المنتوجات الصناعية، ومصدر للحصول على المواد الخام الرخيصة والمواد التموينية، أي إقامة المشاريع الإنتاجية، التي تدفع فيها أجور عمل ضئيلة، وبالطبع في مثل هذه الظروف يصعب الكلام عن التطور الفعال للاقتصاد الوطني في هذه البلدان.

وأكثر من هذا فبقدر ما يتم استقطاب هذه البلدان، وربطها باقتصاد رأس المال العالمي... بقدر ما يتكون في اقتصادها قطاعان متمايزان من قطاعات الإنتاج: احتكاري سلعي، وعادي قد يتم (المنتوجات الزراعية الطبيعية مع بعض الإنتاجات الحرفية القديمة) بوسائل الإنتاج القديمة البسيطة، ولا يوجد بين هذين القطاعين صلات عضوية، ولقد نجم عن هذا القطاع السلعي، أن الاقتصاد الوطني لهذه البلدان كان يقوم على تخصيص وحيد الجانب، أي على إنتاج نوع واحد أو عدة أنواع من المواد الخام التي تصدر إلى الدول الصناعية، أما الذي يخص القطاع القديم، فهو كما كان في السابق لا قيمة له فعلياً، ويؤثر تأثيراً عكسياً على التطور الاقتصادي عامة»(١٣).

هذا ما يفرزه تقسيم العمل، ويؤكد أن هذا التقسيم أداة عنف رهيبة، تجاوز قهرها كل ما عرفته البشرية من عنف في التشكيلات الاجتماعية السابقة، حيث: «لم يكن هناك أي أثر لخطة تقسيم العمل الدولي. ومن المعروف أن القوى الإنتاجية في المجتمع الإقطاعي، - إذا لم نتعرض لمجتمع الرق – كانت ضعيفة جداً ولم يكن بمقدورها القيام بهذه العملية، بل لم تكن لديها الرغبة للقيام بهذا. وفقط ظروف الرأسمالية، ومع تطور الصناعة، والمواصلات، ووسائل الاتصال، أخذت هذه المرحلة بالتنفيذ. «فقبل تكوين الصناعة الحديثة، كتب ك. ماركس – كانت تمتاز صناعة إحدى البلدان بأنها تتخصص بتصنيع مادة ما من المواد الخام التي يتم إنتاجها في أراضيها بالذات، وعلى هذا الشكل كانت قد صنعت بريطانيا الأصواف، وصنعت الهند – القطن، وهكذا دواليك. وبفضل استخدام الآلات بوشر العمل من أجل وضع خطة لتقسيم العمل، ولقد وصل الأمر إلى أن تصبح الصناعات الثقيلة

منفصلة عن المجال الوطني، وأخذت ترتبط بالسوق العالمي وبالتبادل، وبنظام تقسيم العمل الدولي»(١٤)، الذي لا يهدف تحقيق الكرامة الإنسانية بل هدرها ونهب الأرزاق، والنهب – بلا شك – يشكل ذروة العنف والقهر. «ولقد كتب كارل ماركس في مجال الكشف عن المضمون الاقتصادي والاجتماعي للعلاقات المتكونة بين جماعتي الدول على أساس تطوير نظام تقسيم العمل الدولي، محدداً إياه بما يلي: «إن رخص تكاليف الإنتاج الآلي، والانقلاب السريع في وسائل المواصلات والروابط جعلها تؤدي إلى السيطرة على الأسواق الأجنبية من قبل الاحتكارات العالمية. ولقد قامت الصناعات الآلية بالقضاء تدريجياً على طرق العمل اليدوي القديم، وجعلت من هذه الأسواق الدولية مكاناً يقدم لها المواد الخام، الموزعة حسب المناطق المختلفة، وعلى سبيل المثال، كان على الهند الشرقية أن تنتج لبريطانيا العظمى القطن، والصوف والقنب والجوت والنيلة وغيرها... وتنشئ مراكز إنتاج صناعية جديدة حسب توزيع إنتاج الخامات، وحسب نظام تقسيم العمل الدولي، والذي يحوّل قسماً من الأراضي إلى الأعمال الزراعية الخالصة، والقسم الآخر إلى مجال الإنتاج الصناعي»(١٥)، وهذا وذاك في خطة تقسيم العمل أفرزه حاجة الاحتكارات لدماء حياتها من المال الحرام... ولما كان كرش الاحتكارات في انتفاخ دائم من بلع هذا المال... كان لابدّ من تقسيم جديد يتلاءم مع كل انتفاخ جديد... من هنا، جاء مخطط (الإمبريالية – إسرائيل) لشرق أوسط جديد، تحت شعار «الديموقراطية»... وهو في حقيقته تقسيم عمل جديد (سايكس – بيكو) جديد، على قدر انتفاخ كرش الاحتكارات الجديد... وإلا ستقع هذه في أزمات قاتلة... وحتى لا يقع هذا... وبعد تلقف الإمبريالية الكرة في ملعب الصراع الطبقي، قرّرت عودة الاستعمار بياض النهار... وعودته هكذا تعود لسببين:

- العدو الطبقي في غرفة الإنعاش.
- الأنظمة التابعة طبقياً للإمبريالية هبطت نحو الأسفل أكثر، حتى أصبحت كالأيتام على مائدة اللئام.

هكذا وضع، سمح للإمبريالية حمل شهادة حسن سلوك تصفها بأنها قوة «خيّرة» لا تريد للبشرية سوى السعادة في إطار «ديموقراطي».

الإمبريالية: جعلت من «ديموقراطيتها» خشبة إنقاذ لكل الشعوب، ونصّبت نفسها «الوصي الشرعي» على هذه الشعوب... فمن قبل هذه الوصاية بغى لنفسه «الخير»... ومن شاكس، فصواريخ كروز كفيلة بحمل «حامد قرضاي» إلى مركز القرار.

على هذه البرمجة الإمبريالية يعود الاستعمار (القديم – الجديد) بثوب «إنساني» لنهب «حلال» هذه المرّة... يعالج أزمة الرأسمالية بتدخل «إنساني». إن الثوب الإنساني والتدخل الإنساني، ومهما سُوّق من حلو الكلام لا يغيّر من الحقيقة الموضوعية... لا يغيّر حقيقة لصوص الدنيا إلى أشرافٍ خيّرين لشهادة مسروقاتهم عليهم.

إن السطو طبيعة إمبريالية يختلف في محتواه عن السطو في التشكيلات الاجتماعية السابقة للرأسمالية، حيث «كانت الجائحات الاقتصادية التي جرت في التشكيلات السابقة للرأسمالية، تحمل طابعاً... يختلف كل الاختلاف. هذه الجائحات كانت تنجم عن مصائب عفوية، كالجفاف، والطوفان، والأوبئة الرهيبة، أو تنجم عن أحداث ذات طابع اجتماعي كالغارات والحروب، التي تحول كل شيء إلى قفر بلقع، هذه الجائحات التي تسبب توقفاً في تجديد الإنتاج، وتصيب القوى المنتجة بالخراب، تحدث فاقة شديدة في وسائل المعيشة، وتطلق المجاعة من عقالها لتقتل الكثير من ضحاياها. كل هذا عبارة عن أزمات ضعف إنتاج تنجم عن أسباب غير نابعة مباشرة من جوهر أسلوب معيّن.

أما الأزمات الاقتصادية في الرأسمالية فهي من طينة أخرى. هذه الأزمات التي تغرق الجماهير الشعبية في بؤس لا قرار له، وتحكم على ملايين الناس بالجوع، تندلع عندما تتوفر للمجتمع، عن سعة، وسائل الإنتاج، وسلع الاستهلاك، واليد العاملة.

ولكن جميع عناصر عملية تجديد الإنتاج هذه تبدو غير ذات جدوى، وتبقى

عاطلة، أو تنالها يد التحطيم، في الوقت الذي تستشعر جماهير الشغيلة منه الحاجة الملحة إلى أشد وسائل المعيشة ضرورة. يقول الاشتراكي الطوباوي الفرنسي «فوريي»، عندما لاحظ هذا التناقض الغريب في مرحلة ما تزال، بعد، مرحلة فتوة أسلوب الإنتاج الرأسمالي: «إن وفرة الإنتاج تصبح مصدراً للحاجة والحرمان «ولابد لسير تجديد الإنتاج الرأسمالي من أن يتعطل بالأزمات، نتيجة فعل مجموع تناقضاته»(١٦)، وحتى لا يحدث هذا، ولدت الرأسمالية الاستعمار، ليحقق لها:

- أسواقاً لتصريف منتوجاتها.
- تصريف منتوجاتها، يحقق ما تريد من نهب.
- النهب يتحوّل في خزائن الاحتكارات إلى «نقد».
- النقد المنهوب يوظف في تجديد الإنتاج.
- تجديد الإنتاج يحقق نهباً جديداً.

بآلية النهب هذه، تعرقل الرأسمالية مجيء أجلها... أي تعرقل مجيء هذا الأجل بالعنف ضد الآخر لخطف ما بيده، ولبرمجة هذه اللصوصية، كان الاستعمار. «لقد نشأ الاستعمار باعتباره تطوراً واستمراراً مباشراً لما فطرت عليه الرأسمالية بوجه عام من خصائص أساسية. ولكن الرأسمالية لم تصبح استعماراً رأسمالياً إلا عندما بلغت في تطورها درجة معينة، عالية جداً، عندما أخذ يتحول إلى نقيضه بعض من أخص خصائص الرأسمالية، عندما تكونت وظهرت في جميع الاتجاهات سمات مرحلة انتقالية من الرأسمالية إلى نظام اقتصادي اجتماعي أعلى. والأمر الأساس في هذا السير هو من الناحية الاقتصادية حلول الاحتكارات الرأسمالية محل المزاحمة الحرّة الرأسمالية.

فالمزاحمة الحرّة هي أخص خصائص الرأسمالية، والإنتاج البضائعي بوجه عام، والاحتكار هو نقيض المزاحمة الحرّة المباشرة، ولكن هذه الأخيرة أخذت تتحول أمام أعيننا إلى احتكار، منشئة الإنتاج الضخم ومزيحة الإنتاج الصغير، محلة الأضخم محل الضخم، دافعة تمركز الإنتاج ورأس المال إلى

درجة نشأت وتنشأ عنها الاحتكارات: الكارتيلات والسينديكات والتروستات، دامجة فيها رأس مال نحو عشرة من البنوك تتصرف بالمليارات. وفي الوقت نفسه لا تزيل الاحتكارات المزاحمة الحرّة التي نشأت عنها، بل تعيش فوقها، وإلى جانبها، مولدة، على هذا الشكل، جملة من التناقضات والاحتكارات والنزاعات في منتهى الشدّة والقوة. فالاحتكار هو انتقال الرأسمالية إلى نظام أعلى.

ولئن كانت هناك ضرورة لتعريف الاستعمار تعريفاً غاية في الإيجاز، ينبغي أن يقال: الاستعمار هو الرأسمالية في مرحلة الاحتكار، ومثل هذا التعريف يضم الأمر الرئيس، لأن رأس المال المالي هو نتيجة اندماج رأس مال بضعة من البنوك الاحتكارية الكبرى برأس مال اتحادات الصناعيين الاحتكارية، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فإن تقسيم العالم هو انتقال من سياسة استعمارية تشمل دون عائق أقطاراً لم تستول عليها بعد أية دولة رأسمالية إلى سياسة استعمارية تقوم على احتكار حيازة بقاع الأرض المقسمة بأكملها.

ولكن التعاريف الموجزة للغاية وإن كانت ملائمة لأنها تلخص الأمر الرئيسي، لا تكفي مع ذلك ما دامت ثمة حاجة لتستخلص منها سمات في منتهى الأهمية تصف الظاهرة التي ينبغي تعريفها.

ولذلك، ودون أن ننسى أن جميع التعاريف بوجه عام هي ذات طابع شرطي نسبي وأنها لا تستطيع أبداً أن تشمل جميع وجوه علاقات ظاهرة في حالة تطورها الكامل، ينبغي إعطاء الاستعمار تعريفاً يشمل الدلائل الخمسة الأساسية التالية.

١- تمركز الإنتاج ورأس المال تمركزاً بلغ في علو تطوره درجة نشأت مع الاحتكارات التي تلعب الدور الفاصل في الحياة الاقتصادية.

٢- اندماج رأس المال البنكي بالصناعي ونشوء الطغمة المالية على أساس «رأس المال المالي» هذا.

٣- تصدير رأس المال، خلافاً لتصدير البضائع، يكتسب أهمية في

منتهى الخطورة.

٤- تتشكل اتحادات رأسماليين احتكارية عالمية تقتسم العالم.

٥- انتهى تقسيم أقطار الأرض من قبل كبريات الدول الرأسمالية .

فالاستعمار هو الرأسمالية عندما تبلغ من التطور درجة تكونت فيها سيطرة الاحتكارات ورأس المال المالي واكتسب فيها تصدير رأس المال أهمية كبرى وابتدأ تقسيم العالم بين التروستات العالمية، وانتهى تقسيم جميع أقطار الأرض بين كبريات البلدان الرأسمالية»(١٧)... انتهى تقسيم العمل لتقاسم ثروات هذا الكوكب بين الضواري، ويبين هذا التقسيم أن:

- الرأسمالية	طبيعتها	الاستعمار
- الاستعمار	طبيعته	العنف والإرهاب
- الرأسمالية	طبيعتها	العنف والإرهاب

ومن هذه النتيجة نستنتج:

- الرأسمالية	طبيعتها	العنف والإرهاب
- الديكتاتورية	طبيعتها	العنف والإرهاب
- الرأسمالية	طبيعتها	الديكتاتورية

ووفق هذه المعادلة يتبين:

أن الرأسمالية ديكتاتورية أفرزت القهر والظلم، ورمت شباكها في كل الاتجاهات لاستعمار الشعوب وسرقة خيراتها. فـ «الاستعمار هو ظلم لأمم العالم في حالة اشتداد من قبل حفنة من الدول الكبرى، هو عصر حروب بين هذه الدول الكبرى من أجل توسيع ظلم الأمم وتعزيزه»(١٨)، كما هي شريعة «المتحضرين».

«المتحضرون»: هم كذلك من حيث الشكل... ومن حيث المحتوى يكشف التاريخ علامتهم الفارقة في هويتهم، فيقول: لصوص همج لا يتورعون عن ارتكاب أكبر الكبائر من أجل خطف ما بيد الغير... هذه العلامة لاحظها ماركس بدقة وبراعة، فقال: «إن النفاق العميق والهمجية الملازمة للحضارة

البرجوازية، يظهران أمام عيوننا بكل عريهما حين نشاهد هذه الحضارة، لا في بلداننا، حيث ترتدي أشكالاً محترمة، بل في المستعمرات، حيث تبرز بدون أي أردية وأغطية»(١٩)... وبكلام آخر، كشفت المستعمرات خسّة «المتحضرين» في ظلمهم الشعوب... وما داموا خساس، فهم يتزاحمون ويأخذ بعضهم بخناق بعض من أجل حصة الأسد من «القمة الحرام»... وفي تزاحمهم هذا «يتبدى قانون الرأسمالية الوحشي، حسب تعبير انجلز الصائب، «أكثر من التعبير الكامل عن الحرب السائدة في المجتمع المدني الحديث، حرب الجميع ضد الجميع»(٢٠)، وهي حرب معقدة مركبة أفرزتها الرأسمالية، وتتمثل بـ:

- حرب الرأسماليين ضد الشعوب لنهب خيراتها.
- حرب الرأسماليين ضد بعضهم لنهب حصة الأسد.
- حرب الرأسماليين ضد شعوبهم لنهب خيراتها.

حرب مركّبة قذرة... حرب لصوص أتخم فيها النهابون وجاع فيها المنهوبون... والأنكى من ذلك أن النهابين يقصّون من كروشهم الضاربة من حرام، لنهب المزيد من عرق الجياع... أي:

- قص كروش متخمة لضمور كروش جائعة.

«إن أعظم وثيقة عن هذا التناقض يوردها المؤرخ الأمريكي جيروم دبوس في كتابه «الرأسمالية وثقافتها». لقد كتب منذ زمن غير بعيد، لاحظنا كيف كانت في عيون الناس المعوزين إلى الضروريات الأولى تحترق السلع وتتأجج أكرام القطن باللهب، وتسحق الخنازير. «عامان وهم يحرقون البن في القطارات البرازيلية، ويلقون بآلاف الأطنان منه في اليم – كل هذا من أجل رفع أسعار البن إلى المستوى المطلوب». ثم إنه يورد شهادة مزارع: «لقد زرعت ١٥٢٠ طن من الشوندر السكري على مساحة ١٥٠ أكرا في المزرعة التي استأجرتها، وبعت من السكر ما قيمته ٤٥٦,٠٠٠ جنيه أي ما يكفي لـ ٤٠٠٠ شخص عاماً كاملاً. لكن أسرتي لم تنل شيئاً من السكر منذ ثلاثة أيام، وليس لدي ما أبتاع به. ولقد علفت وبعت ٤٣٠ جولاً من الماشية أي بما قيمته ١٥٠,٠٠٠ جنيه

من اللحوم، وليس ثمة في البيت قطعة من اللحم أو ما يشري به... ولم يكن لي ذنب في حدوث كل هذا، وإنما كان ذنب النظام الاقتصادي الذي يمتص دماء الشعب ويقدم كل شيء للشركات الاحتكارية العملاقة»(٢١).

مصّ دماء الشعب لتتخم الاحتكارات... وحتى لا تلجأ هذه الاحتكارات إلى قصّ كرشها بسبب زيادة الإنتاج – احراق البن وغيره – لجأت إلى تقسم العمل.. إلى الاستعمار للسيطرة على الأسواق الخارجية لتصريف منتوجاتها فيما أسمته بالتجارة العالمية «إن التجارة العالمية تحددها بكليتها تقريباً حاجات الإنتاج وليس حاجات الاستهلاك الفردي»(٢٢)، وحاجات الإنتاج تكمن في تصريفه لإعادة دورته في إنتاج جديد... هذه الدورة أساس حياة الرأسمالية... ولاستمرار هذه الحياة لابدّ من تلاحم العنف الرأسمالي ضدّ الآخر... ومن هنا جاء نداء الضواري «يا رأسماليي العالم اتحدوا» لنهب البشر كل البشر.. ولتقانة هذه الوحدة تمركز الرأسمال «في مؤسسات كانت تسمى «متعددة الجنسية» وأصبحت شركات عابرة الجنسية، وبالطبع عابرة القارات، بقيادة مراكزها الأمريكية على وجه الخصوص، وقد فرض هذا التمركز الاقتصادي الأمريكي آليات «الرأسمالية المتوحشة» على العالم بأساليب إمبريالية متوحشة – أيضاً، إذ كانت «الإمبريالية» تحتفظ بمعناها اللغوي والتاريخي، أي التوسع والتسلط – ولم يثبت تاريخياً، أن أية «رأسمالية» قادرة على أن تظل حبيسة حدودها الوطنية»(٢٣)، وبعبارة أخرى، فإن الرأسمالية غير قادرة أن تظل حبيسة سوقها الداخلي، لعدم قدرة هذا السوق على استهلاك منتوجاتها لإعادة الإنتاج من جديد... من هنا، ولد الاستعمار للسيطرة على أسواقٍ خارجية يضمن للرأسمالية تصريف منتوجاتها.

الرأسمالية بعد أن عجز نهب شعبها عن أرواء ظمأها للمال الحرام... وحتى لا تنتحر خرجت تنهب الشعوب الأخرى.

هذا النهب المركّب، أفرز عنفاً مركّباً... أفرز (ديكتاتورية)٢، ولشدّة عهر لصوص الدنيا سمّوا توحشهم هذا، «ديموقراطية»: «إن الديموقراطية في ظروف

الرأسمالية هي أحد أشكال ظهور ديكتاتورية البرجوازية، فهي ديموقراطية الأقلية واضطهاد حقيقي لمصالح الأكثرية.

لماذا لا تعتبر الديموقراطية البرجوازية ديموقراطية للشعب؟ لأن البرجوازية هي التي تحقق عملياً السيادة فيها، ولأنها ديموقراطية شكلية للأكثرية ليس غير، وفي دول الديموقراطية البرجوازية بالفعل ترتفع شعارات الحقوق والحريات المختلفة و«تكافؤ الفرص». لكن عن أية مساواة وعن أي تكافؤ بين العامل والرأسمالي يمكننا الحديث؟ إذا كان أحدهما يملك كل شيء والآخر لا شيء؟. فعند تكافؤ الفرص يستطيع استخدام تلك الفرص فقط من يملك الوسائل اللازمة لذلك، وتسيطر الطبقة التي تمتلك في قبضتها الثروات، أي البرجوازية، وهي تؤثر على الحكومة والبرلمان بطرق مختلفة، وإن مصالحها بالذات هي التي تحدد سياسة الدولة. ولقد كتب لينين: «إن التعابير العامة حول الحرية والمساواة والديموقراطية، هي كالتكرار الأعمى للمفاهيم التي تقنع علاقات الإنتاج السلعي... ومن جهة نظر البروليتاريا، يوضع السؤال هكذا: التحرر من ظلم أية طبقة؟ مساواة أية طبقة مع أية طبقة..؟ الديموقراطية على صعيد الملكية الخاصة أم على أساس النضال من أجل إلغاء الملكية الخاصة؟»(٢٤)... وبمعنى آخر: الديموقراطية على صعيد الاستغلال أم على أساس النضال من أجل إلغاء هذا الاستغلال...؟

- المستغَلُ مهان مقهور.
- المستغِلّ أكثر مهانة لهروب الإنسان من داخله.

فالديموقراطية على صعيد الاستغلال تعني في محتواها سيادة (اللاإنسانية) المجتمع بأسره... ولإعادة الإنسانية لهذا المجتمع، يجب قطع دابر الاستغلال لردم الهوة بين التخمة والجوع... عندئذ وحده تصبح الديموقراطية (الحرية – المساواة)، ويصبح الإنسان أثمن رأسمال، وخلاف ذلك فالديموقراطية كذب ونفاق... مكر سيء يراد به تغطية ديكتاتورية النهابين التي تعمل على:

- أن تكون المساواة: تخمتهم بالمال الحرام.

- أن تكون المساواة: الإملاق لمنتجي الخيرات المادية.
- أن تكون الحرية: خفة يدهم في نهب بني البشر.

ونهب بني البشر تقع في دائرته شعوبهم بالذات، ولم يكن هذا وحسب، بل يجرون شعوبهم المنهوبة باسم الديموقراطية والحرية إلى حروب طاحنة لاغتصاب أوطان وثروات الآخرين. «الحرية كلمة عظيمة، ولكن، تحت لواء حرية البضاعة، شُنت أفظع حروب السّلب والنّهب، وتحت لواء حرية العمل جرى نهب الشغيلة. وكلمة «حرية الانتقاد» في استعمالها الحالي تتضمن مثل هذا الزيف. إن الذين يؤمنون حقاً بأنهم دفعوا العلم إلى أمام لا يطلبون حرية وجود المفاهيم الجديدة إلى جانب المفاهيم القديمة، بل إبدال الجديدة بالقديمة. أما الصرخة الحالية «عاشت حرية الانتقاد!» فتشبه شديد الشبه حكاية الطبل الأجوف»(٢٥).

نعم: البرجوازيون دفعوا العلم إلى أمام، ولكن، أي علم...؟ إنه ذاك الذي طوّر وسائل إنتاج لتطوير نهبهم... إنه ذاك الذي يخدم مصلحتهم الطبقية ليس إلا... وفيما عدا ذلك فهم عليه حرباً، وفي إطار حربهم هذه، تقع المفاهيم الجديدة التي تكشف حقيقة توحشهم، ويصرّون على التمسك بتلك القديمة... حتى لو كانت حكايا عجائز ما دامت تزيف الوعي خدمة لمصالحهم، و«ثمة حكمة تقول: لو أن البديهيات الهندسية كانت تصدم مصالح الناس، لسعوا، بكل تاكيد، إلى دحضها. فإن نظريات الطبيعة، التي كانت تصدم أوهام اللاهوت القديمة، قد أثارت ضدها وما تزال تثير نضالاً ضارياً. وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إذا كان مذهب ماركس، الذي يهدف مباشرة إلى تنوير وتنظيم الطبقة المتقدمة في المجتمع المعاصر، يشير إلى مهمات هذه الطبقة ويثبت أن النظام الحالي سيستعاض عنه حتماً، بأوضاع جديدة، من جراء التطور الاقتصادي، وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إذا اضطر هذا المذهب إلى أن يخطو كل خطوة في طريق الحياة، بعد نضال شديد»(٢٦)... وبالفعل فإن القضية هكذا... فمذهب ماركس كشف بدقة وبراعة استغلال البرجوازية

لجماهير الشغيلة، وقدم الحلول العملية لخلاص هذه الجماهير – بالطبع – سيحارب حرباً ضروس من الطبقة النهّابة المالكة كل أسلحة القوة في هذه الحرب، من هنا، تأتي صعوبة تقدم مذهب ماركس... صعوبة صراعه لتغيير عالم الاستغلال اللاإنساني إلى عالم اللاإستغلال الإنساني.

المستغِلون يدركون خطورة مذهب ماركس على مصلحتهم الطبقية، وللغش والخداع يُظهرون تفانيهم وحرصهم على المصلحة العامة... وهناك حكاية تقول: «أن أحد أصحاب الصناعة السينمائية اقترح على برناردشو أن يخرج مسرحياته على شاشة السينما. فوضع شو شروطاً لا تلائم ذلك الرجل. عندئذ بدأ يستنجد بمشاعر شو كأديب: إن شو يخدم الفن خدمة جلّى إذا ما قبل شروطي. فأجاب شو: «انظروا جيداً، إن كل التعقيدات في الأمر تنحصر في أن إنساناً مثلكم لا يفكر إلا بالفن، بينما أنا لا أفكر إلا بالمال».

إن سخرية شو تفضح بجلاء صفاقة الأخلاق البرجوازية»(٢٧)، وبهذه الصفاقة حملت البرجوازية الإنكليزية «أمانة» «تمدين الشعوب»... فكانت كصاحب شو في دفاعه عن الفن:

- صاحب شو دافع عن «الفن».
- شو دافع عن «المال».

وفق هذا المنطق المعكوس، سار النهابون:

- الإنكليز دافعوا عن «تمدين الشعوب».
- الشعوب دافعت عن «المال».

التاريخ أخرج هذه المسرحية فقال: «والإنكليز هم ورثة المغول في الهند، والإنكليز قد مدّنوها، أي أنشأوا فيها الطرق والخطوط الحديدية التي يَسهُلُ عليهم أن يستغلوها بها، ولكنه نجم عن هذه الحضارة الجديدة أن غرِقتْ بلاد الهند في بحر من البؤس لم تر بقعة من بقاع الدنيا مثله. والإنكليز عمليون على خلاف الأسبان الذي طردوا العرب، فهم بدلاً من أن يفكروا في إجلاء الهنود رأوْا من الحكمة أن يستغِلوهم بانتظام، ونحن إذا ما نظرنا إلى الأمر من

الناحية التجارية، فرأينا بضعة آلاف من التجار يسوقون مئات الملايين من البشر إلى العمل في سبيلهم بأساليب أشدّ من الاسترقاق ألف مرّة، لم يسعنا إلا الإعجاب بهم، ويكون حكمنا غير ذلك إذا ما بحثنا في الأمر من الناحية الإنسانية.

نشأ عن طريقة الإنكليز الاستعمارية الدقيقة اغتناء الجزر البريطانية اغتناءً لا حد له، وفقر أولئك الهنود المسخرين المساكين فقراً مطلقاً تقريباً. فقال مسيو غرانديديه، مبيناً نظام نزْع الملكية لعدم دفع الضرائب النافع، وذلك بعد أن ذكر أن طبقة الفلاحين التي كانت في عهد الملوك المحليين تؤدي سدس المحاصيل الزراعية ضرائب صارت تؤدي نصفها في عهد الإنكليز: «إن هذا النظام أنزل طبقة الزراع إلى الدرك الأسفل من الانحطاط» (٢٨)... أي إلى صقر، وما أدراك ما صقر، إنها العذاب الأكبر.. إنها جهنم «المتحضرين» التي سقط فيها الهنود «لتمدينهم»، ودفعهم «ديموقراطياً إلى ما دون العبودية ألف مرّة، بعد نهب عرقهم وثروات بلادهم، «وحديثاً درس أحد كتاب الإنكليز، مستر هنْدمان، حالة الهند في العهد الإنكليزي فأثبت أن إنكلترة تُغرقُ الهنود بالضرائب فلا يبقى لهم غير الموت جوعاً، وإنها تُخرّب جميع مصانعهم لكي تتمكن السلع الإنكليزية من إيجاد أسواق لها عندهم، ثم قال: «إننا نسير إلى مصيبة لا مثيل لها في تاريخ العالم».

وقد يكون التشاؤم لحمة هذه النبوءة، ولكن صدقها يظهر عندما نعلم أن في ولاية مدراس وحدها ستة عشر مليون فقير كما جاء في الإحصاءات الرسمية، وأن السكان البائسين مكلّفون في كل سنة بإنفاق أربعمائة مليون على الجيش وخمسين مليوناً على الإدارة فضلاً عن إرسال ما تُعدل قيمته خمسمائة مليون إلى إنكلترا»(٢٩).. إلى بلد «الديموقراطيين» الذين أماتوا الناس جوعاً، لتتخم كروشهم بالمال الحرام، حيث «قدر المبلغ الذي قبضته إنكلترا من الهند منذ عشرين سنة بعشرة مليارات، وذلك عدا النقد الذي ينفق لتموين الفاتحين الذين يأخذ كل واحد منهم في المستعمرة راتب وزير أو أمير،

وقد حددت مدة إقامة الموظف الإنكليزي في الهند بخمس سنين على العموم، لعدّها كافية لإثرائه، ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الإنكليزي مستر هندمان الآتية: «إن من الأمور المخيفة، حقاً، أن تكره الولايات الشمالية الغربية الهندية على إصدار حبوبها مع موت ٣٠٠,٠٠٠ من أبنائها جوعاً في بضعة أشهر»، ثم ذكر هذا المؤلف الإنكليزي أنه مات، في سنة ١٨٧٧م في مقاطعة مدراس وحدها ٩٣٥,٠٠٠ نفس كما جاء في التقارير الرسمية، ولم يحدث غير ما يزيد هذه الحالة سوءاً لما ينجم عن ضرورة دفع الضرائب الثقيلة من إضعاف خصب الأرضين الزراعية بسرعة، ولا ريب في صحة الإحصاءات التي نشرها مستر هندمان في مجلة القرن التاسع عشر تحت عنوان «إفلاس الهند»، والمسوغ الوحيد الذي قيل عن الجزية السنوية التي تدفعها الهند إلى إنكلترة، ومقدارها خمسمئة مليون، هو قول مجلة الأسبوعين: «إنها ثمن تمتع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام» ويرى الهندوس، حتماً، شيئاً من المبالغة في وصف حكومة الهند بمحبتها للسلام مع موت هندوس يزيد عددهم كثيراً على عدد الذين يقتلون في أشدّ الحروب سفكاً للدماء، وذلك بفعل الجوع في كل سنة»(٣٠)، وبفعل جوع من «مدّنهم الديموقراطيون»... كان:

- خمس سنوات كافية لإثراء الموظف الإنكليزي.
- مليارات المال الحرام تتدفق على «المتحضرين».

هذا هو منطق ورثة المغول... ولتنفيذه بدقة كان الجلادون الإنكليز «كما يذكر كارل ماركس متابعته على الأحداث بجريدة «تريبيون» يعاقبون الممتنعين عن دفع الضرائب من الهنود بحشر قطط صغار في صدور نسائهم»(٣١)، ولا غرابة في ذلك... فالنهابون، طُرد الإنسان من داخلهم منذ ظهور الطبقات، ولم تقف خسّتهم عند حشر القطط في صدور النساء... بل يُخبر التاريخ بما هو أفظع... حيث تُعرّى النساء كالمرأة الأولى، بعد أن تُسرق ملابسهن لتتحول إلى «نقد» في جيوب اللصوص، «فقد كانت فترة ما بعد

الحرب العالمية الأولى فترة ازدهار للصناعة في الهند، حيث حقق الصناعيون أعظم الأرباح، فظلت أرباح معامل الجوت والنسيج لمدة ٦ أعوام تتجاوز المائة بالمائة، بل إنها وصلت أحياناً إلى ١٥٠ بالمائة. وبالطبع كانت كل هذه الأرباح الضخمة تذهب إلى أصحاب المعامل وحملة الأسهم، أما العمال فقد ظلوا كما كانوا لا يصيبهم شيء من الربح، فإذا ما زيدت أجورهم نسبياً طرأ ارتفاع على الأسعار يعيد التوازن السابق... وبينما كان أصحاب المصانع يربحون الملايين بسهولة في تلك الأعوام ظل معظم العمال يعيشون في أتعس حال وفي مساكن لا تليق بالحيوانات، بل حتى لم يكد يكون لدى نسائهم ما يلبسنه وما يسترن عريهن به.

وهكذا كان يعمل مئات الألوف من الكادحين والنساء شبه العاريات من أجل الحصول على الكفاف، حتى يتدفق سيل من الثروة إلى جيوب أثرياء غلاسكو ولندن وإلى بعض الجيوب في الهند»(٣٢)... أي إلى جيوب الطبقة النهّابة في الخارج والطبقة التابعة لها في الداخل، والاستسلام لهكذا وضع هو جوهر «الديموقراطية» في عين «المتحضرين»، «إن الديموقراطية في قطر شرقي تعني في نظر الإنكليز شيئاً واحداً هو أن ينفذ ذلك القطر مشيئة الدولة الاستعمارية الحاكمة وألا يمس أياً من مصالحها، فإذا ما توفر هذا الشرط يمكن للحرية الديموقراطية أن تزدهر دون عوائق»(٣٣)، هكذا هي «ديموقراطية» النهابين خطف ما بيد الغير، ولإيمانهم الطبقي بذلك ساروا في مناكبها لسرقة الدنيا. «إن جزيرة صغيرة مثل بريطانيا استعمرت الهند وفضاءات أخرى، وفي فترة من الفترات استطاعت السيطرة على ٨٥ في المئة من الكرة الأرضية، ولم ينج من سطوتها إلا فضاءات قليلة جداً في العالم»(٣٤).

يا إلهي!!

٨٥٪ من الكرة الأرضية نُهبت وكأنها إرث كلالة... نُهبت وتُركت نساؤها عاريات وفق شريعة تقسيم العمل الذي يلد تقسيماً جديداً للسيطرة على أسواق جديدة لنهب جديد، مع كل تطور على طبيعة الرأسمالية، «ويشير هذا

إلى تـراكم الثـروات في الاقتـصاد البريطـاني مـع منتـصف القـرن التاسـع عشر»(٣٥)... أي يشير إلى المعادلة التالية:

- جوع الجماهير لتخمة الاحتكارات.

ولاستمرار هكذا معادلة في ملعب الصراع الطبقي، رمت البرجوازية قوة ما سـرقت في هـذا الملعب، عنـدما اقتضى اللعـب ذلـك، مـن أجـل إبقـاء الكـرة قبضتها، حيـث «جاءت ثـورات القـرن العشرين. تفجـرت ثـورة ١٩١٧ في روسـيا القيصرية وأقامت أول دولة اشتراكية في التاريخ. كان مـن المأمول أن تواكبها مجموعة من الثورات للطبقة العاملة الأوروبية المضطهدة. ولكن أوربا الرأسمالية اسـتطاعت أن تـستوعب الكـثير مـن الموجـات الثورية لجماهير الشعب العامـل وذلك بفضل ما تراكم بـين يدي قادتها مـن «فـائض القيمـة التـاريخي» وحصيلة سـلب ونهـب وتـدمير حـضارات ودول أمريكـا اللاتينيـة وإفريقيـا وعلـى وجـه التخصيص الدائرة العربية الإسلامية ثم الآسيوية»(٣٦).

أقول: حجم المسروق، خلق حجماً يساويه من الخوف داخل اللصوص... ظهـر هذا إلى السطح بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، إذ تساءل النهّابون، ما العمل..؟

- لصرف المنهوبين عن قضيتهم المركزية..؟

وبملامسة هذا التساؤل... نخل النهّابون خبث أفكـارهم، فوجـدوا الحلّ في احتواء الجماهير الشعبية وشـراء ضعاف النفوس مـن قادتها لخداعها وتضليلها «فالاحتكـار الصناعي والاستعماري، الـذي كانت تتمتع بـه إنكلترا في ذلـك الوقـت، قـد أتـاح للرأسمـاليين الإنكليـز أن يجنـوا أرباحـاً إضـافية طائلـة. وأن يـستخدموا منهـا قـسماً لرشـوة الفئـة العليـا مـن الطبقـة العاملـة. ونتيجـة لهـذه السياسة أخذت الفئات العالية المهارة والكفاءة بين البروليتاريا الإنكليزية تسير علـى طريـق النـضال التافـه والحقـير مـن أجـل تحـسين وضـعها في إطـار الرأسماليـة»(٣٧)... أي في إطـار الملكيـة الخاصـة، الـتي لا تعـيش إلا في منـاخ الحريـة المطلقـة في نهـب الآخـرين، يقـول ليـنين: «إن حـريتكم، أيهـا الـسادة البريطـانيون والفرنـسيون والأميركيـون هـي خـداع إذا كانـت تنـاقض تحريـر

العمل من نير الرأسمال. أنتم نسيتم أمراً تافهاً، أيها السادة المتمدنون. أنتم نسيتم أن حريتكم مسجلة في دستور يضفي على الملكية الخاصة صفة قانونية. وهذا هو جوهر القضية»(٣٥)... جوهر الصراع بين العدل والظلم، ... بين التحرر من نير الاستغلال وبين ديكتاتورية الرأسمال التي تخبط في الداخل والخارج.

في الداخل تشتري قادة العمال لاستمرار نهبها... في الخارج: خططت السطو على الشعوب لاستعمارها ونهب خيراتها، ففي «مؤتمر برلين العام ١٨٨٤-١٨٨٥ تقاسمت القوى الاستعمارية القارة الأفريقية فيما بينها»(٣٩) ... تقاسمتها وفق حرية الرأسمال في نهب خيراتها... وجوهر هذه الحرية: إبقاء البلد المستعمر المنهوب متخلفاً... ولكن كيف يتحقق ذلك دون مصاعب..؟ وجد النهابون الإجابة في سطوة اللاهوت وقدرته على إبقاء الجماهير الشعبية في دياجير الجهل تغط في سبات عميق وسط رقياتها وتعاويذها: وهكذا كان.. إذ أوحت الدول الاستعمارية للكنائس «بمبادئ جديدة لتضعها الكنيسة ضمن المعتقدات المسيحية بالنسبة للدول النامية وحدها، ففي ذلك حفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من تسلط الغرب على الدول النامية. ويندهش الباحث عندما يرى كبار رجال الكنائس يتناسون المسيحية ومبادئها الأصلية السمحة، ويجنّدون أنفسهم لخدمة الاستعمار، وهم يتخذون الدين المسيحي وسيلة للضغط على الشعوب المسيحية النامية حتى لا تتطور، وحتى تبقى بمنأى عن الرقي والتصنيع والتقدم، وإذا كانت الكنيسة في الغرب تقر مبدأ فصل الدين عن الدولة، فإنها لا تقرّ ذلك بالنسبة لبلاد المشرق، ليظل كلام الكنيسة سيفاً مصلتاً على الرقاب، وإذا كانت الكنيسة في الغرب تبارك التضيع، فإنها تعارضه في الشرق، لأنه العامل – في زعمها – يعتبر نفسه خالقاً وهذا يتنافى مع الإيمان واعتبار الإنسان مخلوقاً.

وترى الكنيسة أن الثروة التي ستعود على البلاد من التضيع ستجلب الشرّ على المسيحيين بالبلاد النامية. لأن ارتقاع مستوى المعيشة تصحبه كثرة الخطايا والشرور.

وترى الكنيسة أن التقدم الصناعي لن يتم إلا بالتضحية بالتراث والتقاليد الموروثة، ولذلك فهي تقرر أن الاحتفاظ بالتراث والتقاليد خير من التقدم الاقتصادي.

وتُتّخذ المجالس الكنسية العليا وسيلة لرعاية هذه السياسة الظالمة. لست أنا الذي أقول هذا القول، وإنما هي كلمات مسيحي مثقف هو الدكتور رمزي فهيم، فقدها له ذلك الدور الذي تقوم به الكنيسة في هذا المجال، فكتب لصحيفة الأخبار يقول:

«منذ عدة سنوات كنت أقرأ عن اجتماعات وقرارات مجلس الكنائس العالمي، ولقد فوجئت حين وجدت أن ما يتعرض له من مسائل ليست من الموضوعات الدينية التي ينتظر أن تكون هي موضوع اهتماماته، فمثلاً عقد المجلس مؤتمراً في مدينة سالونيك باليونان سنة ١٩٥٩، قرّر في نفس المؤتمر أن المبدأ الغربي الذي يقضي بفصل الدين عن الدولة لا يمكن اقتباسه في الدول النامية، وهنا يثور التساؤل: هل هناك نوعان من المسيحية أحدهما يطبق في بلاد الغرب والآخر (يُفبرك) بواسطة (الخبراء) ليُعمل به في الدول النامية.

«ويتابع هذا المؤتمر قراراته فيطالب الكنائس في أفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تراقب خطط التنمية، فتميز فيها بين ما يتفق وإرادة الله وبين عمل الشيطان، وأن تكون رقيبة تعلن للقوم أين يقف الله ومن أين يطلُ إبليس العدوُ.

«أما كيف يمكن أن يكون في خطط التنمية مكان للشيطان، فإن المجلس يعثر على إبليس في عملية التصنيع بالذات التي تقوم بها حالياً الدول النامية، فهو يرى: أن الإنتاج الذي يحققه التصنيع يملأ النفس غروراً فيعتبر العامل نفسه أنه الخالق الذي يستغني عن كل إله آخر. أما الله فإن مكانه في نظر المجلس هو الحقل وفي القرية، بحيث أن الانتقال من العمل الزراعي إلى الصناعة. وهو الأمل الذي تحاول الدول النامية الوصول إليه لحل مشكلاتها الاقتصادية — هذا الانتقال يترتب عليه أفدح الأضرار بالإيمان الديني وبالعائلة.

«بل يصل استخفاف المجلس بوطنية المواطنين في البلاد النامية، وبفهمهم

للدين، إلى الحد الذي يقرر فيه مؤتمر نيودلهي الذي عقد سنة ١٩٦١ أن الكنيسة يجب أن تكون متأهبة للصراع مع الدولة في أي وطن وتحت أي نظام سياسي.

«والواقع أن المجلس يحاول في النصف الثاني من القرن العشرين أن يقنع المواطنين في الدول النامية بالمحافظة على مستواهم الاقتصادي الذي حددته لهم الدول التي كانت تستعمر بلادهم وتستغل مواردهم، فبعد أن يعدد المجلس سوءات التصنيع وخطط التنمية، مشيراً كل ما يخطر على البال من صعوبات ومعوقات في طريق تنفيذها، يعود للقول بأنه حتى على فرض إمكانية تحقيق ما تصبو إليه هذه الدول فإن التقدم الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة ستأتي معها بالضرورة كثرة من الخطايا والشرور، فنحن مدنسون بالشر، حتى أننا نجد صعوبة في التعرف على ما يريد الله أن نعمله بمستوى المعيشة العالمي حين نصل إليه.

«بل أننا نقرأ في كتابات أقطاب هذا المجلس أنهم يحاولون وضع التقاليد والتراث الشعبيين في مواجهة التقدم الاقتصادي والسياسي، ويقولون: إن التقدم لن يتم إلا على حساب التراث، وأن الشعوب حين يطلب إليها أن تختار بين التقدم والمحافظة على القديم، ستختار دون تردد قديمها بسبب ما يتطلبه التقدم الاقتصادي من جهود وتضحيات»(٤٠).

يا إلهي!!

إلى هذه الدرجة من الخسّة هبط كهنة اللاهوت المتخصص خدمة لسارقي بني البشر... إلى هذه الدرجة من النّذالة حطبوا في حبال نقابة النهّابين... حطبوا على ظهر (الإله)، ولا أعداء سواهم لهذا (الإله)... فهم — لا بارك الله فيهم — برمجوا كل ما فيهم من خبث وحطة على خدمة سارقي الناس لقمة عيشهم... بل الأنكى من ذلك، برمجوا لؤمهم على تجذير التخلف عند المسروقين، ليبقوا بقرة حلوب للسارقين، ولاستمرار هكذا وضع، «إن خدم اللاهوت، أمثال راهب البندقية «أودتس» والأب البروتستانتي الإنكليزي «تاودسيد» كانا يريان

في نمو الثروة وزيادة البؤس ظاهرة قانون طبيعي عام... ولكن ظاهرة الفقر التي دفعت «أودتس» إلى تبرير الإحسان المسيحي، دفعت «تاودسيد» إلى مناهضة القانون المتعلق بالفقراء، الذي نص على مساعدتهم مساعدة اجتماعية بسيطة»(٤١)... هنا يكمن حبُّ «الخير» عند «تاودسيد»، فهذا الرجل «التقي الورع» من أخمص قدميه حتى قمة رأسه، وجد أن الشبع يفرز الخطايا، ويصرف الإنسان عن الاعتصام بحبل (الإله)... وإن الجوع وحده يفرز الإيمان وترك الدنيا لمحبيها من أكلة المال الحرام... وفق هذه الرؤية اللاهوتية المتخصصة في خدمة أولاد الحرام... أصبح الجوع رافعة تحمل الإنسان إلى السعادة الأبدية في ملكوت السماء... وأصبحت التخمة هي السعادة الآنية في حياة فانية... والفرق كبير بين سعادة أبدية وأخرى زائلة وفانية... ولهذا ناهض «تاودسيد» المساعدة البسيطة للفقراء. قدرة هذا المنطق العجيب الغريب لكهنة اللاهوت المتخصص على الاستمرار في البقاء تؤهله بالفعل لأن يكون عجب العجاب لعجائب الدنيا.

أقول: الإقطاع ولاهوته شكلا (ديكتاتورية)٢ لنهب الجماهير الشعبية، وبعد صعود البرجوازية شكلت مع لاهوتها (ديكتاتورية)٢ لنهب هذه الجماهير.

- نهب الإقطاع كان يفرز محاربة العلم والعلماء وكان لاهوته سلاح حربه هذه.

- نهب البرجوازية أفرز الحرص على العلم والعلماء لتطوير أدواته... وكان له لاهوته.

على هذا المحور كان على البرجوازية أن تخوض نضالاً مركّباً:

- النضال ضد الإقطاع كطبقة.

- النضال ضد لاهوت الإقطاع المعادي للعلم والعلماء.

وفق هذه المعادلة «كان أيديولوجيو البرجوازية الثورية يعتمدون في زمنهم على العلم في النضال ضدّ النظرات الإقطاعية وضد الدين، وهم، إذ عمموا معطيات علم عصرهم، كانوا يرتفعون في كثير من الأحيان إلى المادية

الفلسفية الواعية. فلقد ساعدوا العلم على التشبث بحقه في البقاء، مما كان له دور إيجابي كبير في تطور العلم»(٤٢)... هذا الدور الإيجابي لم يكن حبّاً بالعلم ولا كرهاً باللاهوت، وإنما خدمة للمصلحة الطبقية... وفي إطار هذه الخدمة بالذات يكمن سرُّ (تأييد أو رفض) البرجوازية للأفكار والأشياء... ولما كان لاهوتها لم يكتمل إطاره بعد عممت فكرة تعايش العلم والدين، «ومع تطور القوى المنتجة الجديدة، وعلى أساسها، تتقدم العلوم: الطبيعية والرياضيات، والعلوم التكنيكية، وتزيح الرأسمالية العراقيل الكثيرة من درب تطور العلوم الطبيعية التي كان قد وضعها المجتمع من قبل، لأن البرجوازية بأمس الحاجة إلى العلم. لكنها تفتقر إلى الدين كذلك، ولهذا فإن فكرة تعايش الدين والعلم على أساس الفلسفة المثالية واسعة الانتشار»(٤٣). إن فكرة تعايش العلم والدين، غير علمية.. بل هي مثالية لاهوتية، أشاعتها البرجوازية لاستمرار تزييف الوعي الطبقي عند المنهوبين... وحتى تبقى مكاسب الثورة العلمية قبضتها وفي خدمة مصالحها الطبقية في نهب الشعوب، «ذلك أن هذه الثورة فتحت للإنسان الغربي آفاقاً جديدة، سواء من حيث إمكانات تحسين أحواله المعيشية وإشباع رغباته، أو من حيث إثبات قدراته على الطبيعة وانطلاقه من هذه القدرات لمدّ وجوده وأثره على سطح البسيطة والاستيلاء على الموارد والأسواق والتحكم بالشعوب الضعيفة واستغلال هذا كله في سبيل سيادته وثرائه: ولا حاجة بنا إلى تفصيل العلاقة الأصلية بين الثورة الصناعية والاستعمار، وما جلباه للشعوب الغربية – ولطبقاتها النافذة خاصة – من غنى فائض ومن قدرة قاهرة، ومن شعور بالاعتزاز الذاتي، ومن اطمئنان إلى الاستقرار والتقدم ومن تفاؤلية بشأن المستقبل الآتي»(٤٤)... غير أن هذه التفاؤلية، بدأ القلق يتسلل إلى محتواها، بعد أن وسّعت الثورة الصناعية الهوّة:

- بين المستغِلّين والمستَغَلّين.
- بين المستعمِرين والمستعمَرين.

على هذا المفصل بدأ الصراع بين الطغاة والمقهورين، وفي حلبة هذا الصراع

داس الطغاة بأقدام توحشهم كل مبادئ الأخلاق بعد أن ملكوا كل وسائل القوة، من هنا، فـ «إن القدرة الخلقية التي اكتسبها الإنسان بجهوده التحررية المختلفة المتضخمة. وهي كذلك معرضة دوماً للتزعزع والانتكاس، لأن نزعة الظلم والاستئثار ما فتئت تحرك الشعوب والطبقات الطاغية، ناهيك بالسلطة المتزايدة التي وضعتها الحضارة المعاصرة في أيدي هذه الشعوب والطبقات، فجعلتها اكثر إقداماً على خدمة أغراضها وأوفر استطاعة لتحقيق مطامعها. ولكن عوامل هذه الحضارة ذاتها قد أيقظت الشعوب والطبقات المظلومة والمحرومة، وأثارت فيها كوامن الرفض والرغبة في التحرر، ونفخت فيها روحاً مشتدّة منتشرة للتخلص من الأعباء التي تثقل كواهلها والانطلاق في كسب حريتها وكرامتها. إن هذا التصاعد في القدرتين: القدرة على القهر والقدرة على الرفض، هو من أهم عوامل الاضطراب والتوتر في عصرنا الحاضر، إن لم يكن من أهمها، فلقد كان من أعظم آثار القوة المتفجرة التي أطلقها التقدم العلمي التكنولوجي المتسارع، أنها وسعت الفوارق والفجوات، وضخمت المشكلات والمعضلات، وزادت التوتر بين الشعوب والطبقات حدة وخطراً»(٤٥)... أي أجّجت الصراع الطبقي، حيث اشتد طغيان الطبقة النهابة.. هذه الطبقة ما أن ظهرت في العملية التاريخية، حتى ظهر لاهوت متخصص في خدمتها:

- في العبودية ظهر لاهوت متخصص في خدمة الأرستقراطية.
- في الإقطاع ظهر لاهوت متخصص في خدمة الإقطاعيين.

والسؤال الذي يثور الآن!

- ما هو اللاهوت المتخصص في خدمة البرجوازية..؟

التاريخ يقول: البروتستانتية كانت اللاهوت المطلوب برجوازياً... وكان الراهب (لوثر) قائدها، وسمّاها (حركة الإصلاح)... سمّاها هكذا للتعتيم على متانة قيدها اللاهوتي الذي تجاوز أسلافه خسة وقسوة، يقول ماركس: «إن لوثر، والحق يقال، لم يتغلب على العبودية بالتقوى، إلا بكونه قد أقام مقامها

العبودية بالاقتناع. لقد حطم الإيمان بالهيبة وبعث هيبة الإيمان، وحوّل الكهنة إلى رعايا بتحويل الرعايا إلى كهنة، وحرر الإنسان من التدين الظاهري، جاعلاً التدين عالم الإنسان الداخلي، وحرر الجسد من القيود، بوضع القيود على قلب الإنسان»(٤٦)، وبوضعها هكذا، لم يبق العبد عبداً بجسده... وإنما أصبح يفكر كعبد... مؤمناً بقداسة عمله لسيده، وفق هذا البرمجة (اللوثرية – اللاهوتية)، تحوّلت الجماهير المنكوبة إلى «كهنة» تدافع بإيمان عن عبوديتها... عن استغلال البرجوازية لعرقها.. ولشدّ العقدة أكثر، أفتى لوثر «بأن الوسيلة الوحيدة لأن يرحم الله الإنسان هي الإيمان بالبروتستانتية (الإنجيلية) بوصفها كلمة الله المنزلة، والإيمان بالله»(٤٧).

البروتستانتية: كلمة الله المنزلة على لوثر – على ذمة الحكاية – وتلبية لرغبة (الإله) صدع بالأمر، وحوّل الناس عبيداً بالاقتناع.. أي أصبح لاهوته قوة مادية في أفخاخهم تحركهم في الاتجاه المرسوم خدمة لناهبيهم دون محاججة... على هذا المحور أصبحت الجماهير الشعبية:

- مقيدة أجسامها بقيود مستغِلّيها لزيادة ثروتهم.
- مقيدة أدمغتها بقيود اللاهوت خدمة لمستغليها من أجل زيادة ثروتهم.

وفق هذه المعادلة، شكّلت (البرجوازية – البروتستانتية)، (ديكتاتورية)٢ لقهر ونهب منتجي الخيرات المادية. يقول ماركس: «الشغيل لا يعيش إلا لزيادة ثروة الآخرين، تلك الثروة التي خلقها هو نفسه، وكما أن الإنسان في العالم الديني، يسيطر عليه نتاج دماغه، كذلك هو، في العالم الرأسمالي يسيطر عليه نتاج يده»(٤٨)، الذي سُرق منه... وبدلاً من التفكير والبحث عن سارقيه والنضال ضدهم... جاء لوثر فبرمج تفكيره على خدمة هؤلاء اللصوص، ونتيجة هذه البرمجة شُرّح الشغيلة وهم سكارى في مشرحة الرأسمال:

- تطور الآلة زاد نهبهم.
- تطور اللاهوت المتخصص زاد خضوعهم.

يقول ماركس: «إن جميع وسائل تنمية الإنتاج، تتحول إلى وسائل للسيطرة

على المنتج واستثماره: وهي تجعل منه إنساناً أبتر، مجزوءاً، أو ملحقاً للآلة؛ وهي تجابهه بالطاقات العلمية للإنتاج، بوصفها قوى معادية، وهي تحل محل العمل الجذّاب، العمل الإجباري، وهي تجعل الشروط التي يجري فيها العمل، شاذة أكثر فأكثر، وتُخضع العامل، طوال مدة عمله لاستبداد يتساوى في حقارته وكونه غير محدود، وهي تحوّل حياته بكاملها إلى وقت عمل، وتطرح زوجته وأولاده تحت عجلات الدجاجرونت الرأسمالية»(٤٩)، وحتى لا يناضل ضد طرحه هذا، بل يجنده ويعتبره من المقدس الذي لا يجوز المساس به، جاءت البروتستانتية لتقوم بدور الدجاجرنوت التي هي «عجلات العربة التي كانت تطوف بالإلهة الهندية فيشنو، والتي كان المتعصبون ينطرحون تحتها، أثناء احتفال الطواف السنوي، إلى هيكل مدينة الدجاجرنات»(٥٠).

المتعصبون يطرحون أنفسهم تحت عجلات عربة الإلهة فيشنو، لينالوا السعادة في الحياة الأبدية... وعلى نول هذا التعصب نسج لوثر لاهوته الذي تركب عربته البرجوازية... وهكذا أصبح طرح العامل وزوجته وأولاده تحت عجلات البرجوازية المتوحشة مقدساً بفعل الاقتناع باللوثرية.

لا تستغرب عزيزي القارئ قدرة اللاهوت على صنع العجائب إذا ما أصبح قوة مادية في الأمخاخ كما هو لاهوت لوثر. القصة التالية التي رواها شاهد عيان تزيل استغرابك هذا، تقول القصة:

«وفي حديثه عن الهنديات اللواتي يحرقن أنفسهن عند موت أزواجهن يقول:

«... وإحراق المرأة في الهند بعد وفاة زوجها أمر مندوب إليه غير واجب، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها ممتهنة لعدم وفائها، ولكنه لا تكره على إحراق نفسها.

ويروي ابن بطوطة ما شاهده حين تعاهدت النسوة الثلاث على إحراق أنفسهن، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب، وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا، ويأتي إليهن النساء من كل جهة، وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت

كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطرة، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة: يحفون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والألوان والأنفار. وكل إنسان منهم يقول لها: أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي... وهي تقول «نعم» وتضحك إليهم!

وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب، في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار، فلا تتخللها الشمس، فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها! ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه، وجرّدن ما عليهن من ثياب وحلي، فتصدقن به، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها، وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج، في موضع منخفض، وصب عليها «روغن كنجت» وهو زيت الجلجلان، فزاد في اشتعالها، وهناك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق. ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبراق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها.. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم ما معناه: «أبا النار تخوفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة» ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت نفسها فيها!»(٥١).

الآن زال الاستغراب، بعد أن كشفت القصة التي قرأنا قدرة اللاهوت على دفع الإنسان في الاتجاه الذي رسمه الكهنة المتفرغون المتخصصون، ومن هؤلاء كان (لوثر).. وكان لاهوته على قدر البرجوازية.

والسؤال الذي يثور الآن!

- كيف دار لعب لوثر اللاهوتي خدمة للبرجوازية...؟

الإقطاع لاهوته الكاثوليكية... وبعد أن أخذ في الاحتضار، كان:

- نضال البرجوازية ضد الإقطاع.

والنضال ضد الإقطاع يحتاج إلى دعم (شعبي)... ولمثل هذا الدعم جاءت البروتستانتية وحملت السلاح:

- ضد الكاثوليكية.

النضال ضد الإقطاع ولاهوته، كان لتغيير ميدان العلاقات الاجتماعية لصالح الطبقة البرجوازية، حيث «يعود تاريخ بدايات تفسخ الإقطاعية الأوروبية ونشوء الرأسمالية إلى القرن السادس عشر، حيث استمر الصراع بين الرأسمالية الناشئة والإقطاعية ثلاثة قرون، حتى استطاعت الرأسمالية الناشئة تعميم نفسها على أنقاض الإقطاعية المتفسخة ضمن دولها القومية في القرن التاسع عشر، والذي سُمّي عصر القوميات، وحيث تشكلت إنكلترا وألمانيا وفرنسا باعتبارها الدول الرأسمالية الأقوى في أوروبا، وما أن استقرت الرأسمالية ضمن دولها القومية حتى بدأت بالتطلع إلى خارج حدودها القومية، باعتبار أن هذه الحدود تشكل حاجزاً أمام الإنتاج السلعي المتزايد والذي يبحث عن أسواق جديدة، وكان شعار «دعه يعمل.. دعه يمر» هو الشعار المعبر عن تخطي الرأسمالي حدود القومية إلى باقي أنحاء العالم لكي يصبح عمله أكثر جدوى بتحقيقه أرباحاً أكبر»(٥٢)... وحتى تكون هذه الأرباح «لقمة حلال»، كان لابدّ من تعليبها لاهوتياً، ولهذا الغرض كانت البروتستانتية «حركة إصلاح» تخوض الحرب في جبهة البرجوازية، حيث كانت «حركة واسعة معادية للإقطاعية ومعادية للكاثوليكية في أوروبا في النصف الأول من القرن السادس عشر، أرست بداية البروتستانتية»(٥٣)، ومن هذه البداية نُسج اللاهوت البروتستانتي على قدر، حتى أصبح تسلط البرجوازية (ديكتاتورية)٢، ومن أجل هذا لم يكتف اللاهوت البروتستانتي بالوعظ والإرشاد... بل أعلن الحرب المسلّحة، فكانت: «حرب الثلاثين سنة (١٦١٨- ١٦٤٨) – حرب

أوروبية عامة نجمت عن الصراع بين البروتستانت والكاثوليك. صارت ألمانيا المسرح الرئيسي لهذا الصراع، وموضوعاً للنهب الحربي والإدعاءات الاغتصابية من جانب المشتركين في الحرب. انتهت بصلح وستفاليا سنة ١٦٤٨»(٥٤). حرب الثلاثين سنة بين البروتستانت والكاثوليك، لم تكن من حيث المحتوى غير حرب طبقية بين البرجوازية والإقطاع، أخذت هذا الشكل اللاهوتي الأكثر قدرة على تثوير الناس تحت أبخرة الحماسة اللاهوتية مع هذا الطرف أو ذاك، وكان لها «أثر كبير في هذا المكان، وقد بدأت هذه الحرب بسبب الصراع الذي نشأ بين البروتستانتيين (حركة الإصلاح الديني) وبين الكاثوليكيين (حركة الإصلاح المضادة)، فدمرت أجزاء كبيرة من ألمانيا، وقضى حوالي ثلث الشعب الألماني نحبه في هذه الحرب التي خلفت شعوراً باليأس وعدم الأمان»(٥٥)، ومن هذا الذي خلفته كان مخاض ولادة البرجوازية وحربها الطبقية ضد الإقطاع، لجرّ الناس من شكل استغلالي إلى شكل استغلالي آخر.. وكان دور اللاهوت التعتيم على هذه الحقيقة الموضوعية. يقول ماركس: «إن البروتستانتية هي، في جوهرها، ديانة برجوازية، وسوف يكفينا مثال واحد لإبراز «روحها». كان ذلك في أيام الملكة إليزابت، حين اجتمع بعض الملاكين العقاريين، وبعض المزارعين الأغنياء من جنوبي إنكلترة، في مؤتمر، لتعميق القانون المختص بالفقراء، والذي كان قد أعلن حديثاً، ثم لخصوا نتيجة دراساتهم المشتركة في منشور يتضمن عشر مسائل جرت دراستها ومناقشتها، وعرضوها بعدئذ على فقيه مشهور من فقهاء تلك الأيام، وهو السرجنت سنيج، الذي رقي إلى رتبة قاضٍ في عهد جاك الأول – وإليك منتخبات من هذا المنشور:

المسألة التاسعة: وضع بعض مزارعي الأبرشية الأغنياء تصحيحاً لمخطط حكيم يستطاع بوساطته تلافي كل نوع من أنواع الاضطراب في تنفيذ القانون. وهم يقترحون العمل على بناء سجن في الأبرشية. وكل فقير لا يرضى بأن يحبس فيه.. يُحرم من المساعدة. ثم يذاع بعدئذ في الأنحاء المجاورة بأنه إذا كان

هناك شخص يرغب في استئجار فقراء هذه الأبرشية، فعليه أن يقدم، في ميعاد محدد سلفاً، عروضاً بالظرف المختوم تعيّن أدنى الأسعار التي يرضى بأن يخلصنا بوساطتها من أولئك الفقراء. ويفترض واضعو هذا المشروع أنه ثمة في المقاطعات المجاورة أشخاص لا يرغبون في العمل مطلقاً، وهم لا ثروة لديهم ولا يتمتعون بثقة الناس ليحصلوا سواء على مزرعة أو على سفينة، ليتمكنوا من العيش دون عمل (Saasitotive without labour) وهؤلاء الأشخاص مستعدون كلهم لأن يقدموا للأبرشية عروضاً موافقة جداً. فإذا حدث ومات بعض الفقراء الذين هم في رعاية المتعاقد، فتبعية الخطأ تقع عليه، بما أن الأبرشية قد قامت بجميع واجباتها إزاء هؤلاء الفقراء، بيد أننا نخاف من أن لا يسمح القانون المذكور بتدابير حكيمة (Prudential measures) من هذا النوع. ولكن عليك أن تعلم أن باقي المزارعين الأحرار في هذه المقاطعة وفي المقاطعات المجاورة سوف ينضمون إلينا لحمل ممثليهم في مجلس العموم على اقتراح قانون يسمح بسجن الفقراء وإرغامهم على العمل، حتى أن كل شخص يرفض السجن يفقد حقه في المساعدة. ونأمل في أن هذا سوف يمنع البؤساء من أن يكونوا في حاجة إلى المساعدة.

بيد أن هذه النتائج المباشرة لحركة الإصلاح هي أهم نتائجها. لقد كانت الملكية الكهنوتية تؤلف بالنسبة إلى النظام التقليدي للملكية العقارية ما يشبه المتراس المقدس... وحين سقطت الأولى في الهجوم، لم يبق ممكناً الدفاع عن الثاني»(٥٦)، وسقوط هذه وتلك أسقط الفقراء في مطحنة طبقة جديدة لها لا هوتها الجديد، يؤكد هذه النتيجة «السيد روجرز، الأستاذ القديم للاقتصاد السياسي في جامعة أوكسفورد، معقل الأرثوذكسية البروتستانتية، يشير في مقدمة كتابه «تاريخ الزراعة» إلى كون الإملاق في إنجلترا قد نتج عن حركة الإصلاح»(٥٧)، والسؤال الآن!

- كيف نتج الإملاق عن حركة سمّت نفسها «حركة إصلاح..؟

التاريخ يقول: اللاهوت المتخصص ظهر مع ظهور الطبقات، خِدمة للطبقة

النهاية... ولما كانت هذه الطبقة متغيّرة مع تغيّر التشكيلة الاجتماعية، كان لابدّ من ظهور كهنة متفرغين جداً لخدمتها، لكن:

- كيف يصل الكهنة الجدد إلى الهدف...؟

الطبقة النهاية في التشكيلة الاجتماعية عندما تصل إلى مرحلة الاحتضار تكون قد أفرزت شريحة واسعة من المسحوقين الذي يفتشون عن طريق خلاصهم، هنا، يظهر المخلص... يظهر الكاهن الجديد الذي يحلف اليمين الحاسمة: أنه ما جاء إلا لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، وحتى إذا ما التفوا حوله وتفانوا في الدفاع عنه وثبتت أقدامه، عندئذ، يركبهم في الاتجاه المعاكس لما أرادوا... وبخيوط لاهوته الجديد يضعهم في خدمة الطبقة النهاية الجديدة... على محور هذه الخسّة كانت خطوات لوثر. «لقد شجعت حركته الإصلاحية الفلاحين على استئناف ثوراتهم ضد الكنيسة والإقطاع في التيرول وأوستريا وفرانكونيا وسوابيا، وهي عبارة عن سلسلة من الثورات قام بها الفلاحون فيما بين سنتي ١٥٢٤ و١٥٢٥م. وكان قد سبقها ثورات أخرى قبل ظهور الحركة اللوثرية، ولكن هذه الثورات الأخيرة بالذات تميزت بأنها اشد عنفاً وأكبر خطراً.

وكانت دعوة «لوثر» إلى الحرية والإنسانية والإخاء الجرماني قد استمالت الفلاحين، فاعتنقوا هذه الآراء، وأعجبتهم مهاجمة «لوثر» لرجال الكنيسة الذين كانوا يشكون منهم مرّ الشكوى، بسبب إسرافهم في فرض الضرائب والرسوم تحت مختلف الأسماء والفئات.

ويلاحظ أن «لوثر» كان يفاخر بأنه يتحدر من أبوين اشتغلا بالفلاحة، وكان يدرك المظالم التي تنهال عليهم.

وقد وضع الفلاحون بياناً بمطالبهم في مارس ١٥٢٥م، طالبوا فيه بإلغاء رق الأرض، وتحديد القيم الإيجارية للأراضي تحديداً عادلاً، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتحديد الخدمات الإقطاعية التي يؤديها الفلاحون للأمراء الإقطاعيين، وتقرير حق صيد الأسماك في الأنهار والقنوات التي يعملون في

فلاحتها، وحق صيد الحيوانات في الغابات، ومنح كل جماعة الحق في اختيار القسس وتعيينهم في الكنائس، والأساقفة في الأبرشيات. وقد طالب الفلاحون بأن تنظر مطالبهم في ضوء الكتاب المقدس، مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء، وقالوا: «لن نكون بعد اليوم عبيداً، لأن المسيح جعلنا أحراراً. وقد تمكنت الثورة الفلاحية من الحصول على انتصارات ساحقة في مراحلها الأولى، وسقطت مدن في أيدي الثوار. ولكن «لوثر» لم يلبث أن تنكر للفلاحين، برغم معرفته ما يعانونه من ظلم، ومعرفته مدى عدالة مطالبهم، فقد خرج من مخبئه يؤلب النبلاء على الفلاحين، ويدعوهم إلى مقاومة الثورة بالقوة، ووصف الفلاحين بأنهم «الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء»، ولم يستطع أن يرتفع من مستوى الإصلاح الديني المحدود إلى مستوى الإصلاح الاجتماعي العريض، ولم يكترث إلا لشيء واحد، وهو أن ثورة الفلاحين تهدد مذهبه الجديد بالخطر في بداية انتشاره. وقد ترتب على موقفه هذا أن اجتمعت قوة النبلاء والفرسان ضد ثورة الفلاحين، ثم انقلب ميزان الثورة ضد الفلاحين حين تفرغ الإمبراطور «شارل الخامس» لمحاربتهم، بعد أن أنزل الهزيمة بملك فرنسا «فرنسوا الأول» في معركة «بافيا» في فبراير ١٥٢٥م، وظل تشجيع «لوثر» لإجراءات القمع الوحشية ضد الفلاحين النقطة السوداء في تاريخه»(٥٨)... وفي تاريخ كل النصّابين من أمثاله، الذين يختلفون فيما بينهم على نسف القِدْح المعلّى... لكنهم متفقون دائماً على نهب الأخيار... من هنا، جاء اتفاق «لوثر» مع الإقطاعيين لإجهاض ثورة الفلاحين، خوفاً من عواقب تطورها على لاهوته الذي يعدّه خدمة للبرجوازية الصاعدة.

أجل: الأشرار متفقون على نهب الأخيار من بني البشر... وما أحوج هؤلاء الأخيار إلى الوحدة ضدهم لقطع دابر شرّهم... يقول تولستوي:

«إذا كان الأشرار، عبر تاريخ البشرية الطويل، قد تمكنوا من تحقيق تحالفات وثيقة فرضوا بها سيطرتهم على مقدرات الناس، وذلك، رغم تغايرات مصالحهم الأنانية، فلماذا لم يتعلم الأخيار، ولو لمرة واحدة في حياتهم، هذا

الدرس، ويحققوا وجودهم الخيّر، وسيسعدوا الناس بإخراجهم من مقت الشر الذي يغشى بقاءهم ونماءهم عبر الزمان؟!..»(٥٩)، هنا بيت القصيد:

متى يتحد المنهوبون ضدّ طغيان ناهبيهم

متى يتحد المنهوبون لبناء السعادة للجميع

هذا لا يحدث، إلا إذا وعى المنهوبون طبقياً قضيتهم المركزية، عندئذٍ، يدركون بأن ثوب «الديموقراطية» الذي يرتديه سُفَلُ الدنيا، ما هو إلا (عدّة نصبهم) لتغطية توحشهم وهم يلهثون مسعورين وراء المال الحرام... أنا لم أقل هذا، التاريخ هو الذي يقول: «قتل الملك ليوبولد وعملاؤه ما يقدر بعشرة ملايين كونغولي خلال الفترة من ١٨٨٥ و١٩٠٨»(٦٠). ويكشف التاريخ عن أسباب قتل هذه الملايين فيقول: «إمبونجي طفل بترت يده وقدمه في الكونغو في عهد الملك ليوبولد كعقاب على فشل قريته في إنتاج الحصة المطلوبة من المطاط»(٦١)... أي فشل القرية في تقديم النهب المطلوب للملك.. وللنهب المطلوب وحده قُتلت الملايين، وخُطِفت (اللقمة)... حتى فقد الجياع ما يسدّ الرّمق... فدفعهم حبُّ البقاء على بيع أعضاء أجسادهم «قطع غيار» خوفاً من الموت جوعاً، على هذا «اتفقت الروايات في: بعت «كليتي» مقابل ١٢,٠٠٠ روبية. كنت مضطراً لذلك، تورطنا في دين ولا نستطيع العيش»(٦٢)، ولكي يستطيع ذلك باع كليته «حياة مقابل حياة، قالها أحد الأطباء: الجرح الحقيقي هو الفقر، والعملية تقدم المال الذي يشفي من هذا الفقر»(٦٣)، هكذا، هي الحال في إطار وحدة الأشرار، ولا سبيل للخلاص منها سوى وحدة الأخيار لدفن هذا الطغيان في مزبلة التاريخ.

أقول: بعد أن حلّت البرجوازية محلّ الإقطاع في نهب بني البشر... كانت البروتستانتية الغطاء اللاهوتي لهذا النهب... وكانت كأس التبيذ الذي أفقد المنهوبين ألم نهبهم، ولم يكن هذا وحسب» بل أيّدت الاستعمار وباركته، والأنكى من ذلك علّبت الصهيونية لاهوتياً، إذ اعتبرتها من إرادة (الإله)، والسؤال هنا!

- كيف علّبت البروتستانتية الصهيونية لاهوتياً..؟

- **الصهيونية:** «في جوهرها مشروع أوروبي»(٦٤).. أي (وقواق)* أوروبي، «إن مضمون المشروع الصهيوني لم يتبلور عبر التفاعل الداخلي في التجمعات اليهودية المنتشرة في شتى أنحاء العالم، أو من خلال التواصل فيما بينها، وإنما تمّ إسقاطه على تلك التجمعات من خارجها... وهكذا نشأ: منذ القرن السادس عشر ما يمكن وصفه، بالاتحاد الغربي بين سياسة الإمبراطورية الإنكليزية ونوع من الصهيونية المسيحية الأبوية التي اتضحت في السياسة الإنجليزية في الأجيال اللاحقة»(٦٥).

المشروع الصهيوني أسقط على التجمعات اليهودية من الخارج... لماذا...؟

الرأسمالية بعد أن ولدت الاستعمار... كان لابدّ لها من قاعدة لاستعمارها هذا في منطقة الشرق الأوسط – منطقة الحشيش الكثيف- ، ولحبك اللعبة جيداً، كان من الضروري:

- دفع اليهود تحت أبخرة الحماسة الدينية، لتبني المشروع الصهيوني.
- دفع الشعوب الأوروبية المسيحية لدعم المشروع الصهيوني دينياً.

وفق هذه المعادلة كانت بداية المشروع الصهيوني «مع قيام حركة الإصلاح الديني في أوروبا على يد (مارتن لوثر) وظهور الحركة البروتستانتية (المحتجون) في أوائل القرن السادس عشر، فقد كان للرؤى البروتستانتية فيما يتعلق بظهور المسيح (العودة الثانية)، أكبر الأثر في نمو العقائد المسيحانية الأصولية المتطرفة، وما رافقها من أفكار غيبية عن الألف عام السعيد الذي سيعقب عودة المسيح وارتباط ذلك كله بعودة اليهود إلى أرض الميعاد (فلسطين) ثم تنصير اليهود»(٦٦).

عودة اليهود لعودة المسيح... انحطاط الفكرة هذه، شكّل القاعدة للمشروع

---

* طائر الوقواق (إمبريالي / صهيوني): تضع أنثى الوقواق بيضها في عش طيور من نوع آخر... وعندما يفقس البيض، تطرد أفراخ الوقواق أفراخ أصحاب العش الأصليين الذين يواصلون إطعامها.

الاستعماري – الصهيوني، الذي أسقط من رحمه إسرائيل كلب صيد للإمبريالية... ومن أجل هذا الكلب نُسجت الصهيونية (برجوازياً / بروتستانتياً) وسميت رسمياً «في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، مع الإشارة إلى أن الصهيونية وأفكارها لم تكن فكرة اليهود أساساً، بل كانت فكرة أوروبية خالصة، تبناها اليهود، فعقدوا لها مؤتمرهم المذكور»(٦٧)، والسؤال!

- لماذا تبنى اليهود الفكرة الصهيونية...؟

البرجوازية صنّعت الصهيونية على قدر... وكلفت لاهوتها المتخصص في خدمتها إصدار الفتاوى الضرورية لدعم ما صنّعت... وبناءً على هذا التكليف خطت البروتستانتية خطوتها الأولى في الهجوم على لاهوت الإقطاع الذي كان يدين اليهود بقتلهم السيد المسيح – كما جاء في الإنجيل – ورفض كهّانها هذه الإدانة «وبرأوا اليهود من تهمة قتل المسيح، ودعوا إلى اعتماد الكتاب القديم بكل ما جاء فيه، واعتباره مقدساً لا يمكن تجاوزه، فشاعت الأوصاف القديمة لمناقبية اليهود، وحقوقهم وسمّو عرقهم، الأمر الذي تطلب معرفة الناس باللغة العبرية لإتقان سلوكية الإيمان، وعدم الوقوع في المحرّمات. وبذا تكون البروتستانتية هي التي أوجدت لليهود حضورهم في أوربا والعالم معاً»(٦٨)، وبكلام آخر.. أوجدت الفرش المريح للبرجوازية، بعد أن ربطت «عودة المسيح» بعودة اليهود إلى «أرض الميعاد»... حيث شكّل هذا الربط الحبل الذي اعتصم به اليهود والمسيحيون... هكذا كان... كان الربط «بين الصهيونية والمسيحية البروتستانتية التي يؤمن بعض أتباعها بأنه حينما يعود المسيح المخلص سيحكم العالم (باعتباره الملك المقدس) هو والقديسون لمدة ألف عام سيسود فيها السلام والعدل، ولابدّ أن يتم جلب اليهود إلى فلسطين تمهيداً لمجيء المسيح، لا ينكر هؤلاء أن اليهود صلبوا المسيح وأنكروه، ولكن جلب اليهود إلى فلسطين كفيل بتطهير هؤلاء من آثامهم»(٦٩).

على هذه الفكرة الدونية، برمجت البروتستانتية عقدة العقد اللاهوتية،

حيث:

- دُفع المسيحيون إلى اليهودية.
- دُفع اليهود إلى فلسطين.

هذا الدّفع المركب حاجة برجوازية، نفذته بتقانة البروتستانتية «ويعبّر رأي الباحث الأمريكي «إدوارد تفنان» عن مدى التأثير الروحي اليهودي – المسيحي بقوله: «ملايين البروتستانت الأصوليين الأمريكيين يدعمون «إسرائيل» عن إيمان كامل بأن دعم أمريكا لإسرائيل، هو السبيل الأساس لبقاء أمريكا السياسي والروحي. وما أكثر البروتستانت الذين يؤمنون عن يقين بأن اليهود شعب الله المختار»(٧٠).

التوراة الأسطورية، وصفت أتباعها (شعب الله المختار)، هذا ما كان في الأيام الخوالي لنهب فلسطين... ولنهب فلسطين فعلاً، جاءت اليوم البروتستانتية ذيل البرجوازية لتحوّل الوهم إلى حقيقة موضوعية بعد أن حشت أمخاخ أتباعها به... على هذا المفصل كان إيمان البسطاء – وما أكثرهم – بقيام إسرائيل، «ونتيجة للخلفية الدينية وتحت تأثير القيم الروحية والثقافية والسياسية السائدة في الولايات المتحدة الأمريكية، أو تحت تأثير غسيل الأدمغة المرادف لظهور الصهيونية واستغلالها البشع لما يسمّى بـ «الهولوكوست» وصلت نسبة الأمريكيين المؤيدين لإنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ إلى درجة عالية بين المسيحيين الأصوليين، الذين يؤمنون بأن قيام الدولة اليهودية جاء تحقيقاً للنبوءات التوراتية، وإن هذه الدولة ستلعب دوراً مركزياً في مخطط السماء للأرض، وأصبح كل المسيحيين الأمريكيين تقريباً ينهجون تجاه المنطقة نهجاً أقل ما يوصف به أنه قائم على صلة روحية دقيقة مع إسرائيل»(٧١)، التي جاءت تحقيقاً لإرادة السماء... أي تحقيقاً للدين اليهودي، الذي أصبح «يعني عملياً التهود البروتستانتي»(٧٢)، الذي نشط على قاعدته الثنائي (الكهّان – البرجوازيون) لدفع الناس إلى رصّ صفوفهم وتنظيم أنفسهم من أجل دعم إسرائيل (إرادة الله على الأرض)، فاستجاب الكثير لهذا الهذيان، حتى بات من

الصعب «حصر منظمات وجماعات الضغط الصهيونية – المسيحية كافة في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تختلف في إعدادها وإمكانياتها ونفوذها وطبيعة أنشطتها، لكنها تجمع على العمل لمصلحة خلق وتعميق تعاطف العامة لدعم «إسرائيل» وحركتها الصهيونية، وتصدر هذه المنظمات النشرات الإخبارية، والملخصات المركزة المخصصة لدعم «إسرائيل» تنفيذاً لرغبة الله، وتنظيم الرحلات إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، وتسوق السندات والمنتجات الإسرائيلية، وقد تجاوزت أنشطة هذه المنظمات حدود الكنيسة مكاناً وزماناً وتعاليماً، وأصبح الإنسان الأمريكي قادراً على الصلاة الروحية من خلال الكنيسة المرئية وهو مستلقٍ على كرسيه. وتتلخص رؤيتها العقيدية اللاهوتية في النقاط التالية:

١- كل مسيحي مخلص يجب أن يؤمن بالعودة الثانية للمسيح.

٢- إن قيام دولة «إسرائيل» والاستيلاء على مدينة القدس، إشارة إلهية قاطعة على أن العودة الثانية للمسيح على وشك الحدوث.

٣- إن كل من يقف ضد «إسرائيل» هو ضد المسيحية، وضد الله بالذات. وإن كل دعم مادي ومعنوي «لإسرائيل» هو قضاء إلهي.

ومن هنا تفسير استعمال الولايات المتحدة اصطلاح الالتزام الأخلاقي – الأدبي «بدعم إسرائيل». كما يتضح لنا أن كثرة استعمال الرموز الخطابية التوراتية في العمل السياسي الأمريكي نتيجة لتأثير البروتستانتية في المجتمع، خاصة لكونها تمثل الأكثرية الغالبة للشعب الأمريكي، وتكمن فيها مصادر النفوذ السياسي، وليس بسبب كثرة عددها فحسب، وبالتالي لكونها كنيسة الطبقة العليا (كنيسة الأنكو سكسون)، وبالتالي فإن حركة المسيحية الأصولية في أمريكا التي هي في أغلبيتها بروتستانتية تشكل أهم ظاهرة سياسية في العقدين الأخيرين من هذا العصر، وأن فهمنا لهذه الظاهرة (في أغراضها وأنشطتها وعلاقاتها واتجاهاتها وتأثيراتها)، من شأنه الإعانة على الاقتراب من المواقف السياسية والثقافية والعاطفية للشعب الأمريكي، الذي

يتصور في خياله وفي ثقافته اليومية أن الصراع العربي الصهيوني – امتداد للصراع التوراتي بين اليهود، وأن «إسرائيل» القرن العشرين، هي «إسرائيل» التوراة نفسها، التي يبشر قيامها بالمجيء الثاني للمسيح»(٧٣)... وعلى ظهر هذا المجيء... قامت أكبر عملية لصوصية في التاريخ، لفتّها البروتستانتية بثوب (قدس الأقداس) تحالفاً مع البرجوازية... وتكريماً لخسّتها هذه أصبحت كنيسة الطبقة العليا... وكرد لجميل هذه الطبقة، جعلت إسرائيل (إرادة الله على الأرض)، ليأتي نهبها – أي نهب الطبقة العليا – ملفوفاً بالقداسة... ولمثل هذه القداسة «أشاعت البروتستانتية في الذهنية الغربية معرفة بتاريخ فلسطين كما فسره التوراتيون. وأصبحت فلسطين (في تلك الذهنية) أرض اليهود. وسرى في النفوس اعتقاد بأنه من الضروري عودة أو إعادة اليهود المنتشرين في بقاع العالم إلى أرضهم القديمة»(٧٤).

فلسطين «أرض اليهود القديمة» هذا الاختلاق والكذب على التاريخ، أوجبه حاجة البرجوازية لإقامة قاعدة استعمارية في منطقة الشرق الأوسط لحماية نهبها لشعوب هذه المنطقة، لكن ما العمل لتحويل هذا الاختلاق والكذب إلى «حقيقة مطلقة»... هكذا تساءلت البرجوازية!! وبملامسة البروتستانتية هذا التساؤل... دخلت على الخط وفسرت الأساطير وزرعتها في أمخاخ العامة لتجييشها تحت أبخرة الحماسة اللاهوتية وراء البرجوازية... هكذا تحقق غرضين:

– جرّ الشعوب الغربية وراء الطغاة خدمة للرأسمال.

– جرّ اليهود إلى فلسطين خدمة للرأسمال.

إن دعوة (البرجوازية / البروتستانتية) إلى عودة اليهود إلى أرض فلسطين في محتواها خدمة لنقابة النهابين، و«سيأتي يوم يفهم فيه الناس الأسباب والدوافع الحقيقية للنهج المغامر والمجازف لدى أوساط الحكم في إسرائيل عندما تؤخذ في الحسبان حقيقة وجودهم المتين تحت تأثير ونفوذ وتسلط الرأسمالية الاحتكاري الكبير وأنهم يخدمون بأمانة مصالحه في الشرق الأوسط»(٧٥)...

ولخدمة تحقيق الهدف بكل أبعاده... قرّر اللاهوت البروتستانتي أن عودة اليهود «إرادة إلهية»، للتعتيم على إرادة البرجوازية التي تقف وراء هذه العودة «ومنذ إقامة إسرائيل (ميلادها)، كانت أوساط حكومات البلدان الإمبريالية تعتبر هذه الدولة نقطة ارتكازها في المناطق الغنية بالبترول في الشرق الأوسط، وعلى مقربة من قناة السويس، وكذلك تعتبرها الرّتاج الذي يحيط أيّة حركة تحرر قومي لدى البلدان العربية»(٧٦).

أقول: مصلحة الرأسمال في إقامة إسرائيل، لُفّت باللاهوت البروتستانتي لغرضين:

أولاً – نهب منطقة الشرق الأوسط.

ثانياً – إجهاض كل حركة تقاوم نهب الاحتكارات.

النّهب... والإجهاز على كل من يقاوم هذا النهب استراتيجية إمبريالية ستقودها إسرائيل في المنطقة العربية، وأن «أقوال آنطوني ناتانغ الوزير السابق في الوزارة المحافظة التي كان يرأسها آنتوني إيدن والتي كانت على رأس السلطة إبّان العدوان الثلاثي المعروف بـ عدوان السويس... أقوال ناتانغ المتعلقة بنشوب الأزمة:

لقد أكد الإسرائيليون شكوك جميع القوميين العرب... تلك الشكوك بأن القصد من خلق دولة إسرائيل. هو خدمة أهداف إمبريالية الغرب وليس لتكون ملاذاً ومكان لجوء اليهودية الأوروبية المضطهدة»(٧٧).

إذن: لفّ (الصهيونية / إسرائيل) بلفافة اللاهوت البروتستانتي، لم يكن من حيث المحتوى إلا حاجة استعمارية أفرزتها طبيعة البرجوازية، وحتى يكون اللّف بتقانة برمج الكهنة (الشطار) كل شيء، حتى «الأدب الصهيوني تغلّب عليه الروح الأيديولوجية للصهيونية المتشكلة عقب حركة البروتستانت في أوروبا في القرن السادس عشر»(٧٨)، وعقب هذه الحركة تغلّب أيضاً «شيوع الآداب الأوروبية التي دعت وأوحت باستلهام الموروث الديني اليهودي وضرورة إيجاد وطن قومي لليهود»(٧٩)... وبعبارة أخرى، جعلت من الأساطير التوراتية

متكأً لإقامة قاعدة عسكرية، تنفذ وتحمي مصالح الرأسمال... ولبرمجة ذلك على المساحة الأكبر، كان:

- الأدب الصهيوني بروح بروتستانتية، هذا أولاً.
- الأدب الأوروبي بروح صهيونية، هذا ثانياً.

(أولاً وثانياً)، شكلا المتراس اللاهوتي للدفاع عن بلع البرجوازية المال الحرام... ومن أجل هذا المال لا غير، خلطت البروتستانتية الأوراق وأصبح الجميع صهاينة «فهناك الأدب الصهيوني الفرنسي، والإنجليزي، والعبري، بحيث لا يفترض بالضرورة أن يكتب هذا الأدب اليهود فقط، فهناك أعمال أدبية صهيونية لأوربيين مسيحيين، كرواية «دانيال ريروندا» للروائية الإنجليزية: جورج إليوت (١٨١٩- ١٨٨٠)»(٨٠).

المسيحيون الأوروبيون واليهود برمجتهم البروتستانتية (صهاينة)، وذهبت في خدمتها للبرجوازية إلى ما هو أبعد.. إذ جعلت النزعة الفردية في المركز من نظريتها اللاهوتية، وعليه «لقد أصبح كل فرد كاهناً لنفسه من وجهة نظر (لوثر) وبات البحث على العمل وتمجيد قيمته إلى جانب التركيز على الفرد عماد النظرة البروتستانتية الجديدة»(٨١)، وهذا التركيز فلسفة برجوازية، جعلت منه البروتستانتية مركز أخلاقها «فالأخلاق الاقتصادية للبروتستانتية بعامة والكالفانية بخاصة أسهمت في مراكمة رؤوس الأموال، وتشجيع حركة الاستثمار، وولادة المراكز التجارية الضخمة، وإرساء نمط من العلاقات الرأسمالية مهّدت لولادة المجتمعات الرأسمالية الحديثة، وتفكك العلاقات الإقطاعية لمجتمع القرون الوسطى، وانعكاس ذلك على مفهوم الإنسان»(٨٢)، الذي أصبح في الرأسمالية (أداة إنتاج)، الحفاظ عليه يدخل في إطار الحفاظ على استمرار نهبه، وقد «ورد في مقال في مجلة الثقافة العالمية (إن تحسين الصحة وإطالة حياة الفقراء هما غاية بحد ذاتها وهدف أساسي للنمو الاقتصادي) وكذلك في تقرير لمنظمة الصحة العالمية نصائح بأن تستثمر البلدان الغنية أموالها في مشروع صحي واسع النطاق باتجاه البلدان

الفقيرة»(٨٣)، لإطالة عمر الفقراء فيها، لا حباً بهم كآدميين، وإنما حرصاً عليهم «كأدوات إنتاج» تدرّ على الرأسمال النّهب المطلوب.

إن الإنسان في مجتمع «المتحضرين الديموقراطيين» ليس غاية في حد ذاته وإنما هو وسيلة لتراكم الثروة... ومن أجل هذا التراكم شُنت الحروب لنهب الشعوب وللتغلب «على أزمات نظام الإنتاج الرأسمالي الذي يولد الفقر ويساهم في تدهور الصحة العامة لملايين الناس، ويعمل على نشر الأمراض الفتاكة التي هي من منتجاته المباشرة وغير المباشرة في سعيه من أجل الأرباح والهيمنة. فالرأسمالية الإمبريالية المالية في حقبة العولمة تزرع الفوضى والدمار في كوكبنا الأرضي، وتسعى إلى نقل نشاطها إلى الفضاء الخارجي للسيطرة عليه وجعله امتداداً لمجالها الأرضي لاستغلاله لمصالحها الخاصة واحتكاره وادعاء ملكيته مستقبلاً، لأن العالم الثالث غير قادر على القيام بأي مسعى في هذا السبيل، وهو الغارق في تخلفه وفقره ومشاكله الأرضية التي فرضتها عليه هذه الإمبريالية. فالفوضى التي هي الجوهر الكامن في حركة الرأسمالية وبنيتها ونظامها الإنتاجي، تجعل الكوارث البيئية والحروب المستمرة والمدمرة للآخر جزءاً عضوياً من أسلوبها وحركتها.

لقد تأسس نمط الإنتاج الرأسمالي وتوطد وتوسع ليشمل العالم القديم والجديد عن طريق الحروب الطويلة والقصيرة والحملات والغزوات العسكرية في مشرق الأرض ومغربها التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون حتى عصرنا الحديث. تغيّرت الرأسمالية وأنظمتها السياسية والقانونية والثقافية خلالها، وغيّرت العالم معها، فأوجدت التشكيلات الاقتصادية – الاجتماعية التي تتلاءم وتستجيب لبنيتها وأهدافها وحاجاتها المادية والروحية، ورسخت مفاهيمها الحقوقية والأخلاقية ومعاييرها القيمية وثقافتها الحديثة حيناً بالدولة الديموقراطية، وإن لم تنفع فبالديكتاتوريات الحديثة، وبالثورة الاجتماعية الطبقية والوطنية التحررية.

ثم اخترعت الدولة البرجوازية الحديثة – الدولة الأمة – والدولة التوتاليتارية

الشمولية، حيثما كانت البرجوازية حاملة نسقها الثقافي والفكري ضعيفة تتوسل بتحالفها مع القوى الاجتماعية التي تيسر لها سبل الهيمنة والنهوض بتوسيع وتعميق أسلوب الإنتاج الرأسمالي وصولاً إلى سيطرتها الشاملة على السلطة والدولة والمجتمع. وعملت خلالها على تأسيس الهيئات والمؤسسات المبتكرة المالية والاقتصادية والسياسية والثقافية لخدمة استراتيجيتها الكونية في تشغيل رساميلها المتراكمة باستمرار، والبحث عن أسواق خارجية ومناطق جديدة لاستثمار هذه الكتلة المالية الهائلة، والمخترعات والسلع الصناعية وأساليب الإنتاج المتجددة بتسارع متزايد مع تعاظم الثورتين التقنية والتفتح لحل أزماتها الدورية ومشكلاتها في العالم القديم»(٨٤)، وانتشارها هذا، أفرزته طبيعتها العطشى دائماً للمال الحرام، ودعمها في تزييف الوعي الطبقي لاستسلام المنهوبين لطغيانها دون مشاكسة... غير أن حركة التحرر في العالم الثالث أدركت واقع الحال... أدركت العملية اللصوصية التي تقوم بها البرجوازية فشنت الحرب عليها. «إن حروب التحرر الوطني، والتي عملت على إبراز مضمون وجوهر الرأسمالية كنظام قمعي وحشي بربري، وديكتاتوري للطبقات البرجوازية الحاكمة، التي أسست الدولة الرأسمالية الحديثة في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، مركز قيادة هذا النظام العالمي الجديد، استطاعت هذه الحروب بعد سنوات طوال من التضحيات الكبيرة من تحرير بلدانها من الاحتلال العسكري المباشر بعد أن أصبحت كلفته المادية والبشرية للرأسمالية الاستعمارية عالية وغير اقتصادية، وقد ساهمت أول دولة اشتراكية في العالم بعد الثورة البلشفية الروسية ١٩١٧م في قطع حاد في بنية هذا النظام الرأسمالي وساعدت الشعوب المكافحة من أحل التحرر الوطني.

إن الإمبريالية التي حددها لينين بأنها أعلى مراحل الرأسمالية والتي أظهرت ثورة تشرين الثاني ١٩١٧م البلشفية إمكانية استبدالها بالاشتراكية العلمية والماركسية اللينينية كنظام إنتاج جديد لصالح العمال والفلاحين والشعوب المقهورة، بعدما أنهكتها أزماتها الدورية التي صاغ ماركس قوانينها في كتابه

– رأس المال – والحروب الطاحنة بين دولها على استعمار العالم القديم والجديد وكفاح الطبقة العاملة في بلدانها، والمقاومة المتصاعدة للشعوب ضد الاستعمار»(٨٥)... أي حمي الوطيس في ملعب الصراع الطبقي، وفي هذا الملعب جرى لعب الطبقة البرجوازية غير النظيف... عتّم على قذارته اللاهوت البروتستانتي المتخصص في خدمتها، حيث شكل معها (ديكتاتورية)٢.

البرجوازية بعد أن أفرزت طبيعتها الاستعمار... ولاستعمار الشرق الأوسط الغني بثرواته استعماراً أبدياً في إطار قيد يصعب كسره... ولدت الصهيونية، ولصهيونية مبرمجة لاهوتياً، كان اللاهوت البروتستانتي الذي جعل منها حركة دينية تحقق (إرادة إلهية)، إذ «بدأ تنفيذ المشروع الصهيوني، بنشاطات الجمعيات التبشيرية الدينية، ليس في فلسطين فحسب، بل وفي بريطانيا نفسها كذلك، وقد ظل هدف الجمعيات واحداً: بعث التوجه اليهودي نحو فلسطين، ودفعهم عملياً، باتجاه استيطانها»(٨٦).

اللاهوت البروتستانتي، لم يقف عند حدود دفع اليهود لاغتصاب فلسطين كما تخطط البرجوازية.. بل أخذ على عاتقه دور الطليعة فيما ترسم له هذه البرجوازية من سطو على الشعوب... حتى يكون سطوها قدراً (سماوياً) لا سبيل إلى رده، و«ومن الأشياء المريبة حقاً في السياسة التبشيرية الأمريكية، أن يتم عقد اتفاق مع حكومات كل من إيران والعراق وتركيا في أدنبره عام ١٩١٠ ينص صراحة على حق الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في القيام بالتبشير للديانة المسيحية بين شعب الأكراد المسلمين في الأقطار الإسلامية الثلاث»(٨٧). أمريكا تعقد اتفاقاً ينص على حق اللوثرية في التبشير الديني، وكأنها صاحبة رسالة (سماوية)، لا تريد عليها أجراً، إنما أجرها على (الله)، والسؤال الآن!

– ما الذي تقصده أمريكا من وراء التبشير الديني..؟

اللوثرية: في جوهرها لاهوت برجوازي، ومن هنا:

– حاربت مع البرجوازية الإقطاع.

– عززت الفردية وأرست نمط الإنتاج الراسمالي.

- دعمت أيديولوجية البرجوازية لاهوتياً.

على هذه القاعدة من سلوك اللوثرية:

- يُصبح المؤمنون بها مؤمنين بالبرجوازية لالتحامها بالمقدس.
- يصبح النهب الإمبريالي «إرادة إلهية»، ما دامت اللوثرية «إرادة إلهية».

وبالتالي يصبح:

- تخمة القلة وإملاق الكثرة، والحروب الطاحنة، ليس من طبيعة الرأسمالية.

نعم: اللاهوت المتخصص في خدمة الطبقة النهابة منذ ظهور الطبقات، هو الآن في خدمة توحش الإمبريالية المتحكمة «بمصائر شعوب العالم في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، وقادت البشرية إلى حربين عالميتين»(٨٨)، كلفتها الثمن الباهظ من الثروات والأرواح، لا لذنب اجترحته، وإنما لكونها - أي البشرية - كرة تتقاذفها الاحتكارات في صراعها على المال الحرام. «فلقد برهن لينين، بعد أن درس الأسباب الاقتصادية والسياسية للحرب العالمية الأولى، على أن تلك الحرب كانت حرباً بين الإمبرياليين من أجل تقسيم العالم، وقامت كنتيجة لعدم التكافؤ بين القوى في التطور الاقتصادي. وبفضل التطور الهائل لتكنيك الإنتاج في البلدان الرأسمالية الكبرى صار في إمكان بعض تلك البلدان، خلال فترة وجيزة نسبياً من الزمن، اللحاق بالبلدان الأخرى الأكثر تطوراً، وذلك بعد أن حققت وتيرات أعلى في التطور الاقتصادي. لكن هذا التوازن بين القوى يختل، ويبدأ الصراع من أجل تقسيم العالم حسب شريعة الغاب الرأسمالية، وتحتدم تناقضاته الرأسمالية إلى درجة التفاقم. إن عدم التكافؤ في التطور الاقتصادي، وإن التناقضات التي نتجت عنه في الرأسمالية الاحتكارية كانت سبب اندلاع نار الحربين العالميتين الأولى والثانية»(٨٩)... وبكلام آخر:

عندما يتغير ميزان القوى في ملعب المصالح المتماثلة، فإن الرأسمال الأقوى يقرّر الحرب لإعادة تقسيم النهب على ضوء التغيّر الجديد. «إن الرأسمال في

الدول المتحاربة كلها، كان هو الذي يتحارب فيما بين أطرافه المتساوية في الجشع. فإذا كانت النار التي اشتعلت في أوروبا إنما أشعلها ثقاب من صنع الدول الثلاث، بريطانيا وفرنسا وألمانيا، فالدول الأخرى التي دخلتها قدّمت الوقود للنار المشتعلة، إن المسؤول الأول عن الحرب كان الجشع الرأسمالي ليس غير، وإن الأطراف المسؤولين هم الدول والحكومات التي أعماها هذا الجشع، وأضاع فيها الصواب فاقترفت جريمتها الوحشية»(٩٠)، لتتخم كروش لصوص الدنيا.. ومن أجل تخمة هذه الكروش، لا غير، كانت الحرب الأولى والثانية وكل الحروب والشرور على هذا الكوكب. «إن نظرة واحدة نلقيها على نتائج تلك الحروب والصراعات الاستعمارية تبين لنا فداحة ما لحق بالبشرية جراء الاستعمار، إذ تقول الإحصائيات:

في الحرب العالمية الأولى بلغ عدد الشعوب التي أعلنت الحرب على بعضها بعضاً /١,٥/ مليار من البشر ينتمون إلى ثلاث وثلاثين دولة قامت بتعبئة سبعة ملايين مقاتل، وبلغت خسائرها البشرية عشرة ملايين قتيل وعشرين مليون جريح، كما بلغ حجم الخسائر المادية مئتين وثمانية مليارات من الدولارات.

في الحرب العالمية الثانية بلغت الخسائر سبعة عشر مليون قتيل من الجنود وثمانية عشر مليوناً من المدنيين، إضافة إلى أضعاف هذه الأرقام من الجرحى والمشوهين، اليتامى والمشردين... إلخ، فيما بلغت النفقات العسكرية للحرب ألفاً ومئة مليار دولار، وإجمالي خسائر الحرب في العمران والصناعة وبين المدنيين ألفين ومئة مليار دولار علاوة على المواشي التي قتلت، المناجم التي دمرت، المصانع التي احترقت، المدن التي هدمت.

الطيار الأميركي بول جيردوم، بعد أن ضرب هيروشيما بقنبلته الذرية، أرسل البرقية التالية: «رأيت المدينة وهدمتها»، فأية وحشية أشد من وحشية الإنسان هذه: بقنبلة واحدة يدمر مدينة، بكل ما فيها من بشر وحيوان، نبات وعمران... وتكون نتائج الحربين العالميتين الأشد وحشية في تاريخ البشرية: أكثر من مئة مليون من البشر بين قتيل وجريح والخسائر المادية أكثر من ثلاثة

آلاف وخمسمئة مليار دولار!! إنه لشيء أشبه بالجنون، الأمر الذي دفع الكثيرين لأن يبحثوا عن مخرج.. أن يجدوا وسيلة لإنهاء التنافس، لاجتثاث الاستعمار... فكانت في البداية عصبة الأمم، تلك التي تآمر عليها الاستعماريون أنفسهم إلى أن حوّلوها إلى مطية ثم كسيحة عاجزة، لكن خوف الإنسان من شرور الإنسان، خشيته من وحشية أخيه الإنسان دفعته للبحث عن وسيلة جديدة فكانت هيئة الأمم المتحدة التي عقدت عليها الآمال لإنقاذ البشرية من براثن الاستعمار وتصفية الاستعمار... لكن هل تحقق هذا الحلم..؟ هل بلغ الإنسان هذا الأمل..؟ الإحصائيات أيضاً تقول: إنه ما بين إنشاء هذه الهيئة وتسعينات القرن العشرين نشبت مئة وتسع وأربعون حرباً قتل فيها أكثر من ثلاثة وعشرين مليون إنسان وتركت من الدماء والخسائر ما لا يعد ولا يحصى... لماذا..؟ لأن الشر نفسه ما زال متمكناً من الإنسان.

صحيح أن الصورة تبدلت وقوى الاستعمار تغيرت، فحلّت قوة محل أخرى، وهيمنت دولة على العالم محل أخرى، إلا أن جوهر الأمر ما يزال هو نفسه: الشر، العدوان، البغي، ما تزال هي وحدها صاحبة القوة، تريد الاستئثار بكل شيء والسيطرة على كل شيء حتى على هيئة الأمم المتحدة نفسها، لتصبح أداة ووسيلة بدلاً من أن تكون المرجع والحكم، وتتكرر المأساة نفسها دون أن تتعلم قوى الشر والاستعمار تلك من دروس التاريخ، والعنف لا يجر إلا العنف، والاستعمار والهيمنة لا يجران إلاّ الرفض والتمرد، لتنشب حروب من جديد، ويحدث دمار من جديد، بينما تتسع الأرض للناس، جميعاً إن عاشوا أخوة متعاونين متآزرين، يسودهم الأمن والسلام. ذلك أن عبر التاريخ كلها تقول: بالأمن وحده يكون النماء والازدهار، وبالسلم وحده يحيا العالم بل يصبح الأجمل والأروع»(٩١).

- بالأمن وحده يكون النماء والازدهار.
- بالسلم وحده يحيا العالم.. بل يصبح الأجمل والأروع.

كلام جميل... ولكن!

- كيف يتحقق الأمن والسّلم...؟

الأمن: لا يتحقق إلا ببسط الحق والعدل بين الناس، وهذا لا يكون إلا بتوزيع الثروة من الأعلى إلى الأسفل، عندئذ، تأمن التيارات التحتية على حياتها من غوائل الإملاق والجوع. في هذه الحالة وحدها يسود السلم وتصبح الحياة أجمل وأروع، بعد أن دُفنت ديكتاتورية النهب في مزبلة التاريخ.. وهي لا تدفن إلا بوحدة الأخيار – حسب تعبير تولستوى – لدفن المجتمع الفاسد – حسب تعبير روسو – وأهله الأشرار.... فالمسألة ليست بالترجي والآمال والأحلام... إنه الصراع الطبقي مولود الملكية الخاصة التي خلقت ناهبين ومنهوبين وخلقت الحروب وكلّ الشرور على هذا الكوكب من أجل بلع الحق.. ومن أجل البلع هذا تأتي شرورها مركبة معقدة... وكما قال لينين:

- **التطور الاقتصادي:** يغير ميزان القوى.
- **تغيّر ميزان القوى:** يفرز الصراع الجديد.
- **الصراع الجديد:** يفرز الحرب لإعادة اقتسام النهب.

وهكذا دواليك... ومن هذه الدواليك تستمر الحرب ويطول عمر الشر.

الحرب العالمية الأولى أشعل نيرانها الرأسمال الأوروبي... وعندما وجد الرأسمال الأمريكي أنه الأقوى، حيث «كان الناتج القومي للولايات المتحدة يضاهي مثيله لدى كل القوى العظمى الأخرى مجتمعة»(٩٢)، من هنا، قرّر الرأسمال الأمريكي دخول الحرب لنسف حصة الأسد من المال الحرام، ولتسنم ذروة التسلط والهيمنة في العالم. ولكن كيف يتحقق له ذلك..؟ كيف يقود الشعب الأمريكي المحبّ (للأمن والسلام) إلى أتون هذه الحرب..؟ هكذا تساءل خدمه!

وبملامسة هذا التساؤل... قال روزفلت: وجدتها.. وجدتها، لابدّ من قتل بعض الأمريكيين لتهيئة الشعب الأمريكي على قبول ما يلهث وراءه الرأسمال.. على هذا المفصل من المكر السيء تحرّك «فرنكلين روزفلت الذي يتساءل أكثر من باحث عن السبب الذي حمله إلى إرسال الأسطول إلى مرفأ بيرل هاربر في

هاواي، أي على مسافة آلاف الكيلومترات من الساحل الأميركي. الواضح أنه كان يريد أن يسيل لعاب اليابانيين فينقضون على الأسطول، وهذا ما حصل، لكي تعلن الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا وتخرج كلياً من مبدأ مونرو، وبالطبع لكي ترث الإمبراطوريات الأوروبية الهرمة»(٩٣)، وهذا ما كان فـ «لم تهزم ألمانيا، فحسب، بل إنها هزمت أوروبا بأسرها»(٩٤).

هزمت أوروبا، وتلقفت أمريكا الكرة، وفي سبيل الحفاظ عليها تدوس هذه الأمريكا كل القيم الإنسانية وفق شريعة ديكتاتورية الرأسمال.

لاحظوا: هلك الحرث والنسل في حربين عالميتين، ومئات الحروب الأخرى، ومع هذا، لا يزال صنّاع هذا التوحش يلبسون ثوب «الديموقراطية»... وهذا يعني لكل بصير أن «ديموقراطيتهم» هي استعباد البشر وتحويلهم إلى أدوات إنتاج.. إلى عبيد. يقول ماركس: «فإن اتساع السوق الكونية والنظام الاستعماري اللذان يشكلان جزءاً من شروط الوجود العامة للعهد المانيفاكتوري، يقدمان له مواداً غنية لتقسيم العمل في المجتمع. ولا مجال هناك لبيان كيف غزا هذا التقسيم، ليس فقط الدوائر الاقتصادية، وإنما جميع الدوائر الاجتماعية الأخرى، مدخلاً في كل مكان، هذه التنمية للاختصاصات، وهذه التجزئة للإنسان، التي انتزعت من: أ. فرجيسون، أستاذ آدم سميث هذه الصرخة: «إنما نحن أمم كاملة من الأرقاء وليس عندنا أبداً مواطنون أحرار»(٩٥)، بعد أن تحوّلوا بمحرك «الديموقراطية» البرجوازية إلى عبيد... إلى وسائل إنتاج في ملكية الرأسمالي لإنتاج القيمة الزائدة لرأسماله، يقول ماركس: «إن العامل، في الواقع، ملك للرسمال حتى قبل بيعه نفسه من الرأسمالي. أنه لا يستطيع العيش إذا لم يبع قوة عمله من الرأسمالي. إن العامل المأجور مرتبط بطبقة الرأسماليين بسلاسل غير منظورة ولكنها متينة»(٩٦)، متانة حبّ البقاء عند الإنسان، الذي دفع منتجي الخيرات المادية للسقوط في مصيدة النّهابين.. وفي هذه المصيدة ذاقوا ويذوقون كل أشكال الألم والعذاب... هذا ما حدث:

أولاً – في البلدان الرأسمالية ذاتها.

ثانياً – في البلدان الأخرى بعد سطو الرأسمال عليها.

في البدء، حُبست ديكتاتورية الرأسمال في إطار نهب شعبه.. ومع تطور أدوات الإنتاج وزيادة الإنتاج، بدأ الحرب للسطو على الآخرين، وبدأ تقسيم العمل، ومن هنا، «كانت أكبر نتائج الحرب العالمية الأولى احتلال كل الوطن العربي مجزأ عبر سايكس بيكو ١٩١٦»(٩٧)... وبعد تغيّر ميزان القوى.. كان لابدّ من إعادة اقتسام النهب، فكانت الحرب العالمية الثانية... التي كانت «حرباً من طراز غربي أصيل، أي حرباً بوصفها مجزرة هذيانية، ستنتهي بجبال من الجثث البشرية بلغت ستين مليون حياة مزهوقة، دعْ عنك الخراب والتدمير الهائل لمنجزات مئات السنوات من العمل والإبداع الإنساني والثروات الطبيعية المهدورة والمخربة»(٩٨).

يا إلهي!!

مجزرة هذيانية صنعها «الديموقراطيون» لاقتسام السّحت وفق ميزان قواهم «الديموقراطي»، وما دام السّحت هدفهم فلم تقف «ديموقراطيتهم»... لم يقف توحشهم عند حدود هذه المجزرة، بل استمر في العالم الثالث: «يقول فرانك بارنابي (Frank Barnaby)، المدير السابق لمؤسسة استوكهولم الدولية لبحوث السلام، وأحد كبار المختصين ببحوث التسلح ونزع السلاح في مقال (١٩٨١) غير منشور: «نشبت في العالم، منذ الحرب العالمية الثانية، حوالي ١٤٠ حرباً أو نزاعاً مسلحاً منها حوالي ٥٠ في العقد الأخير. وتكاد أن تكون كلها محصورة في العالم الثالث، والأسلحة المستخدمة فيها مصدرة من الدول الصناعية»(٩٩).. أي من الدول «الديموقراطية»، وشركات سلاحها الاحتكارية، صانعة المجازر الهذيانية مرضاة «للإله المال»، الذي تقوم على أكتافه كل شرائع الرأسمال والتي تجمع على أن الناس ما خلقوا إلا لعبادته.. إلا لجمع الثروة لِسُفّل الدنيا... ومن أجل هؤلاء السُفّل شهد القرن العشرين «موت عدد من الناس يقدر بـ ١٥٠ مليون إنسان في النزاعات»(١٠٠)... شهد هذا الجبل من الموتى لنسف أجبال من المال الحرام.. ومن هذا وذاك تتشكل عذابات

البشرية التي لا خلاص منها إلا بالخلاص من النظام الرأسمالي الذي ينسلها، يقول نهرو: «كلما ازدادت مطالعتي ازددت انبهاراً فبدت لعيني الهند بمشاكلها ونضالها مجرد جزء من هذه المأساة العالمية العظمى، ومن ذلك الصراع العظيم الدائر في كل مكان بين القوى السياسية والاقتصادية المتناحرة قومياً ودولياً... وفي ذلك الصراع توجهت بعواطفي وعطفي صوب الجانب الشيوعي. كنت قد انجذبت منذ زمن طويل إلى الاشتراكية والشيوعية، وكانت روسيا بتجربتها الجديدة قد استهوتني، هذا مع أنني كرهت كثيراً مما كان يجري في روسيا السوفياتية من قمع قاسي لكل رأي يخالف الرأي الشيوعي، ومن التسرية الاجتماعية (التسرية: توحيد جميع المظاهر والأشياء وجمعها على صعيد تحدد الدولة شكله وطبيعته) ومن عنف لا تستلزمه الحاجة (في رأيي) في تنفيذ وتطبيق مختلف السياسات، ولكن بما أن العالم الرأسمالي لم يكن بالمقابل يفتقر إلى القمع والعنف، ولم يكن يخلو منهما، فقد ازددت تحققاً من أن العنف هو جوهر وأساس مجتمعنا وجوهر وأساس ممتلكاتنا المكتسبة، وأدركت أن مجتمعنا بحالته الراهنة لا يستطيع البقاء أكثر من أيام معدودات بدون عنف.

إن قسطاً من الحرية السياسية كان في الواقع يعني شيئاً قليلاً عندما كان الخوف من المجاعة يجبر أغلبية الشعوب في كل مكان أن تخضع لإرادة القلة، ومن أجل مصلحة هذه القلة، ومن أجل أن تحقق هذه القلة الأمجاد والمنافع على حساب الكثرة»(١٠١)، يستمر العنف والقهر لبلع حق الكثرة.. ومع تزايد الشهية لهذا البلع، تزايد العنف والقتل والدمار، ففي «فترة مطلع القرن العشرين التي كانت تسدل ستار النهاية على عالم قديم، ما لبث أن ذوي مفسحاً الطريق أمام عالم مفعم بالاقتتال جاء ثمرة تطور الرأسمالية إلى احتكار، وقد كتب لينين: «... إن الاستعمار، أي الرأسمالية الاحتكارية، الذي بلغ النضج نهائياً في القرن العشرين فقط، يتميز من حيث سماته الاقتصادية الجذرية، بأقل ما يكون من الميل إلى السلام والحرية، وبتنمية الطغمة العسكرية إلى

أبعد ما يكون وعلى نحو شامل»(١٠٣)... ومن رحم هذا الشامل سقطت ديكتاتورية الرأسمال المتوحشة على هذه البسيطة، يقول نهرو: «فقد زجتنا السلطة في السجون بوسائل تعسفية ديكتاتورية، فلم يكن هناك نفاق أجرأ من نفاقها... فها هي الهند تحكم حكماً تعسفياً بقوانين كيفية، ومع ذلك، فإن حكامها يتكلمون بجرأة عن الديموقراطية، التي كانت حتى معدومة الظل في الهند وفي الأحوال الطبيعية»(١٠٤)... وليس هذا بالغريب عن الخلق الرأسمالي، الذي يتفوق بامتياز بقدرته على برمجة المفاهيم والمصطلحات على خدمة مصلحته الطبقية، ومن هنا:

- أصبح السطو والتوحش: تدخلاً إنسانياً.
- أصبحت الديكتاتورية: ديموقراطية بامتياز.

وماذا بعد..؟

بعد أن صعدت البرجوازية الأوروبية ممثلة في بريطانيا التي تراكز فيها الرأسمال الأعظم، استعبدت هذه البريطانيا:

- ٨٥٪ من الكرة الأرضية – كما مرّ معنا –.

ومن هذه الـ ٨٥٪:

- نهب ٨٥٪ من ثروة الكرة الأرضية.

ومن هذا كان:

- خمس سنوات كافية لإثراء الموظف الإنكليزي في الهند – كما مرّ معنا –.
- تدفق مليارات الدولارات على جيوب اللصوص في لندن.

قابل هذا:

- موت الملايين جوعاً.
- ملايين النساء العاريات – كالمرأة الأولى.

على هذا المفصل تظهر «ديموقراطية المتحضرين» دون أردية في الهجوم على الدنيا... والدنيا بالنسبة لنقابة النهابين «كالماء الملح الذي لا يزداد شاربه شرباً

إلا ازداد عطشاً. وهي كالعظم الذي يصيبه الكلب فيجد فيه ريح اللحم، فلا يَزال يطلب ذلك اللحم حتى يدمي فاه»(١٠٥).

الرأسماليون هم:

- كشارب ماء الملح.
- كالكلب في تفتيشه عن اللحم.

لاستمرار هذه الخصائص دون مشاكسة... غربل الرأسماليون خستهم، فوجدوا: رمي بعض الفتات للمنهوبين يكفل دوام نهبهم، مثلهم بذلك «كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد بذلك نفع الطير، وإنما يريد نفع نفسه»(١٠٦).

على هذا المحور من الخبث أراد الرأسماليون نفع أنفسهم بتقديمهم للمنهوبين ما يكفل استمرار حياتهم، ليكفلوا بذلك استمرار نهبهم، يقول ماركس: «وصحيح أن الشغيل يقوم باستهلاكه الفردي لتلبية رغباته الخاصة لا لتلبية رغبات الرأسمالي. ولكن الدواب هي أيضاً تحب الأكل، فهل ثمة من يزعم أن تغذيتها ليست في مصلحة المزارع»(١٠٧)... بلى والله إنها في مصلحته التي لا يبتغي سواها.

أقول: الطبقة البرجوازية وفق مبدأ:

- الصياد وإلقائه الحب للطير.
- المزارع وتغذيته الدواب.

سلكت طريق مصلحتها، وألقت بعض ما سرقت، لتخلق «وبفضل استثمار المستعمرات، فئة غير كبيرة من العمال العالية الأجور، «الأرستقراطية العمالية». إنها تستخدم هذه الجماعة من العمال لتفريق صفوف العمال، ولنشر أفكار السلام الطبقي»(١٠٨).

نعم: الخبث البرجوازي المركّب، ضرب عصفورين بحجر:

- تقديم الفتات للطبقة العاملة لاستمرار نهبها.
- خلْق فئة من العمال عالية الأجور لتفريق صفوف العمال.

بهذا حققت البرجوازية:

- عرقلة لعب خصومها في ملعب الصراع الطبقي وحشرت قادة اليسار في أضيق الزوايا.

لإطالة عمر هذا المسار في خدمتها، رمت كل ما تملك من وسائل الإعلام في جبهة قتالها، وهي «وسائل جبارة للتلاعب بالرأي العام، ولنشر ما يهمها ويخدم مصالحها من الآراء والأفكار عن طريق الصحف والإذاعات والتلفزة وسواها من وسائل الإعلام الخارقة، والخبراء يتنافسون في تبسيط هذه الآراء والأفكار كي تتسرب إلى النفوس بسهولة والتحكم بوعي الجماهير أو لا وعيها. وخطر هذه الوسائل الموجهة، إنها، من جهة، تعمم الخطأ أو الدجل مغلفة إياه بغلاف الصحة أو الصواب، وتنمّي في النفوس الميل إلى التوكل والاستسلام والانفعال بدلاً من النشاط العقلي الفعلي الشاق الذي يتطلبه البحث عن الحقيقة واكتساب القدرة عن طريقها»(١٠٩)... هذا السلوك البرجوازي تفرزه المصلحة الطبقية لتجهيل الطبقة المنهوبة، من أجل إبقاء عقلها في إجازته المفتوحة، ليسهل استمرار نهبها، ولطمس هذا الهدف الدوني «يفاخر الغربيون بعقلانيتهم وبممارستهم للنقد الذاتي، ويدعون العرب إلى مثل هذا النقد، ولكن المطلع على اتجاهاتهم وكتاباتهم، يرى أنهم في الغالب لا يمارسون ما يدعون، خصوصاً عندما يكون الأمر متصلاً بالعرب وعلى وجه أخص عندما يمسّ بإسرائيل. فكأن شعار «حقوق الإنسان» الذي ترفعه هذه الدول يطبق عندما يناسب مصالحهم، ويختفي عندما يتعلق بسواهم»(١١٠)... هذا المكر السيء لحتمه وسداه المصلحة الطبقية... وهو بالذات ما سمّي غشاً وخداعاً «ديموقراطية» التي يؤكد التاريخ: أنها ما كانت إلا لخطف ما بيد الغير... أنها ما كانت إلا ديكتاتورية متوحشة لسرقة الناس أرزاقهم.

«ديموقراطية» بريطانيا مثلاً، تُحبس في سهم الحزبين المتنافسين على خدمة الرأسمال.

- حزب المحافظين – تاتشر – رسخ سياسة الليبرالية الجديدة في سيطرة

الرأسمال على السوق.

– حزب العمال – بلير – شارك في الحرب على العراق، ليكون للرأسمال البريطاني سهماً في السرقة المأمول نسفها.

هذا يعني أن تنافس الحزبين «ديموقراطياً» للوصول إلى البرلمان، هو تنافس على خدمة الرأسمال، لا غير، يقول ماركس: «لقد أبدت البرجوازية الإنكليزية على الدوام استعدادها لقبول قرارات الأغلبية طالما أنها كانت تحتكر حق التصويت بصورة مطلقة. ولكن فلتكونوا على ثقة أنه بمجرد أن تجد نفسها في الأقلية فيما يتعلق بالمسائل التي تعتبر حيوية بالنسبة لها، فإننا سنواجه آنذاك حرباً جديدة على شاكلة حرب ملاك العبيد...»(١١١)... ولكي لا يحدث هذا ويُكشف سرُّ «الديموقراطية» البرجوازية... تبذل هذه البرجوازية جهوداً جبارة (مادية – معنوية) - وهي مالكة كل وسائل السيطرة في المجتمع – من أجل وصول أفراد طبقتها للبرلمان، «وقد فضح ماركس جوهر البرلمانية البرجوازية، التي ينبغي على الجماهير الشعبية في ظلها أن تقرر مرة كل ثلاث أو ست سنوات «مَنْ منْ أعضاء الطبقة المسيطرة يجب أن يضطهد الشعب ويمثله في البرلمان»(١١٢)... وبكلام آخر: إن البرلمان الإنكليزي يُبرمج على خدمة الطبقة النهابة، ورداً على هذه البرمجة، جاءت حكمة إنكليزية لاذعة تقول: «البرلمان قادر على كل شيء، وهو عاجز فقط عن جعل الرجل امرأة»(١١٣) قادر على كل ما يحقق مصالح الرأسمال... وما دامت هذه المصالح في المسار المطلوب طبقياً فـ «الديموقراطية مزدهرة... أما إذا ظهر ما يعرقل مسارها، عندئذٍ، تكشر الطبقة المستغِلة عن أنيابها وتظهر دون أردية، حتى ثوبها الشفاف من «الديموقراطية» المزيفة تعلقه في خبر كان... على هذا المحور، فـ «أن الإكراه المضمر تحت الرماد في الدول الديموقراطية ذات الإرث القانوني، سرعان ما ينبعث كالمارد عندما تتهدد الدولة، ولعل من القمع العلني الذي تعرضت له حركة الطلاب في أوروبا خصوصاً في فرنسا العام ١٩٦٨، ما يؤكد أن الدولة الديموقراطية سرعان ما تكشر عن أنيابها الإكراهية إذا لم

تفلح الضبط، أو إذا هددت الحرية.. الدولة»(١١٤)... وبمعنى آخر، إذا هدّدت «ديموقراطية» نهب الآخر، التي ترعاها الدول الغربية وفي إطارها ترعى أيضاً المسار العام للمشروع الإمبريالي... ومن الأمثلة القريبة على الذاكرة بهذا الخصوص، أنه «في بداية شهر تشرين الثاني الماضي ظهر استطلاع للرأي أجرته مفوضية الاتحاد الأوروبي في خمسة عشر بلداً أوروبياً، أثار عاصفة هوجاء في تل أبيب وواشنطن ضد الشعوب الأوروبية والاتحاد الأوروبي، بسبب إبداء الأكثرية الأوروبية لرأي عبرت فيه عن قناعتها حين استطلعت عن الدول التي تشكل اليوم تهديداً حقيقياً للسلام العالمي، فقالت الأغلبية: (إن الكيان الصهيوني يحتل المرتبة الأولى بتهديده للسلام العالمي، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تحتل المرتبة الثانية).

فانتفضت الإدارة الأمريكية مهددة مع الكيان الصهيوني، ورفعت لوائح الاتهام المكروهة من كثرة تكرارها أي (معاداة السامية) لتلك الشعوب، كما اتهمت بالجهل والتغرير وعمى الألوان، فبدلاً من اتهام العرب والمسلمين بالأكثر تهديداً للسلام، اتهمت الولايات المتحدة وحليفها الكيان الصهيوني، وشنت وسائل الإعلام الصهيوني والغربي المتصهين حملة على المؤسسة الأوروبية التي أجرت الاستطلاع، واعتبرتها غير جديرة.

وأمام هذا الإرهاب السياسي والإعلامي أسرعت مفوضية الاتحاد الأوروبي بإعلان براءتها الشخصية مما ظهر من رأي للأغلبية، وأنها ليست مع هذا الرأي، وتدافع زعماء الاتحاد بالإعلان أيضاً عن عدم رضاهم وموافقتهم عما أسفر عنه الاستطلاع. وهكذا أمام العصا الإرهابية الأمريكية والصهيونية خنع حكام أوربا، وداسوا على أبسط أشكال الديموقراطية، الا وهو التعبير عن الرأي. وهكذا مارست الولايات المتحدة الإرهاب حتى على أقرب حلفائها وعلى شعوب العالم، في حين لا تزال تتشدق سياسياً وإعلامياً بأنها حامية حقوق الإنسان، وأمُّ الديموقراطية والداعية إلى تطبيقها في العالم»(١١٥)، لكن، وفق ما يخدم مصلحة الطبقة النهابة، وعلى الخصوص ذروة هذه الطبقة

(الإمبريالية الأمريكية ومشروعها الصهيوني)، وفيما عدا ذلك، فهو إرهاب يجب شنّ الحرب عليه، على هذا المفصل، قامت قيامة أمريكا وإسرائيل على الشعوب الأوروبية التي رتبت هذا الثنائي المشؤوم في طليعة الإرهاب... وهكذا كان:

- قمعوا الحركة الطلابية.
- داسوا على الرأي الآخر.

كان ذلك، خوفاً من تطور كلمة (لا) لأمير اللاعبين الأمريكي في ملعب الصراع الطبقي، والسؤال الذي لا مهرب منه، الآن!

- كيف آلت الإمرة الطبقية للرأسمال الأمريكي..؟

الطبقة البرجوازية، رسخت أقدامها بداية في أوروبا بزعامة البرجوازية البريطانية التي كانت تشكل القوة الأقوى.. وبقوتها هذه، سطت على معظم الكرة الأرضية، ولفظاعة ما نهبت مما سطت عليه جاء اسمها (بريطانيا العظمى). وبعد أن تغيّر ميزان القوى بين الضواري، نتيجة الحروب التي شنت لاقتسام النّهب وعوامل أخرى، تراجعت بريطانيا، واحتلت الإمبريالية الأمريكية إمرة الضواري بعد أن تراكز فيها الرأسمال الأعظم. «فبعد أن خرج العالم محطماً من الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك من اقتصاد سليم سوى الاقتصاد الأمريكي. فالاقتصاد الأمريكي لم يخرج من الحرب سليماً فقط دون أي إصابات، بل إن الحرب لم تضعف الإنتاج المدني بقدر ما أضافت اقتصاداً عسكرياً إلى جانب الاقتصاد المدني. فالطاقة الإنتاجية للولايات المتحدة الأمريكية زادت مع الحرب ولم تنقص، وعلى العكس من ذلك كان حال دول العالم التي خرجت محطمة تماماً»(١١٦). «ونتيجة للحربين العالميتين الأولى والثانية، أي في المرحلتين الأولى والثانية من الأزمة العامة للرأسمالية، انتقل المركز الاقتصادي والسياسي للعالم الرأسمالي من أوروبا الغربية إلى الولايات المتحدة. وبلغ هذا التطور ذروته في السنوات الأولى التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، حين توصلت الولايات المتحدة إلى التفوق المطلق في مجال

الإنتاج الرأسمالي العالمي والتجارة الدولية، وقد وقع منافسو الولايات المتحدة الذين ألمّ بهم الضعف ودول رأسمالية أخرى في تبعية اقتصادية ومالية وسياسية للولايات المتحدة. وغدت إنكلترا، وفرنسا، واليابان، والجمهورية الاتحادية الألمانية، وغيرها من البلدان تعلق الآمال على سيل المساعدات الأميركية بالدولارات، وراحت البرجوازية العالمية التي أصابها الضعف، تنتظر من الاستعمار الأميركي المساعدة أيضاً في مكافحة الديموقراطية والاشتراكية»(١١٧).

أقول: الضواري أُنهكت في الحرب، وسقطت محطمة، وعلى حطامها ظهر الضاري الأمريكي مالكاً لاقتصاد قوي، مما جعلها تعلق الآمال:

- على مساعدته بالدولارات.
- على مساعدته في مكافحة الديموقراطية والاشتراكية.

تعليق آمالهم هكذا، أفرز تبعيتهم الطبقية للرأسمال الأمريكي، ودفعه للإمرة دون جدل. في هذه المرحلة التاريخية ظهر الاتحاد السوفييتي كقائد للطبقة المضطهدة. «وعلى رغم أن التضحيات البشرية والمادية التي لحقت بالاتحاد السوفييتي خلال الحرب كانت بالغة الضخامة بالمقارنة بما لحق بالدول الغربية المتحالفة، فقد خرج الاتحاد السوفييتي من هذه الحرب في وضع متميز باعتباره قوة عظمى أو في طريقه ليصبح كذلك. وبالمنطق نفسه يمكن القول أن الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت هي الأخرى الفائز الآخر من هذه الحرب العالمية. فالنظام الاقتصادي العالمي القائم على حرية التجارة وسيطرة الإمبراطورية البريطانية كان قد أنهك بعد الحرب العالية الأولى، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتجهز عليه كلياً. فتحولت بريطانيا، وكذا فرنسا، إلى قوى اقتصادية من الدرجة الثانية في نهاية الحرب العالمية الثانية. واحتلت الولايات المتحدة الأمريكية المكانة الأولى مع اقتصاد متين ازداد قوة وفاعلية مع الحرب العالمية الثانية ودون خسائر تذكر، باستثناء الخسائر البشرية للجنود الأمريكيين في أوروبا، أو في اليابان، وهكذا جاءت نهاية

الحرب العالمية الثانية خاتمة لمرحلة تاريخية، انتهى معها النظام القديم القائم على الدولتين الصناعيتين الاستعماريتين في بريطانيا وفرنسا، وإحالتهما إلى دولتين من الدرجة الثانية، في حين قفز إلى المقدمة كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وتدعو إلى «النظام الحر» من ناحية، والاتحاد السوفييتي، ويدعو إلى «الاشتراكية» من ناحية أخرى»(١١٨).

- أمريكا تدعو: إلى النظام الحر.
- الاتحاد السوفييتي يدعو: إلى الاشتراكية.

بعد تحليل هذا المعادلة على ضوء ما تركه التاريخ، تصبح:

- النظام الحر يدعو: إلى حرية الاحتكارات في نهب بني البشر، هذا أولاً.
- النظام الاشتراكي يدعو: إلى الضبط والانضباط في إطار توزيع الثروة من الأعلى إلى الأسفل لبسط الحق والعدل بين الجميع، هذا ثانياً.

(أولاً) في تضاد 180 درجة مع (ثانياً)

فـ (ثانياً) يدعو إلى ديموقراطية حقيقية، عندما يدعو إلى بسط الحق والعدل بين الناس... أي يدعو إلى تعزيز كرامة الإنسان وحريته في عيش كريم في وطنه... عكس ذلك (أولاً) في دعوته إلى حرية الرأسمال... أي في دعوته إلى استغلال الإنسان وخطف لقمة عيشه... ولم تتحقق هذه القرصنة إلا في إطار ديكتاتورية متوحشة «تحمل أيديولوجيات عدوانية ضد الآخر، فالليبرالية الغربية التي انتزعت إعجاب العالم، هذه الليبرالية تكشفت عن أيديولوجيا تكره الحرية للآخر، وتعمل على انتزاعها منه، هذه الأيديولوجية الليبرالية ربما لم تكن يوماً تعبر عن أصالة أو نظرة عضوية إلى الحياة، ولكنها كانت مثل مواقفها التالية: عدوانية موجهة ضد الآخر»(١١٩)... أي ديكتاتورية فظيعة من أجل قمع الآخر لنهبه، لا تتسامح في هذا المجال حتى مع من يقول لها من باب النصح (خفف الوطأ)... وبأقدام ثقيلة الوطأ راحت الإمبريالية الأمريكية بعد أن تراكز فيها الرأسمال الأعظم، تمشي في الأرض مرحاً لنهب ثروات هذا

الكوكب بكاملها، فـ «بعد الحرب العالمية الثانية، بدأت الإمبرياليات العالمية بالانسحاب إلى مراكزها، وهي المراكز الإمبريالية الكبرى نفسها في نهاية القرن التاسع عشر. ولأن الدمار الذي سببته الحرب لم يلحق بأمريكا، كما حصل في أوروبا واليابان، فهو من الأسباب التي جعلت أمريكا تبرز وتتزعم المعسكر الإمبريالي. فقد صرّح روزفلت بعد الحرب مباشرة «إن قدرنا هو أمركة العالم»، ولكي تثبت أمريكا ذلك، دعت لإنشاء مؤتمر عالمي حضره ٤٤ دولة وعقد في تموز ١٩٤٤ في «بريتون – وودز» في ولاية نيوهامشر الأمريكية، بهدف إرساء قواعد نظام نقدي عالميّ جديد يسمح بتجنّب العودة إلى الفوضى في العلاقات الاقتصادية والمالية لما بعد الحرب»(١٢٠).

قدر روزفلت (أمركة العالم).. استعماله كلمة (قَدَر) جاء وفق ما تعنيه في اللاهوت بالضبط... فالقدر في اللاهوت لا سبيل إلى ردّه... والسطو لبلع الحق من طبيعة الرأسمال لا سبيل إلى ردّه... إذ به تنفو الرأسمالية وتحيا، وإذا ما استطاع ساكنو البيت الأبيض – لا قدّر الله – من متابعة طريقهم في (أمركة العالم)، فإن العالم سيشهد أشكالاً من الجحيم تعجز قواميس اللغة عن تسمية أوصافها، إذ سيزداد القهر والنهب وفق سلسلة هندسية، ويصبح الناس «وهم يديرون ظهورهم لأشكال من الفقر معروفة، لا يعرفون أنهم على موعد مع أشكال من الحرمان لا حدّ لها ولا يمكن تلافيها، وهي أشكال لا اسم لها ولا ثمن.

إن الذين في القاع سوف يدفعون إلى أسفل أكثر فأكثر، يدفعون من الفقر والعوز إلى الإملاق والعدم. وسوف يلي ذلك اضطراب اجتماعي. سوف تصبح القضية هي القتال من أجل البقاء. سوف يكون هنالك المزيد من الجرائم، والمزيد من الدعارة، والمزيد من أناس يموتون في الطرق والشوارع، ويقود الاضطراب إلى المزيد من العسكرة والمزيد من الإرهاب والمزيد من الانفصالية والمزيد من سك النقود، والقليل من النقود للفقراء.

أيديولوجية الغرب الاقتصادية مصممة لتخليد امتيازات الظلم الاجتماعي

والمدّ في أجله، وهي تطبق في العالم بخشونة لا رحمة فيها»(١٢١)... صُممت هكذا، ليس بالرغبة الذاتية... وإنما هي (قدر) سقط من رحم الإمبريالية ضد عدوّها الطبقي لاستمرار حياتها على المال الحرام... وهي متطورة نحو الأسوأ، فلم تعد تطبق بخشونة وحسب، بل أصبحت صواريخ كروز تسقط على رأس كل من يبدي عناداً أو مشاكسة... كل من يعرقل لصوصية سُفّل الدنيا في إرواء ظمأ الاحتكارات للسحت.

أجل قدر أمريكا (أمركة العالم) تحت غطاء «ديموقراطيتها». هذه النّخوة الإمبريالية تفرض علينا السؤال التالي:

- من أي الأرحام سقطت «الديموقراطية» الأمريكية..؟

الصهيونية فكرة استعمارية، اتكأت على التوراة الأسطورية، وتدفأت في أحضان اللاهوت البروتستانتي، ومن هذا وذاك، دُفع أتباع التوراة من مختلف الأوطان والعروق والأجناس إلى أرض «الميعاد»- فلسطين – لاغتصابها وقتل وطرد شعبها، وتشكيل ما يسمّى اليوم «المجتمع الإسرائيلي». المجتمع الأمريكي، قام بنفس الطريقة التي قام بها المجتمع الإسرائيلي.. حيث تشكل كوكتيلاً من مختلف الأوطان والعروق والأجناس.. أي تشكل من خليط من بني البشر لا تعرف هويته... هذا الخليط الذي جمعته ظروف عديدة – (اقتصادية – سياسية – اجتماعية) – سطا على أرض أمريكا واغتصبها وأباد سكانها الأصليين.. ليقيم ما يسمّى اليوم «المجتمع الأمريكي».

على هذه القاعدة من اللصوصية:

- نبتت «ديموقراطية» إسرائيل.
- نبتت «ديموقراطية» أمريكا.

أي نبتت «ديموقراطية» (إسرائيل – أمريكا) من منبت نجس واحد ألا وهو بلع الحق... وعلى محور هذا البلع، أصبح سطو أمريكا على الشعوب «ديموقراطياً» لتوافق ذلك مع «ديموقراطية» تشكلها. «وقد بدأ منذ انتهاء الحرب الباردة اتجاه يفصح عن نفسه دون مواربة كشكل تجديدي في

الأيديولوجية الاستعمارية، ويرى (فوريدي) في الخطاب الإمبريالي الجديد أنه نتاج ثلاثة أسباب منفصلة وكل منها يعزز الآخرين... فشل ما أطلق عليه نزعة العالم الثالث (بعد الأزمة التي ترتبط أوثق الارتباط بالتركة الاستعمارية وتدفق الأسلحة في سنوات (الحرب الباردة) وظهور مناخ فكري محافظ نتج عن التجارب الاجتماعية الأخرى... وانتهاء الحرب الباردة مما أزال الضوابط الكبرى على التدخل الغربي.

وهو اتجاه يبرر العنف والعنصرية. فالصهيونية التي تمثل هذا الاتجاه بأجلّ صورة، لا تختلف بذلك عن الرؤية الأمريكية، ترى في أن العرب يترادفون مع كل شيء منحط، مرعب لا عقلاني، ومتسم بالقوة والجهنمية، فالمؤسسات ذات الإلهام الإنساني بل الاشتراكي صالحة لليهود — الكيبوتز وقانون العودة وشتى التسهيلات لتثقيف المهاجرين — كانت بالتحديد وبشكل قاطع غير إنسانية للعرب، فالعربي في جسمه وكيانه كذا وفي مشاعره المفترضة، والتكوين النفسي المنسوب إليه يقف بحكم تعريفه خارج نطاق الصهيونية وبعيداً عنها.

وليس غريباً هذا الاعتقاد على كل من الصهيونية والإمبريالية الأمريكية اللتين كلتاهما قامتا على أنقاض جماعات أخرى، وهما في وضعهما الذي يقوم على التلفيق والإدعاءات الكاذبة، وفي شعورهما أن دولتيهما تفتقران إلى الأسس الموضوعية والمقنعة في ادعائهما التمدن والتحضر وقيادة العالم نحو نظام ديموقراطي عالمي مدافع عن حقوق الإنسان والحريات المدنية. تشنان حرباً إعلامية دعائية تقوم على تشويش الذاكرة البشرية وتزييف الذكريات والوقائع التاريخية، عبر وسائل مختلفة تقوم على تعليب تصورات أفكار تستخدم للتأثير في الأفكار والقيم والاتجاهات من أجل إحلال قناعات بعينها أو على الأقل إشاعة نوع من اللامبالاة لدى الرأي العام، بحيث يغدو المتلقي منفعلاً لا فاعلاً متفرجاً مستسلماً يتابع الأحداث وهو في حالة من الاسترخاء البدني والعقلي»(١٢٢)، هنا، مربط الفرس، فالاسترخاء البدني والعقلي،

أساس نسيان التاريخ.. أساس برمجة المتلقي على قبول ما يلقى عليه من خطابات... هذا الأساس المركّب صنّعته أمريكا بتقانة ليسهل عليها قلب المعادلة... قلب اللصوصية إلى ديموقراطية... أي قلب قتلها الهنود الحمر واغتصاب وطنهم إلى عمل خير وحبّ إنساني لم يرق لمثله أحد... بهذا العهر تطمس أمريكا جذورها العدوانية، وتصبح فاعل خير لا يريد للبشرية إلا السعادة والعيش الكريم... لتنفيذ هكذا لؤم، كلفت وسائل إعلامها، فكانت أفلام الوسترن «أو أفلام الغرب الأمريكي، التي قامت بالترويج والتبرير السياسي والفكري لغزو العنصر الأوروبي لأراضي الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وتلك الإبادة واسعة النطاق التي تعرضت لها مجتمعاتهم.

لقد تمكنت هذه الأفلام من تحويل البشاعة الإجرامية في أذهان المشاهدين إلى بطولات للعنصر الأبيض وشجاعته ودوره الحضاري في مواجهة تلك القبائل البدائية الجاهلة، التي لم تستطع المواجهة والصمود في وجه أسلحة الرجل الأبيض الحديثة، فاستحقت أن تباد وأن يحلّ محلّها ذلك العنصر المتفوق الذي يستحق الحياة. هكذا تمكنت السينما الأمريكية بقوتها وإمكاناتها من أن تفرض هذه الثقافة المغلوطة والمزوّرة على الشعوب، ليس فقط على الشعب الأمريكي الذي وجد فيها تبريراً يخلصه من عقدة الذنب، ولكن أغلب شعوب العالم التي تعلقت بهذه الأفلام لفترة طويلة، واعتقدت أنها انعكاس حقيقي لصراع موجود على أرض الواقع»(١٢٣)... اعتقدت أن الصراع جرى فعلاً من أجل الحضارة الإنسانية... وهذا ما هدف إليه اللصوص «المتحضرون»، وعلى نوله يبرر اليوم السطو على الشعوب من أجل «الديموقراطية».. التاريخ يقول: إن البربر الهمج سطوا على الهنود الحمر واغتصبوا أرضهم وثرواتهم وأبادوهم بتوحش تعجز الوحوش عنه، ولقوننة هذا التوحش... عقد المتوحشون معاهدة مع مَنْ تبقى من سكان البلاد الأصليين لإضفاء الشرعية على لصوصيتهم، و«إثر المعاهدة التي أبرمت بين حكومة الولايات المتحدة والهنود الحمر، كتب الزعيم الهندي سياتل Seattle إلى الأمريكيين: إننا على يقين أن الرجل الأبيض لا يفهم

منطقنا هذا... وأرضنا بالنسبة إليه تشبه أية أرض أخرى... وما كان ذلك ليكون سوى لأنه غريب عن أرض تسلل إليها ليلاً واستحوذ عليها وصادر كل نفيس فيها. بالنسبة إليه ليست الأرض أماً، فحين اغتصبها، اغتصبها اغتصاب العدو، وواصل مسيره غير عابئ بهيكل والديه معرضاً عن حق بنيه في ذكرى الأرض. سيادة القائد الأبيض، إن منظر مدائنكم يكدر صفو بصر الهندي... ولا يوجد مكان آمن في مدنكم... لا يوجد مكان واحد نستمتع فيه بسماع حفيف أوراق أشجار الربيع وأجنحة الطير»(١٢٤)... عزيزي سياتل، لم يعد من حقك الاستمتاع إلا بما يمتع سيدك من قيمة زائدة، بعد أن أصبحت عبداً... أداة إنتاج في ملكية «المتحضرين»، فإن حققت لهم النهب المطلوب، بقيت حيّاً لا ترزق... وإلا ستلحق رفاقك الذين أبادهم «الديموقراطيون» من أجل النّهب لا غير «ومن أجل السكر أباد المستوطنون الأسبان الهنود الحمر، سكان البلاد الأصليين الذين لم يستطيعوا التكيف مع متطلبات العمل العبودي غير الإنساني في مزارع السكر.

ذهب الشعب الأصلي، وبقي السكر في انتظار من يزرعه ويقلعه ويصنّعه، فاستحضر الأسبان عبيداً جدداً من أفريقيا»(١٢٥).

السكر أساس «ديموقراطية المتحضرين»، ومن أجله، كان: الإبادة والخطف... ومن أجله لبس «المتمدنون» ثوب التقوى والورع واستعاذوا بالله من الهنود الحمر، بعد ان رأوا فيهم «قبل كل شيء فوضى عالم واقع تحت سيطرة الشيطان، والتقوا بسبب طبيعتهم الفاسدة مع كل الوثنيين وكل الشعوب غير المسيحية، وضربوا عرض الحائط بالإرادة الإلهية، وعاشوا حسب قانون الطبيعة لينشروا الفساد. إنهم إذن قناصون أي متمردون على الحضارة، لأن الرجل المتحضر هو الذي يفلح الأرض ويستثمرها ولا يكتفي فقط بالجلوس فوقها»(١٢٦).. وبكلام آخر: الرجل «المتحضر» «ديموقراطي».. وما دامت الديموقراطية في منظور «المتحضرين» هي نهب الآخر دون حدود وبأي ثمن، أصبح:

- سكان البلاد الأصليين: قناصون متمردون على الحضارة – شياطين.
- الساطون الغزاة: مسالمون، قدّموا أنفسهم قرابين للحضارة – ملائكة.

الملائكة والشياطين في تضاد 180 درجة.. ولفساد هؤلاء وصلاح أولئك، تقرر بالإرادة (الإلهية) طرد الشياطين من رحمة هذه الإرادة، فـ «حصدت منهم حرب الإبادة والاقتلاع في القارة مئة وعشرين مليون هندي أحمر»(١٢٧)، شكلت جثثهم الرعب والخوف، ليس للشعوب الأخرى فحسب... بل للشعب الأمريكي ذاته... بعد أن توارى هذا الرعب في اللاشعور، وأصبح مركز القلق المخيف لكل أمريكي لديه فكرة عن تاريخ الأرض التي يقيم مسكنه عليها فوق قبور أصحابها الشرعيين الذين تطارده أرواحهم مشكلة كابوس أحلامه... كيف لا يكون ذلك... «كيف يمكن لدولة ترخي بأقدامها الثقيلة على العالم أن تكون ديموقراطية..؟»، والواقع أنه في «التراث الميتافيزيقي الأميركي، فإن الأرواح الشريرة تلاحق كل شخص يبني منزله فوق مقبرة الهنود الحمر، وثمة أفلام ويسترن عدة شاهدناها في هذا المجال، الأب يصاب بالجذام، الأم تموت وهي تضع مولودها، الثيران الهائجة تدوس بل وتسحق الأفراد الآخرين في الأسرة، ولكن ألم تقم الولايات المتحدة بأسرها فوق جثث الهنود الحمر.

حين كتب كلود جوليان، وكان رئيساً لتحرير «لوموند ديبلوماتيك» مجلداته الشهيرة التي تحاول وبطريقة جهنمية، أن تثبت أنها هي التي تجسد «مملكة الله»، ولكن ليشير إلى «اللوثة الرومانية»، فالبيت الأبيض بني بالطريقة الرومانية، كذلك الكونغرس (حتى أن تلة الكابيتول أخذت اسمها من العهد الروماني)، والبنتاغون، كلنا نعلم كيف كانت نهاية القياصرة، الآن تكتب مجلة «لسبراسو» الإيطالية عن «ذلك القيصر الغبي الذي في البيت الأبيض»(١٢٨).

أقول: أمريكا «الديموقراطية» قامت على جثث الهنود الحمر التي تلعنها... وستبقى تلعنها، حتى يُقام على نظامها المتوحش – الذي يفرض على الشعوب

(آلام تانتال)* — الحدّ رجماً حتى الموت.

إن آلام تانتال التي تفرض على الشعوب... سقطت من رحم أكبر عملية لصوصية في التاريخ لاغتصاب أرض الآخرين، إذ «كان ما يعرف الآن باسم الولايات المتحدة موطن شعوب جاءت من آسيا قبل نحو عشرين أو خمسة وثلاثين ألف سنة، ويقدر عددهم في القارة الأمريكية عند بداية الاستيطان الأوروبي بما يزيد على ٩٠ مليون نسمة. وقد أطلق المستعمرون الأوروبيون على هذه الشعوب اسم الهنود الحمر. كان الأسبان أول من أسس المستوطنات الأوروبية في أمريكة الشمالية خلال القرن السادس عشر، ثم بدأ الإنكليز يستوطنون الساحل الشرقي على نطاق واسع، بعد إبادة سكانه الأصليين أو طردهم. ومع بداية القرن السابع عشر، أصبحت المستوطنات الإنكليزية تشكل الأكثرية السكانية. وقرب نهاية القرن الثامن عشر انطلق المستوطنون الأوروبيون نحو المناطق الوسطى، وبعد سلسلة من المعارك أجبر السكان الأصليون في هذه المناطق على توقيع معاهدة غرينفيل «Greenville» عام ١٧٩٥، التي ثبتت الحدود بين ما دُعي باسم الأقاليم الهندية وبين المستوطنات الأوروبية. وبقوة قانون الترحيل الهندي الصادر عام ١٨٣٠، تمّ اقتلاع قبائل بأكملها من السكان الأصليين خارج موطنها وإجبارها على الاستيطان غرب نهر الميسيسبي. وقد نشأت عدة حروب بسبب هذا الترحيل، ونتيجة رفض بعض السكان الأصليين إعادة التوطين هذه. ومع انتهاء هذه المرحلة في خمسينات القرن التاسع عشر لم يبق منهم سوى بضع مجموعات متناثرة في المناطق الشرقية للولايات المتحدة.

عند استقلال المستعمرات الثلاث عشرة لم تكن مساحة الدولة الجديدة تتعدى شريطاً ضيقاً جداً على الساحل الشرقي. ومنذ إعلان تلك الدولة انطلقت سياسة التوسع المبرمج المتواصل نحو الغرب باستخدام الأسلحة الأوروبية

---

* آلام تانتال: تشبيه مقتبس من أسطورة يونانية قديمة تقول: بأن زفس إله النار عاقب تانتال، حاكم ليديا بالعذاب الأبدي بالجوع والعطش.

المتطورة، وعلى شكل حملات إبادة شاملة منظمة ضد سكان الأرض الأصليين المسلحين بأسلحة بدائية جداً، أو بحصادهم والاستيلاء على أراضيهم بالقوة، وتحجيم أماكن إقامتهم، وقد صورت مئات من أفلام الغرب الأمريكي هذه «البطولات» التي تظهر «الأبطال الأمريكيين المتحضرين» وهم يقضون على الهنود الحمر «الوحوش الأشرار» الذي يعرقلون انتشار الحضارة في العالم الجديد وبالإضافة إلى حملات إبادة السكان الأصليين المنظمة تلك شهدت القارة الأمريكية انخفاضاً سريعاً في عددهم وصل إلى حد الكارثة بسبب الأمراض السارية التي جلبها المستوطنون الأوروبيون معهم ونقلوها إليهم، مما قلص عدد السكان الأصليين بصورة متسارعة جداً، حتى بلغت نسبتهم حالياً نحو ١٪ من التعداد العام للسكان)_١٢٩).

انقرض أصحاب الأرض، بعد أن أقام (الديموقراطيون المتحضرون) قيامتهم من أجل: نهب أرضهم وثرواتهم.

لإتمام هذه اللصوصية (ديموقراطياً)، قام (المتمدنون) بخطف آدميين من افريقيا (ديموقراطياً) لاستخدامهم كأدوات إنتاج فيما اغتصب من أرض وثروة، ليتدفق المزيد من النهب على كروشهم الضارية من حرام، ومن أجل هذا الهدف الخسيس ((انتشرت تجارة الرقيق الأسود، في المستعمرات البريطانية التي أطلق عليها فيما بعد اسم الولايات المتحدة، والتي كانت أول من استخدم الأفارقة المخطوفين، على نطاق واسع، للعمل في حقول القطن الممتدة عبر الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية. بدأت تجارة الرقيق الأسود هذه في القرن السابع عشر، ولعبت دوراً أساسياً في تاريخ الولايات المتحدة بشكل خاص. فقد اختطف تجار الرقيق الأوروبيون ملايين السود من افريقية، وشحنوهم في سفن عبرت بهم المحيط الأطلسي في أكبر هجرة قسرية حدثت عبر التاريخ. وكانت السفن تنقلهم في ظروف مناخية قاسية، تختلف كثيراً عن التي اعتادوا عليها في بلادهم، وبأساليب أسوأ من المتبعة في شحن البضائع، ولم يكن يقدم لهم من الطعام والماء سوى مقادير قليلة جداً وغير كافية، مما

أدى إلى وفاة ١٣٪ منهم وفق التقديرات. وقد بلغت حصة الولايات المتحدة من هؤلاء السود الأرقاء المختطفين ما يزيد على ٦٥٠ ألفاً استقر نحو ٩٠٪ منهم في الولايات الجنوبية))(١٣٠).

إذن: تاريخ (الديموقراطية) في اوروبا بدأب:

- مجزرة الهنود الحمر واغتصاب وطنهم.
- مجزرة الأفارقة واغتصاب عرقهم.

وفق هذه اللصوصية، تشكلت (الديموقراطية) في أوروبا وفي أمريكا على وجه الخصوص.. تشكلت من أجل نهب الغير، بل الانكى من ذلك نهب الغير (جسداً وروحاً) في تجارة الرقيق ((التي مورست من قبل الأوروبيين أنفسهم الذين مارسوا هذه التجارة بأسلوب بشع وغير إنساني، أدى فيما أدى إلى نقل واقتلاع ملايين الزنوج- وتحت ظروف تعسة جداً- من إفريقيا إلى الأمريكيتين لاستخدامهم هناك في أعمال السخرة وتحت قيود الأسر والعبودية))(١٣١)، وتحت هذه القيود. تدفق العرق المقدس على الكروش النجسة، و((حين وضع كلود جوليان، وكان رئيساً لتحرير (اللوموند ديبلوماتيك) كتابه الشهير بعنوان (الامبراطورية الأمريكية)، نقل هذا التفسير عن أحد أساتذة التاريخ في جامعة جورجيتان. قال أن الأميريكيين الاوائل أبادوا الهنود الحمر لا من أجل إبعاد الشهود (التاريخيين) على الطريقة التي ستداريها الأشياء، وإنما من أجل غاية استراتيجية هي أجتشاث النموذج القبلي كلياً، لا قبيلة في أمريكا. الآن يقول فرنسي آخر هو آلان غريش: (هكذا يتصرف صديقنا جورج دبليوبوش: زعيم قبيلة بدائية يحتاج، كما الاعصار، هذه القرية الكونية التي تدعى الكرة الأرضية))(١٣٢).

جورج دبليوبوش.. يحتاج كما الإعصار لسوق البشر إلى عبودية الاحتكارات، وليس هذا بالغريب المستهجن، فهو -أي بوش- خلف ذاك السلف الذي نبت على جثث مجزرتين رهيبتين من أجل المال الحرام.. يحتاج كما الاعصار ليكون النهب ملبياً شهية النظام الذي يخدمه.. هذا النظام الذي

يدوس الإنسان بأقدام توحشه من أجل القيمة الزائدة.

أقول: كشف الغطاء عن الشجرة التي أثمرت (الديموقراطية الأمريكية) .هذه الشجرة التي تغذت جذورها من جثث الهنود الحمر وشربت من دماء الأفارقة، تطاولت مع الزمن وانتفخت.. حتى إذا ما جاء عبد (الإله المال) الجديد.. أصبحت الشجرة الملعونة على جثث العراقيين، وأصبح ثمرها النجس من صادرات سجن (أبو غريب).

يا إلهي!!

- كيف يمارس (المتحضرون) هذا التوحش منذ قرون..؟

التاريخ يجيب: ما كان لمثل هذا التوحش أن يكون ويستمر، لو اتّحد الأخيار لدفنه في مزبلة التاريخ. غير أن الاخيار مازالوا في صمت وذهول أمام بطش الطاغوت وريث المغول.

المغول متوحشون، فجاء وريثهم أكثر وحشية ودموية. جاء يحصد البشر في كل الاتجاهات، وبمنطق العاهر.. يسمي حصيده هذا (ديموقراطية).. والسؤال الذي يثور الآن!

- أيوجد (ديموقراطية) في بلاد (المتحضرين)..؟

التاريخ يقول:

- الطبقة البرجوازية نهبت الداخل (ديموقراطياً).

وبعد أن ضاق الداخل باتساع نهبها.

- نهبت الخارج (ديموقراطياً).

على هذا المنحى أصبحت (ديموقراطيتها مركبة:

- (ديموقراطية) النهب في الداخل.
- (ديموقراطية) النهب في الخارج.

هذه الديموقراطية المركبة تجسدت في ديكتاتورية الدولة الحديثة لرعاية مصالح الرأسمال، يقول ماركس/انجلس: (فالبرجوازية المعاصرة نفسها، كما نرى، هي نتيجة تطور طويل وسلسلة من الثورات في أساليب الإنتاج

والتبادل.

وكان كل مرحلة من مراحل التطور التي مرت بها البرجوازية يقابلها رقي سياسي مناسب تحرزه هذه الطبقة.

فقد كانت البرجوازية في بادئ الأمر فئة مضطهدة تحت عسف الإقطاعيين واستبدادهم، ثم كانت جماعة مسلحة، تدير نفسها بنفسها في الكومونة. هنا جمهورية مدينية مستقلة، وهناك طبقة ثالثة ضمن المملكة تدفع الجزية للملك، ثم في عهد المانيفاكتوره كانت البرجوازية قوة توازن رجحان قوة النبلاء في الممالك ذات الحكم المقيد أو المطلق وحجر الزاوية للممالك الكبرى بوجه عام. وآخراً منذ أن توطدت الصناعة الكبرى وتأسست السوق العالمية، استولت على كل السلطة السياسية في الدولة التمثيلية الحديثة. فالحكومة الحديثة ليست سوى لجنة إدارية تدير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها)(١٣٣).. وهكذا هي الدولة الأمريكية، لجنة إدارية تسكن البيت الأبيض، وترسم السياسة الداخلية والخارجية وفق ما تأمر به مصالح الاحتكارات.. هذه الحقيقة الموضوعية لاحظها بدقة وبراعة برناردشو، حيث قال: (أمريكا ليست دولة، وإنما كونسور تيوم شركات متعددة الجنسيات، يرأس مجلس إدارتها رجل يتربع سعيداً في البيت الأبيض، ويحمل لقب الرئيس. وهذا الرئيس مجرد (اصبع مبلول)، يستخدمه الكونسور تيوم لمعرفة اتجاه الرياح، وفي ما عدا ذلك لا عمل له إلا إضاءة شجرة عيد الميلاد في الحفل الذي يقيمه البيت الأبيض للأطفال أواخر شهر ديسمبر من كل عام)(١٣٤).

إذن: الدولة الأمريكية اتحاد الاحتكارات، رئيسها لا عمل له سوى التزام المسار الذي تحدده هذه الاحتكارات خدمة لمصالحها في نهب الآخرين.. ولما كانت الاحتكارات في حاجة دائماً إلى توسيع دائرة نهبها بتناسب مع توسع دائرة انتاجها، من هنا، تأتي أوامرها المتتالية إلى الرئيس بالسطو المتوالي على الآخرين.. وبهذا التوالي أصبح السطو من البديهيات في حياة الإمبريالية.. ولما كان السطو ذروة الإرهاب أصبحت أمريكا (دولة الإرهاب المنظم، منذ النشأة

الأولى وحتى تشكلها كدولة واستقلالها، لا تزال منذ بداية القرن التاسع عشر، تنشر الخوف والتسلط في العالم، وتنهب وتسرق ثروات الشعوب، وتغتصب أرضهم، وتصادر حرياتهم، وإرادتهم في تقرير مصيرهم، وتوجيه قدراتهم. فهل هناك إرهاب أشد من إرهاب أمريكا وأبشع؟!

كتب ستيفان فاخو فياك الكاتب البولوني في مجلة (بجاسك) البولونية: ((الولايات المتحدة مافيا كبيرة تنفذ منذ قيامها، أي أكثر من قرنين خططها المتزايدة العدوانية والناجمة عن مذاهب مصممة بهدف غزو العالم: إمبراطورية عالمية يحكمها مختارون عمليون من (بناة العالم))، (١٣٥).

أمريكا: مافيا كبيرة.. وهي بالفعل كذلك!

المافيا: اسم لأفراد نظموا أنفسهم في مجموعات للسطو على ما بيد الغير، والسلطة في أمريكا بيد احتكارات نظمت نفسها في اتحادات للسطو على ما بيد الغير.

أفراد المافيا، يمكن أن يغيروا أنفسهم إذا ما حلت ظروف معينة في حياتهم.. غير أن مافيا الاحتكارات لا يقف سطوها على ما بيد الغير في أية ظروف، فهو استراتيجية في طبيعة الرأسمالية لا يقف ولا يتغير إلاّ بتنكيس النظام الرأسمالي من المجتمع، فـ((إن دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية لا تتغير استراتيجيتها بالضرورة على نحو جذري ومثير لدى تغيير رئيسها كل أربع سنوات، أو لدى تغيير مزاج هذا الرئيس على نحو ما يجري في دول أخرى حتى لو حمل التغيير طابع انتقال من حكم الحزب الديموقراطي إلى الحزب الجمهوري أو بالعكس، فدور الرئيس في النظام الأمريكي فعال وجوهري، لكن التوجهات الاستراتيجية والتحولات الهامة والسياسات الجوهرية تخضع لتفاعلات وتأثيرات وآليات تتجاوز شخص الرئيس وإدارته وحتى حزبه، حيث تحكمها مؤسسات ومراكز نفوذ ومجموعات ضغط وتوازنات مجتمعية واقتصادية وأمنية معقدة ذات امتدادات متشابكة بين قمة مواقع القرار وقاعدة التيارات الفاعلة في قطاع الإنتاج والاستثمار والإعلام والتجمعات العرقية

والمذهبية والمصلحية المختلفة))(١٣٦).. وبكلام آخر، يحكمها نمط الإنتاج الرأسمالي الذي يحدد ميدان العلاقات الاجتماعية في المجتمع الأمريكي الذي تقوده الشركات الاحتكارية، التي كان لها ((دورها دائماً في دعم الحزبين الرئيسيين الجمهوري والديموقراطي بعد أن خلقت الحروب التي شاركت فيها، أو أشعلتها واشنطن بدءاً من الحرب العالمية الأولى وحتى الحربين الفيتنامية والكورية، مروراً بالحرب العالمية الثانية.. أغنياء استثمروا في الصناعات الحربية والعسكرية، وكونوا بدءاً من السبعينات ما يمكن تسميته بـ(لوبي) الصناعات العسكرية الذين يدعمون هذين الحزبين في الانتخابات ويتبرعون لهما بكل شيء. وكان المقابل لهذه الشركات يأتي دائماً بعد نجاح الرئيس الجديد.. وعلى سبيل المثال فقد نشطت شركات الأسلحة بعد نجاح الرئيس (جورج بوش) الأب عام ١٩٨٩م.. واستطاع (لوبي) هذه الشركات إقناع الرئيس الجديد باشعال حرب لتنشيط الاقتصاد من خلال تنشيط صناعة الأسلحة، وحسب احصاءات أمريكية، فقد حققت حرب الخليج الثانية لأمريكا أرباحاً تزيد عن ١٠ مليار دولار.. في حين استنزفت نحو مئة مليار دولار من الدول العربية التي شاركت في التحالف. عدا الخسائر الأخرى التي لحقت بالعراق والكويت والتي بلغت مئات المليارات.. ويؤكد الفريق سعد الدين الشاذلي في أحد مقالاته، أن مجموع المبالغ النقدية التي دخلت الخزينة الأمريكية نتيجة حرب الخليج الثانية بلغت ٦٠٦ مليار دولار، أنفقت منها على قواتها حوالي ٤٨ مليار دولار، واحتفظت بحوالي ١٢،٦ مليار دولار ، يضاف إلى ذلك ما كسبته دول وشركات أخرى فرنسية وبريطانية وأمريكية في مرحلة ما بعد الحرب بدءاً من إزالة الألغام وانتهاءاً بإعادة الإعمار وتأهيل حقول النفط، وشركات الأدوية وغيرها.

لذلك فالأرباح الطائلة التي جنتها شركات السلاح الأمريكي من حرب الخليج الثانية ولدت القناعة لدى الكثيرين من طالبي الثراء بالفائدة الكبيرة لاقتصاد الحرب، واجتهدت مؤسساتهم الاستثمارية بعد انتهاء الحرب أكثر من

ذي قبـل ـفي المـشاركة ـفي الحيـاة الـسياسية ووضـع القـوانين العامـة وصـياغة الاستراتيجية المستقبلية.. وـفي كتاب (ميدان الحرب).، يقول (لـويس لابهام): «إن حملة الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٩، شهدت أسلوباً مميزاً لجمع الأموال، فقـد كـان الحـزب الجمهـوري يمـنح رتبـة (وصـي) لكـل مـن يتبرع بـ ٢٥٠٠٠ دولار فـأكثر للحملـة الرئاسـية، ويـدعى إلى مائـدة الـرئيس مـن يـدفع ٥٠٠٠٠٠ دولار فـأكثر للحـزب الـديموقراطي، وهـذه التبرعـات الـسخية مـن رجـال الأعمـال وأصـحاب الـشركات جعلـت الأمـور الـسياسية تتـداخل بـالأمور الاقتـصادية، وطغت المصلحة الخاصة لبعض كبار الأثرياء على المصلحة العامة.

وقبل الحرب على العـراق هيـأ (لـوبي) الأسلحة الأمريكية المدعوم بـ(لـوبي) صهيوني ـفي الإدارة الأمريكية.. هيأ نفسه لجني أرباح أكثر جراءها، فمـصلحة الـشركات النفطيـة، وشـركات الأسـلحة كـان وقـوع حـرب، لأنهم سـيحققون الكـثير مـن الأربـاح، دون أن يخطـر علـى البـال أن هـذه الأربـاح لـن تـصب ـفي النتيجة ـفي مصلحة المواطن الأمريكـي الـذي يـزداد شـقاءً بالتأكيـد مـع اشـتداد الأزمات))(١٣٧)، التي تستعر الحروب مع اشتدادها، ليتحقق:

- المزيد من النهب: لتخرج الاحتكارات من أزماتها.
- المزيد من الجوع للشعوب: لتخرج الاحتكارات من أزماتها.

على درب المافيا هذا... تواجد حزبا أمريكا (الجمهوري- الـديموقراطي)، ويقدم الرأسمال لهذا الحزب أو ذاك الدعم (المادي والمعنوي).. والحـزب الفـائز ـفي هـذه اللعبـة، يقـف (اصـبعه المبلـول) – حـسب تعـبير برناردشـو- بخـشوع أمـام الرأسمال ليرد الجميل بعشرة أمثاله.. ورد الجميل هـكـذا، يحتـاج إلى المزيـد مـن الشر لمزيد من النهب، وبهذه الخسة (قاد أصحاب الملايين الحـزبين الأمـريكيين الرئيسيين حسب هواهم. وكانت السياسة بالنسبة لهم «بيـزنس (عمـل)» مـن نـوع آخـر وكـان هـذان الحزبـان ـفي صـراع فيمـا بينهمـا. إلا أنهمـا لم يسمحا لحـزب ثالـث بـالظهور علـى المـسرح الـسياسي الأمريكـي»(١٣٨)، وبكـلام آخـر، لم تـسمح الاحتكـارات طبقيـاً ظهـور حـزب ثالـث.. بعـد أن شـكل الحزبـان

(الجمهوري – الديموقراطي) ديكتاتوريتها الطبقية ضد الطبقات الأخرى – في الداخل والخارج- لنهبها «وتفرض تقسيمات الأدوار بين ممثلي الحزبين الأمريكيين الكبيرين في الحكومة والكونغرس «والمعارضة» بعض العوامل:

أولاً: كان على الإدارة الأمريكية أن تظهر «ديموقراطية» نظامها السياسي.

ثانياً: يترتب على تنفيذ السياسة الإمبريالية بعض الظروف وتلعب «المعارضة» الأمريكية هنا دور «مهاجم» الحكومة لتصحيح الأخطاء التي تقع بها السياسة الأمريكية الخارجية.

لا يخلو الكونغرس الأمريكي من بعض الشخصيات التي تعارض خطوات المغامرة التي تتبعها الحكومة الأمريكية على المسرح الدولي. إلا أن أحداً من هؤلاء السياسيين لم يستطع تغيير أجواء واشنطن السياسية. ومن الجدير بالذكر أن الحزبين الديمقراطي والجمهوري واللذين يمثلان الاحتكارات الرأسمالية الأمريكية، بذلا جهوداً كبيرة للقضاء على الأحزاب الأخرى المتواجدة على الساحة الأمريكية، مثل الأحزاب البرجوازية أو التقدمية على حد سواء. ووقف هذان الحزبان بشكل أساسي ضد الحزب الشيوعي الأمريكي، والذي يمثل مصالح الطبقة العاملة في أمريكا»(١٣٩) أي بمثل مصالح الطبقة الضد لمصالح الاحتكارات في ملعب الصراع الطبقي.

إذن:

- حزبا أمريكا في خدمة الاحتكارات طبقياً.
- خدمة الاحتكارات طبقياً تفرض عدم ظهور حزب ثالث، وعلى وجه الخصوص الحزب الشيوعي الذي يجب دفنه في مقبرة الهنود الحمر.

على هذا الدرب «الديموقراطي» تكون ديكتاتورية الاحتكارات قد أسقطت في سهمها مسار المجتمع بشكل عام، وحاصرت وبشكل خاص الطبقة العاملة فيه. يقول لينين: «نظام الحزبين الأمريكيين الرئيسيين يُعتبر وسيلة لمنع استقلالية الطبقة العاملة، أي لمنع الأحزاب الاشتراكية من الظهور»(١٤٠)، وبالتالي، منع اللاعب الطبقي ضد نهب الرأسمال، وهذا هو

بيت القصيد، ويتّحد الحزبان بتماسك ضد بيت القصيد هذا في أمريكا، إذ«لا يوجد خلاف بين الحزبين الجمهوري أو الديمقراطي في النظر للمصالح القومية الأمريكية، وكلا الحزبين متعاملان مع الموضوع على أساس مؤسسي وليس على أساس النظرة الفردية للرئيس المنتخب.. وتستند أيضاً على نظرية المصالح بالدرجة الأولى، وإن كان الخط الإيديولوجي الذي تقوده الولايات المتحدة، مازال يمثل فلسفة الرأسمالية في أوج تطورها كما يرى فوكوياما في نظريته نهاية التاريخ وانتصار الرأسمالية الغربية بقيمتها المعروفة «الديموقراطية واقتصاد السوق وحقوق الإنسان،وغير ذلك من شعارات الرأسمالية»(١٤١)، التي لم تكن في محتواها إلا غطاء، للتعتيم على ديكتاتورية الرأسمال، التي تدوس بأقدام توحشها وفي سوقها الحرة كل القيم الإنسانية.. وفي تضاد ١٨٠ درجة مع هذا التوحش تقف الاشتراكية لقلب معادلة ميدان العلاقات الاجتماعية في صالح توزيع الثروة من الأعلى إلى الأسفل.. أي في صالح المجتمع بأسره، هذا التضاد.

- بين الرأسمالية والاشتراكية

دفع قادة الاحتكارات لشن حروب ضروس على الاشتراكية والتقدم، من هنا، «اهتم كل من نيكسون وكينيدي آنذاك بمحاربة الحزب الشيوعي الأمريكي، ومحاربة الشيوعية عموماً. واقترح هؤلاء طرد الشيوعيين من النقابات العمالية»(١٤٢)، ولطرد مبرر اجتماعياً، توظف المافيا الرأسمالية وسائل إعلامها لإبراز الشيوعيين، على أنهم في أسفل سلم الحضارة، ولهذا قالوا: «أن يكون المرء ماركسياً في الدول الصناعية الغربية، وخاصة في الولايات المتحدة، فذلك معناه- حتى في أواخر القرن العشرين- أن يستبعد من الخطاب الراقي المحترم»(١٤٣)، والسؤال!

- لماذا يستبعد الماركسي من الخطاب «الراقي المحترم»...؟

الخطاب «الراقي المحترم» في المجتمع الطبقي، هو خطاب الطبقة المهيمنة في كل التشكيلات الاجتماعية الاستغلالية.. ولما كانت هذه الطبقة تملك كل

وسائل الإعلام في المجتمع، تعمل في إطار هذه الوسائل على وضع المجتمع بأسره في إطار خطابها «الراقي».. وهو راقي في نظر المافيا لأنه يعزز استمرار تدفق النهب على جيوب (الحرامية).. أي راقي لإتقانه اسلوب السرقة، لكن، والحق يقال- في إطار «ديموقراطي».

الماركسي لحمله فكراً مضاداً لفكر اللصوص... لحمله خطاباً يعزز الكرامة الإنسانية في قضائه على اللصوصية.. من هنا، كان لابد لِسُفّل الدنيا من محاربته، بل وإذابة حامله بالأسيد، وبالتالي، فإنه لمن الفخر للماركسي أن يستبعد من خطاب الأنذال الذين يعززون إذلال الإنسان وفق شريعة (الإله المال)... وإنه لمن الشرف للماركسي حمل خطاب التيارات التحتية التي ستعلق الخطاب «الراقي المحترم» للمحتالين والنصابين في خبر كان يوماً. «لقد رأى ماركس أن السلطة هي الحقيقة التي لا مهرب منها في الحياة الاقتصادية. وهي تنبع من حيازة الممتلكات، وبالتالي هي ملكية طبيعية وحتمية للرأسمال، أن الرأسمالي «يمشي بخطى واسعة في المقدمة.. يتبعه مالك قوة العمل بوصفه خادماً. الأول عليه سيماء الأهمية، وبسمة متكلفة، ومظهر انكباب على العمل، والآخر وديع مخلوع الفؤاد، كمن يحمل جلده إلى السوق، وليس ما يتوقعه هناك سوى أن يسلخ جلده»، وفي عبارة لا كناية فيها، فإن العامل، بمن في ذلك الطفل- كما يذكر ماركس مراراً وتكراراً- يأتي إلى المصنع غير حامل شيئاً غير جهده البدني الذي يريد بيعه، والذي لا بديل له عن أن يذهب إلى هناك، ومن هناك قوة الرأسمالي وسلطته، وعجز العامل واستسلامه. ولكن هذا التوزيع غير المتكافئ للقوة والسلطة ليس أصيلاً للرأسمالية. وكما ذكرنا فقد أكد ماركس الارتباط السابق بين السلطة وبين الطبقات الإقطاعية والأرستقراطية وملاك الأراضي، كما أنه لم يتصور أن الصناعة المنزلية التي سبقت الرأسمالية هي فردوس اقتصادي. (إن الاستغلال أشد خزياً فيما يسمى الصناعة المنزلية منه في المصانع، وذلك لأن القدرة على المقاومة بين العمال تتناقص نتيجة لتشتتهم ولأن سلسلة من النهابين الطفيليين

يحشرون أنفسهم بين صاحب العمل والعامل).

وقد ألمح ماركس إلى ما يمكن أن يكون لنقابة العمال أو رابطة العاملين من دور تصحيحي، ولكن بالنسبة له بقيت الحقيقة الأساسية: وهي أن قوة الرأسمالية توجد في يد الرأسمالي. إذ أنها الخاصية الطبيعية للثروة الإنتاجية التي يمتلكها. أما المبالغ التي يدفعها نتيجة لذلك فهي تستوجب الطاعة والخضوع من جانب من ليس لديهم أي دخل بديل.

كما أن سلطة الرأسمالي لا تقتصر على حدود مؤسسته، فهي تمتد إلى المجتمع والدولة: (إن الجهاز الإداري للدولة الحديثة لا يعدو أن يكون لجنة لإدارة الشؤون المشتركة للبرجوازية بكاملها). ثم يضيف فكرة نفاذة بشكل خاص، وهي أنها تمتد حتى إلى الاقتصاديين وأصحاب النظرات السياسية الذي يصفون التراث ويفسرونه. بل أن التراث الكلاسيكي في علم الاقتصاد نفسه. (إن الأفكار الحاكمة في كل عصر كانت دائماً هي أفكار طبقته الحاكمة). وفي زمن ماركس كانت هي أفكار الرأسماليين ومن يعبرون عن نظامهم. وهكذا خضع علم الاقتصاد والاقتصاديون تحت نفوذ السلطة الحاكمة)(١٤٤).

الأفكار الحاكمة في كل عصر، هي افكار الطبقة الحاكمة.. غير أن هذه الأفكار متغيرة مع تغيير الطبقة الحاكمة، المتغيرة بدورها مع تغيير نمط الإنتاج الذي أفرز عدوّها الطبقي الحامل مهمات ظهور طبقة جديدة، بالأمس كان:

- سلطة الشعب وأفكارها الحاكمة في إطار الديموقراطية الحقيقية في المجتمع البدائي.
- سلطة الأرستقراطية وأفكارها الحاكمة في إطار ديكتاتورية طاغية في المجتمع العبودي
- سلطة الإقطاع وأفكاره الحاكمة في إطار ديكتاتورية مستبدة في المجتمع الإقطاعي.

واليوم:

- سلطة الرأسمال وأفكاره الحاكمة في إطار ديكتاتورية متوحشة في المجتمع الرأسمالي.

السلطة الرأسمالية الحاكمة اليوم.. تعمل أفكارها الحاكمة على عرقلة مجيء حفار قبرها، بـ:

- تعزيز أفكارها السائدة.
- تشتيت شمل العمال وطردهم من النقابات.
- استبعاد الماركسيين من الخطاب (الراقي المحترم).

هذا السلوك الرأسمالي، يعرقل النضال الطبقي لعرقلة مجيء الحفار.. وفي المسافة الزمنية لهذه العرقلة، تمارس ديكتاتورية الرأسمال توحشها على جبهتين:

- حرب على الطبقة العاملة.
- حرب الرأسمال الكبير على الصغير لبلعه.

على هذا الدرب، تشكل (حرب الجميع ضد الجميع، في المجتمع الرأسمالي، يقول ماركس: (أن رأسمالياً واحداً يعمل دائماً على قتل كثيرين.. وإلى جانب التناقص المستمر لعدد حيتان رأس المال، الذين يغتصبون ويحتكرون كل مميزات عملية التحول هذه. يزداد حجم البؤس والقمع والاستبداد والإذلال والاستغلال، ولكن إلى جانب هذا تنمو أيضاً ثورة الطبقة العاملة.. وهي طبقة تزداد دائماً عدداً وانضباطاً واتحاداً وتنظيماً من خلال آلية عملية الإنتاج الرأسمالي نفسها، أن الاحتكار قيداً على أسلوب الإنتاج الذي نشأ وازدهر معها وفي ظلها. وفي النهاية يصل تركز وسائل الإنتاج والطابع الاشتراكي للعمل إلى نقطة يغدوان فيها غير متفقين مع غشائهما الخارجي ـ الرأسمالي. وتتمزق أجزاء هذا الغشاء الخارجي بعضها عن بعض، ويقرع الناقوس معلناً وفاة الملكية الخاصة الرأسمالية. والذين نزعوا ملكية غيرهم تنزع الآن ملكيتهم)(١٤٥)، وتلافياً لهذا المصير، تشدّد ديكتاتورية الرأسمال

قبضتها على المجتمع بسيطرتها على:

- قوة الجيش والشرطة.
- قوة وسائل الإعلام.
- قوة التربية والتعليم.
- قوة اللاهوت.

ولبرمجة كل هذه القوى في إطار لا يثقب يكون اختيارها (الإصبع المبلول)..؟ حسب الشروط المطلوبة لهذه البرمجة، والسؤال هنا..!

- كيف ينتخب (الإصبع المبلول)..؟

يُنتخب من أحد الحزبين (الجمهوري - الديموقراطي)، إذا ما توفرت فيه الصفات المولودة من رحم صيحة هتلر في قادته العسكريين، حيث صاح فيهم قائلاً: ((أغلقوا قلوبكم أمام الشفقة، نفذوا كل أعمالكم بوحشية، فإن الإنسان القوي يكون دائماً على حق، واعلموا دائماً أن الذي يستطيع أن يدير شئون العالم لا يستطيع أن ينفذ ذلك إلا عن طريق القوة، فهي خير طريق للنجاح))(١٤٦).. أي خير طريق لقهر الآخرين، وهي لا تنفذ بتقانة إلا إذا امتاز منفذها، ب:

- **فقد الضمير، هذا أولاً.**
- **السادية، هذا ثانياً.**

(أولاً وثانياً)، هي الصفات المطلوبة في حجر الشطرنج الذي يختاره الرأسماليون ليفوزوا في خطف ما بيد الغير.. اختيارهم هذا لم يكن إلا في إطار الصفة الجمعية للطبقة النهابة... وبهذه الصفة يعمل أفراد هذه الطبقة في أمريكا على التسابق في دعم ديكتاتورية الرأسمال عن طريق دخولهم نسيجها، من هنا تتعلق ((آمال الناس في أمريكا بالوصول إلى الكونغروس. بمستوى الدعاية التي يبثونها لأنفسهم. وتكلف الدعايات الإنتخابية في أمريكا مئات الآلاف من الدولارات.

والحملات الانتخابية في أمريكا دون أموال كبيرة مثل المحرك دون وقود.

أما إذا كانت الحملة مسخرة للإنتخابات الرئاسية، فالحديث هنا يختلف، لأن الحملة في مثل هذه الأحوال تكلف صاحبها ملايين الدولارات، بل عشرات الملايين، ولا يمكن، لأي شخص مهما كان، أن يفعل أي شيء على المسرح السياسي الأمريكي المعاصر دون المال. ولا يستطيع أي سياسي أمريكي مهما كان قديراً أو ذكياً أن ينجح في حياته دون رصيد مالي كبير. واعترف تيودور وايت، وهو من أهم السياسيين الأمريكيين الذي يقبعون خلف الكواليس أن:

(امتلاك الشهرة في أمريكا لعبة الناس الأغنياء))(١٤٧).. أي لعبة الطبقة النهابة التي تحكم مسارها الاحتكارات الكبرى.. وبحكم من هذه الاحتكارات في سوق العرض والطلب، فإن منصب الرئيس يباع ويشرى كأي سلعة أخرى، فـ(جورج بوش) الإبن، حاكم ولاية (تكساس) سابقاً، وهو أول رئيس جمهورية أمريكي حاصل على درجة علمية في إدارة الأعمال، لذلك لم تتردد صحيفة (نيويورك تايمز) العريقة في مجلتها الاسبوعية. والتي توزع مجاناً مع العدد الصادر كل أحد. وفي العدد الذي تم توزيعه في الاسبوع الأول من شهر كانون الثاني ٢٠٠١م.. لم تتردد في تحليل وفهم وتفسير هذا التميز باعتبار أن أمريكا شركة كبرى، وأن (جورج بوش) هو رئيس مجلس إدارة هذه الشركة العملاقة.. وذلك من خلال تحقيق صحفي طويل ومتابعة لأقوال الرئيس الجديد، وآراء معارفه والمقربين منه وإليه..

لقد عمل الرئيس (بوش) في التنقيب عن النفط في تكساس، لكنه لم يحقق النجاح الذي يأمله.. وهو مرشح الحزب الجمهوري المتعاطف مع الشركات الكبرى، وقد حمله إلى سدة الرئاسة دعم شركات السلاح والنفط والقوى اليمينية والمهيمنة في التيار الجمهوري، وبمشاركة مباشرة من مافيا فلوريدا أمريكا، ومباركة من (الإيباك) والمجلس الأعلى للحاخامات اليهود في أمريكا.

يقول الطبيب الأمريكي (جون رولاند): في الشهر الثاني لتسلم الرئيس بوش مسؤلياته: ((ها قد أنعم الله برئيس نفطي كبير آخر يتولى دفة الحكم في

في الولايات المتحدة، وما كان لهذا أن يأتي بغتة دونما توقعات، فالقاصي والداني يدرك أن منصب الرئيس في الولايات المتحدة يباع ويشترى شأنه شأن المقاعد في الكونغرس تماماً، وشركات النفط هي الأوسع غنى، لذا فإن لديها من الثراء الفاحش ما يمكنها من شراء المناصب العامة))(١٤٨)، وهكذا كفى الشيطان الاحتكارات شر القتال... حيث أصبحت المناصب العامة ملك الاحتكار الأغنى، : ((وذكر احد عملاء المخابرات الروسية سابقاً أن الدليل توفر على تورط بنك ألفا في غسل أموال المخدرات الأمريكية اللاتينية، أما علاقة تشيني وشركة (هاليبيرتون) بهذه الأحداث فهي ترتبط، كما يقول تقرير (مركز السلامة العامة (cpi) الأمريكي بالدور الذي يربط المحامي الكبير بشركة(تايومين) شقيقة ألفا الذي ساعد على تأمين ٢,٢ مليون دولار لصالح انتخاب بوش))(١٤٩)، لتميزه بفقد الضمير والسادية، ((وحين قامت إدارة كلينتون عام ١٩٩٩ بشن هجماتها في صربيا وكوسوفو ضد قوات يوغوسلافيا، تعرقل طريق المخدرات هناك، وفتح ذلك بوابة خط افغانستان إلى غرب أوروبا وكانت شركة (بروان أندبروت) وسط ذلك الطريق تماماً. وقد جرى وصف مهارة شق الطريق لعمليات نقل المخدرات في عهد كلينتون بالتفصيل في نيسان عام ٢٠٠٠ في الكتاب الذي نشره ميشيل روبيرت بعنوان (من البرية)، كاليفورنيا ضمن فصل حمل عنوان (خط أنابيب أموال المخدرات لرئاسة الديموقراطيين)(١٥٠).

خط المال الحرام يفتح وفق مصلحة هذا المال في التكاثر الحرام، إذ يفتح:

- لرئاسة الديموقراطيين.
- لرئاسة الجمهوريين.

والسؤال!

- لماذا يفتح هذا الخط النجس..؟

يفتح – حسب تقديرات النهابين- للرئاسة الأقدر على تحقيق النهب الأكبر، ((ويقول ميشيل روبيرت: وأنني أتصور كيف سيتوجه تشيني الذي

اطلع على عملية إعادة بناء تجارة المخدرات العالمية كلها إلى جورج بوش الابن الرئيس ليقول له: انظر انني أعرف كيف أضمن تحسناً في هذه التجارة) ومن المؤكد جداً كما جاء في تقرير مركز (السلامة العامة الأمريكي) (cip)، أن نائب رئيس شركة (هاليبيرتون)، أشار قبل معرفة نتائج الانتخابات على الرئاسة الأمريكية ، إلى أنه إذا انتخب بوش وتشيني فإن عقود الحكومة الأمريكية مع الشركة هاليبيرتون ستحلق مبالغها إلى السماء)(١٥١). .. أي سيبلغ نهبها أعلى مقاييس التوحش، ويعد (ديك تشيني) نائب الرئيس من أبرز الشخصيات في الإدارة الأمريكية الراهنة، وقد انحدر مع الرئيس بوش نفسه من قطاع الصناعات النفطية، ويقيمان علاقات وثيقة مع الشركات العاملة في هذا القطاع، وكان (تشيني) عضواً في بعض مجالس إدارتها، وترأس بعضها، وبعد انتخابات الرئاسة عقد الرئيس ونائبه اجتماعاً مغلقاً مع أركان صناعة النفط الأمريكية لم يفرج حتى الآن عن نتائجه، رغم مطالبات الكونغرس الأمريكي بذلك.. لذلك يقال: أن الإدارة الأمريكية الجديدة جاءت ومعها استراتيجية إزالة الخطر (الموانع التشريعية والبيئية) المفروض على عمليات الاستكشاف والتنقيب النفطي والغازي في المناطق المصنعة على أنها محميات طبيعية، وكذلك العمل بشتى الوسائل على تأمين إمدادات النفط لتلبية الطلب المتنامي على الطاقة في الولايات المتحدة، وسبق أن أتهم (تشيني) بجني ٤٥ مليون دولار من شركة (هاليبيوتن) للنفط عندما كان يرأس الشركة قبل انهيارها، حيث عمدت وبمعرفته إلى تضخيم أوضاعها المالية بمقدار ٤٥٠ مليون دولار وهمية من أجل رفع قيمة أسهمها، وقد كان لهذه الشركة دورها في فوزه بالانتخابات.. وشارك في تسجيل شريط دعائي لشركة (آرثر أندرسون) للمحاسبة التي كانت مكلفة بتدقيق حسابات (هاليبيورتن)، وغيرها من شركات انهارت)(١٥٢).

هكذا، هي (الديموقراطية) الأمريكية، تتدفق عبر أنابيب النفط وخطوط المخدرات.. وعلى صهوتها جاء الثنائي النفطي (بوش- تشيني) ومعهما طاقم

إدارة نفطي أيضاً، حيث ((سبق لمستشارة الأمن القومي (كونداليزارايس) أن تدربت في شركة النفط التابعة لآل بوش، وتعلمت اللغة الروسية كي تتحدث بها مع رؤساء آسيا الوسطى.

أما (رونالد رامسفيلد) وزير الدفاع فقد كان شريكاً مع الرئيس (بوش) في شركة (انرون) العملاقة للطاقة التي كانت الأولى في مسلسل انهيارات الشركات الأمريكية بعد الفضائح المالية التي غرقت بها، إضافة إلى شركات نفطية أخرى وغيرها...)(١٥٣).

أقول: لصوص الدنيا.. سرقوا الشركات.. والشركات سرقت البشر وبين هذه اللصوصية المركبة، سقطت التيارات التحتية في أتون الجوع والإملاق، لكن، - والحق يقال- كل هذه الخسة جرت في ظل (الديموقراطية) وفي ظل هكذا (ديموقراطية) يبيع الناس أصواتهم في الانتخابات الأمريكية بما يسد الرمق، و((نشرت صحيفة «نيو – يورك تايمز» خبراً مفاده، أن كينيدي دفع لقاء الصوت الواحد في منطقة لوغان من «دولارين وكأس وسكي إلى ستة دولارات وست كؤوس من الويسكي» (١٥٤).

يا إلهي! ما هذه «الديموقراطية» التي:

- دفعت الأغنياء للعب من أجل المزيد من النهب.
- دفعت الفقراء نحو القاع أكثر، حتى باعو أصواتهم بالويسكي.

من رحم هذه المعادلة، تصاعدت قوة الرأسمال الاحتكاري وسطوه، وأصبح «القوة الدافعة للسياسة الأمريكية الخارجية»(١٥٥)، القائمة على قاعدة سياسية داخلية تقودها الاحتكارات التي يدل على مقدار ما تحتجنه من السحت على فداحة ما بلعت من حقوق الآخرين «لقد كان اتحاد الرأسماليين الاحتكاريين من الولايات الشمالية –الشرقية أقوى المجموعات الاحتكارية الأمريكية على الإطلاق. وقد سميت هذه المجموعة بـ- أويل- ستريت على اسم شارع البنوك (المال) في مدينة نيو- يورك. ولكي نشعر بتأثير هذه المجموعة بشكل أفضل، سنعرض أسماء الرأسماليين الذي يشكلونها والمبالغ

التي يمتلكونها:

مورغاني ويملك حوالي ٩٢ مليار دولار، روكفيلر ويملك حوالي ٨٢ مليار دولار، ديوبوني ويملك حوالي ٢٠ مليار دولار، ميلوني ويملك حوالي ١٥ مليار دولار.

وتكمن قوة هؤلاء الأشخاص في سيطرتهم الكاملة على البنوك وشركات الضمان الأمريكية. ويسيطر هؤلاء على ٧٠٪ من المعاملات النقدية، وعلى ٩٠٪ من حالات الضمان.

لم يرغب مورغاني في دخول الحكومة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وأراد أن يكون تأثيره على السياستين الخارجية والداخلية الأمريكية من خلف الستار.

لمورغاني تأثير كبير على الاحتكاريين الأمريكيين الآخرين، إلا أن مورغاني شجع رجالاته على دخول المناصب الحكومية الرفيعة وعلى النضال من أجل منصب الرئاسة.

كما ويعتبر الرئيسان تيودور روزفلت وفورد ويلسون من رجالات مورغاني الذين وصلوا إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية)) (١٥٦).. وصلوا بدعم الرأسمال الأقوى، الذي لا يكتفي بنهب عدوه الطبقي.. فتوحشه يتجاوز ذلك إلى نهب الرأسمال الأصغر.. على محور هذا التوحش تقوم (ديموقراطية') الرأسمال على قاعدة ديكتاتورية هي الأفظع والأبشع طغياناً، وعلى هذا المفصل من (حرب الجميع ضد الجميع) ((اتسمت العلاقات بين مختلف الشركات والمؤسسات الاحتكارية بالتنافس الشديد. ولا يمكن للاحتكاريين إلا أن يتنافسوا بين بعضهم بعضاً، لأن طبيعة عملهم تفرض مثل هذا التنافس.

وأشار فلاديمير إيلتش لينين إلى أنه: (لا يوجد في العالم رأسماليون احتكاريون دون منافسة حرة- وإذا وصفنا هذا النظام – فإن ذلك يعني أننا نصف نظاماً منفصلاً عن الحياة، أي وصفاً خاطئاً))(١٥٧).

... وحتى لا نقع في الخطأ، علينا أن ندرك تماماً، أن النظام الرأسمالي في داخله صراع مركب:

- صراع في ملعب الصراع الطبقي.
- صراع في ملعب المصالح المتماثلة.

هذا الصراع المركب للرأسمال، يفرز ديكتاتورية مركبة التوحش ضد شعبه والشعوب الأخرى.. وهي مركبة التوحش في لحمتها وسداها، لمجيء خيوط هذه وتلك من شريعة (الإله المال).. حيث:

- تشرى الأصوات بالمال والويسكي.
- يباع ويشترى منصب الرئاسة.
- الرأسمال الأقوى يدعم المرشح الهتلري.

على هذه القاعدة من اللعب غير الشريف تقوم ديكتاتورية الرأسمال. تقوم ويدعمها ويجمل صورتها البشعة وسائل الإعلام التي يسيطر عليها هذا الرأسمال. ((إن الصحف والمجلات واستوديوهات السينما ترتبط مباشرة بالشركات الصناعية الكبرى أمثال (فيستينغاوز إليكتريك) و(جنرال الكتريك) و(رديد وكاربوريشن أوف أمريكا) و(انترناشيونال تلغراف اندتليفون) وغيرها من الشركات الأخرى.. كما عملت مئات الصحف الصغيرة ومحطات الإذاعة والتلفزيون مباشرة لصالح مصانع النسيج والمشروبات الكحولية والمتاجر وغيرها))(١٥٨)

ولما كان النهب من طبيعة الرأسمال.. فمن هذه الطبيعة تبلع الشركات الكبرى الصغرى في إطار البلع العام.. على هذا المسار يسقط الرأسمال الصغير في كرش الكبير، وبتناسب مع هذا السقوط، تشتد ديكتاتورية الكبير توحشاً. ولحبك هذا التوحش تجري عملية بلع وسائل الإعلام الكبيرة للصغيرة.. على هذا المفصل، تضيق حرية الرأسمال ذاته لتصبح في قبضة الرأسمال الأقوى.. من هنا، تتغير ديكتاتورية النظام الرأسمالي نحو التوحش الأسوأ، وعلى هذا سارت الأمور، فـ(في العام ١٩٦٩ كان الجهد المكثف قد بدأ لتجميع

المؤسسات الصحافية عن طريق دمجها للسيطرة عليها، ذكر بن باكديكيان في كتابه (احتكار الميديا): (مع العام ١٩٨٠، فإن معظم الميديا الأمريكية – الجرائد، المجلات، الراديو، التلفزيون، الكتب والسينما، أصبحت ملكية شركات عظمى لا يتعدى عددها الخمسين، واصل (وإذا ما علمنا أن في الولايات المتحدة ١٧٠٠ جريدة يومية، ١١٠٠٠ مجلة، ٩٠٠٠ راديو، ١٠٠٠ محطة تلفزيون، ٢٥٠٠ دار نشر، وسبعة استوديوهات للسينما، فإن عدد المالكين يجب أن يتوزع على ما يفوق لـ٢٥٠٠٠مالك). قال باكديكيان: أما حقيقة الأمر فهي أن خمسين شركة عملاقة مما ليس لها علاقة بالصحافة هي المالك الحقيقي لمعظم هذه المؤسسات.

ويدرج باكديكيان في هذا المجال اختصاص هذه الشركات واهتماماتها التجارية التي منها ما يبدأ بإنتاج قطع غيار السيارات مروراً بتكرير قصب السكر وانتهاءً بتمديدات القساطل، هذا طبعاً إلى جانب شركات الكهرباء والتلفون والبنوك وما إلى هنالك. أما الخلاصة من بحثه المتوسع والدقيق فهي عينها خلاصة كيري أعلاه، وهي أن من مخاطر اندماج الشركات على هذا النحو ما يهدد الديموقراطية الأمريكية لأنه يقضي على التنوع في مصادر المعلومات التي هي أساس من أسسها.

مع مطلع القرن كان هناك ٢٠٤٢ جريدة يومية، مع العام ١٩٨٠ انخفض عددها إلى ١٧٣٠، بعد ذلك بقليل انخفض إلى ١٧٠٠، وفي العام ١٩٩٣ وحسب جون ميريل في كتابه (الصحافة الدولية)، فقد انحدر عددها إلى حد لم تعرفه الصحافة من قبل بعد أن لامس الـ١٥٧٠ جريدة فقط.

ماذا تعني هذه الأرقام؟ إنها لا تعني غير حشر المؤسسات الصحافية الصغيرة في الزاوية لقتلها، أو إذا ما أرادت الحياة، فليس أمامها غير الاندماج في شركات أكبر، هذا الاندماج الذي لا مبرر له غير الربح))(١٥٩).

.. مركز ديموقراطية النظام الرأسمالي والتي تمثلت، ب:

– ابتلاع الرأسمال الكبير للصغير، هذا أولاً.

وأفرز هذا البلع:

- ابتلاع وسائل الإعلام الكبيرة للصغيرة، هذا ثانياً.
- (ثانياً) في خدمة (أولاً) لتعزيز نهب ديكتاتورية الرأسمال الأقوى، و(أولاً وثانياً) يفرز أشكالاً من الإملاق لا اسم لها.. وفق هذه المعادلة تترسخ عبادة (الإله المال) والتي هي أسُّ ديموقراطية الإمبريالية..

ولتقديس هذه العبادة من قبل الجميع، قبضت الاحتكارات على الميديا ووظفتها في زرع الثقافة التي تدعم نهبها، ومن هنا، ولد خطابها (الراقي والمحترم)، وبه، أصبح المال في أمريكا ((هو القبلة والمحج لكل حركة تتحرك في هذه البلاد، وليس في هذا القول من طعن بأحد لأن المال ليس عملة وحسب، إنه ثقافة البلاد، محركها والقطب الأعلى والاوحد من أحادية العالي من قيمتها واهدافها))(١٦٠).. ومن عالي قيمتها هذا، سطت (ديموقراطية) نهب الآخر... وجاء سطوها المتوحش على الشعوب لنهبها. وخدم هذا وذاك تطور وسائل المعرفة التي قبضت عليها، ومن هنا، ينبغي ((أن ندرك أن القوة والتطور الذين شهدتهما وسائط المعلومات ليسا موجودين في الفراغ، وإنما هما يعكسان حالة التنمية الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية والثقافية لكل مجتمع وكل دولة لذا ليس من المستغرب أن نجد وسائل الإعلام في الدول الاستبدادية تتحول إلى خادمة للسلطة السياسية وتوجهاتها وأولوياتها. غير أن الأمر ليس أحسن حالاً في الدول المتقدمة. فقد وصلت ملكية وسائل الإعلام في بعض أعرق ديموقراطيات العالم إلى ما يعتبره البعض مستوى خطيراً من التمركز والاحتكار. ففي المملكة المتحدة، تصل نسبة الانتشار الإعلامي لمؤسسات روبرت مردوخ إلى ٣٧٪ من معدل تداول الصحف الوطنية اليومية، كما نجد أن الصحف الوطنية التي يمتلكها روبرت هيرسانت- وقد دخل السجن لتعاونه مع النازي أثناء الحرب- تمثل ما يزيد على ثلث الصحف الوطنية المتداولة في فرنسا وتصل إلى الخمسين في المائة في بولندا، أما في إيطاليا، فإن رئيس الوزراء الملياردير سيلفيو بيرلسكوني يمتلك القنوات

التلفزيونية التجارية الثلاث التي تحتل موقع القمة، فضلاً عن شبكة تلفزيونية أخرى مدفوعة الاشتراك وعدد من الصحف والمجلات، وجميع هذه الأدوات دعمت بقوة حزبه السياسي اليميني الذي وصل إلى السلطة.

بل إن نظام الإعلام الأمريكي مع تدعيمه لمجموعة كبيرة ومتنوعة من أساليب التعبير، قد أصبح على نحو متزايد أكثر تركيزاً في أيدي حفنة قليلة من المؤسسات الضخمة التي يتزايد ارتباطها بدورها في مشاريع مشتركة يهدف الكثير منها إلى اكتشاف أشكال جديدة من الاتصال))(١٦١)، لاكتشاف أشكال جديدة من (حرية) النهب، يقول لينين: ((أن الرأسماليين كانوا دائماً يطلقون اسم (الحرية) على حرية الأغنياء في الإثراء، وعلى حرية العمال في الموت جوعاً. أن الرأسماليين ينعتون بحرية الصحافة حرية الأغنياء في رشوة الصحف وحريتهم في استخدام ثرواتهم لتلفيق وتزوير ما يسمى الرأي العام، ومرة أخرى، نرى المدافعين عن (الديموقراطية الخالصة) يقولون في الواقع الدفاع عن النظام الأكثر قذارة وارتشاءً، نظام سيطرة الأغنياء على وسائل تثقيف الجماهير، وهم الذين يخدعون الشعب ويصرفونه بجمل جميلة مضللة كاذبة كلياً عن المهمة التاريخية الملموسة القاضية بتحرير الصحافة من عبوديتها للرأسمال))(١٦٢)... والتاريخ يثبت بالحجة الدامغة هذا الكذب والتضليل، بعد أن قبض الرأسمال على الصحافة – كما رأينا – ليوظفها في خدمة نهب احتكاراته وتغييب وعي الجماهير عن منبع هذا المنهوب. يقول لينين: ((إن الحرية والديموقراطية كانتا حتى الآن الحرية والديموقراطية من أجل المالكين ومجرد فتائت متساقطة عن المائدة من أجل المعدمين))(١٦٣)، ومن هذا وذاك، دُفع المعدمون نحو قاع البؤس أكثر، وتصاعدت ديكتاتورية الرأسمال نحو العنف أكثر فأكثر، ((فالعنف الرأسمالي الإمبريالي لم يقبل (بالآخر) على مدى قرون نهضته، بل صاغ الآخر دائماً على قدّه لتقبله أجياله التالية في ظل آليات عنف آخر متجدد)(١٦٤)، مع تطور وسائل الإنتاج، الذي يفرض اكتشاف طرق جديدة لنهب جديد، وهكذا دواليك... عنف جديد لنهب

جديد، حتى (الإصبع المبلول)، لا يحق له التحرك إلا ضمن هذا الخط، وإذا ما حاول الاجتهاد في حركته، اعتقاداً منه، أنه يؤدي خدمة أكبر للرأسمال الذي جاء به إلى الغرفة البيضاوية في البيت الأبيض، يُقام عليه الحد وفق شريعة (ديموقراطية الإله المال)، التي وصفها أحدهم، بأنها مثل أولاد الازقة تربي نفسها بنفسها، وهي بالفعل كذلك.. فوفق معايير أولاد الأزقة، قتل الرئيس الأمريكي (جون كينيدي) عندما نسي نفسه -جل من لا ينسى- .. نسي أنه في بيت العبودية، غير قادر على تنفيذ مالا يملى عليه... نسي وراح يغازل السوفييت، حتى كانت اتفاقية منع التجارب النووية، ((وأصبح عدم رضا البنتاغون، ووكالة المخابرات الأمريكية عن تصرفات الرئيس (المعتدلة) واضحاً، ولكن الرئيس جون كينيدي، أعطى أوامره بالتوجه إلى موسكو لتوقيع اتفاقية منع التجارب النووية في الفضاء وتحت الماء. وتم في موسكو، في 5آب عام ١٩٦٣، توقيع معاهدة لمنع التجارب النووية في الفضاء وتحت الماء على أن تكون هذه الاتفاقية سارية المفعول اعتباراً من ١٠ آب عام ١٩٦٣. ولم يحدد وقت لإنهاء العمل بها))(١٦٥). والعمل بها يعني تجاوز العبد أوامر سيده، الذي لا يعيش إلا في دوامة من العنف لإرواء عطشه للمال الحرام. ولهذا، حركت الاحتكارات وسائل إعلامها للهجوم على من تطاول على استراتيجيتها، ولم تكذب هذه الوسائل خبراً ((ووصفت الصحف الأمريكية توقيع الاتفاقية مع السوفييت أنها (كارثة قومية)، وقاد هذه الحملة أصحاب مصانع الأسلحة الأمريكية في كاليفورنيا وتكساس. وظهرت، في أنحاء متفرقة من الولايات المتحدة الأمريكية، مجموعات ومنظمات فاشية جديدة، وكانت البطالة هي السبب الذي يخيف الأمريكيين في حال التوصل إلى اتفاقية لنزع السلاح. وتم وصف كل من جون كينيدي ومكنمارا وحتى دين راسك، بأنهم (شيوعيون) يعملون بشكل سري في أمريكا. وطالبت مجلة (أميركن أبينسيون) في شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٣ بالتخلص من الرئيس جون كيندي وأتباعه))(١٦٦).. غير أن الرئيس لم يأخذ هذا التهديد على محمل الجد، معتمداً على

(الديموقراطية) على (الحرية) التي ينتصب تمثالها في بلده معتمداً على هذا الغش والخداع الذي لم يكن إلا غطاءً لديكتاتورية الرأسمال المتوحشة.. هذه الديكتاتورية التي طار صوابها مع توقيع الاتفاقية مع السوفييت.. ثم طار أكثر وأكثر، عندما قال الرئيس كينيدي أمام طلبة إحدى الجامعات الأمريكية: (أصبح النسر المرسوم على سقف مكتبي منذ سنوات عديدة ينظر إلى غصن الزيتون))(١٦٧).

النسر أصبح ينظر إلى غصن الزيتون، وهذا يعني في محتواه، قلب معادلة استراتيجية الاحتكارات.. أي ارتكاب (الكبيرة)، التي يستحق مرتكبها إقامة الحدّ عليه.. وهذا ما كان في مدينة دالاس، حيث ((انحرف موكب كينيدي في نهاية الشارع ماين ستريت إلى اليمين للسير في شارع هيوستن ستريت. وشوهدت عند تقاطع شارع هيوستن ستريت وشارع وليم ستريت بناية من سبع طوابق، برتقالية اللون ومبنية من القرميد.

كانت هذه البناية مستودعاً للكتب.

وأظهرت إحدى الساعات المعلقة على جدران الأبنية أن الوقت كان ١٢,٣٠ حسب التوقيت المحلي.

انحرفت سيارة الرئيس ببطء إلى اليسار متوجهة إلى شارع وليم ستريت. وسُمع بعد ثوان قليلة إطلاق نار سريع. أطلق القتلة نيران أسلحتهم من مخزن الكتب ومن على جوانب قنطرة القطار.

أصيب جون كينيدي بجروح خطيرة في رقبته ورأسه)(١٦٨).

قُتل (الإصبع المبلول) بعد أن أخطأ في تحديد جهة الرياح وفق ما ترغب الاحتكارات، و((اختفت أطراف الجريمة في الماء. لقد تم إعدام المدعو لي هاربي إسفالد بالرصاص فوراً. أما المتهم الثاني جيكوم روبي فقد مات في السجن))(١٦٩).

قُتل جون كينيدي (ديموقراطياً)، وقُيدت الاحتكارات قضيته ضد مجهول، وتابعت مسارها الديكتاتوري المتوحش، لتقتل كل من لا يرى رأيها،

وعلى هذه الخسة، قُتل روبيرت كينيدي الذي أعلن ترشيحه للرئاسة، وأنزل إلى السوق كتابه المسمى (طرق اصلاح العالم)، حيث يقول فيه: ((يرى الشباب الأمريكي، وبغض النظر عن موقفنا (يقصد روبيرت هنا الجيل القديم) أن أمريكا هي أكثر دولة في العالم تقتل الأطفال.. نحن نتحدث عن الأخطاء السابقة وطرق معالجتها. ويتساءل الشباب الأمريكي: لماذا ندفع ثمن الأخطاء التي تم ارتكابها حتى قبل أن نولد على هذه الأرض، وقبل أن نصل إلى العمر الذي يسمح لنا بالتصويت في انتخابات الرئاسة الأمريكية؟ يرى الشباب الأمريكي كيف نضع مليارات الدولارات على التسلح وعلى الحرب الفيتنامية مع استمرار حالة الفقر داخل المجتمع الأمريكي. إنهم يرون طموحاتنا في الدفاع عن الحرية في فيتنام، ويرون عدم رغبة الإدارة الأمريكية في دفع المال لفقراء الميسيسيبي وفقراء البامي ولفقراء الزنوج: وترفض إعطاءهم أي قسط من الحرية. ويشعر شباب أمريكا أنهم بعيدون عن الساحات التي يتم فيها اتخاذ القرارات السياسية الهامة. ولا يشارك شبابنا في السلطة الحكومية، ولا يشارك شبابنا في حل المشاكل التي تمليها حياتنا اليومية))(١٧٠).

هكذا شهد شاهد من أهلهم أمام محكمة التاريخ.. شهد مدفوعاً برغبة ذاتية لقص هذا الشر المتطاول.. شهد ولم يدرك بأن الرغبة الذاتية غير كافية لإطفاء نار جهنم المشتعلة من طبيعة الاحتكارات التي يرشح نفسه لرئاستها.. هذه الطبيعة التي ترتكب كل الجرائم وتتنكر لمصالح المجتمع في ظل ديكتاتورية لا تحقق إلا مصالحها في نهب الآخرين.. ومن أجل هذه المصالح كان:

- أمريكا أكثر دولة في العالم تقتل الأطفال.
- أمريكا تصرف مليارات الدولارات على الحرب.
- أمريكا تترك فقراءها يموتون جوعاً.

على محور هذا التوحش، تنادي أمريكا بالحرية.. ولكن، أية حرية..؟ التاريخ يجيب: إنها حرية الاحتكارات في نهب بني البشر، النابعة من طبيعة

هـذه الاحتكـارات، ولا سـبيل لأن تكـون حريـة حقيقيـة لأفـراد المجتمـع، إلا بالقـضاء علـى مـصدرها.. هـذه حقيقـة موضـوعية كـشف قوانينهـا مـاركس وجهلها روبيرت كينـدي، ومـن جهلـه هـذا كتب يقـول: ((يجب تحسين عملية مراقبـة الأسـلحة الـتي قـد تحمـل رؤوسـاً نوويـة، والحـد مـن عمليـات إطـلاق الصواريخ، وعلينا أن نبني شبكة مضادة للصواريخ التي تحمل الرؤوس النووية. وأشـار كينيـدي إلى أهميـة المعاهـدة الـتي أبرمـت في عهـد أخيـه جـون كينـدي والـتي تحـد مـن التجـارب النوويـة في الفـضاء وتحـت المـاء وتحـت سـطح الأرض. وكتب روبيرت عن هذه المعاهدة ما يلي: (لقد رحبت بعقـد هـذه الاتفاقيـة، لـيس فقـط بـسبب ميزاتهـا الإيجابيـة الكـثيرة، بـل لأنهـا كانـت (الخطـوة الأولى في طريق الألف ميل))(١٧١).

أقول: الوضع الطبقي لروبيرت كينيدي، جعله ينظر لمسار العملية التاريخية من منظور مثالي.. ومن هـذا المنظور، لم ير سبب مقتل أخيـه جـون مـن أنـه كـان لإقدامه على هذه الخطوة في طريق الألف ميل.. وستكون كـذلك بالنسبة إليه أيضاً.. وتابع رغبته للحـد مـن شـرور مـا يرتكبه النظـام في بلـده، وكـأن طبيعـة الاحتكارات يمكن برمجتها بالكلمات الحلوة المعسولة.. ومـن هنـا جـاء قولـه للتأريخ.. ((لقد ناضل (١٥٠,٠٠٠) فدائي فيتنامي وعلـى مـدى عـشرين عامـاً ضـد الفرنـسيين، وضــد المجموعــات الأجنبيــة المختلفــة، وضــد حكومــة فيتنــام الجنوبية، وضدنا نحن الأمريكيين، لقد ناضل هؤلاء طيلـة العـشرين عامـاً دون كلل. ونظموا معسكراتهم حـول المدن وفي أمـاكن أخـرى يتم تحديـدها بدقـة. وقتل هؤلاء الموظفين الحكوميين لـدى نظـام فيتنـام الجنوبيـة. نظـم الثـوار جـزءاً من الشعب الفيتنامي الجنوبي بدور معارضة الحكومة بشكل رسمـي. وشـعرت حكومة فيتنام الجنوبيـة أن سـاعة نـصر الثـوار آتيـة دون شـك.. وردت حكومتنـا على ذلك بأن صعدت تواجدها العسكري في فيتنـام الشماليـة، وكثفـت قواتنـا عملياتها العسكرية التقليدية، وقصفها الجوي، وتقنياتها العسكرية))(١٧٢).. ولم يقـف روبيرت كينـدي عنـد إظهـار تـصميم الثـوار علـى النـصر، ورد الطغـاة

عليهم بالتدمير والقتل.. بل ذهب إلى ما هو أبعد.. إلى ما هو من محرمات اللغة الأمريكية.. إذ رأى أن الشيوعية أكثر قدرة على تطوير المجتمع نحو الأفضل.. حيث قال للتاريخ: ((وعلى الرغم من الوعود التي قطعتها الأنظمة المشؤومة على نفسها، لم تتمكن أيةحكومة من حل المشكلة الزراعية في فيتنام الجنوبية، باستثناء الحكومة الشيوعية)(١٧٣).. نسي الرجل خطورة كلامه على سياسة الاحتكارات. نعم: نسي من منطوره المثالي.. بل تابع يقول: ((إنه من الصعب إعطاء الزنوج حقوقهم المدنية، دون القضاء على الجذور الاقتصادية التي أدت أصلاً إلى تمييزهم عن البيض))(١٧٤)، وهذا يعني في محتواه القضاء عل جذور الرأسمالية التي تعزز الشرور الطبقية من اجل ان تنهب نقابة النهابين بني البشر.. وذهب روبيرت كينيدي إلى ما هو أبعد أكثر وأكثر عندما رأى ((بأم عينه ظروف العمل الصعبة التي يعيشها العمال التشيليون، والتي تفتقر إلى أي نوع من أنواع حماية العمل.

وأدلى روبيرت كينيدي إلى أحد المندوبين الصحفيين بتصريح قال فيه: (لو أني أعمل في هذا المنجم لأصبحت شيوعياً))(١٧٥). وبهذا المصطلح المحرم أمريكياً، طفح كيل الاحتكارات، ونفذ صبر (ديموقراطيتها الوهم)، فـ ((منع جونسون نشر كلمات روبيرت في الصحافة وعبر وسائل الإعلام الأخرى))(١٧٦).. بل تجاوزت الاحتكارات حدود ما طلب جونسون، حيث نشرت ((الصحف الأمريكية المتطرفة مقالات أتهمت فيها روبيرت كينيدي وشقيقه المقتول أنهما (عميلان للشيوعية العالمية) (١٧٧).. وهذا يعني أنهما من (مرتكبي الكبيرة)، ولهذا السبب قتل الأول، وتقرر قتل الثاني، بعد أن قرر ((ومساعدوه قبل منتصف الليل بقليل النزول إلى بهو الفندق، حيث كان ينتظرهم هناك عدد من قادة الحزب الديموقراطي في كاليفورنيا. استقبل هذا الحشد مرشحهم بحفاوة بالغة، وألقى فيهم كلمة أكد فيها على ضرورة تفادي الانقسام داخل المجتمع الأمريكي). وضرورة العمل المشترك بين جميع الأطراف في (إطار الدولة الأمريكية العظيمة).

لقد اكتظت القاعة بالحضور، مما اضطر روبيرت كينيدي إلى تركها فيما بعد عن طريق مطبخ الفندق. اصطف الطهاة والخدم وهم يحملون اللافتات التي تدعو إلى انتخاب روبيرت كينيدي. وكان بينهم رجل قصير، يرتدي بدلة زرقاء اللون. وعندما بدأ كينيدي بتحية الحشد مودعاً، هجم هذا الرجل عليه وأطلق في جسده رصاصتين. وألقى عدد من الخدم بأنفسهم على روبيرت لحمايته من الموت. وأطلق هذا الرجل ما تبقى لديه من ذخيرة في الأرض مما ادى إلى جرح العديد من الحضور. لم يفقد روبيرت كينيدي وعيه عندما نقلوه من الفندق إلى المستشفى.

أجريت له في المستشفى عملية صعبة، ولكنها فاشلة. وأعلن بعد ساعات قليلة عن وفاة روبيرت كينيدي. وهكذا تمت إزاحة شخص آخر من أخوة كينيدي عن المسرح السياسي الأمريكي بصورة عنيفة ومأساوية))(١٧٨)، وبهذه الصورة المأساوية التي تعكس الطبيعة المتوحشة للاحتكارات، تضطهد ديكتارية الطغمة المالية الشعب الأمريكي، وتقتل كل من لا يحطب في حبالها، وبها أيضاً ((اضطهدت الإمبريالية الأمريكية عشرات الملايين من الزنوج ومن المواطنين الذين يرجع منشؤهم إلى أصل مكسيكي أو آسيوي))(١٧٩)، وعندما خرج الزنوج ((في لوس أنجلوس وأوتسي إلى الشوارع مظاهرات احتجاج على تردي أوضاعهم المعيشية بشكل مأساوي. واستمرت مظاهراتهم ستة أيام متتالية، واحتدمت الإصطدامات في الشوارع بينهم وبين الشرطة. وقتل في تلك المظاهرات حوالي ٣٤ زنجياً وجرح اكثر من (١٠٠٠) منهم))(١٨٠)، وقتل ((الزعيم الزنجي كينغ في مدينة ميمفيس الأمريكية))(١٨١)، والأنكى من ذلك، اعتماد (ديموقراطية الاحتكارات) منظمات إرهابية لقمع الرأي الآخر واسكاته، فعندما توجه ((مئات الشباب والشابات الأمريكيين، في بداية الستينات إلى الجنوب، لمساعدة الأعضاء النشيطين المؤيدين للحقوق المدنية هناك.

وتعرض هؤلاء الشباب إلى التنكيل الجسدي من قبل منظمة (كو-

كلوس- كلانا) العنصرية المتطرفة، ومن قبل المنظمات العرقية الأخرى.

لقد حاربت هذه المنظمات بلا هوادة الشباب الذين طالبوا بإعطاء الزنوج حقوقهم المدنية، وكانوا يسعون إلى تصفيتهم الجسدية في كثير من الأحيان. كما وساندت السلطات الأمريكية المتواجدة في الولايات الجنوبية المنظمات العنصرية المذكورة، لم يسمح القانون الأمريكي آنذاك للسلطات الفيدرالية الجنوبية اتخاذ أية إجراءات رسمية ضد المنظمات العنصرية هناك. وقال المدعي العام في تلك المناطق أن قمعه ومحاربته لمنظمة (كو- كلوس- كلانا) يعني بصورة أو بأخرى مساعدة للشيوعيين والقوى اليسارية الأخرى في تلك المناطق. وكان للمنظمة العنصرية المذكورة اتصالات مستمرة مع منظمة المافيا والتي سعت بدورها إلى ترسيخ هيبة منظمة (كو- كلوس- كلانا) في أعين الجماهير الأمريكية. وأدى ضغط المافيا إلى موافقة الكونغروس الأمريكي على إعطاء مخصصات إضافية لهذه المنظمة))(١٨٢).العنصرية الإرهابية، التي تمتهن الإجرام وقتل كل من يعارض سياسة الاحتكارات في بلع حقوق الآخرين.. ولم تقف الاحتكارات عند هذا الحد من الاستبداد والتوحش، بل يتطاول اضطهادها ليصل إلى (الإصبع المبلول)، وفي هذه الحالة إن لم تجد تهمة مباشرة لهذا (الإصبع) لفقت له تهمة (معاكسة بنت الجيران).. هذا ما حدث بالضبط مع الرئيس كلينتون، عندما حشرته في صفوف الزَعَرَة، ونسبت إليه علاقة غير شرعية – على ذمتها- مع موظفة البيت الأبيض (مونيكا). موقف الاحتكارات من الرئيس كلينتون، لم يكن في حقيقته سوى تحجيماً له في بيت عبوديتها. فالعلاقة غير الشرعية في الغرب الرأسمالي، هي، من طبائع الأمور ولا تثير دهشة أحد، ما دامت العلاقة بين (المثليين) أصبحت قانونية عند البعض وشبه قانونية عند البعض الآخر.. يؤكد ذلك فاتسلاف هافيل في تعليقه على قضية (كلينتون- مونيكا)، حيث يقول: ((من وجهة نظر أوروبية فإن موضوع كلينتون هو نوع من الفكاهة. نحن لا نأخذ هذا السلوك الجنسي بهذه الأهمية، ولو تحدث معي كلينتون لعلمته

بعض الأشياء))(١٨٣). والسؤال!

- ما الذي يريد فاتسلاف قوله إلى كلينتون...؟

يريد أن يقول له: أنت مجرد اصبع مبلول في خدمة الاحتكارات.. وما وصلت إليه من وضع صبياني لا تحسد عليه.. ما كان ليكون لولا محاولتك الخروج عن مخطط سيدك، ((فهو قد حاول بالفعل أن يغير منطق الأمن القومي بإعادة المصالح الاقتصادية إلى مستوى الاعتبارات الأمنية الكلاسيكية. وقد لمس كون البنتاغون قد ابتلع سموم انتصاره في حرب الخليج ولم يعد في وضع يسمح له بالتجارب مع حساسيات القسم الأكبر من الشعب الأمريكي.

شدّد الرئيس في تشرين الثاني ١٩٩٢، في مدينة لتبل روك (أركانساس) على الحاجة لجمع أمم العالم داخل شبكة العلاقات الاقتصادية المتبادلة. وحاول أن يهمش النخب العسكرية. لكن البنتاغون نجح في نهاية المطاف في استعادة زمام الأمور من رئيس وقع في فخ فضائحه الشخصية))(١٨٤). الذي نصبه له النخب العسكرية، لإعادته إلى حجمه كإصبع مبلول يحدد جهة الرياح للاحتكارات. ((هكذا تجري المياه في أمريكا، لتصب جميع الأنهر، في بحر الطغمة المالية، هذه الطغمة التي لا مقدس عندها سوى النهب، ومن أجل النهب لا غير، انزلقت نحو الأسفل لإظهار عظمة (ديموقراطيتها)، ففضحت الرئيس ذاته، كدليل على عشقها للديموقراطية، حيث كانت الضجة الكبرى التي ثارت كالإعصار، بشأن قضية (كلينتون- مونيكا)، وفي حقيقة الأمر، فإن هذه القضية، لم تكن أكثر من مكر رأسمالي صُمم على ضرب عصفورين بحجر:

١- صرف الشعوب عن قضاياها الأساسية، لتحلم بالمثل الأعلى الأمريكي، الذي لا فرق عنده بين أبيض وأسود، حتى رئيسه (الزاني): يحاكم عند اختراقه القانون.

٢- على أكتاف الرئيس المفضوح، حقق نهباً واسعاً، لوسائل اعلامه (صحف- مجلات- كتب- تلفزيون- فيديو.إلخ). التي حملت في طياتها

أسقط الأمور، وأحط القضايا، وما أكثر الذين يتلهفون شوقاً للإطلاع على مثل هذه التوافة.

نعم: بعد أن حقق الرأسمال هدفه من إعصار (كلينتون- مونيكا)، ترك السفينة في مجراها، وبقي كلينتون رئيساً، وبقيت مونيكا، حاملة في حضنها فستانها الملوث كذكرى لهذه السابقة (التاريخية من عظمة الديمقراطية الأمريكية، التي تهدف من حيث الجوهر إلى إنتاج فاشية جديدة))(١٨٥).. وهل هناك من فاشية أكثر من أن يصبح رئيس أكبر دولة في العالم (غوريلا) الفرجة عليه بثمن.. هذا ما فعلته الاحتكارات الأمريكية برئيسها حين ((ذهب إلى لجان التحقيق في الكونجرس والذي دعا بدوره الجمهور لحضور المسائلة في مقابل تذكرة ببضعة دولارات))(١٨٦).

أقول: الديكتاتورية قلب الرأسمالية، وفي صراع البقاء، تحرص الرأسمالية على سلامة هذا القلب.. وفي إطار حرصها هذا، لم تكتف باضطهاد وقتل عدوّها الطبقي ونهبه.. بل تقتل وتضطهد خدمها بالذات، عندما لا تجد دقة في رؤيتهم الطبقية التي تحددها مصالحها نموذج ذلك:

- قتلت الأخوين كينيدي.
- لوت عنق كلينتون.
- شكلت المنظمات الإرهابية لتصفية الشباب والشابات الأمريكيين الذين دعوا للحقوق المدنية.

على هذا الدرب من الخسة، تعمل الرأسمالية في الداخل والخارج، وعليه أيضاً، اضطهدت وقتلت طلابها الذين قالوا (لا) للحرب الفيتنامية، حيث اصطدم ((الطلبة من جامعة أوهايو مع الشرطة لمدة ست ساعات متتالية، وتم اعتقال ٦٠٠ شخص من الجامعة المذكورة. وتوجه محافظ ولاية أهايو جيمس رود إلى الشرطة والمتطوعين بنداء طالبهم فيه (بالحفاظ على الأمن) هناك. وقُتل أربعة طلاب من جامعة كينتسك بشكل مأساوي خلال إنتفاضتهم ضد الحرب الفيتنامية. وشهدت الحركة الطلابية المناهضة للحرب الفيتنامية بعد مأساة

جامعة كينتس تصعيداً كبيراً. انضم إلى الطلبة بعض أساتذة الجامعات. وأغلقت ٤٥٠ جامعة أبوابها لمدة أسبوع، بعد مأساة جامعة كينتس كاحتجاج على القمع، الذي اعتمدته إدارة الرئيس نيكسون ضد الحركة الطلابية، وتم الإعلان عن حالة الطوارئ في ١٦ ولاية أمريكية)(١٨٧)، هذا من حيث الشكل القانوني المعلن للرأي العام.. أما من حيث المحتوى فقانون الطوارئ الرأسمالي، يلعب الدور الأساسي على ساحة هذا الكوكب.. حيث تعملَ ديكتاتورية الرأسمالية المتوحشة ليل نهار على ضمان مصالحها الطبقية في نهب متزايد لبني البشر.. وللدقة في مسعاها الدوني هذا، تعمل داخل جامعاتها على إفساد ضمائر طلاب العلم وتحويلهم إلى خدم لمصالحها الطبقية، لإيضاح ذلك: ((يقدم البروفسور نوعام تشومسكي بعضاً من تجربته في مؤسسة ماساشوسيتس (MIT) فيقول: (في عام ١٩٦٠ تقريباً انبثق قسم العلوم السياسية من وزارة الاقتصاد الأمريكية. وفي ذلك الوقت كان السي آي إي هي التي تقدم الدعم المالي له علناً وليس سراً. وفي أواسط الستينات لم تعد السي آي إي تقدم له المال علناً وورطته بفضائح كبيرة. وكان قسم العلوم السياسية في الجامعات هو القسم الوحيد الذي يعقد حلقات دراسية مغلقة. وفي إحدى المرات دعيت للتحدث في إحدى حلقاته هذه في إحدى الفيلات في سايغون (فيتنام الجنوبية)، حيث كان الطلاب يعملون على إعداد أبحاث عن العمل السلمي للحصول على الدكتوراه)، والمقصود هنا دراسة أوضاع الفيتناميين وكيفية استخدامهم في استمرار الحرب في فيتنام. وبالإضافة إلى هذا، أعدت السي آي إي برنامجاً متطوراً لاستغلال علاقاتها الوثيقة مع الصحافة. وتبينَ بموجب الأرشيف المخابراتي أن (السي آي إي) كلفت منذ عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٧٧ ٤٠٠ صحفي أمريكي بمهام تجسسية لصالح الوكالة، وأكد كارل بيرنشتاين أن ٢٠٠ صحفي من هؤلاء وقعوا على عقد سري بينهم وبين السي آي إي، وكان أهمهم ممن يعملون في صحيفة (نيويورك تايمز) وتلفزيون CBS ومجلة التايم. وتبين أيضاً أن السي آي إي قدمت تمويلاً لأكاديميين غير

أمريكيين ولكتاب في مختلف أنحاء العالم، وذلك عن طريق عدد من المنظمات والجمعيات الأمريكية باسم دعم برنامج الحرية والديموقراطية))(١٨٨)، وباسم دعم هذا البرنامج الشيطاني، عانت ولا تزال تعاني البشرية أبشع أنواع المآسي.. وتربي الإمبريالية أجيالها على قبوله ليستقر في الأذهان ويصبح بحكم العادة وقوة الاستمرار برنامج (حرية وديموقراطية) وليس برنامج ديكتاتورية أفرزتها طبيعة الرأسمالية ((فالتربية هي أداة المجتمع في تحقيق التحولات المطلوبة، ومن هنا بالذات بدأ البحث الاجتماعي يأخذ شرعيته وأهميته في تناول المسألة التربوية في إطار مؤسساتها وفي خصوصية وظائفها وتقنياتها))(١٨٩). على هذا المفصل، أدرك الرأسمال أهمية وضع يده على التربية من أجل توجيه التحولات في العملية التربوية لخدمة أهدافه الطبقية. ومن هنا: ((أصبحت المؤسسات التربوية والمدرسة، على المستوى السياسي والإيديولوجي، معنية إلى حد كبير بإنتاج الحياة الاجتماعية، وإعادة إنتاجها، وفقاً لصيغ إيديولوجية وسياسية بالغة التنوع والخصوصية. وفي المستوى الاقتصادي التكنولوجي كان للمدرسة دور حصان طروادة في إنتاج اليد العمالية المؤهلة القادرة على تلبية احتياجات المجتمع الصناعي المتطور))(١٩٠). هنا: مربط الفرس، إذ أن اليد العمالية المتطورة، تحقق للبرجوازية قيمة زائدة متطورة، وللسيطرة على هكذا وضع، كان نسق من الدراسات الاجتماعية ((حاولت أن تقدم حلولاً علمية لمشكلات اجتماعية رأسمالية تميزت بعنفوان اندفاعها وتطورها ونشاطها))(١٩١) ولوضعها في إطارها الطبقي، عملت التربية في المدرسة البرجوازية على انتاج العلاقات الطبقية.. ولتكريس هذه العلاقات، ((يعلن كل من بيير بورديو Pirerre Bourdieu (٢٠٠٢- ١٩٣٠)، وجان كلورد باسرون في Jeanc claude peasseron كتابيهما الورثة Les Hevitiers وإعادة الإنتاج، أن المدرسة تعمل على إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية الطبقية، فهي تعيد إنتاج اللامساواة في التوزيع الرأسمالي الثقافي بين الطبقات الاجتماعية. فالإصطفاء يجري تحت تأثير القيم والمعايير التي تحددها الطبقة السائدة في

المجتمع، ومع أن هذه المعايير اعتباطية إلا أنها مشروعة وشرعية بالفعل التربوي، وهذه الوظيفة الإيديولوجية الجوهرية- بناء مشروعية النظام الاجتماعي القائم- تكون أكثر فعالية كلما عملت المدرسة على أن يؤمن هؤلاء الذين يخضعون (لعنفها الرمزي) بشرعية عملها ووظيفتها.

ويجد هذا التطور صداه عند بودلو C.Baudelot واستابليه R.Establet فالمدرسة ليست واحدة، وليست موحدة، فهي تنقسم إلى شبكتين: تضم الأولى أبناء الطبقات البرجوازية (التعليم الثانوي والجامعي) بينما تضم الثانية أبناء الطبقات الشعبية (المدارس المهنية) وبالتالي فإن توزيع التلاميذ يبدأ من المرحلة الابتدائية، حيث تعتمد لغة الطبقة البرجوازية اللغة السائدة في المدرسة. وبالتالي، حيث يكون تعلم القراءة والكتابة لصالح أبناء الطبقة البرجوازية. وهنا يبين الكاتبان أن الإيديولوجية البرجوازية توجه بطريقتين:

احدهما من أجل عمال المستقبل، وهي تعتمد في هذا المستوى مفاهيم بسيطة في مجال الأخلاق. أما الأخرى فهي من أجل النخبة وتقوم على أساس السيطرة على الفكر))(١٩٢)، لقيادة العملية التاريخية طبقياً، لاستمرار سيطرة نقابة النهابين على المجتمع من اجل استمرار توزيع الثروة من الأسفل إلى خزائن الاحتكارات.

توزيع الثروة هكذا، يفرز الجوع والإملاق للتيارات التحتية، وهنا نسأل!

- هل هناك ديكتاتورية أكثر دونية وخبثاً من ديكتاتورية الرأسمال..؟

التاريخ يجيب (لا): فالتربية لم تخضع لمثل هذه البرمجة الطبقية المحكمة الإغلاق على ولادة:

- **طبقة عاملة:** وظيفتها انتاج القيمة الزائدة.
- **طبقة برجوازية:** وظيفتها سرقة القيمة الزائدة.

نعم: لم تخضع التربية لمثل هذه البرمجة البرجوازية على طول تاريخها المدرسي.. هذا التاريخ الذي جعلت منه البرجوازية وقوداً لطبختها الطبقية التي تحاول بها، البرهنة على أنها لم تخرج عن إطار مفهوم التربية الذي اعتاد الناس

عليه في مدارسهم، حيث ((ارتبط اسم المدرسة تاريخياً بالعدالة الاجتماعية، فالمدرسة في تصور الناس كانت ومازالت حتى اليوم مملكة العدالة والمساواة والحرية، فيها ومن خلالها يستطيع الأطفال خوض معركة الحياة دون إكراه التمييز الاجتماعي والعنصري. فالفشل والنجاح والتفوق في السيرة المدرسية هي وسائل مرهونة بنشاط الأفراد ومواهبهم ومستويات ذكائهم كما يعتقد أغلب الناس.

وعلى خلاف هذا التصور التقليدي يبين أنصار التيار الاجتماعي خرافة هذا التصور الذي يقضي بوجود مدرسة ديموقراطية عادلة: لقد شكلت المدرسة، في النصف الثاني من القرن العشرين دريئة تتناولها السهام من كل حدب وصوب، بوصفها المسؤول الوحيد عن كافة أشكال اللامساواة التربوية التي تظهر بين الأطفال والناشئة. وتلك هي أيضاً إحدى أخطر المغالطات التربوية. ويكاد يكون حال المدرسة وفقاً لهذه الرؤية كحال المتهم الذي يسهل وضعه في قفص الاتهام.

ففي عمله الشهير: معاودة الإنتاج Lareproduction يرى بورديو Bourdieu أن بنية النظام المدرسي ووظيفته يعملان على ترجمة اللامساواة من مستواها الاجتماعي، بشكل مستمر ووفقاً لرموز متعددة، إلى اللامساواة في المستوى المدرسي. وليس للمدرسة من مهمة سوى تعزيز وتأكيد قيم الطبقة الاجتماعية السائدة والعمل على إعادة انتاج العلاقات الطبقية القائمة ثم اعطائها طابع الشرعية في آن واحد))(١٩٣).. وإعطائها هذا الطابع لم يكن إلا مكراً طبقياً، تحاول من خلاله دولة الطبقة البرجوازية، إظهار نفسها، على أنها دولة المجتمع بأسره، وإنها – العياذ بالله- تحكمه وفق قواعد الديموقراطية والمساواة بقوانين شرعية وضعت لخدمته دون تمييز طبقي أو عنصري.. غير أن واقع الحال يكذب ذلك.

فالعملية التربوية التي أضفت عليها البرجوازية (طابع الشرعية)، هي عملية طبقية لإنتاج خدم ومخدومين.. وفي إطار هكذا شرعية تعمل ديكتاتورية

الرأسمال: (ويعد كل من بودلو Baudelot واستابليه Capitalsteen France. من أبرز المتطرفين المعاصرين في التأكيد على الدور الطبقي للمدرسة. إذ يعتقدان أن المدرسة في فرنسا ليست سوى آلة برجوازية في خدمة الطبقة البرجوازية الفرنسية، وذلك لأن وظيفتها تكمن في دفع العمال إلى الإخفاف المدرسي، وإلى مواقعهم الاجتماعية المحددة لضمان عملية استغلالهم وتكريسها. وإن المدرسة الرأسمالية تعمل على ترجمة التباين الاجتماعي القائم بين الأفراد في المجتمع إلى تباين مدرسي يتجلى في المستويات المختلفة للنتائج المدرسية. وفي المحصلة يرى الكاتبان أن المدرسة تعمل على إعادة إنتاج علاقات الإنتاج الرأسمالية وتعزيزها.

فالمدرسة كما تبين الدراسات الجارية لا تمثل، في أي حال من الأحوال ذلك المكان التي تتحقق فيه الديموقراطية التربوية، وذلك بحكم بنيتها الطبقية ووظائفها الإيديولوجية. وإذا كانت المدرسة تخضع الأطفال حقاً لمعايير واحدة وقوانين واحدة، فإن الأطفال من حيث المبدأ يتباينون في قدراتهم الأولية، أي قبل الدخول إلى مفترق الحياة المدرسية، على خوض التجربة المدرسية والنجاح فيها.

لقد بدأت سهام النقد توجه إلى المدرسة من كل حدب وصوب بوصفها جهازاً إيديولوجياً يسعى إلى تكريس التفاوت بين التلاميذ وفقاً لمعايير الانتماء الاجتماعي والطبقي السائد في المجتمع، فالمدرسة على حد تعبير بورديو Bourdieu (تترجم اللامساواة الاجتماعية إلى صيغتها المدرسية عبر صيرورة من العمليات والأولويات المختلفة. وهي في عرف بودلو Boudelo اداة في خدمة البرجوازية تعمل على دفع أطفال العمال إلى الإخفاق واتخاذ مواقعهم في مراكز الاستغلال الاجتماعي، وهي بالإضافة إلى ذلك كله تسهم في معاودة إنتاج العلاقات البرجوازية القائمة.

وتشير الدراسات الجارية في ميدان اللامساواة المدرسية إلى تدخل منظومة من العوامل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في موازنة تحقيق العدالة التربوية.

ومن أهم النتائج التي تطرحها هذه الدراسات يمكن أن نسجل المحاور التالية:

١- غالباً ما يكون النجاح والتفوق المدرسيان من نصيب أبناء الفئات الاجتماعية الميسورة. وعلى خلاف ذلك، غالباً، ما يكون التسرب والإخفاق في المدرسة من نصيب أبناء الفئات الاجتماعية الفقيرة.

٢- يلعب مستوى دخل الأب وثقافته دوراً كبيراً في تحديد مستوى نجاح التلاميذ في المدرسة.

٣- يلعب الأصل الاجتماعي للأب دوراً متزايداً في كافة عمليات ومراحل التحصيل المدرسي.

٤- تمارس مجموعة من المتغيرات الاجتماعية دوراً كبيراً على مستوى تحصيل الأطفال مثل حجم الاسرة، ودرجة تماسكها، ومستوى لغة الأسرة وطابعها، ومكان السكن...إلخ...))(١٩٤).

وجميع هذه المحاور، هي، بصورة أساسية من مفرزات اللامساواة في المجتمع، الناتجة بدورها من نهب الطبقة البرجوازية لثروة هذا المجتمع.

إن ديكتاتورية البرجوازية، التي تحفر الهوة بين التخمة والجوع، هي نفسها التي تحفر الهوة بين ما تسميه (النخبة)، والتيارات الشعبية، تحفر هذه لاستمرار تلك.. وبهذه وتلك تحيا ديكتاتورية البرجوازية المتوحشة على نهب المال الحرام. و((يرى كريستوفير جينكيس Ckristophers Jenkis أن قدرة المدرسة على المساهمة في تحقيق المساواة، مرهون إلى حد كبير بتغيير عميق في البنى الاقتصادية والسياسية القائمة. وتجد آراء كريستو تعزيزاً لها في فلسفة المفكر الفرنسي جورج سنيدر Snyders Georqe الذي يرى (أن اللامساواة الاجتماعية مصدر لكافة أشكال اللامساواة التربوية والمدرسية) وهو ينطلق في مقولته هذه من الاطروحة الماركسية المعروفة التي ترى (أن المدرسة في مجتمع طبقي لن تكون ولا يمكن أن تكون إلا مدرسة طبقية).

ويميل سنيدر إلى الاعتقاد باستحالة وجود المدرسة اللاسياسية التي لا ترتبط بمصالح طبقة اجتماعية والتي تكرس لخدمة جميع الفئات الاجتماعية دون

استثناء، والتي تسعى إلى تحقيق مبدأ الازدهار والتكامل في شخص الأطفال دون تمييز، هذه المدرسة ليست في نهاية الأمر سوى أكذوبة برجوازية، هدفها خداع الجماهير)) (١٩٥). ولخداع مبرمج كان:

- المدرسة الطبقية، تعيد إنتاج العلاقات الطبقية.. تعيد تلاحم الطبقة النهابة ضد الطبقة المنهوبة، فـ((الشركات المصنعة للأسلحة تربطها بالشخصيات السياسية الأمريكية من محافظين وأعضاء كونغرس ونواب ومع وزارة الدفاع علاقات وثيقة جداً) (١٩٦).. هذا الترابط الوثيق جداً، لغرض واحد، هو، نهب منتجي الخيرات المادية، على هذا المفصل جاء ((تكاتف وتضامن أصحاب الشركات الصغيرة والمتوسطة مع أصحاب الشركات الكبيرة يمنع نضال العمال من أجل الحصول على حقوقهم الدنيا، وبما أن أصحاب الشركات الكبرى لا يمتلكون قاعدة اجتماعية وسياسية كبيرة، فهم يوجهون الاتحادات العمالية حسب هواهم))(١٩٧). والسؤال الآن!

- كيف توجه الاحتكارات الإتحادات العمالية..؟

الاحتكارات أتخمت بالمال الحرام.. وبهذا المال المسروق.. تُسرق بعض الضمائر ويُدفع بها لقيادة اتحادات العمال من أجل توجيه هذه الاتحادات بهذا الشكل أو ذاك لخدمة الرأسمال.. على هذا المنحى:

- يعرقل اللعب في ملعب الصراع الطبقي.
- تصبح الكرة في قبضة الأغنياء.

هذا اللعب غير النظيف، يُسمى في الدولة البرجوازية (ديموقراطية)... أي (ديموقراطية) الأغنياء في نهب شعوبهم والشعوب الأخرى. على قاعدة هذا النهب المركب، تقوم (ديموقراطية) الدولة البرجوازية في الغرب.

البرجوازية بعد أن نهبت شعوبها، وبعد أن ضاق سوقها الداخلي بمنتوجاتها، خرجت إلى السوق الخارجي، ومن هذا السوق نهبت ما نهبت، ومن هذا المنهوب صرفت جزءاً منه على شعوبها، لا كرماً منها، وإنما لغاية في نفس يعقوب.. أي لصرف شعوبها عن التفكير بالاشتراكية.. من هنا، جاءت رفاهية هذه

الشعوب.. جاءت من المال الحرام لحبك عرقلة اللعب في ملعب الصراع الطبقي جيداً، فـ ((من الثابت تاريخياً أن الرفاهية التي ينعم بها الغرب في هذه الأيام، قد تمت نتيجة للنهب الذي مورس ضد الشعوب الأخرى في أمريكا اللاتينية وقارتي آسيا وافريقيا، ولولا ذلك النهب متعدد الأشكال لما استطاع الناس في الغرب الاستمرار في شرب شاي الساعة الخامسة، والمحافظة على نمط الحياة الأمريكية، ورعاية الكلاب والقطط بحيث تعيش حياة يحسدها عليها أكثر من مليار إنسان في هذا العالم.

لقد دمّروا حضارتي الأزتك والمايا وغيرهما من الحضارات القديمة في أمريكا اللاتينية، وأبادوا أكثر من ثلاثة ملايين نسمة من شعوبها الأصلية، ونهبوا كميات هائلة من الذهب كانت في معابد المكسيك، وغيرها، وخطفوا أكثر من ١٥ مليون افريقي واستعبدوهم في المزارع والمصانع الأمريكية. ونهبوا ومازالوا ينهبون المواد الأولية من آسيا وافريقيا عبر عدة آليات أبرزها التبادل اللامتكافئ))(١٩٨)، حيث ((كانت الصناعات الذاهبة صعداً في أوروبا، والمصانع العامرة في مدنها وقراها، تحتاج إلى من يشغلها وإلى من يمونها بالمواد الأولية، وإلى من يستهلكها.

وأوروبا الثانية في الصغر بين قارات العالم، ليس فيها من المساحات، ولا المنابع، ولا الموارد، ولا الزراعة، ما يكفي لتشغيل هذه المصانع، وليس فيها جماهير بشرية كافية لاستهلاك الصناعات. إذن فليأخذ الاستعمار هذه المهمة المزدوجة على عاتقه.. واستيراد المواد الأولية من مصادرها بأبخس الأثمان، فتغنى الدول المستعمرة على حساب الشعوب المستعمرة، ولتمخر البواخر والبوارج عباب البحور، في نقل الجيوش الفاتحة، وفي نقل البضاعة الرابحة، وليحرص المستعمرون على إبقاء المستعمَرين في جهلهم وخلافاتهم الدينية والقبلية، كي يسهل استخدامهم واستعبادهم، المهم أن يبقى هؤلاء قانعين بالكفاف وما دون الكفاف، لكي ينعم مستعمروهم بالرفاه، ويدخل في خلد الطرفين أن الشعوب منها الأسياد ومنها العبيد، ميزة مصطنعة لا تمت إلى

النزعة الإنسانية التي كان – وما يزال- يتستر بها المستعمرون))(١٩٩)، للتغطية على لصوصيتهم في نهب الشعوب، حيث ((قدمت السياسة الاستعمارية للإمبرياليين إمكانية سرقة الخيرات الاقتصادية من هذه البلدان النامية، بالتدريج بواسطة سياسة الضرائب على القروض وغيرها من وسائل الاستعمار. ولقد اضطرت الدول التابعة أن تبقي في أراضيها –وعلى حسابها الخاص- القوات الإمبريالية، وتقدم بدون مقابل للاحتكارات الثروات المادية رغماً عنها بطرق الاستيلاء أو المصادرة، وعلى سبيل المثال سلبت انكلترا منذ نهاية القرن التاسع عشر نسبة تتراوح بين ١٠ و٣٠٪ من الدخل القومي للهند، واضطرت اندونيسيا إعطاء هولندا نسبة ١٠- ٢٠٪ من دخلها القومي. ولو لم تسلب هذه النسب من الاقتصاد الوطني لهذه البلدان لكانت قد استغلت في تطوير الاقتصاد الوطني))(٢٠٠).

أقول: نهب واسع، أفرز:

- دفع المضطهدين نحو الإملاق أكثر، هذا أولاً.
- دفع المسعورين نحو التخمة أكثر، هذا ثانياً.

(أولاً وثانياً) محور (ديموقراطية) الأبالسة، الذين عززوا (ديموقراطيتهم) هذه بنسبة معينة مما سرقوا.. حيث حققت لهم:

- تربية قيادات عمالية لتحييد الجماهير عن ساحة الصراع.

أن التنازل عن نسبة معينة من المسروق لم يكن إلا لاستمرار اللصوصية بعد أن دب الرعب والخوف في نفوس (الحرامية) في مرحلة تاريخية هبت فيها الثورات الشعبية. ((تفجرت ثورة ١٩١٧ في روسيا القيصرية وأقامت أول دولة اشتراكية في التاريخ. كان من المأمول أن تواكبها مجموعة من الثورات للطبقة العاملة الأوروبية المضطهدة. ولكن أوروبا الرأسمالية استطاعت أن تستوعب الكثير من الموجات الثورية لجماهير الشعب العامل وذلك بفضل ما تراكم بين يدي قادتها من (فائض القيمة التاريخي) وحصيلة سلب ونهب وتدمير حضارات ودول أمريكا اللاتينية وافريقيا، وعلى وجه التخصيص الدائرة العربية

الإسلامية ثم الآسيوية))(٢٠١).

لعب اللصوص على كل الحبال.. ليتدفق النهب عليهم من تحت كل الجسور، وليأخذ (التدفق) مداه عمقاً واتساعاً، عززوا ثورتهم المضادة حتى كان تدمير الاتحاد السوفييتي المعرقل سطوهم.. بعدئذ تساءلوا ما الذريعة التي يمكن بها:

- الهجوم على الجهات الأربع.
- الهجوم على (الديموقراطية الوهم) في بلادهم.

جاء الجواب في تصنيع (١١أيلول ٢٠٠١) ليكون الذريعة المطلوبة للسطو على الشعوب كل الشعوب.. وهكذا كان.. ((وبعد سبتمبر (٢٠٠١) وما جرى في الولايات المتحدة، انقلب كل شيء، فبات التجسس على المواطنين مهمة الدول الكبرى، وبات حلف الجواسيس الذين ينتمون لدول مختلفة شيئاً مشروعاً يجري الحديث عنه ببساطة، ويجري عقد المعاهدات بشأنه دون حساسية من رقابة الرأي العام.

وفي هذا الإطار جاء الحديث في ربيع (٢٠٠٣) عن عودة الوعي لمهنة التجسس في بريطانيا، وإن لم تكن بريطانيا هي النموذج الأكبر في هذا المجال، فقد كانت الولايات المتحدة هي الرائدة، والقصة معروفة: حدث زلزال سبتمبر، جرى اتهام أجهزة الأمن بالتقصير، جرى وضع الاستراتيجيات للحرب ضد المجهول وغير المنظور، تمت تهيئة الرأي العام لقبول أي شيء دفاعاً عن أمن الوطن، والمواطن، أو هكذا قيل.

في هذه المساحة، وطبقاً لما جاء في موقع على شبكة الانترنت أنشأته وزارة العدل الأمريكية أن هناك خطة لتجنيد (١١) مليون مواطن أي بنسبة (٤) في المائة من عدد الأمريكيين للعمل كجواسيس ومرشدين))(٢٠٢).

٤٪ من المواطنين، جند لخدمة الإمبريالية.. هذه النسبة لم يرو التاريخ مثيلاً لها في اعتى الديكتاتوريات التي شهدها. والأنكى من ذلك ((كان الكونغرس وبعد ستة أسابيع من (١١) سبتمبر قد أصدر قانوناً يمنح رجال

مكتب التحقيقات الفيدرالي الحق في إجراء أي تحريات حول المائدة التي يقرؤها المواطن المشتبه فيه، ولأن دائرة الاشتباه عالم بلا حدود، فقد أعطى القانون السلطات المختصة الحق في تفتيش أي مكتب أو محل لبيع الكتب، وبالطبع، فإنه غير مسموح لصاحب المكتبة بأن يعلن أنه تم تفتيشه، وهو ما دفع أصحاب المكتبات للتخلص من قوائم الذين يستعيرون الكتب))(٢٠٣).. هكذا بدأ سوق الناس.. ليحطبوا جميعاً في حبال الإمبريالية.. بدأ تحويلهم إلى (عبيد العصا).. ولتسهيل عملية التحويل هذه، أصبح القتل بالاشتباه «أسلوباً معتمداً»، لكن البداية لم تكن على هذا النحو، فقد تقاذفت أجهزة الأمن كرة اللهب بعد سبتمبر، فجاءت الإجراءات التي تطلق يد رئيس الدولة في الجانب الأمني لحدود غير مسبوقة، وجاء (باتريون أكت) كقانون يعطي صلاحيات أوسع لأجهزة الأمن الأمريكية في التنصت على الاتصالات واختراق شبكة (الانترنت) والاعتقال دون محاكمة وعقد المحاكم العسكرية.

ثم جاءت استراتيجية حماية الولايات المتحدة (يوليو٢٠٠٢) في مائة صفحة لتتحدث عن إنشاء وزارة للأمن الداخلي، وعن سلطات أوسع للرئيس، وعن قوانين جديدة لتبادل المجرمين إضافة لقوانين سرية أخرى لم يعلن عنها)(٢٠٤).. ولن يعلن عنها إلا بعد اكتمال الحكاية التي جاء فصلها الثاني (القتل بالاشتباه)، وهذا النوع من القتل عرفته محاكم التفتيش في العصور الوسطى.. وإلى أجواء هذه العصور عاد المواطن الأمريكي وقبل ((التجسس على حياته الخاصة واختراق خصوصيته التي طالما تغنى بها. في هذا المناخ بات الحديث عن حقوق الإنسان وما يجري في معتقل (جوانتانامو) ترفاً سياسياً، فهي كما قالت وزارة العدل الأمريكية (حالة حرب)(٢٠٥)، وحالة الحرب هذه.. هي من طبيعة الرأسمالية ولم تكن حالة-طارئة، وإنما هي قائمة وبأشكال مختلفة منذ ولادة البرجوازية.. غير أن المهم في مرحلتها الحالية برمجة الشعب الأمريكي على (أمرك سيدي) ولتكون هذه (الأمرك) خالصة لوجه الإمبريالية، كان: «(١١) مليون مخبر أمريكي مستهدفون، وبصمة للعين

وقياس للوجه تدخله بريطانيا في التعرف على هوية الأشخاص عام (٢٠٠٦) أمران يلفتان النظر، لكن الأكثر لفتاً للانتباه ما صدر كإعلان مدفوع في صحف (٢٠٠٢).. ((مطلوب عملاء)). إعلان توظف عادي نشرته المخابرات الأمريكية، وكانت الدول المستهدفة دول الشرق الأوسط. إنه تحالف الجواسيس.. من كل الجنسيات، والبعث من جديد لمهنة كنا نظن أن الحال قد تقدم بها تحت دعاوى الديموقراطية وحقوق الإنسان))(٢٠٦).. بل العكس صار تحت هذه الدعاوى، إذ عززت مهمة حبس الأنفاس والبطش وإزهاق الأرواح (حرباً- جوعاً)، كل ذلك تم في ظل ديكتاتورية الإمبريالية التي لم يعرف التاريخ أكثر خبثاً واستبداداً وتوحشاً منها. ((في عام ١٩٨٤ صعق العالم عندما سمع قول الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان بأنه يعتبر الاتحاد السوفياتي خارجاً عن القانون.. ربما كانت هذه الكلمات حينذاك تشبه النكتة أو تبدو بعيدة آلاف السنين الضوئية عن أقرب كوكب يتخيله العقل البشري.. ولكن.. حدث ما لم يتوقعه عقل،وانفرط عقد الاتحاد السوفياتي، ورأينا عصر أحادية القوة، عصراً تميز بالجموح الأمريكي ونزوعه نحو تكريس شريعة الغاب بدل تحوله إلى حكم عادل يسهم في تخفيض المعاناة البشرية في أصقاع العالم وأرجائه، وهذا ما يدفعنا إلى العودة للتاريخ لنستذكر محطات شكلت البدايات والبذور في تكوين السياسة الأمريكية القائمة على البطش والإرهاب ومنطق القوة (الغاية تبرر الوسيلة)، حتى تحول الحلم الذي حمله الرواد الأمريكيون بجعل الولايات المتحدة واحة للحرية في العالم إلى سراب، فأضحت أمريكا ذئباً بارز الأنياب متحفزاً للإنقضاض على الأبرياء.

من هذه المحطات.

- **كانون الأول ١٨٢٣:** تم الإعلان عن (مبدأ مونرو) الذي يقر حق الولايات المتحدة الأمريكية في سياسة التوسع في أمريكا اللاتينية.
- **آب ١٨٥٣:** أجبرت الأساطيل الأمريكية اليابان علىإقامة علاقات ديبلوماسية مع الولايات المتحدة.

- ١٨٥٥: قام المرتزقة الأمريكيون بقيادة (ولكر) بغزو نيكاراغوا واستولى (ولكر) على الرئاسة في ذلك البلد.
- شباط ١٨٩٣: فرضت الولايات المتحدة حمايتها على هاواي
- كانون الأول ١٨٩٨: تجاهلت الولايات المتحدة الأمريكية إعلان شعب الفيليبين استقلال بلادهم واشترت الفيليبين من اسبانيا التي هزمت في الحرب بمبلغ ٢٠ مليون دولار.
- ١٩٠١: القوات الأمريكية تقدم مساعدتها من أجل قمع انتفاضة البوكسريين الصينيين الذي حاولوا طرد الأجانب من الصين.
- ١٨٩٩- ١٩٠٢: احتلت الولايات المتحدة كوبا، على الرغم من إعلان استقلالها منذ عام ١٨٩٨.
- تشرين الثاني ١٩٠٣: فرضت الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها على منطقة قناة بنما.
- ١٩٠٩: نزلت القوات الأمريكية في نيكاراغوا واحتلت البلاد لعدة أهداف ونوايا واستمر الاحتلال حتى سنة ١٩٣٣.
- ١٩٣٤: رتبت المخابرات الأمريكية والقوى الرجعية المحلية في نيكاراغوا عملية اغتيال الجنرال (أوغستو سيزار) قائد الحركة المسلحة التي واجهت الأمريكيين الغزاة، وهو بطل وطني، وأقيمت على أثر ذلك ديكتاتورية (سوموزا) الموالي للأمريكيين والتي أطيح بها على يد الثورة الشعبية الساندينية عام ١٩٧٩.
- كانون الثاني ١٩٤٨: وافق الكونغروس الأمريكي على القرار رقم ٤٠٢ الذي أعطى الإدارة الأمريكية (الحق) في التأثير على الرأي العام في الدول الأخرى وفق أساليب مبرمجة.
- آب ١٩٤٨: وافقت واشنطن على التوجيه الإداري الصادر عن مجلس الأمن القومي الأمريكي (١/٢٠) والذي جاء فيه: أنه يوجد هدفان رئيسيان لواشنطن تجاه الاتحاد السوفياتي، الأول: هو الحد من قوة موسكو وتأثيرها.

والثاني: إحداث تغييرات في نظامه وسياساته الخارجية.

- آب ١٩٥٣: تمت الإطاحة بحكومة مصدق في إيران وبتدخل من الـ سي آي إيه.

- حزيران ١٩٥٤: تمت الإطاحة بحكومة (أربنز) الشرعية في غواتيمالا، نتيجة التدخل الأميركي المسلح في ذلك البلد.

- آذار ١٩٥٧: تم الإعلان عن مبدأ (ايزنهاور- دالاس) الذي يعطي الولايات المتحدة (الحق) في استخدام القوات المسلحة في الشرق الأوسط.

- أيار ١٩٥٨: قدمت الـ سي آي إيه، مساهمتها في توجيه عملية انقلاب عسكري ضد الحكومة الأندونيسية.

- نيسان ١٩٦١: نزل المرتزقة الأمريكيون في خليج كوشينوس في كوبا.

- آب ١٩٦٤: بدأت الطائرات الأمريكية بقصف جمهورية فيتنام الديموقراطية.

- نيسان ١٩٦٥: غزت القوات الأمريكية جمهورية الدومنيكان.

- أيلول ١٩٧٣: دعمت الـ سي آي إيه القوى الرجعية في تشيلي والتي أطاحت بحكومة الوحدة الشعبية هناك وأقامت بدلاً عنها ديكتاتورية فاشية عسكرية.

- آذار ١٩٨٠: بدأ تشكيل قوات التدخل السريع الأمريكية في الولايات المتحدة.

- نيسان ١٩٨٠: قامت الإدارة الأمريكية بعملية عسكرية ضد جمهورية إيران الإسلامية بحجة تحرير الرهائن.

- حزيران ١٩٨٢: أعلن الرئيس رونالد ريغان في لندن عن (حملته) المعادية للشيوعية.

- آب ١٩٨٢: نزلت القوات الأمريكية في لبنان.

- حزيران ١٩٨٤: وضعت الـ سي آي إيه، خططاً وحاولت تنفيذها في

اليونـان بهـدف التـشكيك في عمليـات التحويـل الديموقراطيـة الجاريـة هنـاك وإسقاط (حكومة باباندريو) وقد ساهمت القوى الرجعية هناك وبتحـريض مـن الـ سـي آي إيـه، في ذلـك عـبر سلـسلة مـن أعمـال الإرهـاب، ووقـع العديـد مـن الـديموقراطيين ضـحايا ذلـك، كمـا أن عـدداً مـن زعمـاء الحـزب الاشـتراكي كانوا عرضة للاعتداء في كافة أنحاء البلاد، وجرت محاولات عدة من أجل زعزعة الوضع السياسي في اليونان.

- حزيـران ١٩٨٤: خـلال مـؤتمر حـول الإرهـاب الـدولي عقـد في الولايـات المتحدة الأمريكية، وصـف منـدوبو البيت الأبيض الـدول الـتي تعـارض امـلاءات واشنطن بـ(الإرهابيين).

- في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات كانت قمة العدوان على العـراق، ومـن ثـم اسـتمر التكـتم الأمريكـي علـى إرهـاب الكيـان الـصهيوني في كـل أعمالـه الإرهابيـة، واسـتمر الإرهـاب إلى نهايـة التـسعينات بعـدوان جديـد علـى العراق، إلى أن نصل أخيراً وليس آخراً إلى ما يسمى بـ(مكافحة الإرهاب وشوي الفقراء من أجل الكلاب) ابتداءً بأفغانستان ومن ثم العراق ولا ندري بعد..

مـن كـلام ريغـان الـسابق نجـد أن سياسـة الإرهـاب تعتقـد أنهـا قـادرة علـى تحقيق المستحيل. ولكن سيعلم التاريخ أن استمرار الاحتلال واضطهاد الشعوب ليس سوى رصاصة ترغب باختراق الشمس))(٢٠٧).

وبكلام آخر: بلع الحق أن استمر بعض الوقت.. لن يستمر طول الوقت.

التـاريخ يقـول: التيـارات التحتيـة ستنتـصر في نهايـة المطـاف.. ستنتـصر بعـد تحطيمهـا ديكتاتوريـة الطبقـة البرجوازيـة المتوحشة، الـتي اسـتعبدت الطبقـة العاملة وسرقت عرقها وجهدها.. ومن أجل استمرار سرقتها هذه قبضت على:

- اللاهوت البروتستانتي.
- الميديا (كل وسائل الإعلام).
- الجيش والشرطة (كل وسائل القوة).

وبهذا المقبوض:

- قتلت الآخر وأسكتت صوته.
- سطت على الشعوب ونهبت ثرواتها.

باختصار: كل ما على هذا الكوكب من شرور، من مفرزات الإمبريالية التي صنّعت ديكتاتورية هي من التوحش بتناسب مع هذه المفرزات، التي ستكنسها يوماً الجماهير الشعبية لتقييم الديموقراطية الحقيقية.

هذا ما سنراه في الفصل التالي.

هوامش الفصل الثاني

1- ماركس- رأس المال- (١٠ اجزاء – رقم متسلسل)- ترجمة (محمد عيتاني- لجنة من الجامعيين) منشورات مكتبة المعارف (بيروت)- ص١١٢٤.

2- د. عبد الله الأشعل- الديموقراطية العربية- مجلة العربي (الكويت)- العدد/٥٥٣/٢٠٠٤- ص(٢٣- ٢٤).

3- تشومسكي- شرح الإرهاب الأمريكي- صحيفة المحرر العربي- العدد /٣٣٠/ ٢٠٠٢- ص١٠.

4- ماركس/ انجلس- مختارات في أربعة أجزاء (الجزء الأول)- دار التقدم (موسكو)- ص٥٤.

5- انجلس – الاشتراكية الطوباوي /والاشتراكية العلمية- دار التقدم (موسكو) –ص١٤.

6- المصدر السابق- ص١٦.

7- ماركس انجلس- منتخبات في ١٥ مجلداً (المجلد/١)- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٨- ص(١٩٧- ١٩٨).

8- كيللي كوفالزون- المادية التاريخية- ترجمة أحمد داوود- دار الجماهير (دمشق) – ص٣٥.

9- د. عبد الإله بلقزيز- العرب والحداثة- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٨٥/٢٠٠٤- ص(٨٦- ٨٧).

10- مروان عبد الرزاق- ماهي العولمة- مجلة الطريق (بيروت)- العدد الثالث/١٩٩٩- ص١٢.

11- كيللي/كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٢٨١.

12- إس. بورتيانيكوف- البلدان النامية- ترجمة: د.ماجد علاء الدين- مطبعة الكاتب العربي- ص١٧.

13- المصدر السابق- ص(١٨- ١٩).

14- المصدر السابق- ص١٤.

15- المصدر السابق- ص١٩.

16- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الثاني) – ترجمة: د. بدر الدين السباعي- دار الجماهير (دمشق)- ص(٥٥٥- ٥٥٦).

١٧- لينين- حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية- دار التقدم (موسكو)- ص(١٩٧- ١٩٩).
١٨- المصدر السابق- ص١٦٥.
١٩- ماركس / انجلس – منتخبات في ١٥ مجلداً (المجلد/١)- سبق ذكره- ص١٦.
٢٠- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول)- سبق ذكره- ص(٣٠٥- ٣٠٦).
٢١- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص(١٣٨- ١٣٩).
٢٢- ماركس/انجلس – منتخبات في ١٥ مجلداً (المجلد/١)- سبق ذكره- ص٢٢٤.
٢٣- حلمي شعرواي- ثقافة التحرر الوطني- مجلة الطريق (بيروت)- العدد السادس ١٩٩٨- ص٥.
٢٤- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص(٢٧٤- ٢٧٥).
٢٥- لينين- المختارات في ثلاثة مجلدات (المجلد/١- الجزء١)- دار التقدم (موسكو) ١٩٧٦- ص١٦٢.
٢٦- المصدر السابق- ص٨٥.
٢٧- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٤٤٥
٢٨- د. غوستان لوبون- حضارة العرب- ترجمة عادل زعيتر- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- ص٥٩١.
٢٩- المصدر السابق- ص٥٩٣.
٣٠- المصدر السابق- ص٥٩٣ الهامش .
٣١- هادي العلوي- شخصيات غير قلقة في الإسلام- دار الكنوز الأدبية (بيروت)- الطبعة الثانية ١٩٩٧- ص١٠٦.
٣٢- جواهر لال نهرو- قصة حياتي- ترجمة: مروان الجابري- المكتب التجاري للطباعة والنشر- الطبعة الأولى ١٩٥٩- ص(٢٣٥- ٢٣٦).
٣٣- المصدر السابق- ص٤٧٢.
٣٤- د. معجب الزهراني- نحن المسؤولون عن شلل اشتغال المعرفة – مجلة (الكويت)- العدد(١٨٩) ١٩٩٩- ص٥٨.
٣٥- أ.ر إيه بوكانان – الآلة قوة وسلطة- ترجمة شوقي جلال- عالم المعرفة

(الكويت) — طبعة ٢٠٠٠ — ص١٥٦.

٣٦- د. أنور عبد الملك- متى تحين لحظة الحوار..؟- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٢٠٠٢/٥١٩- ص١٠٣.

٣٧- ستيبانوفا — ماركس/ سيرة حياته- دار التقدم (موسكو)- الطبعة الرابعة ١٩٨٨- ص٢١٣.

٣٨- ماركس /انجلس/ لينين- بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٨- ص١٧٢.

٣٩- أنجوس ميتشيل —أضواء جديدة على قلب الظلام- ترجمة: تراجي فتحي — مجلة الثقافة العالمية (الكويت)- العدد /٢٠٠٠/١٠٢- ص٨٢.

٤٠- د. أحمد شلبي- مقارنة الأديان (المسيحية)- مكتبة النهضة المصرية — الطبعة العاشرة ١٩٩٣- ص١٦١/١٥٩.

٤١- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول) سبق ذكره — ص٧٥.

٤٢- كيللي /كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره —ص٤٨٥

٤٣- المصدر السابق- ص١٧٣.

٤٤- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (المجلد الثالث)- مركز دراسات الوحدة العربية- (بيروت)- طبعة ١٩٩٤- ص(١٥١٥/٩).

٤٥- المصدر السابق —ص(١٣٢٣/٨- ١٣٢٤/٨).

٤٦- ماركس/انجلس- منتخبات في ١٥ مجلداً (المجلد/١)- سبق ذكره- ص(٥٣- ٥٤).

٤٧- باربارا باومان/ بريجيتا أوبرله- عصور الأدب الألماني- ترجمة: د. هبة شريف/ مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي- عالم المعرفة (الكويت) — طبعة ٢٠٠٢- ص٩٣.

٤٨- ماركس- رأس المال- سبق ذكره- ص٨٩٦.

٤٩- المصدر السابق- ص٩٣٦.

٥٠- المصدر السابق- ص٩٣٦ الهامش.

٥١- د. نقولا زيادة- إيقاع على أوتار الزمن- كتاب العربي(٤٧)- (الكويت) الطبعة الأولى ٢٠٠٢- ص(١٠٨- ١٠٩).

٥٢- مروان عبد الرزاق- ما هي العولمة- مجلة الطريق (بيروت) العدد الثالث ١٩٩٩- ص١٤.

٥٣- ماركس انجلس- بصدد الدولة- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٦- ص٣٣٨.

٥٤- المصدر السابق- ص٣٤٥.

٥٥- باربارا باومان/ بريجيتا أوبرله- عصور الأدب الألماني- سبق ذكره ص١٠٤.

٥٦- ماركس- رأس المال- سبق ذكره- ص(١٠٦٥- ١٠٦٦).

٥٧- المصدر السابق- ص١٠٦٦ الهامش.

٥٨- د. عطية العقاد -تيار الوعي السياسي في المسرح الألماني- مجلة عالم الفكر (الكويت)- العدد /٤/ المجلد/٣٢/٢٠٠٤- ص٢٠٩.

٥٩- نبيل فوزات نوفل- أيها المفكرون العرب ترصدوا التوحش القادم من الشمال- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٨- ١٩) ٢٠٠٣- ص١٢٥.

٦٠- فرانسوا ميسي- من قتل باتريس لومومبا- ترجمة: رنا مأمون نجيب- مجلة الثقافة العالمية (الكويت)- العدد /١٠٢/٢٠٠٠- ص٦٧.

٦١- انجوس ميتشيل- أضواء جديدة على قلب الظلام- ترجمة تراجي فتحي- مجلة الثقافة العالمية (الكويت)- العدد/١٠٢/- ص٨٠.

٦٢- لورانس كوهين- أين الألم- ترجمة: د. إبراهيم البجلاتي- مراجعة: احمد خضر- مجلة الثقافة العالمية (الكويت)- العدد /١٠٢/٢٠٠٠- ص١٥٧.

٦٣- المصدر السابق- ص١٥٩.

٦٤- كيث وايتلام- اختلاق اسرائيل القديمة- ترجمة: سحر الهنيدي/مراجعة: د.فؤاد زكريا- عالم المعرفة (الكويت) طبعة ١٩٩٩- ص٣٤٣.

٦٥- عبد الوهاب محمود أطرش- الصهيونية/ من الخداع الإيديولوجي إلى الرؤية القاصرة- مجلة العربي (الكويت)- العدد/٥١٦/٢٠٠١- ص١٦٩.

٦٦- المصدر السابق، ص(١٦٨- ١٦٩).

٦٧- حسن حميد- الأدب العبري- عرض: د. ياسين الأيوبي- مجلة العربي (الكويت) — العدد /٥٥١/٢٠٠٤- ص١٨٤.

٦٨- المصدر السابق — ص١٨٥.

٦٩- د. عبد الوهاب المسيري- الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى- عرض: د: أحمد ثابت- مجلة قضايا استراتيجية- المركز العربي للدراسات الاستراتيجية- العدد /٧/٢٠٠١- ص(٢٠١- ٢٠٢).

٧٠- د. خلف محمد الجراد — أبعاد الاستهداف الأمريكي للعرب/ في الفكر والسياسة — مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٨- ١٩) ٢٠٠٣- ص٢٧.

٧١- المصدر السابق- ص٢٦.

٧٢- المصدر السابق- ص٢٦.

٧٣- المصدر السابق- ص(٢٩- ٣٠).

٧٤- المصدر السابق- ص٣٠.

٧٥- جان دزيد زيك/ تادوز والشنوفسكي- الأسرار والخفايا السياسية لحرب الأيام الستة- ترجمة: منصور أبو الحسن- دار علاء الدين- الطبعة الأولى ٢٠٠٢- ص٩١.

٧٦- المصدر السابق- ص٩٢.

٧٧- المصدر السابق- ص١٥١.

٧٨- حسن حميد- الأدب العبري- سبق ذكره- ص١٨٤.

٧٩- المصدر السابق- ص١٨٥.

٨٠- المصدر السابق- ١٨٤.

٨١- د. سامي الشيخ محمد- الصورة المتناقضة للإنسان في الحركة البروتستانتية الأوروبية- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٨- ١٩)٢٠٠٣- ص١٣٦.

٨٢- المصدر السابق- ص١٣٨.

٨٣- محمد سعيد طالب- حروب الولايات المتحدة الأمريكية الاستباقية – مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٨- ١٩) ٢٠٠٣- ص٧٥.

٨٤- المصدر السابق- ص٧٥.

٨٥- المصدر السابق- ص(٧٦- ٧٧).

٨٦- سلسلة دراسات مؤسسة الأرض (رقم٥)- استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة- بإشراف حبيب قهوجي (دمشق)- الطبعة الأولى ١٩٧٨ ص٣٦.

٨٧- د. آمال السُبكي- تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦- ١٩٧٩)- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ١٩٩٩- ص١١٥.

٨٨- د. مسعود ضاهر- النهضة العربية والنهضة اليابانية- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ١٩٩٩- ٢٢.

٨٩- كيللي/كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص (٢٩٩- ٣٠٠).

٩٠- د. جورج حنا – قصة الإنسان- دار العلم للملايين (بيروت) الطبعة الرابعة ١٩٦٣- ص٢٣٩.

٩١- عبد الكريم ناصيف- بالسلم وحده يحيا الإنسان- مجلة المعرفة

(دمشق)- العدد /٤٦١/٢٠٠٢- ص(١١- ١٢).

٩٢- بول كينيدي- تأملات في القرن الأمريكي التالي- ترجمة: عيسى سمعان- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدد السادس ١٩٩٩- ص١١٩.

٩٣- نون باء- أيها الهيكل العظمي ابتسم/ إنها الديموقراطية الأمريكية – صحيفة المحرر العربي- العدد/٣٣٦/٢٠٠٢ ص١٧.

٩٤- المصدر السابق- ص١٧.

٩٥- ماركس- رأس المال- سبق ذكره- ص(٤٩٩- ٥٠٠).

٩٦- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول) –سبق ذكره- ص٨٢.

٩٧- أسد عبيد- المجتمع المدني والدولة السياسية في الوطن العربي- مجلة الفكر السياسي (دمشق) العدد الثالث ١٩٩٨- ص٢٨٣.

٩٨- علاء اللامي –خرافة العنف العربي- مجلة دراسات عربية (بيروت) –العدد (٢/١) ١٩٩٩- ص٦٨.

٩٩- د. قسطنطين زريق – الأعمال الفكرية العامة (المجلد الثالث)- مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) طبعة ١٩٩٤- ص١٤٣٤/٩ الهامش.

١٠٠- جون ريلي- الأمريكيون والعالم/ نظرة شاملة على نهاية القرن- ترجمة: نافع أيوب لبسّ- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدد السابع ١٩٩٩- ص٧٣.

١٠١- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره- ص٣٧٥.

١٠٢- المصدر السابق- ص٤٨.

١٠٣- ارزومانيان- أزمة الرأسمالية العالمية في المرحلة الحالية- دار التقدم (موسكو)- ص١٨٣.

١٠٤- نهرو – قصة حياتي- سبق ذكره- ص٢٥٩.

١٠٥- ابن المقفع- كليلة ودمنة- دار المسيرة (بيروت) – الطبعة الرابعة ١٩٨١- ص٨٨.

١٠٦- المصدر السابق- ص١٧٧.

١٠٧- ماركس- رأس الملل- سبق ذكره- ص٨١٩.

١٠٨- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول)- سبق ذكره- ص٦١.

١٠٩- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (المجلد الرابع)- سبق

١٠٨- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول)- سبق ذكره- ص٦١.

١٠٩- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (المجلد الرابع)- سبق ذكره- ص١٨١٧.

١١٠- المصدر السابق- - ص١٨٣٣.

١١١- ستيبانوفا- ماركس/سيرة حياته- سبق ذكره- ص(٣٦٦- ٣٦٧).

١١٢- المصدر السابق- ص٣٦٧.

١١٣- ارزومانيان- أزمة الرأسمالية العالمية في المرحلة الحالية- سبق ذكره – ص١٧٥.

١١٤- د. عماد فوزي شعيبي- نقد أسطورة الديموقراطية- مجلة عالم الفكر (الكويت)- العدد/٣/ المجلد /٣٠/٢٠٠٢- ص٢٠٠.

١١٥- زبير سلطان قدوري –الإمبريالية الأمريكية أعلى أشكال الإرهاب- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٨- ١٩)٢٠٠٣- ص٨٥.

١١٦- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- عالم المعرفة (الكويت) –طبعة ٢٠٠٠- ص ٨٦ ص(٢٥- ٢٦).

١١٧- ارزمانيان- أزمة الرأسمالية العالمية في المرحلة الحالية –سبق ذكره ص(١٧٩- ١٨٠).

١١٨- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- سبق ذكره ص(٢٥- ٢٦).

١١٩- أحمد حيدر- القرن العشرون: عصر العدمية- مجلة المعرفة (دمشق) – العدد /٢٠٠٤/٤٩٣- ص٤٧.

١٢٠- مروان عبد الرزاق- ما هي العولمة- سبق ذكره- ص١٦.

١٢١- جيرمي سيبروك- ضحايا التنمية- عرض: د. فخري لبيب- مجلة العربي (الكويت) – العدد /١٩٩٩/٤٩٠- ص(٢٠٤- ٢٠٥).

١٢٢- اسماعيل ملحم- الذاكرة والتضليل الإعلامي- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٢٠٠٤/٤٨٤- (٢١٤- ٢١٥).

١٢٣- د. سليمان إبراهيم العسكري- حديث الشهر- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٢٠٠١/٥١٠- ص١١.

١٢٤- د. تهامي العبدولي – الاختلاف والتواصل- مجلة المعرفة (دمشق) – العدد

١٢٦- د. علي عقلة عرسان- مكانة الحوار الثقافي في بناء الحضارة- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدد السادس عشر/٢٠٠٢- ص١٥.

١٢٧- د. عبد الإله بلقزيز- العرب والحداثة- مجلة المعرفة (دمشق) –العدد /٤٨٥/٢٠٠٤- ص٩١.

١٢٨- نون باء- أيها الهيكل العظمي ابتسم- إنها الديموقراطية الأمريكية صحيفة المحرر العربي- العدد /٣٣٦/ ٢٠٠٢- ص١٦.

١٢٩- خالد حداد- صنع في الولايات المتحدة- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدد السادس عشر/٢٠٠٢- ص٢١٢.

١٣٠- المصدر السابق- ص٢١٣.

١٣١- د. عبد السلام إبراهيم البغدادي- المشكلات العربية- الإفريقية المعاصرة/ رؤية مستقبلية في ضوء وقائع الحاضر- مجلة قضايا استراتيجية – المركز العربي للدراسات الاستراتيجية- العدد/٦/٢٠٠١- ص١٤٧.

١٣٢- نون باء- كيف تحولت الملائكة إلى ... قاذفات قنابل- صحيفة المحرر العربي- العدد /٢٠٠٢/٣٣٣- ص٢٠.

١٣٣- ماركس /انجلس- مختارات في أربعة أجزاء (الجزء الأول) سبق ذكره- ص(٤٩- ٥٠).

١٣٤- د. سمير صارم- النفط العربي في الاستراتيجية الأمريكية- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدوان (١٨- ١٩)٢٠٠٣ص٦٦.

١٣٥- زبير سلطان قدوري- الإمبريالية الأمريكية أعلى أشكال الإرهاب- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٨- ١٩) ٢٠٠٣- ص٩٤.

١٣٦- د. خير الدين عبد الرحمن- هل العالم على أبواب حرب جديدة/باردة أو ساخنة – مجلة قضايا استراتيجية- المركز العربي للدراسات الاستراتيجية- العدد /٢٠٠١/٧- ص١٧٧.

١٣٧- د. سمير صارم –النفط العربي في الاستراتيجية الأمريكية- سبق ذكره- ص(٦٧- ٦٨).

١٣٨- أ. غروميكو/ أ.كوكو شين – الأخوة كينيدي – ترجمة: د. ماجد علاء الدين/ شحادة العبد المجيد- دار علاء الدين (دمشق)- الطبعة الأولى ١٩٨٦- ص٨٦.

١٣٩- المصدر السابق- ص٨٧.

١٤٠- المصدر السابق- ص٨٧.

١٤١- د. عيسى درويش- ملامح السياسة الأمريكية /والمستجدات الراهنة/ وآفاقها المستقبلية- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان(١١- ١٢) ٢٠٠١- ص٤١.

١٤٢- أ. غروميكو/ أ. كوكوشين- الأخوة كينيدي- سبق ذكره- ص٢٨.

١٤٣- جون كينيث جالبريث- تاريخ الفكر الاقتصادي/ الماضي صورة الحاضر- ترجمة: أحمد فؤاد بلبع- تقديم: إسماعيل صبري عبد الله- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠٠- ص١٤٤.

١٤٤- المصدر السابق- ص(١٥٠- ١٥١).

١٤٥- المصدر السابق- ص(١٥٣- ١٥٤).

١٤٦- سليمان مظهر- مصارع الطغاة- مجلة العربي (الكويت) – العدد /٥٤٥/٢٠٠٤- ص٦٥.

١٤٧- أ. غورميكو/ أ. كوكو شين- الأخوة كينيدي – سبق ذكره- ص٤٦.

١٤٨- د. سمير صارم- النفط العربي/ في الاستراتيجية الأمريكية – سبق ذكره- ص٦٦.

١٤٩- كنوت رويس/ ناتانشيل هيللير- تقرير لمركز السلامة العامة الأمريكي (CPI)- صحيفة المحرر العربي- العدد/٣٣٦/٢٠٠٢- ص٢٠.

١٥٠- المصدر السابق- ص٢٠.

١٥١- المصدر السابق- ص٢٠.

١٥٢- د. سمير صارم- النفط العربي / في الاستراتيجية الأمريكية- سبق ذكره- ص٦٧.

١٥٣- المصدر السابق- ص٦٧.

١٥٤- أ. غورميكو/ أ. كوكوشين- الأخوة كينيدي- سبق ذكره- ص٥٦.

١٥٥- المصدر السابق- ص٧٩.

١٥٦- المصدر السابق- ص٨٠.

١٥٧- المصدر السابق- ص٧٩.

١٥٨- المصدر السابق- ص٤١.

١٥٩- سمير الأيوبي- الميديا الأمريكية/ بين مطرقة التجارة وسندان الصحافة- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٤٨٦/ ١٩٩٩- ص٤١.

١٦٠- المصدر السابق- ص٣٩.

١٦١- د. سليمان إبراهيم العسكري- حديث الشهر/اعلام العولمة- مجلة العربي

(الكويت)- العدد/٥١٧/٢٠٠١- ص(١٠- ١١).

١٦٢- ماركس/ انجلس/ لينين، بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية- سبق ذكره- ص٧٥.

١٦٣- المصدر السابق- ص١٧٥.

١٦٤- حلمي شعراوي- ثقافة التحرير الوطني في ظروف العولمة- مجلة الطريق (بيروت)- العدد السادس ١٩٩٨- ص١٢.

١٦٥- أ. غروميكو/أ. كوكوشين- الأخوة كينيدي- سبق ذكره- ص٢٢١.

١٦٦- المصدر السابق- ص٢٢٢.

١٦٧- المصدر السابق- ص٢٢٢.

١٦٨- المصدر السابق- ص(٢٢٦- ٢٢٧).

١٦٩- المصدر السابق- ص٢٢٨.

١٧٠- المصدر السابق- ص(٢٨٦- ٢٨٧).

١٧١- المصدر السابق- ص٢٨٨.

١٧٢- المصدر السابق- ص٢٩٠.

١٧٣- المصدر السابق- ص٢٩١.

١٧٤- المصدر السابق- ص٢٧١.

١٧٥- المصدر السابق- ص٢٥٩.

١٧٦- المصدر السابق- ص٢٦٠.

١٧٧- المصدر السابق- ص٢٧٢.

١٧٨- المصدر السابق- ص(٢٩٩- ٣٠٠).

١٧٩- المصدر السابق- ص٢٧٣.

١٨٠- المصدر السابق- ص٢٧٢.

١٨١- المصدر السابق- ص٢٩٥.

١٨٢- المصدر السابق- ص٢٤٩.

١٨٣- قالوا- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٤٧٤/١٩٩٨- ص٦٧

١٨٤- ستيفن كليمونس- الولايات المتحدة إفراط في الجبروت- مجلة الطريق(بيروت)- العدد السادس ٢٠٠١- ص٢٦.

١٨٥- أحمد حسن الفقرة- العالم الجديد في المنظور الثوري- دار علاء الدين (دمشق) -الطبعة الأولى ٢٠٠٣- ص٢٤.

١٨٦- محمود المراغي- وراء قضبان أمريكية- مجلة العربي (الكويت)- العدد/٢٠٠١/٥١٧- ص٩٨.

١٨٧- أ. غورميكو/ أ.كوكوشين- الأخوة كيندي- سبق ذكره- ص٣٢٣.

١٨٨- عالم المخابرات- أكاديميون جواسيس.. داخل أمريكا وخارجها- صحيفة المحرر العربي- العدد/٢٠٠٣/٣٩٢- ص١٩.

١٨٩- د. علي أسعد وطفة- مكاشفات في خفايا النزعة الاجتماعية للتربية- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٢٠٠٤/٤٨٤- ص١٥١.

١٩٠- المصدر السابق- ص١٥١.

١٩١- المصدر السابق- ص١٥٢.

١٩٢- المصدر السابق- ص(١٥٩- ١٦٠).

١٩٣- المصدر السابق- ص(١٦٢- ١٦٣).

١٩٤- المصدر السابق- ص(١٦٣- ١٦٥).

١٩٥- المصدر السابق- ص١٦٥.

١٩٦- أ.غروميكو/أ. كوكوشين- الأخوة كينيدي- سبق ذكره ص٣١٨.

١٩٧- المصدر السابق- ص٣١٨.

١٩٨- عبد الوهاب محمود المصري- نظرات في التنمية- مجلة دراسات عربية (بيروت)- العدد (٩/١٠) ١٩٩٩- ص٢٨.

١٩٩- د، جورج حنا- قصة الإنسان- سبق ذكره- ص(٢٠٦- ٢٠٧).

٢٠٠- إ.س. بورتيانيكوف- البلدان النامية- سبق ذكره- ص(٢٥- ٢٦).

٢٠١- د. أنور عبد الملك- متى تحين لحظة الحوار- سبق ذكره ص(١٠٣).

٢٠٢- محمود المراغي- تحالف الجواسيس- مجلة العربي (الكويت)- العدد/٥٣٧)٢٠٠٣- ص(٩٦- ٩٧).

٢٠٣- المصدر السابق- ص٩٨.

٢٠٤- المصدر السابق- ص٩٨.

٢٠٥- المصدر السابق- ص٩٨.

٢٠٦- المصدر السابق- ص٩٩.

٢٠٧- سامح محمود زيدان شريعة الغاب وتاريخ الذئب الأمريكي- صحيفة المحرر العربي- العدد/٢٠٠٣/٣٩٠- ص٢٥.

الفصل الثالث

الديموقراطية الاشتراكية

«كان لينين يؤكد، في كلامه على المصادر الثلاثة للماركسية: أن الماركسية لم تنشأ خارج الطريق الأساسي لتطور البشرية، بل - بالعكس - جاءت بالأجوبة عن الأسئلة التي كانت تطرحها البشرية في كل العصور السابقة لنشوء الماركسية»(١).

الماركسية: أجابت على الأسئلة التي طرحتها العملية التاريخية، وبالطبع، كان إجابتها على (الديموقراطية).

في الفصلين السابقين كشفنا الغطاء عن هذه الأجوبة.. حيث كانت:

أولاً: الديموقراطية الحقيقية في المشاعة البدائية، تمثل هيكلها:

- صفات إنسانية حقيقية (عزّة - كرامة - نخوة - شهامة - حبّ - وفاء.. إلخ).
- تضامن وتعاون.
- عمل مشترك ودفاع مشترك.
- الشبع معاً أو الجوع معاً.
- الفرد للكل، والكل للفرد في إطار المصلحة العامة.

ثانياً: الديكتاتورية المستبدة في العبودية.. تمثل هيكلها:

- حكم الأرستقراطية الشعب ونهبه.
- منع الرأي الآخر، وقتل القائل به.
- تحويل منتجي الخيرات المادية إلى حيوانات مستأنسة.

- حروب طاحنة من أجل نهب الثروة ونهب البشر.
- تحويل شعوب بكاملها إلى عبيد.
- الاستمتاع بقتل البشر.
- برمجة اللاهوت على دعم هذا الاستبداد والتوحش.

ثالثاً: الديكتاتورية المستبدة في الإقطاع... تمثل هيكلها:

- الفلاح من ممتلكات الإقطاعي.
- عقل الفلاح من ممتلكات كهنة اللاهوت.
- عرق ودم الفلاح من ممتلكات (الإقطاعي – الكاهن).

وللحفاظ على هذه الخسّة كان:

- حرق البشر بالنار.
- دفن البشر أحياء.
- حرق الكتب لحرق الرأي الآخر.

رابعاً: الديكتاتورية المتوحشة في البرجوازية، تمثل هيكلها:

- استعباد الطبقة العاملة، وسرقة عرقها وجهدها...
- ومن أجل استمرار سرقتها هذه، قبضت على:
- اللاهوت البروتستانتي.
- الميديا (كل وسائل الإعلام).
- الجيش والشرطة (كل وسائل القوة).

وبهذا المقبوض:

- قتلت الآخر وأسكتت صوته.
- سطت على الشعوب ونهبت ثرواتها.

في (أولاً): سادت الملكية المشتركة، فأفرزت طبيعتها، الديموقراطية الحقيقية.

في (ثانياً وثالثاً ورابعاً)، سادت الملكية الخاصة، فأفرزت طبيعتها ديكتاتورية مستبدة لقهر ونهب الآخر، بتوحش ليس كمثله توحش، لفت هذا

نظر الإمام الشافعي، فعبّر عنه بشعر مشهور قال فيه:

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

يؤكد ما رآه الشافعي، شاهد عيان آخر، هو، د. محمد المخزنجي، حيث يقول:

«منذ تعرفت على الثعابين وأنا أتعجب للبشر. فعندما أخذني أبي، وأنا طفل، إلى حديقة الحيوان، لم يثر دهشتي شيء مثل الثعابين في بيت الزواحف، تشبث بذهني سؤال مشدوه عن تعايش الأفاعي معاً في تلك الأقفاص الزجاجية، ولماذا لا يلدغ بعضها بعضاً، ومعظمها مزوّد بأنياب سامة؟! لازمني السؤال سنوات عدّة حتى شغفت بعلم الإثولوجيا الذي يدرس سلوك الحيوان، ووجدت إجابة عن سؤالي القديم في حقيقة عامة لا تكاد تشوبها إلا استثناءات شاذة قليلة، وهذه الحقيقة تقول: إن الحيوانات من النوع الواحد لا تقتل بني جنسها. حتى عندما تتصارع بسبب الطعام أو مناطق النفوذ أو منافسات التناسل، لا تقتل، بل ينتهي تصارعها بحركات رمزية تعلن عن انسحاب الضعيف منها أمام القوي ولو إلى حين. فالذئب المستسلم يتدحرج على ظهره، والقرد المغلوب يشيح بنظره بعيداً، وعلى الفور يتوقف المهاجم، فماذا عن الثعابين؟ إنها ترْقص! ففي المكسيك التي يهوى أهلها مصارعة الثعابين، يدفعون ثعابينهم لتتواجه، وتبرق هجمات خاطفة من التراشق بالرؤوس الصغيرة، لكنها لا تنتهي أبداً باللدغ القاتل، فعندما يرى كل ثعبان قوة خصمه، يرقص الأضعف رقصة يحرص خلالها على كشف بطنه لغريمه، يتجاوب معها الغريم بالرقص، فيهبط المغلوب ويزحف متراجعاً إلى الخلف. صرت أحترم الثعابين وإن ظل خوفي منها قائماً، وحتى أحسم هذه الازدواجية، سارعت باقتناص فرصة سنحت لي في تايلاند، زرت مزرعة للزواحف تتيح للزائر ملامسة آمنة للثعابين، ولن أنسى – بعد قشعريرة اللمسات الأولى – ذلك التمسيد الرائع لانسياب جسم أفعى من نوع «البوا» العملاقة حملتها على كتفي وبين ذراعي لعشر دقائق كاملة. وستظل قصة الكاتب «وليم سارويان» التي تتغزل بثعبان يتدفأ على عشب الحديقة بأشعة

شمس وانية في نهار شتوي من أحبّ القصص العالمي إلى نفسي. الثعابين لا تقتل بني جنسها كما معظم المخلوقات.. أما الإنسان فهو قاتل لبني جنسه بامتياز. وإذا كانت مواجهات الخصوم المسلحين تمنطق القتل بمقولة إنني إن لم أفعل لقتلتني، فما الذي يبرر قتل المدنيين العزل من قبل المدججين بالسلاح؟! سواء كان هذا السلاح فئوس المسعورين في مذابح القرويين والرعاة التي لم تستثن حتى الرضع في الجزائر؟! أو طائرات الموت التي ضربت برجي مركز التجارة في نيويورك؟! مروراً بصواريخ ودبابات الجيش الإسرائيلي التي لا تكفّ عن تلطيخ وجه البشرية كلها بعمليات إبادة الفلسطينيين بتواطؤ مشهود ومنحط ممن يدعون التحضر في عالمنا؟! وانتهاءً – حتى لحظة كتابة هذه السطور – بالقاذفات الاستراتيجية التي تدفن الأطفال أحياءً في تراب أفغانستان؟! وميكروبات الجمرة التي يوزعها خفاش دموي مختبئ في الظلمة؟!

إنها وجوه متعدد لشيطان بشري واحد، لابد أنه ينفي عن ضحاياه صفة البشرية ليبيح لنفسه دماءهم، وهو نفي يحط بمصطنعية – أياً كانت ذريعتهم – إلى مرتبة الجحود بقدرة الخلق التي سوّت البشر بشراً. فهل أكون مخطئاً باحترامي للثعابين، واعتزازي بحمل «البوا» على كتفي، وتوقي لمشاهدة مصارعة الأفاعي في المكسيك؟!»(٢).

نعم: الحيوانات لا تقتل بني جنسها.. على هذا الخلق الكريم، كان الإنسان في المشاعة البدائية... كان يشبع معاً أو يجوع معاً في إطار من التعاون والتضامن... والسؤال!

- كيف تغير موقفه الرائع هذا..؟

الشيطان البشري – حسب د. محمد – الذي دفع الإنسان لقتل بني جنسه، أفرزته الملكية الخاصة التي أفرزت:

- قتل الرضع في الجزائر.
- قتل الرضع في أفغانستان.
- قتل الرضع في فلسطين.

- قتل الرضع في العراق.
- قتل الإنسان في كل مكان.

هذا القتل، جرى في إطار «حرب الجميع ضد الجميع»، التي روّعت محبيّ الإنسان الذين راحوا يفتشون عن طرق الخلاص منها، ولكن هذا لم يتحقق إلا بعد ظهور رجل من الألمان تمكّن من تشخيص الداء ووصف الدواء... هذا ما فعله ماركس في تحديده قوانين تطور العملية التاريخية وأسباب «حرب الجميع ضد الجميع».

ماركس: امتهن النضال بكل أشكاله من أجل تخليص الإنسان من براثن الطاغوت.. حيث يقول: «إذا اخترنا المهنة، التي يمكننا أن نكدح في إطارها لصالح الإنسانية على أفضل نحو، فإننا لن ننوء تحت وطئتها، لأن ذلك سيكون بمثابة تضحية في سبيل الجميع، ولن تراودنا عندئذ مشاعر السعادة التافهة والضيقة والأنانية، بل أن سعادتنا ستكون للملايين..»(٣).. ستكون للبشرية، عند خلاصها من بحر الشرّ الذي تغرق فيه... من أجل ذلك قالت الماركسية بالعودة إلى الملكية المشتركة التي تفرز طبيعتها الديموقراطية الحقيقية والسلم والأخوة بين الشعوب. يقول ماركس: «إن انتصار البروليتاريا على البرجوازية، يعني أيضاً التغلب على جميع النزاعات القومية والصناعية التي تولد العداوة بين الشعوب في الوقت الراهن. ولذلك فإن انتصار البروليتاريا على البرجوازية يعتبر في آن معاً الإشارة لتحرر كافة الأمم المظلومة»(٤)، وإذا ما حدث هذا – سيحدث – دُفن الاستعمار وطبقته المستغِلّة في مزبلة التاريخ... دُفن القهر والقمع (في الداخل والخارج)، وسادت الديموقراطية الحقيقية التي تعطي الشعب حق (حكم نفسه بنفسه) وتعطي الشعوب حق تقرير مصيرها... على هذا المحور تتحقق سعادة البشر بعد:

- رحيل الطبقة المستغِلّة.
- رحيل ديكتاتورية البروليتاريا بعد انتهاء مهمتها التاريخية.

هذا الرحيل يعني: قيام المجتمع الخالي من الطبقات.. الخالي من الصراع

الطبقي الذي حدّد ماركس إطاره في العملية التاريخية، واكتشف أن لا سبيل للخلاص منه إلا بالخلاص من الملكية الخاصة المستغِلّة: يقول ماركس: «وفيما يخصني ليس لي لا فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع المعاصر، ولا فضل اكتشاف الصراع فيما بينها. فقد سبقني بوقت طويل مؤرخون برجوازيون بسطوا التطور التاريخي لهذا الصراع بين الطبقات، واقتصاديون برجوازيون بسطوا تركيب الطبقات الاقتصادي. وإن الجديد الذي أعطيته يتلخص في إقامة البرهان على ما يأتي:

١- إن وجود الطبقات لا يقترن إلا بمراحل تاريخية معينة من تطور الإنتاج.

٢- إن الصراع الطبقي يفضي بالضرورة إلى ديكتاتورية البروليتاريا.

٣- إن هذه الديكتاتورية نفسها لا تعني غير الانتقال إلى القضاء على كل الطبقات وإلى المجتمع الخالي من الطبقات»(٥).. الخالي من الملكية الخاصة المستغِلّة التي تفرز القهر والقمع والتي يحدّدها ماركس، حيث يقول:

«إن الشيوعيين لا يرغبون بالقضاء على الملكية الشخصية المكتسبة بالعمل الشخصي، بل على تلك الملكية التي تتيح استغلال عمل الآخرين»(٦).. وعمل الآخرين هذا، سُرق منذ مجتمع الرّق.. وتراكمه سقط في قبضة البرجوازية، التي أصبحت به أكثر قدرة على الطغيان.. أكثر تقانة في فن السرقة.. أكثر متانة في ربطها العامل بعجلة توحشها.. يقول ماركس: «إن الغزو، والاستعباد، والاغتصاب المسلّح، والنهب، وسيطرة القوة الوحشية، هي التي كانت تتغلب دائماً، في أحداث التاريخ الواقعي وسجلاته. أما في مراجع الاقتصاد السياسي الودعة المتبتلة، فعلى العكس، فالحب الطاهر هو الذي كان ينتصر في كل آن، وحسب رأيها، لم يكن ثمة أبداً، باستثناء العام الحالي، وسائل أخرى للإثراء إلا العمل والحق. والواقع أن طرائق التجميع الأولي والتراكم الأولي هي كل ما نشاء، ما عدا كونها مادة للحبّ الطاهر والغزل البريء.

إن العلاقة الرسمية بين الرأسمالي والأجير هي ذات طابع تجاري بحت، وإذا كان الأوّل يقوم بدور السيد والثاني بدور الخادم، فذلك بفضل عقد لم يضع

هذا بواسطته نفسه فقط في خدمة ذاك، وبالتالي في حالة تبعية له، بل إنه تخلى فيه عن كل حق من حقوق الملكية على منتوجه ذاته. ولكن لماذا يعقد الشغيل المأجور هذه الصفقة..؟ ذلك لأنه لا يملك شيئاً سوى قوته الشخصية، أي العمل الذي ما يزال في حيّز القوة، حيز الإمكان enpuissance، على حين أن جميع الشروط الخارجية اللازمة لتجسيد القدرة وبَلْوَرَتها في جسم، أي المادة والأدوات الضرورية لممارسة العمل بصورة نافعة، والقدرة على التصرف بوسائل المعيشة التي لا غنى للمحافظة على القوة العاملة وتحويلها إلى حركة منتجة، إن هذا كله قائم في الجانب الآخر.

فثمة – إذن – في أساس النظام الرأسمالي، ثمة إذن في أعماقه، الانفصال الجذري بين المنتج ووسائل الإنتاج. وهذا الانفصال ينتج مجدداً على نطاق تدريجي متقدم، منذ أن يكون النظام الرأسمالي قد توطدت دعائمه. ولكن بما أن ذاك الانفصال يتكون على أساس هذا النظام، فهو لا يمكن أن يتوطد بدونه. ولكي يولد هذا النظام الرأسمالي، فيجب – إذن – وعلى الأقل بصورة جزئية، أن يكون قد جرى بالفعل انتزاع وسائل الإنتاج من المنتجين، دون أخذ ولا ردّ، أولئك المنتجين الذين كانوا يستخدمونها لتحقيق عملهم الخاص، ويجب أن تصبح هذه الوسائل الإنتاجية محصورة في أيدي المنتجين التجاريين، الذين يستخدمونها، من ناحيتهم، للمتاجرة بعمل الآخرين والمضاربة به. الحركة التاريخية التي تحقق الانفصال بين العمل وشروطه الخارجية، تلك هي – إذن – مفتاح السّر للتراكم المسمّى تراكماً أولياً، بسبب أنه يعود إلى العصر الما قبل التاريخي للعالم البرجوازي.

لقد خرج النظام الاقتصادي الرأسمالي من أحشاء النظام الاقتصادي الإقطاعي، وانحلال أحدهما أدّى إلى انبثاق العناصر التكوينية للثاني.

أما الشغيل المنتج المباشر فلكي يستطيع التصرف بشخصه ذاته، فكان يلزمه أولاً أن يكف عن كونه مرتبطاً بملكية الإقطاعي، أو أن يكون إقطاعاً لشخص آخر، وكذلك ما كان يستطيع أن يغدو بائعاً حراً للعمل،

حاملاً بضاعته إلى حيث تجد سوقاً لها، إلا بعد تحرره من نظام «طوائف الحرف» Corporations، مع جماعات رؤساء الحرف فيها (أو شيوخ الكار Chefsdemaitrises) ووكلاء الطوائف Jurandes، وقوانين التدريب أو التمرين Ioisd`apprentissage، إلخ. إن الحركة التاريخية التي تحوّل المنتجين إلى مأجورين، تظهر – إذن – بوصفها تحرير لهم من القنانة، ومن التسلسل الصناعي التدريجي Iahierarachie industrielle. ومن الجهة الأخرى، فهؤلاء المحرّرون لا يصبحون بائعين لأشخاصهم إلا بعد أن يصير تجريدهم من جميع وسائل الإنتاج التي كانت بين أيديهم، ومن جميع ضمانات الحياة التي كان يقدمها لهم النظام القديم. وليس تاريخ نزع ملكيتهم مادة للحدس والتخمين: إنه مدوّن في سجلات تاريخ البشرية بأحرف خالدة من دم ونار.

أما الرأسماليون أصحاب المشروعات، هؤلاء السلاطين الجدد أصحاب الحكم المطلق، فقد كان عليهم ليس فقط أن يخلعوا رؤساء الحرف، بل كان عليهم أيضاً أن يخلعوا المتملكين الإقطاعيين لمصادر الثروة. ومن هذه الناحية يظهر استيلاء الرأسماليين على الحكم، بمثابة نتيجة لمعركة ظافرة ضد سلطة السادة النبلاء، مع امتيازاتها المثيرة، وضد النظام الطوائفي والعوائق التي يضعها في طريق التطور الحر للإنتاج، واستثمار الإنسان على نحو حر. ولكن فرسان الصناعة الأشراف لم يخلفوا فرسان السيف الأشراف إلا باستغلالهم لأحداث لا يدلهم فيها. لقد وصلوا بوساطة وسائل تماثل في دناءتها تلك التي استخدمها الرقيق الروماني المحرّر Affranchi romain لكي يصبح سيّداً لسيّده.

إن مجموع التطور، المشتمل معاً على عملية نشوء العامل المأجور والرأسمالي، له نقطة انطلاق هي استعباد الشغيلة، والتقدم الذي يحققه إنما يقوم في تغيير شكل الاستعباد، وإفساح المجال لتطور الاستثمار الإقطاعي إلى استثمار رأسمالي. ولكي يفهم القارئ سير هذا التطور، لا يتحتم علينا الرجوع إلى عهد موغل جداً في القدم. ورغم أن الصيغ الأولية الأولى للإنتاج الرأسمالي

وارتساماته البدائية قد حدثت في عهد مبكر، في بعض مدن حوض المتوسط، فإن العهد الرأسمالي لا يعود تاريخه إلا إلى القرن السادس عشر. وحيث ينبت هذا الإنتاج، يكون إلغاء نظام القنانة قد أصبح أمراً واقعاً منذ زمن طويل، ونظام المدن المسيطرة، وهو مفخرة القرون الوسطى، قد أصبح في أوج تدهوره.

وفي تاريخ التراكم البدائي، تؤلف جميع الثورات التي تخدم بمثابة رافعة التقدم للطبقة الرأسمالية الآخذة في التكون، تؤلف جميع هذه الثورات أحداثاً بارزة كبرى، وخصوصاً تلك التي بتجريدها جماهير واسعة من وسائلها الإنتاجية والوسائل التقليدية لمعيشتها، تلقيها بغتة في سوق العمل. ولكن أساس هذا التحول كله هو نزع ملكية الزراعيين، وهذا لم يتحقق بعد تحققاً تاماً جذرياً إلا في إنكلترا: إذن فسوف تقوم هذه البلاد بالدور الأول في الصورة الأولية التي سوف تقدمها. ولكن، جميع بلدان أوروبة الغربية الأخرى تجتاز الحركة نفسها، وإن كان اللون المحلي لهذه الحركة يتغير تبعاً لكل بيئة، أو أن هذه الحركة تنضغط في دائرة أضيق، أو تعرض طابعاً أقل بروزاً ووضوحاً، أو تتبع ترتيباً مختلفاً»(٧).

أجل: الرأسمال تجاوز طغيان ما سبقه من طبقات نهابة، بعد أن:

- قبض على كامل العمل البشري في العملية التاريخية.
- قبض على وسائل الإنتاج.

قبْضه هذا، قبض على حقوق الشغيلة في ملكية إنتاجهم... من هنا، كان إحكامه استعبادهم بعد أن ملك لقمة عيشهم.

إن نزع ملكية وسائل الإنتاج من المنتجين، واحتكار الرأسمال لها، رفع مرتبة طغيان هذا الرأسمال إلى مرتبة (طاغ طاغ)... بعد أن ملك حق الحياة والموت... يقول شكسبير في مسرحيته تاجر البندقية: «إذا سلبتني الوسائل التي أعيش بوساطتها، فإنك تسلبني حياتي»(٨)... هذا ما فعله الرأسمال بالضبط، لكن – والحق يقال – قال لمن لا يريد أن تسلب حياته، قدّم القيمة الزائدة المطلوبة تبقى حيّاً (لا ترزق).

قرار الرأسمال هذا شكل ديكتاتورية البرجوازية الأقسى والأشدّ فظاعة في التاريخ... والأنكى من ذلك، خسّة نقابة النهابين التي تقلب المعادلة... فتجعل الرأسمالية «ديموقراطية» والاشتراكية «ديكتاتورية» تصادر الملكية الخاصة.. والسؤال!

– أية ملكية تصادر الاشتراكية..؟

الاشتراكية تصادر ما جمع من حرام... ولا تصادر ما جمع من حلال... من عرق الجبين، الذي تصادره البرجوازية بعد أن قبضت على حق العامل في ملكية منتوجة... بل وأدخلت هذا العامل محبسها بحكم أبدي.. يقول ماركس: «إن أسلوب الإنتاج والتراكم الرأسمالي، وبالتالي الملكية الخاصة الرأسمالية، يفترضان مسبقاً، إزالة الملكية الخاصة المؤسسة على العمل الشخصي، وأساسها هو نزع ملكية الشغيل»(٩).

نزع ملكية الشغيل، شكل حجر الأساس في ديكتاتورية البرجوازية التي عبدت الطريق لتشبّ الرأسمالية عن الطوق بعد أن أصبح في خدمتها:

– جيش من العمال، مُقيّد بسلاسل غير مرئية، لكنها متينة.

– قيمة زائدة، تنسف بطرق غير مرئية، لكنها حقيقة موضوعية من رحم العنف هذا، كان «نشوء الشروط الضرورية لولادة الرأسمالية، هذا هو مضمون العملية التي أسميت التراكم البدائي. وقد كتب ماركس يقول: «ليس التراكم البدائي إلا العملية التاريخية التي فصلت المنتج عن وسائل الإنتاج» وإن هذه العملية تؤلف مقدمة تاريخ الرأسمال. وقد تحقق التراكم البدائي للرأسمال بشكله النموذجي الأعلى في إنكلترا، فقد أخذ الملاكون العقاريون الإنكليز (لاندلوردز Iandiords- أسياد الأرض) يستولون على أراضي المشاعيات الفلاحية، بل أنهم راحوا يطردون الفلاحين من بيوتهم. وشرع الملاكون العقاريون يحوّلون الأرض التي انتزعوها بالقوة من الفلاحين إلى مراعٍ للأغنام ويؤجرونها للمزارعين؛ خصوصاً وأن الطلب على صوف الأغنام كان كبيراً جداً من قبل صناعة النسيج بسبيل التطور.

واستخدمت البرجوازية الناشئة طرائق تعسفية كاستهلاك أراضي الدولة، ونهب أملاك الكنيسة، وتحولت جماعات غفيرة من الأفراد ممن حرموا وسائل العيش، إلى متشردين ومتسولين وقطاع الطرق. وضد الناس المنهوبين الذين يحاولون الدفاع عن ملكيتهم، سنت سلطة الدولة قوانين قاسية أسميت في إنجلترا، مثلاً «القوانين الدموية». وبواسطة التعذيب والسوط، والكي بالحديد المحمّى، كان الناس المسلوبون يرسلون بالقوة إلى المؤسسات الرأسمالية.

كان لتجريد الفلاحين من أراضيهم نتيجة مزدوجة: من جهة، أصبحت الأرض ملكاً خاصاً لعدد ضئيل نسبياً من الأفراد، ومن جهة أخرى، تأمين تدفق العمال الأحرار إلى الصناعة، وهكذا تكوّن أول شرط ضروري لولادة الرأسمالية: وجود جمهور من غير المالكين، الأحرار شخصياً، ولكنهم المحرومون في الوقت نفسه من وسائل الإنتاج»(١٠).. حرمانهم هذه الوسائل أسقطهم سقوطاً حراً في مطحنة الرأسمال، وبالتالي، سقط المجتمع برمته في قبضة ديكتاتورية متوحشة تبرمج كل شيء فيه على تحقيق النهب الأكبر.. للخروج من أتون هذه الديكتاتورية لابدّ من القضاء على نظام:

- القلة المالكة كل شيء.
- الكثرة الفاقدة كل شيء.

.. أي القضاء على الرأسمالية، «إن لينين يعطي عنها تعريفاً بسيطاً وواضحاً. فقد كتب يقول: «يطلق اسم الرأسمالية على تنظيم للمجتمع تخص فيه الأرض والمصانع والأدوات، إلخ... عدداً قليلاً من ملاكي الأراضي ومن الرأسماليين، بينما الجماهير الشعبية لا تملك شيئاً أو تكاد لا تملك شيئاً، ويترتب عليها بالتالي أن تؤجر نفسها للعمل»(١١)، وتأجير نفسها خلق:

- تراكم الثروة عند مستأجريها.
- تراكم جوعها وإملاقها.

هذا التضاد بين طرفي المعادلة، يحتاج إلى استبداد (طاغ طاغ) للتعتيم عليه، وتمرير خسته في قهر المنتجين ونهب عملهم.. يقول ماركس: «إن العمال المنتجين

جميعاً:

١- يقدمون الأموال لتدفع إلى الشغيلة الذين يقومون بعمل غير إنتاجي، كما: ٢- يقدمون المنتجات المستهلكة من قبل الذين لا يقومون بأي عمل» ويشير ماركس قائلاً: «ولكن أن تصير عاملاً منتجاً، فتلك هي التعاسة». إن العامل المنتج هو العامل الذي ينتج الثروة للآخرين»(١٢)، وينتج في الوقت نفسه ومع تطور الآلة، ضياع فرص عمل لطبقته، ويرمي بنسبة معينة منها على قارعة الطريق، وترتفع هذه النسبة مع تحسن أدوات الإنتاج وتزايد السكان وتشكل ما سمّوه بـ (فائض السكان)، يقول ماركس: «إن الناس الشغيلة، إذ يوجدون تراكم الرسمال، يوجدون، بهذا ذاته، الوسائل التي تخلق بينهم سكاناً فائضين نسبياً وبمقادير متزايدة»(١٣)، هنا، تساءل النهابون... ما العمل؟

تزايد (فائض السكان)، يغيّر ميزان القوى في ملعب الصراع الطبقي، وبالتالي، تصبح البرجوازية في مهب الريح.. لكي لا يحدث هذا.. قرّر «الديمقراطيون» تصدير البشر «ديموقراطياً» تماماً كتصدير البضائع. وقد «أطلق السياسيون والسوسيولوجيون الإمبرياليون على هذه العناصر اسم الفائض البشري: تحدث رودس (تشمبرلن، بلفور.. إلخ) عن تهجير مثل هذه العناصر البشرية «الفائضة» في المجتمعات الأوروبية «البيضاء»، وعن إعادة توظيفها ثانية في مجتمعات ما وراء البحر «الملونة»، بحيث يستفاد من هذا الحل، إمبريالياً، على شكل فائدة مركبة، أضعاف الثورة في البلد الاستعماري نفسه، والارتقاء الطبقي من حيث هم يشكلون فئات اجتماعية مسيطرة في الأقطار الجديدة التي هاجروا إليها، وربط مصالحهم الجديدة بالسياسية الإمبريالية لأقطارهم كذلك»(١٤).

(فائض السكان) بعد أن حقق للرأسمالية تراكم الثروة في الداخل.. صُدّر إلى الخارج للهدف ذاته... أي الهدف في الداخل والخارج، هو النّهب، وسرقة الناس أرزاقهم «وينطبق هذا تماماً مع منطق «الرأسمالية المتوحشة»، ذلك أنها بالأساس، نظام تحكمه الربحية، ولا يهتم بالشأن الاجتماعي والاستثمار

المنتج»(١٥)... أي لا يهتم إلا بالنهب كما هي طبيعته، لهذا سقط من رحم هذه الطبيعة المتوحشة «٣٥٨ مليار ديراً يمتلكون معاً ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة، أي أنها تضاهي مجموع ما يملكه نصف سكان العالم»(١٦).

يا إلهي!!

٣٥٨ شخصاً تضاهي ملكيتهم مجموع ما يملكه (٣٠٠٠) مليون تقريباً... وهذا يدل على حجم النهب الكبير... الذي يحتاج بدوره إلى حجم من الديكتاتورية يناسبه فظاعة وخسّة.

كل هذا حدث نتيجة وسائل الإنتاج التي سطا عليها النهابون ووظفوها في خدمة نهبهم: «وبدلاً من أن تقوم الآلة والمواد الحديثة على خدمة الإنسان روحاً وجسداً، قامت على خدمة الصناعة كرأسمال وتجارة، وعلى خدمة المدينة بوصفها مجالاً لحركة السيارة ووسائل النقل السريعة والضخمة، ثم بوصفها مقراً للمصانع والتجارة»(١٧).

قيام الآلة هكذا، جرى بإرادة القابض عليها... بإرادة الرأسمالي الذي لا يهمه سوى النهب، يقول ماركس: «إن الآلة كآلة، تقلص زمن العمل، في حين يؤدي استخدامها الرأسمالي إلى إطالة يوم العمل؛ إنها كآلة تخفف أعباء العمل، في حين يؤدي استخدامها الرأسمالي إلى زيادة شدته؛ إنها كآلة، تشير إلى ظفر الإنسان على قوى الطبيعة، في حين يؤدي استخدامها الرأسمالي إلى استعباد الإنسان من قبل قوى الطبيعة؛ إنها كآلة، تزيد في ثروة المنتج، في حين يحوّل استخدامها الرأسمالي هذا المنتج إلى فقير بائس»(١٨)... تحوّل المنتج هكذا، لتحوّل إنتاجه إلى كرش الرأسمالي... هذه مصيبة، لكن، الأعظم منها، عندما تطرد الآلة المنتج لتحلّ محلّه.

بول كينيدي (ابن الرأسمالية البّار)، لم يجد مفراً من القول أمام محكمة التاريخ: «بعد قرنين، نجد أنفسنا ربما على تخم تغيّر جديد ثوري في أسلوب الإنتاج الصناعي هذه المرّة، لم يولد في بريطانيا، بل في اليابان وأفضى إلى طرد

الكائنات البشرية من المصنع ليحل محلهم حواسيب آلية وتجهيزات أخرى مؤتمتة.

خلال مائتي عام، تغيّرت الصناعة والتجمّع من عدة وجوه إنما، أياً كانت تجديدات تايلر وفورد، أو إنتاج «بوقت محدد»، كان القصد أبداً أساساً جمع كائنات بشرية في مكان عمل ذاته، ونحن اليوم شهود ثورة تكنولوجية تقطع مع ذلك التطور، فباستبدال العمال بالحواسيب الآلية لزيادة الإنتاجية، تستبعد الأتمتة أكثر فأكثر الكائنات البشرية من المعمل لكي لا يبقى فيه سوى بعض المهندسين المكلفين ربما بالسهر على النشاط، إن أدرك هذا الهدف، سنكمل دورة تامة. «أقنان» النهج الصناعي الذي كانت شروطه تخيف بل تروع المراقبين الأجانب، في إنكلترا في العام ١٨٢٠، حلّ محلهم أخيراً حواسيب آلية»(١٩) إذن: تطور وسائل الإنتاج في النظام الرأسمالي، يحقق:

- السعادة للكسالى الساقطين.
- التعاسة لمنتجي الخيرات المادية.

هذه المعادلة، تعكس محتوى «الديموقراطية» التي يتشدق بها الرأسماليون وبها بالذات تقوم ديكتاتورية تجويع الإنسان وقطع لقمة عيشه، «ومهما كان الحال، فبالنسبة لهؤلاء العاملين في مجال نظم المعلومات بكل جد وإخلاص وبأجور زهيدة، قد بدأت السماء بالنسبة لهم تتلبد، إذ أخذ زميل آخر ينافسهم على نحو متنام وأكثر رخصاً: إنه الكمبيوتر الذي لا قدرة لهم على مصارعته والانتصار عليه. فالمطلعون على بواطن الأمور في هذا القطاع من قبيل كارل شميتس Karl Schmitz من مؤسسة: Gesllchaft fuer technologie beratung und systementw icklung، يرون أن العمل البشري في قطاع برامج الكمبيوتر، «ظاهرة مؤقتة»، حتى إن كان زهيد الأجر.

فالتوسع في إنتاج البرامج الجاهزة والتقدم في تطوير لغات جديدة في كتابة البرامج سيؤدي قريباً، حسب رأيه إلى ألاّ تكون هناك حاجة إلى العمل البشري إلا بالكاد، وأن استخدام الأجهزة الجديدة سيمكن مبرمجاً واحداً في

المستقبل من تأدية ما ينجزه اليوم مائة من زملائه»(٢٠)، وبكلام آخر: سيقوم مبرمج واحد بإسقاط مائة من زملائه في صقر نتيجة لتطور الآلة الذي حقق:

- مزيداً من الإنتاج للطاغوت، هذا أولاً.
- مزيداً من الإملاق للشغيلة، هذا ثانياً.

وعلى قاعدة (أولاً وثانياً) يتشكل ميدان العلاقات الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي الذي تسوده ديكتاتورية الطبقة البرجوازية القابضة على كامل الاقتصاد في هذا المجتمع: «إن الاقتصاد القائم على الجدارة العالية والتكنولوجية المتقدمة يتسبب، عن طريق إعادة الهيكلة والتخلص من التعقيد والروتين وما يتبع ذلك تقليص في فرص العمل وتسريح للأيدي العاملة، في تفاقم البطالة وفي خفض عدد المستهلكين في مجتمع الرفاهية، وبالتالي فقد لاحت في الأفق بوادر هزة اقتصادية واجتماعية يصعب التكهن بمدى خطرها الآن. فسواء تعلق الأمر بإنتاج السيارات أو أجهزة الكمبيوتر أو بصناعة المواد الكيماوية أو الأجهزة الإلكترونية، أو بشبكة الاتصالات الهاتفية أو بالخدمات البريدية، أو بتجارة التجزئة أو بالاقتصاد المالي: نعم سواء تعلق الأمر بهذه أو بتلك، فإن الحال واحدة، وهي أنه حيثما تجري المتاجرة بالبضائع والخدمات عبر الحدود الدولية بكل حرية، تعصف بالعمال، بلا هوادة على ما يبدو، زوبعة هوجاء تتمثل في فقدان العمل البشري لقيمته وفي ترشيد يقضي على فرص العمل.

ففي الشطر الغربي من ألمانيا ضاع في القطاع الصناعي في الفترة الواقعة بين عام ١٩٩١ وعام ١٩٩٤، أي في ثلاث سنوات فقط، ما يزيد على مليون فرصة عمل»(٢١)... وبمعنى آخر: إن تطور الآلة وهي في قبضة الرأسمال، يبعث بالشغيلة إلى جحيم الجوع والإملاق، يقول ماركس: «فبسبب أن الآلة، وهي انتصار الإنسان على القوى الطبيعية، تصبح بين الأيدي الرأسمالية أداة استعباد هذه القوى نفسها للإنسان، وذلك لأنها، وهي الوسيلة التي لا تخطئ لتقصير مدة العمل اليومي، تعود فتطيلة بين الأيدي الرأسمالية. وذلك لأنها، وهي العصا

السحرية لزيادة ثروة المنتج، تفقره حين تكون بين يدي الرأسمالي»(٢٢).

أقول: البرجوازية بعد أن فصلت المنتجين عن وسائل إنتاجهم:

- اكتمل إطارها الطبقي.

وباكتمال إطارها هذا:

- اكتمل الإطار الطبقي لمن تستخدمهم.

ومن تستخدمهم سلبت حريتهم، بعد أن حكمت عليهم بالعمل لديها بما يسدّ الرمق... حكمها هذا، جوهر «ديموقراطيتها».

نعم: جوهر «ديموقراطية» البرجوازية، إعطاء الشغيلة – الذين لم يطردوا بعد – من إنتاجهم ما يسكت جوعهم ونهب الباقي... نهب ما سمّاه ماركس (القيمة الزائدة)... ومن أجل استمرار نهب هذه القيمة... استمرت ديكتاتورية البرجوازية الطاغية... والسؤال الذي يثور الآن!

- ما هي القيمة الزائدة...؟

القيمة الزائدة، هي، العمل المسروق. «إن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج تخلق أساس علاقات الإنتاج في ظل الرأسمالية، وتتيح للرأسماليين استثمار الطبقة العاملة، وإخضاع كل تطور الإنتاج لأجل إثرائهم، وابتزاز الأرباح، ولهذا كان إنتاج القيمة الزائدة قانوناً اقتصادياً موضوعياً من قوانين الرأسمالية..»(٢٣)... وحجر الزاوية في العمارة البرجوازية الذي ارتكز عليه كل حجارة النهب الأخرى، وإنها – أي القيمة الزائدة – شكلت نقطة المركز في ثروة النهابين على طول مسار العملية التاريخية، «فقد كان على الطبقة المضطهَدة، في جميع الأزمان، أن تقدم عملاً لا يُدفع ثمنه»(٢٤)... أي سُرق منها نسبة من عملها وسقط في سهم (الأسياد)... هذه السرقة تحدث عنها ابن خلدون بمفاهيم عصره ومعارف زمانه... حيث قال: «في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها.

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدرها يكون الأثر، فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة، فإنما تكون

على نسبة قوة الدولة في أصلها، لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه، فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرّعايا، كان الفعلة كثيرين جداً، وحُشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله»(٢٥).

ما تفسير قول ابن خلدون..؟

الدولة...: هي الطبقة الأرستقراطية.

الفعلة...: هم الطبقة العاملة.

بقدر ما يُحشر من الفعلة – العمال – للعمل، بقدر ما يشكل العمل غير المدفوع الثمن قوة الدولة... قوة الطبقة الأرستقراطية. ومع نشوء الرأسمالية... أخذت المؤسسات الصناعية تحشر الفَعَلة – قوى الإنتاج – من أجل نسف العمل غير المدفوع الثمن الذي شكل لاحقاً قوة الاحتكارات التي تقود النظام الرأسمالي. يقول ماركس: «إن زيادة أحجام المؤسسات الصناعية يستخدم، في كل مكان، نقطة انطلاق، لتحويل عمليات الإنتاج الروتينية الإفرادية، تحويلاً متسارعاً، إلى عمليات منظمة اجتماعياً وموجهة علمياً»(٢٦)... تحويلاً متسارعاً متصاعداً تتسارع وتتصاعد معه القيمة الزائدة وفق سلسلة هندسية. «إن تجديد الإنتاج الرأسمالي يشمل تجديد إنتاج الشروط المادية لحياة المجتمع الرأسمالي، وتجديد إنتاج العلاقات الإنتاجية الرأسمالية، ويعتبر إنتاج الخيرات المادية، التي لا يستطيع الناس العيش من دونها أساس حياة المجتمع الرأسمالي وأي مجتمع آخر. إلا أن الهدف المباشر والسبب المحرك للإنتاج في المجتمع الرأسمالي ليس هو سد حاجات الناس، وبالتالي، ليس هو إنتاج هذه الخيرات المادية أو تلك، بل إنتاج فضل القيمة التي يحوزها الرأسماليون»(٢٧)... هنا، حطّ الجمّال... في الرأسمالية يبرمج كل شيء على إنتاج فضل القيمة... أي أن الديموقراطية في مفهوم الرأسمالية هي إنتاج هذه القيمة التي تتخم بها كروش اللصوص... يقول ماركس: «إن تراكم الثروة في جانب يعني، في الوقت نفسه، تراكماً للبؤس، وآلام العمل، والعبودية، والجهل، والتوحش والانحلال الخلقي في الجانب

الآخر، أي في صفوف الطبقة التي تنتج منتوجها الخاص كرسمال»(٢٨).

... وبعبارة أخرى... يسرق اللصوص منتوجها الخاص لتحويله كرسمال... وهذا يعني أن الرأسمال بعضه على بعض من مال حرام... من ملكية خاصة تشكلت من نطفة حرام.

ماركس درس هذا الوضع القائم في المجتمع الفاسد – حسب تعبير روسو – فوجد أن لا خروج منه إلا بالعودة للملكية المشتركة التي تفرز الديمقراطية الحقيقية، ومن أجل ذلك صاغ القوانين الماركسية الموضوعية وجعل منها (مرشداً للعمل)، وذات قدرة غير محدودة على استيعاب ما تلد الحياة من جديد... من هنا، كان استمرار شبابها وكان استمرار إجاباتها على كل ما تطرحه الحياة من تساؤلات... إجاباتها هذه على ما تقوم به الإمبريالية في هذه المرحلة التاريخية أثبت بشكل قاطع صحتها وسلامتها. «إن الماركسية، ليست مجملاً، من عقائد جامدة متحجرة، تعطي أجوبة في جميع أحوال الحياة، بل تتسم بطابع خلاق، وتتطلب موقفاً خلاقاً من كل حالة بعينها، في كل وضع بعينه. وفي الوقت نفسه، بينت العملية التاريخية ثبات ورسوخ الموضوعات الجذرية في النظرية الماركسية – اللينية، كما بينت الأهمية الكلية لطريقتها الديالكتيكية المادية.

وقد انتقد ماركس وانجلس انتقاداً ماحقاً أولئك النظريين الذين استعاضوا عن تحليل العلاقات الاجتماعية تحليلاً موضوعياً بالاختلاقات التأملية. وطلبا من رفاقهما في الفكر، ومن الأحزاب الاشتراكية معاملة النظرية معاملة خلاقة ومعرفة تطبيق الماركسية في الظروف الملموسة، وتعميم الظاهرات الجديدة في الحياة. كذلك انطلق ماركس وانجلس من أنه يجب تصور التطوير الخلاق، لا كخطوة في معزل عن النظرية العلمية، بل كخطوة إلى الأمام في ميدان العلم، وأنه يجب أن يجري في هذا التطوير حسب المبادئ الأساسية للشيوعية العلمية وليس بتحاشيها، كما يجب أن يجري، بالطبع، على صلة وثيقة لا تنفصم عراها بالممارسة، بالتجربة التاريخية.

وفضلاً عن التعليل العلمي لحتمية هلاك الرأسمالية، تتضمن مؤلفات ماركس وانجلس جملة من تنبؤات نظرية بالغة الشأن عن طابع المجتمع المقبل وسماته. وقد أكد لينين: «إن ماركس براء كلياً من الطوباوية، بمعنى أنه لا يختلق، لا يتخيل مجتمعاً «جديداً». كلا، إنه يدرس، كما يدرس مجرى التاريخ الطبيعي، ولادة المجتمع الجديد من القديم، وأشكال الانتقال من هذا إلى ذاك»(٢٩)، وفق قوانين علمية، تتميز عن تلك التي تحكم المادة بتدخل وعي الإنسان وتحركه مداً وجزراً في إطارها، لهذا، جاءت مرنة تتعامل مع هذا المدّ والجزر بصورة خلاقة، لبرمجته في نهاية المطاف على خلاص البشرية من آلامها... وعلى هذا الدرب كان مسار التاريخ، «فالمسألة، إذن، أن التاريخ لم يحسم قضية التطابق الفعلي بين الطموح البشري الديموقراطي ومفهومه، وبين الممارسات العملية، لأنه – أي التاريخ – ترك أمر الحسم إلى تلك القوانين التي تحكم تصرفه، وإلى ما يكمن في طبيعة هذه القوانين من مرونة التحرك مع النسبي والخصوصي، رغم انضباطيتها وموضوعيتها وشموليتها المطلقة.

ومعنى مرونة التحرك مع النسبي والخصوصي هنا هو أن قوانين حركة التاريخ لا تفعل فعلها في المجتمعات البشرية بمعزل عن نوع من التدخل الواعي من البشر... أي من الطبقات والفئات الاجتماعية ذات العلاقة الأصلية في نتاج ما تفعله قوانين الحركة التاريخية – سلباً كان ذلك أن إيجاباً..

ولقانون التناقض، أحد هذه القوانين الموضوعية الشمولية، موقع الشاهد الدائم على هذه الحقيقة، فهو رغم موضوعيته وشموليته، يفترض تدخلاً ما من الطبقات والفئات ذات العلاقة بالتناقض الاجتماعي، في مجتمع معين بخصوصه، لكي يؤدي هذا القانون دوره في العملية التاريخية نحو الإيجاب أو السلب.

غير أن الأمر المهم في موضوعنا، أن عامل التدخل البشري في دور قانون التناقض هذا، يتوقف فعله الإيجابي، في العملية التاريخية، على مدى الممارسة الديموقراطية في ساحة الصراع بين أطراف التناقض»(٣٠)، وفي ساحة هذا

الصراع، ترمي نقابة النهابين بكل أسلحتها للقبض على الكرة دون عوائق... وللقبض هكذا تعرقل حركة قانون التناقض في ساحة التطور الديموقراطي السلمي... بل وتلجأ إلى العنف ضدّ الآخر، لضبط مسار العملية التاريخية في إطار مصلحتها الطبقية... هذا ما يحكيه تاريخ الصراع الطبقي، وما يحكيه «هو الطبيعة الطبقية لكل من القوى الاجتماعية الداخلية في إطار التناقض الاجتماعي، أي طبيعة الموقع الذي يحتله كل منها في عملية النشاط الاجتماعي، والإنتاجي بخاصة... فليس من الطبيعي، إذن، أن تختار الديموقراطية قوى اجتماعية تدرك – بحسها الطبقي – أن موقعها، كطبقة أو كفئة، لا يقوى على البقاء في ساحة الصراع السلمي الديموقراطي، دون اهتزاز، أو تصدع أو انهيار... لذلك يكون من طبائع الأمور أن تختار هذه القوى الطبقية أو الفئوية، موقف العداء للديموقراطية وللصراع السلمي الديموقراطي، وقد تبالغ بهذا العداء، حين يميل ميزان الصراع السلمي الديموقراطي هذا نحو الكفة الأخرى النقيض، فتلجأ إلى المغامرة الخطرة باستخدام القمع والعنف، حتى الفاشية...

لكن هذه القوى نفسها يعوزها الإدراك – مع ذلك – أن اختيارها العداء للأسلوب السلمي الديموقراطي، في حلبة الصراع الاجتماعي الطبقي، ليس هو الأسلوب الأمثل لها هي ذاتها، أي أن هذا الاختيار ليس هو الضمانة لوقاية موقعها ووقاية مصالحها الطبقية من خطر الاهتزاز، ثم التصدع، ثم الانهيار، ولا هو الضمانة لتأجيل هذا المصير... ذلك لأن قانون التناقض قانون صارم، مهما يكمن فيه من مرونة التحرك مع النسبي والخصوصي... وصرامته آتية من طبيعة كونه متلازماً مع قانون التطور الاجتماعي، ذلك الحاكم على قانون لحركة المجتمع والطبيعة والفكر جميعاً، حكماً مطلقاً لا مرد له، ولا مهرب منه»(٣١)... حكماً ينهي التناقض، لظهور المجتمع الخالي من الطبقات.

هذا ما قالته الماركسية في قوانينها المرشدة للعمل.

الطبقة النهابة في روسيا القيصرية وعلى رأسها القيصر... كانت تدرك

الحقيقة الموضوعية لقانون التناقض، ولحبسه في سهمها:

- زرعت الرّعب والقهر والقمع في المجتمع.

الاشتراكيون: أدركوا أهمية الوعي الطبقي في توجيه قانون التناقض، لذلك:

- كثفوا نضالهم لرفع وعي الجماهير الطبقي.

في هذا الصراع، اشتد خبط القيصر، واشتد إدراك لينين إلى أن القيصر لا يقبل التطور الديموقراطي السلمي... ولابدّ من مواجهة قوته بالقوة أيضاً... وهكذا كان... كان الثورة البلشفية في أكتوبر ١٩١٧... وكان أول تجربة اشتراكية على هذا الكوكب ولدت الاتحاد السوفييتي... في هذه المرحلة التاريخية أصبحت الاشتراكية قوة في ملعب الصراع الطبقي على مستوى كوني... ووفق إفرازات طبيعتها، كانت خطوتها الأولى، البدء في القضاء على صراع الطبقات والحروب لبناء الاشتراكية التي تحقق بسط الحق والعدل بين الناس فتتحقق العزة والكرامة جوهر الديموقراطية الحقيقية... يقول لينين: «ندرك الصلة الحتمية التي تربط بين الحروب والنضال الطبقي في داخل البلاد، وندرك أنه يستحيل القضاء على الحروب دون القضاء على الطبقات ودون إقامة الاشتراكية»(٣٢)، للقضاء على اللصوص تجار الحروب، يقول لينين: «إن الشعوب التي ناضلت في أكثر الأحيان، في مرحلة ١٧٨٩ – ١٨٧١، في طليعة الشعوب الأخرى من أجل الحرية، قد تحولت الآن، بعد ١٨٧٦، على أساس رأسمالية عالية التطور «ومفرطة النضوج»، إلى مضطهدة ومستعبدة لأغلبية سكان الكرة الأرضية وأممها. فمن ١٨٧٦ إلى ١٩١٤ اغتصبت ست دول «كبرى» ٢٥ مليون كيلو متر مربع، أي ما يعادل مساحة أوروبا كلها مرتين ونصف المرّة! واستعبدت ست دول أكثر من نصف مليار (٥٢٣ مليوناً) نسمة من سكان المستعمرات، وكل ٤ من سكان الدول «الكبرى» يقابلهم ٥ في مستعمرا «تها».. ويعلم الجميع أن المستعمرات قد فتحت بالحديد والنار، وإن سكان المستعمرات يعاملون معاملة وحشية؛ وأنهم يستثمرون بألف وسيلة

ووسيلة (بتصدير الرساميل)، وبالامتيازات، إلخ..؛ بخداعهم أثناء بيع البضائع منهم، بإخضاعهم لسلطات الأمة «السائدة»، وهكذا دواليك). إن البرجوازية الأنجلو – فرنسية تخدع الشعب حين تزعم أنها تخوض الحرب في سبيل حرية الشعوب وحرية بلجيكا، بينا هي في الواقع تخوض الحرب حفاظاً على المستعمرات التي تجاوزت في سرقتها كل حد. ولو أن الإنجليز والفرنسيين قسموا مستعمراتهم «بحق الله» بينهم وبين الإمبرياليين الألمان، لكان هؤلاء حرروا بلجيكا وإلخ. في الحال، والطابع الأصيل الذي يميز الوضع، هو أنه في هذه الحرب يتقرر مصير المستعمرات عن طريق الحرب في القارة الأوروبية. ومن وجهة نظر العدالة البرجوازية والحرية الوطنية البرجوازية (أو حق الأمم في الوجود)، كان الحق، بلا قيد ولا شرط، إلى جانب ألمانيا ضد إنجلترا وفرنسا، لأن ألمانيا قد «هضم حقها» في تقاسم المستعمرات، وأعداؤها يضطهدون من الأمم أكثر بما لا يقاس مما تضطهده هي، وعند حليفتها النمسا. نرى السلاف المضطهدين يتمتعون بلا مراء بحرية أكبر مما في روسيا القيصرية التي هي حقاً «سجن الشعوب»، غير أن ألمانيا، من جهتها، تخوض الحرب، لا لتحرير الأمم، بل لاضطهادها، ولا يليق بالاشتراكيين أن يساعدوا لصاً أفتى وأقوى (ألمانيا) على نهب لصوص أكبر سناً وأكثر شعباً... إنما يتعين على الاشتراكيين أن يستغلوا الحرب التي يخوضها اللصوص بعضهم ضد بعض، من أجل إسقاطهم كلهم»(٣٣) في صقر، عندئذ تتحرر الشعوب ويصبح من حقها تقرير مصيرها. وهذا بالضبط ما دعت إليه الماركسية، يقول لينين: «وكل اشتراكي في أمة استعمارية أو تملك مستعمرات، لا يدافع عن هذا الحق، هو شوفيني. إن الدفاع عن هذا الحق لا يشجع على تشكيل دول صغيرة، بل يؤدي، بالعكس، على أن تتشكل بصورة أوفر حرية، ودون أية خشية، وبالتالي، بصورة أوسع وأرحب، دول كبرى ومحالفات بين الدول، هي أجدى للجماهير وأكثر ملاءمة للتطور الاقتصادي. وعلى اشتراكيي الأمم المضطهدة بدورهم أن يناضلوا من كل بد في سبيل الوحدة التامة (بما فيها الوحدة التنظيمية) بين

عمال الأمم المضطهدة والأمم المضطهدة.

إن فكرة انفصال أمة عن أخرى انفصالاً حقوقياً (وهو ما يسمى «الاستقلال الذاتي الثقافي القومي» الذي يقول به باوروريتر) هي فكرة رجعية.

إن الإمبريالية هي عهد اضطهاد أمم العالم بأسره بصورة متزايدة من قبل حفنة من الدول «الكبرى»، وعليه فإن النضال في سبيل الثورة العالمية الاشتراكية ضد الإمبريالية يستحيل دون الاعتراف بحق الأمم في تقرير مصيرها. «إن الشعب الذي يضطهد شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حراً» (ماركس وانجلس). ولا يمكن أن تكون اشتراكية تلك البروليتاريا التي تقبل أقل عمل من أعمال العنف ترتكبه «أمتها» ضد الأمم الأخرى»(٣٤).

ما تقدم يقول:

- الإمبريالية في حرب دائمة على الأمم لاستعبادها، وخطف ما بيدها، هذا أولاً.

ضد هذا الموقف اللصوصي للإمبريالية تقف الاشتراكية، من أجل:

- القضاء على الإمبريالية للقضاء على كل الشرور وإقامة السلام والعدل، هذا ثانياً.

(أولاً) يقول بفصاحة:

- إن ديكتاتورية متوحشة يفرزها النظام الرأسمالي.

(ثانياً) يقول بفصاحة أكثر:

- إن ديموقراطية حقيقية يفرزها النظام الاشتراكي.

التضاد بين (أولاً وثانياً) يجري في ملعب قانون التناقض وفي هذا الملعب، استطاع لينين من تلقف الكرة لصالح الاشتراكية... فأفرزت هذه الاشتراكية ما يرغبه الإنسان من اطمئنان على حياته... هكذا يحكي التاريخ... والسؤال!

- ماذا في التاريخ...؟

«في ٢٦ أكتوبر الأول – ٨ نوفمبر – تشرين الثاني» ١٩١٧، أي في اليوم الثاني بعد انتقال السلطة في روسيا إلى العمال والفلاحين، صادق مؤتمر

السوفييتات لعامة روسيا، بموجب تقرير من لينين، على مرسوم السلام الذي توجه إلى شعوب وحكومات جميع البلدان المتحاربة، بعرض عقد هدنة على الفور وبالشروع بمفاوضات الصلح. وقد نقل اللاسلكي هذا المرسوم إلى الجميع.. إلى الجميع حقاً وفعلاً.

كانت الحرب العالمية الدامية في عامها الرابع... وكانت حربا بين زمرتين متعاديتين من الاستعماريين على إعادة تقاسم المستعمرات ومناطق النفوذ. للعام الرابع، هلك ملايين الناس في ميادين القتال في روسيا وفرنسا، وألمانيا، والنمسا – المجر، وتركيا وإيطاليا، وتداعى اقتصاد البلدان المتحاربة، وتدهور الإنتاج، وتناقصت المنتوجات الغذائية، وشبت المجاعة. وبلغت مصائب الناس البسطاء مقاييس رهيبة مريعة، واستحوذت على الجميع – الروس والألمان والفرنسيين والإيطاليين والبريطانيين، وجميع الشعوب المجرورة إلى الحرب، رغبة جامحة واحدة: وضع حدٍ للحرب المكروهة، وإقرار السلام. وهذه الإرادة، إرادة الشعوب، هي التي أفصح عنها مرسوم السلام اللينيني.

ففي مرسوم السلام، أعلنت الحكومة السوفييتية أنها تعتبر مواصلة الحرب «أفدح جريمة ضد البشرية»، وإن هذه الحرب تخاض لمعرفة «كيف تتقاسم الأمم القوية والفتية فيما بينها الأقوام الضعيفة التي اغتصبتها»، وعرضت الحكومة السوفييتية على جميع الشعوب المتحاربة عقد صلح ديموقراطي عادل على الفور، أي صلح بدون الحاقات، بدون استيلاء على أراضي الغير، بدون ضم الشعوب الضعيفة بالقوة، بدون غرامات، وأعلنت الحكومة السوفييتية في الوقت نفسه أنها لا تتقدم بشروطها من باب الإنذار، وأنها مستعدة للنظر في أي شروط أخرى للصلح تتقدم بها أية دولة من الدول المتحاربة. وقد وردت في مرسوم السلام الموضوعات الأساسية لسياسة التعايش السلمي التي غدت، لأول مرة في التاريخ، سياسة للدولة معلنة رسمياً ومطبقة بدأب وانسجام. وأبلغ مرسوم السلام جميع الشعوب والحكومات إن الدولة الاشتراكية التي تشكلت للتو لا تقف في جانب الحرب، بل تقف في جانب السلام، في جانب

سلام وطيد طويل الأمد، وأنه ليس لديها ولا يمكن أن يكون لديها أي أهداف عدوانية اغتصابية. وأنها تعادي بلا هوادة كل سياسة الحاقية اغتصابية، وأنها تعتبر الحروب الدائرة لأجل الاستيلاء على أراضي الشعوب الضعيفة، جريمة، وإنها تقترح العدول عن الدبلوماسية السرية، لأن في المعاهدات السرية، أي المخفية عن الشعوب، في هذه المعاهدات على وجه الضبط، تثبت صفقات النّهب بصدد الاستيلاء على الشعوب الأخرى، وإن الحكومة السوفيتية هي أول حكومة تضرب المثل، فتلقي الدبلوماسية السرية التي عقدتها الحكومتان القيصرية والموقتة «ملغاة بلا قيد ولا شرط وعلى الفور، وتشرع بنشر المعاهدات السرية.

وهكذا صيغت في أول عمل دولي قامت به الدولة السوفييتية المبادئ الديموقراطية والسلمية لسياستها الخارجية.

فأي موقف وقفته حكومات الدول الاستعمارية من مرسوم السلام الذي عرض مخرجاً من الحرب العالمية، واقعياً تماماً وغاية في البساطة والإنسانية، ويضع حداً لعذابات الشعوب؟

لم ترد بشيء على نداء الحكومة السوفييتية، وواصلت الحرب. فإن استعماريي بريطانيا وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة ما كانوا يرغبون في الحديث عن السلام، لأنهم لم يكونوا بعد قد انتهوا من جدالهم الذي كان يكلف سيولاً من الدماء البشرية، لمعرفة أي من المستعمرات الأفريقية ستملكها ألمانيا، وأي منها ستملكها فرنسا وبريطانيا، لمعرفة من ستخضع له شعوب الشرق الأدنى: أضراب كروب الألمان أم أضراب ارمسترونغ وروكفلر البريطانيين الفرنسيين الأميركيين، كانت مصالح الاستعماريين الكلية الجبروت، تتطلب مواصلة الحرب. كانت مصالح الاستعماريين تعارض مصالح الشعوب»(٣٥)، ولا تزال وستبقى تعارضها ما دام الرأسمال حيّاً يرزق من حرام... ومن أجل هذا الحرام، كانت الحرب وكانت روسيا القيصرية شريكة فيها... يقول لينين «إن الحرب أمر رهيب، ولكنها، مع هذا تدر الربح على

الرأسماليين بشكل لا يتصور»(٣٦)، ولمثل هذا الذي لا يتصور... حشر الرأسماليون البشرية في أتون الحرب. روسيا القيصرية كانت من الحاشرين... وما أن سقطت نقابة النهابين فيها وقامت السلطة الاشتراكية... حتى قلبت المعادلة 180 درجة حيث أفرزت الاشتراكية:

- مرسوم السلام والخروج من الحرب.
- رفض اغتصاب أراضي الشعوب.
- حق الشعوب في تقرير مصيرها.
- كشف المعاهدات السرية.
- إلغاء الدبلوماسية السرية.

إفراز الاشتراكية هذا، جوهر الديموقراطية الحقيقية التي يحلم بها بنو البشر... وفي أول خطوة عملية برهنت الاشتراكية عن أصالة معدنها «فقامت الثورة البلشفية وخرجت روسيا من الحرب ضد ألمانيا موقعة معها معاهدة برست – ليتفسك (Treatyofbrest- alito VSK) العام ١٩١٨»(٣٧).

خرج البلاشفة من الصراع الطبقي، فخرجوا من الحرب... خروجهم هكذا ما كان ليكون لولا تدمير طغيان الرأسمال وبناء المجتمع الجديد، يقول ماركس: «إن مجتمعاً جديداً سيكون مبدأه الأممي السلم، لأن حاكماً واحداً، هو العمل، سيكون لكل شعب، ينبثق على النقيض من المجتمع القديم ببؤسه الاقتصادي وجنونه السياسي»(٣٨).

أقول: الوعي الطبقي قابلة توليد الجديد من القديم... توليد الديموقراطية من الديكتاتورية... هذا ما حدث في روسيا ١٩١٧... حيث ولد الجديد... ولدت الاشتراكية، فولد العدل والسلم جوهر الديموقراطية الحقيقية... على هذا المحور، قال لينين بحزم بعد الثورة البلشفية في خطابه أمام مؤتمر الأسطول الحربي لعامة روسيا (٢٢ تشرين الثاني – نوفمبر (٥ كانون الأول – ديسمبر) ١٩١٧: «أنتقل إلى مسألة الحرب، لقد بدأناه نضالاً حازماً ضد الحرب التي أثارها تصادم الضواري سعياً وراء الغنيمة، وعلى هذا النضال، تكلمت حتى

الآن جميع الأحزاب، ولكنها لم تمض إلى أبعد من الأقوال والنفاق. إن النضال من أجل السلام قد بدأ اليوم. وهذا النضال صعب. ومن كان يظن أن من السهل بلوغ السلام، وإنه يكفي مجرد التلميح إلى السلام حتى تحمله إلينا البرجوازية على طبق، إنما هو إنسان ساذج تماماً. أما من نسب هذه النظرة إلى البلاشفة، فقد كان كاذباً، فإن الرأسماليين قد أخذوا بخناق بعضهم بعضاً لكي يتقاسموا الغنيمة. وواضح أن إلغاء الحرب يعني التغلب على الرأسمال، وبهذا المعنى، بدأت السلطة السوفييتية النضال، لقد نشرنا وسوف ننشر المعاهدات السرية. أن أي حقد أو أي افتراء لن يوقفنا في هذا الطريق. إن السادة البرجوازيين يرغون ويزبدون لأن الشعب يرى لأي غرض ساقوه إلى المجزرة. وهم يخوفون البلد باحتمال حرب جديدة تكون فيها روسيا معزولة. ولكن ذلك الكره الضاري الذي تكنه البرجوازية لنا ولحركتنا من أجل السلام لن يوقفنا. فلتحاول أن تسوق الشعوب بعضها ضد بعض للسنة الرابعة من الحرب! فإنها لن تتوفق في هذا، فليس عندنا وحسب، بل أيضاً في جميع البلدان المتحاربة ينضج النضال ضد حكوماتها الاستعمارية، وحتى في ألمانيا التي حاول الاستعماريون عشرات السنين تحويلها إلى معسكر حربي، وحيث كل الجهاز الحكومي موجه نحو قطع دابر أقل ظاهرة من ظواهر الاستياء الشعبي في مهدها بالذات، حتى هناك، بلغ الأمر حد الانتفاضة السافرة في الأسطول. ينبغي للمرء أن يعرف إلى أي درجة لم يسمع بمثلها من قبل بلغ التعسف البوليسي في ألمانيا حتى يدرك أهمية هذه الانتفاضة. ولكن الثورة لا تجري حسب الطلب، فالثورة تظهر نتيجة لتفجر استياء الجماهير الشعبية. وإذا كان من السهل جداً التغلب على حفنة من الناس الحقراء، المجانين، أمثال رومانوف وراسبوتين، فإنه من الأصعب بما لا يقاس النضال ضد الزمرة المنظمة والقوية من الاستعماريين الألمان المتوجين وغير المتوجين. ولكنه يمكن ويجب العمل يداً بيد مع طبقة الكادحين الثورية في جميع البلدان. وفي هذا السبيل انخرطت الحكومة السوفييتية عندما نشرت المعاهدات السرية وبينت أن حكام جميع

البلدان هم من اللصوص. وهذه دعاية بالأفعال لا بالأقوال»(٣٩)، حكام جميع البلدان من اللصوص، من هنا، تأتي صعوبة النضال ضدهم لخروجهم على القانون... وتأتي صعوبة النضال من أجل السلام مقبرة اللصوص... فالنضال من أجل السلام... يعني النضال ضد الحرب، وبالتالي، النضال ضد الرأسمال ولصوصه.

على هذا المفصل من الصعب الشاق، قرّرت الاشتراكية ليس النضال من أجل السلام وحسب... بل كشفت المعاهدات السرية فكشفت الحكام اللصوص أمام شعوبهم والشعوب المغلوبة على أمرها... على هذا الدرب من النبل فتحت الاشتراكية ذراعيها للتعاون والتضامن في إطار علاقات متساوية مع الجميع. «إن علاقات التعاون الاقتصادية القائمة على المنفعة المتبادلة، تكونت أيضاً بين الاتحاد السوفييتي وإيران، ولقد بدأت هذه العلاقة منذ اللحظة التي ألغت فيها ثورة أكتوبر الاشتراكية الاتفاقية غير العادلة بحق إيران من قبل السلطة القيصرية. ولقد أعادت السلطة السوفييتية المناطق الغنية بالنفط بطوعية كاملة، وكذلك مصائد الأسماك، والطرق الحديدية التي كانت تحت سيطرة القيصر»(٤٠).

اللصوص سرقوا... الاشتراكية أعادت ما سرقوا:

- أعادت النفط ومصائد الأسماك.
- أعادت الطرق الحديدية.
- أعادت كل ما سُرق من الشعب الإيراني إلى الشعب الإيراني.

وفق هذا الخلق الاشتراكي النبيل، رُسمت السياسة الاشتراكية، كما تفرزها طبيعة هذه الاشتراكية على قاعدة (لكل ذي حق حقه)، لهذا نادت «الثورة بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة كانت، والمساواة والمنفعة المتبادلة في العلاقات القائمة بين الدول وأعلنت السلطة السوفييتية بمبادرة من ف.أ. لينين عن «الابتعاد الكلي عن السياسة الظالمة للحضارة البرجوازية، التي تقوم بتأمين رفاهية المستغلين في بعض الجنسيات المختارة،

ويكون هذا على حساب ملايين الكادحين من السكان في آسيا، والمستعمرات بشكل عام». ومن أجل تثبيت هذا، فضحت الاتفاقات السرية بخصوص تقسيم العالم بين الإمبرياليين وإبطال مفعول جميع هذه المؤامرات، وقدمت المساعدات لشعوب الشرق في النضال العادل ضد الكولونيالية»(٤١)... وبكلام آخر: قدمت المساعدات للشعوب في نضالها العادل ضد الديكتاتورية وبلع الحق... هذا الموقف الديموقراطي للاشتراكية جعلها في تضاد 180 درجة مع حلفاء الأمس... بل كشفت لؤمهم، وحرضت المسروقة أرزاقهم عليهم... حيث «أعلن الاتحاد السوفييتي الحليف السابق لبريطانيا إبان الحرب معارضته أيضاً للمعاهدة البريطانية – الإيرانية (١٩١٩)، ووجه نداء إلى عمال وفلاحي إيران أعلن فيه عدم اعترافه بالمعاهدة التي تستعبد الشعب الإيراني، وتسيطر على موارده برغم إرادته»(٤٢)، أي تسيطر على موارده بالسوط والعصا.

السلطة السوفييتية، قرّرت قطع السوط وكسر العصا، لتنعم الشعوب بخيراتها، ولم يكن هذا وحسب... بل تأكيداً لموقفها الديموقراطي الحقيقي هذا، نددت بالاتفاقات التي عقدها القيصر لاستعباد الشعب الإيراني الذي تأكد «من أن استقلال بلاده بلا مضمون فعلي، نظراً لاعتراف الملك أحمد شاه القاجاراي عام ١٩١٤ بالاتفاق الودي لعام ١٩٠٧ بين بريطانيا وروسيا الذي ظل سرياً عن الشاه لمدة خمس سنوات. واحتوى الاتفاق المهين على تقسيم إيران بين الحليفتين، بحيث تهيمن روسيا على مناطق الشمال الغنية، وتسيطر بريطانيا على الجنوب بمخزونه البترولي الكبير. وذراً للرماد في العيون، جعل الاتفاق المناطق الوسطى من إيران منطقة محايدة شكلياً، لأن الحليفتين عندما جددتا الاتفاقية ذاتها بعد ذلك في عام ١٩١٥ (ولولا قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧، لتصبح روسيا الاتحاد السوفيتي، لما عرف الإيرانيون بأمر تجديد الاتفاق الودي المزعوم)، شمل التجديد احتساب المنطقة المحايدة ضمن مناطق نفوذ الحليفتين، من وراء ظهر الدولة القاجارية» (٤٣)، وبكلام آخر امتلكت «الحليفتان» كامل إيران (أرضاً وثروة وشعباً).

الاشتراكية... رأت هذه العمل اللصوصي الكبير... فعرّته أمام الشعب الإيراني معبرة بذلك عن أصالة ديموقراطيتها الداعمة تحرر الشعوب من نظام استغلالي يسرق الناس أرزاقهم ويقتلهم جوعاً ليرقص فوق قبورهم في مشهد هو ذروة العنف والتوحش، فـ «العنف الحقيقي هو في نظام سياسي واقتصادي يرى خمسة آلاف شخص يموتون جوعاً يومياً دون أن يفعل شيئاً أمام هذه الإبادة الصامتة»(٤٤) .

نعم: الرأسمالية تقتل كل يوم خمسة آلاف (جوعاً)، ناهيك عن الذين تقتلهم في الحروب والمؤامرات والتآمر... وكل هذا في تصاعد متناسب مع تصاعد طغيان ديكتاتورية نقابة النهابين. الاشتراكية جاءت المخلص للشعوب من هذا السعير... من هذا الاستغلال المهين للكرامة الإنسانية... جاءت دعماً للنضال من أجل الديموقراطية الحقيقية بالأفعال والأقوال معاً. «ولعل من المناسب هنا أن أذكر – جوكوف – بأن هتلر عندما عزم على أن يقترح على الاتحاد السوفياتي النظر في فكرة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ لقي رفضاً قاطعاً وصريحاً من الجانب السوفياتي حتى بالتحدث بهذا الموضوع. هذا ما تشهد عليه الوثائق والمشتركون في زيارة فـ.م مولوتوفا لبرلين في تشرين الثاني ١٩٤٠»(٤٥).

الاشتراكية ترفض التحدث في:

- تقسيم العالم لنهبه «ديموقراطياً»

رُفض الاشتراكية النهب... يعني انتشال البشرية من بحر شرّ الرأسمالية المتوحشة... وعلى هذا المحور جاء رفْضها لكل مساهمات القيصر في حلف الشيطان «ابتداءً باتفاقية سايكس وبيكو وسازونوف، وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في ١٩١٦/٥/١٠ بشأن تقسيم المشرق العربي وتفتيته كيانياً ومجتمعياً، وهي اتفاقية نسبت لاحقاً إلى مارك سايكس، وجورج بيكو دون سازونوف الذي شاركهما في الإعداد والتوقيع على تلك الاتفاقية، لأن سقوط روسيا القيصرية بعد شهور، وقيام النظام البلشفي البديل بفضح تلك الاتفاقية، قد طمس الدور الروسي فيها وأنهاه»(٤٦)، وبعبارة أخرى: قام

النظام البلشفي الديموقراطي حقاً بكشف دور اللصوص في العملية التاريخية، ورغم ذلك بقي اللصوص لصوصاً. «فقد كانت الدولتان الحليفتان قد اتفقتا منذ ١٩١٦ (اتفاقية سايكس – بيكو) على تقاسم المصالح في المنطقة وحاولتا التعمية على هذه الاتفاقية حتى بعد نشر البلاشفة لها في أواخر ١٩١٧»(٤٧)... أي استمرتا في الطغيان لنهب العالم وفق منطق الرأسمال في تقسيم العمل الذي: «أدى إلى تقسيم الاقتصاد العالمي الواحد إلى دول متطورة صناعياً، ودول زراعية منتجة للخامات، أي إلى احتكارات ومستعمرات، وبهذا أصبحت الدول الإمبريالية تتصرف كما تشاء بمصائر العديد من الدول والشعوب، وجهزت جميع القوى والقدرات اللازمة من أجل الحفاظ على هذا الوضع أطول مدة ممكنة.

في هذه الظروف من التناقضات بين جماعة قليلة من الاحتكارات الإمبريالية والعديد من الدول المستعمرة والتابعة اتسم الصراع بسمة تناحرية عالية، وخاصة في ظروف السيطرة الكاملة للرأسمالية، وكما أشارت التجربة التاريخية، بأن النضال سيستمر طويلاً بالنسبة للشعوب التي تشكل الأكثرية الساحقة، ودون أن تؤدي إلى تحررهم النهائي، وفقط، ثورة أكتوبر الاشتراكية كانت أول خطوة هامة على هذا الطريق ونقطة انعطاف تاريخية هامة في تطور حركة التحرر الوطني، فهي قد قدّمت الدعم الثوري الجبار لجميع فصائل الحركة العالمية، ووفرت الإمكانات الجديدة ووحدت الآفاق لتصعيد النضال من أجل التحرر الوطني في الدول المستعمرة ونصف المستعمرة»(٤٨)... وبعبارة أخرى: قدمت الاشتراكية الدعم الشامل لحركة التحرر في العالم في نضالها من أجل تحرير بلدانها السياسي والاقتصادي... موقفها هذا يؤكد بالدليل القاطع موقفها من مسألة الحرية والديموقراطية الحقيقية... ويؤكد أصالته في طبيعتها الرافضة استغلال الإنسان وهدر كرامته.

الديموقراطية الحقيقية تعني في أهم ما تعنيه هو التحرر الاقتصادي نقطة

مركز الحرية، ولقد أشار لينين «إلى هذا عام ١٩١٢ بأن الأهم في التحرر الوطني هو التحرر الاقتصادي»(٤٩) القاطع (الرزق الحرام) عن لصوص هذا الكوكب... وبالفعل، هذا ما قرّرت فعله الاشتراكية، «ولقد أشار ف.ا. لينين في السنوات الأولى للسلطة السوفيتية إلى أن البلاشفة سوف يقيمون علاقات دولية جديدة كلياً توفر الإمكانية لجميع الشعوب المضطهدة لكي تتحرر من الاضطهاد الإمبريالي»(٥٠).

أقول: الاشتراكية تقف مع المستعبدين في تحطيم قيودهم... أي موقف نبيل هذا..؟

البلاشفة حرروا وطنهم من عبودية القيصر... إلى هنا، الأمر طبيعي ما دام في حدود (من يبغي الخير لنفسه)... غير أن تجاوز هذه الحدود لتحرير الآخرين... هنا يكمن النبل... يكمن سمو الفكر... يكمن السلوك الرائع الذي أفرزته طبيعة الاشتراكية... ولم يقف دعم الاشتراكية للمضطهدين عند حدود الأقوال... بل ذهب إلى ساحة العمل حقاً وفعلاً. يقول فيديل كاسترو: «لو لم يكن الاتحاد السوفييتي، لكانت الدول الرأسمالية في هذه الظروف الناشئة، وبسبب قلة مواردها من الخامات، قد أخذت تعد العدّة لتقسيم العالم من جديد، ودون أي تردد. ولو لم يكن الاتحاد السوفييتي، لكان من الصعب حتى تصور ذلك الاستقلال، الذي تتمتع به الدول الضعيفة ومن الصعب تصور صوتهم القوي في مجلس الأمم»(٥١).

نعم: لولا الاشتراكية لما سمعت للضعفاء صوتاً... ولما رأيت لهم حضوراً في مواجهة الطاغوت... كل هذا اكتسبوه بعد أن دخلت الاشتراكية ملعب الصراع الطبقي... حيث تشكل اللعب فيه:

- رأسمالية: تلهث وراء نهب الشعوب واستعبادها.
- اشتراكية: تعمل على تحرير الشعوب الشامل.

هذه المعادلة تقول:

- النظام الذي يستعبد الشعوب أو يعمل على استعبادها.. يفرز

ديكتاتورية طاغية ولا سبيل له غير ذلك.

- النظام الذي يعمل على تحرير الشعوب... يفرز ديموقراطية حقيقية ولا سبيل له غير ذلك.

إن طريق توزيع الثروة في المجتمع:

- طريق بسط الحق والعدل بين الناس.
- طريق الطغيان لنهب كل الناس.

هو الفيصل في تحديد الديكتاتورية الطاغية والديموقراطية الحقيقية، وزاد الأمر تحديداً وجلاءً بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧... إذ رجحت كفة ميزان قانون التناقض لصالح المضطهَدين داخل وخارج الاتحاد السوفييتي... مما أقلق الإمبريالية على مصيرها فتساءلت:

- ما العمل..؟

تساءلت هكذا بحس طبقي دقيق منذ ولادة الاشتراكية التي شكلت رافعة الوعي الطبقي المضاد لطغيانها.. فقالت:

إذا كان المولود الذي ولد للتو، يثوّر الناس في خطابه وهو في المهد.. فكيف يصبح خطابه إذا ما شبّ عن الطوق... هنا، نخلت الإمبريالية خبث أفكارها... فقرّرت دفنه قبل أن يحبو... وهكذا كان:

كان وحدة الأشرار داخل وخارج الاتحاد السوفييتي لدفن الاشتراكية.. لدفن العزّة والكرامة الإنسانية، حيث «أوصلت الحكومة القيصرية البلاد إلى شفا الهاوية. وازداد الموقف تعقيداً باستيلاء الدخلاء وقوات الحرس الأبيض المتمردة على مجموعة من المناطق الاقتصادية. وقد ضرب المتدخلون وجيوش الحرس الأبيض نطاقاً نارياً على الجمهورية السوفييتية الفتية التي اضطرت إلى خوض صراع عنيف ضدهم. وكل من عاصر وعمل وناضل والسلاح بيده من أجل أفكار ثورة أكتوبر العظمى يذكر جيداً أي فترة عصيبة مرّت في حياة الشعب السوفييتي.

وفي ربيع ١٩١٨ نزلت قوات دول الحلفاء – ١٤ دولة – في سيبيريا والشرق

الأقصى، وفي أيار بدأ الفيلق التشيكوسلوفاكي القتال أيضاً ضد السلطة السوفييتية في الأورال وسيبيريا ومنطقة الفولغا بعد أن أصبح يعمل لصالح الكتلة الأنكلوفرنسية. واحتلت القوات الألمانية قسماً كبيراً من أوكرانيا ومنطقة بحر البلطيق. وبلغ مجموع الإمبرياليين والحرس الأبيض في روسيا في النصف الثاني من عام ١٩١٨ حوالي المليون ما بين جندي وضابط مدربين ومسلحين على أحدث طراز»(٥٢)، ومن هذا الطراز الأحدث، و«في ربيع ١٩١٩ نظم الإمبرياليون حملة موحدة ضدّ السلطة السوفييتية.

كان يقف في شرقي البلاد آنذاك جيش كولتشاك، الذي احتل جبهته على خط بيرم – أورسك، كما تمركز جيش القوزاق الأبيض الأورالي عند أورسك واحتل مدينة غورييف. ووقفت الجيوش البيضاء بإمرة دينيكين بحالة تأهب تامة عند نهر تيريكا، واحتلت مدينة نوفر تشيركاسك، وروستوف الموجودة على نهر الدون، أما قوات الحكومة الثورية في أوكرانيا (أو من أطلق عليهم اسم ديركتوريا أو حكومة المديرين) فقد تحصنت بعد أن استولت على أوكرانيا على الخط خرسون – نيكولايف، جيتومير – كورستين. وكان اللاتفيون البيض عند خط شافلي – ميتافا، وقوات يودينيتش والأستونيين البيض على خط فولمار – نارفا، موجهين ضربتهم إلى بتروغراد بالذات. واحتل الفنلنديون البيض والحرس الأبيض، والدخلاء المناطق الشمالية من البلاد، وأعدوا عدتهم لضرب بترغراد وفولوغدا وكوتلاس. وفي كراستونودسك وباتومي ونوفور وسيسك وسيبا ستوبول وأوديسا كان المسيطرون أيضاً من المتدخلين الأجانب.

اتفقت الدول الإمبريالية على تقاسم البلاد، ووضعت نصب أعينها إزالة السلطة السوفييتية والقضاء عليها. وتقرر سلخ أوكرانيا، وروسيا البيضاء، ودول البلطيق والقفقاس وقسماً من المنطقة الشمالية وغيرها من المناطق الهامة»(٥٣)، كل هذا من أجل إسقاط السلطة السوفييتية، وهذا هو مربط الفرس، ومن أجل هذا المربط احتشد الأشرار من كل حدب وصوب لدفن

الاشتراكية المولودة للتو.

بالأمس كان:

- السلطة القيصرية في روسيا رفيقة الدرب.

واليوم:

- السلطة السوفييتية في روسيا العدو الواجب شنقه حتى الموت.

والسؤال الذي يثور الآن!

- لماذا قُلبت المعادلة بحق روسيا..؟

قُلبت المعادلة بحق روسيا، لِقلب معادلة توزيع الثروة وقطع دابر اللصوص في روسيا، ودليل ذلك!

- السلطة القيصرية في حلف الأشرار كان لها سهمها من منهوبات الشعب الإيراني – كما مرّ معنا – هذا أولاً.

- السلطة السوفييتية في حلف الأخيار، رفضت نهب الشعب الإيراني... بل وقفت معه تدعم تحرره وطرد الأشرار من وطنه، كما مرّ معنا – هذا ثانياً.

التدقيق في (أولاً وثانياً) يقول: التناقض بينهما 180 درجة، تماماً كالتناقض بين الرأسمالية والاشتراكية... ولإعادة الأمور إلى نصابها.. أي إعادة روسيا إلى حلف الأشرار كان التدخل المسلح ضد السلطة السوفييتية المعادية لكل نهب أو سطو على الشعوب... غير أن هذه السلطة المؤمنة بحق التيارات التحتية في القضاء على ديكتاتورية الطاغوت، وبناء مجتمع الكرامة الإنسانية جوهر الديموقراطية الحقيقية... استطاعت وبوحدة الأخيار الانتصار بعد حرب ضروس دامت أربع سنوات، «وبعد الانتصار البطولي في الحرب الأهلية بدأ الشعب السوفييتي بالعمل السلمي. فإذا بصعوبات تقف في وجهه وتحول بينه وبين بناء الاقتصاد الوطني المنهار، والمتردي في مجالاته كافة إلى أقصى حالات الانحطاط وقد تطلبت الأوضاع الصعبة التي كانت تعانيها الصناعة والزراعة والنقل حشد قوى البلاد على الجبهة الاقتصادية، مما اقتضى تسريح ملايين الفلاحين والعمال من الجيش وتوجيههم للقيام بأعمال الترميم، واختصار

النفقات العسكرية، ولكن الأمر تطلب في الوقت ذاته الحفاظ على منعة البلاد وتقوية دفاعها. وقد قال ف.ي. لينين «لقد علمنا الآن دولاً كبرى كثيرة معنى الحرب ضدنا، ولكن ليس في وسعنا أن نبقى على ثقتنا هذه مدة طويلة»(٥٤)، وبكلام آخر: علمنا الإمبرياليين معنى الاعتداء على الاشتراكية، لكن هذا لا يعني عدم محاولتهم الاعتداء من جديد... فالاشتراكية قاطعة شريان النهب الذي يغذي احتكاراتهم، فإذا ما ثبتت أقدامها على أرض الواقع أصبحت هذه الاحتكارات في مهب الريح... خوفاً من هذا الذي لا تحمد عقباه... ستكثف الإمبريالية من محاولاتها للقضاء على الاشتراكية، يقول لينين: «ينبغي أن نكون مستعدين لزحف الضواري الاستعماريين علينا من جديد لدن أي تغيّر في الوضع. وفي المؤتمر الثامن لعامة روسيا، قال لينين في تقريره: «إن وجود الجمهورية السوفييتية إلى جانب البلدان الرأسمالية، إنما هو أمر غير مقبول بنظر الرأسمالية، إلى حد أنهم يستغلون كل فرصة لاستئناف الحرب. إن الشعوب قد تعبت الآن من الحرب الاستعمارية، وهي تهدد بالتمرد في حالة مواصلة الحرب، ولكنه ليس من المستبعد أن يتمكن الرأسماليون من استئنافها بعد مرور بضعة أعوام».

في شباط (فبراير) ١٩٢٠، طرح مراسل إحدى الجرائد الأميركية السؤال التالي على لينين:

– هل ينبغي لروسيا أن تخشى من جديد تدخلاً معادياً للثورة...؟

أجاب لينين؟

– أجل، مع الأسف. لأن الرأسماليين أناس حمقى وجشعون، لقد قاموا بجملة من محاولات التدخل الحمقاء والجشعة بحيث يجب أن نخشى تكررها طالما العمال والفلاحون في كل بلد لم يعيدوا تربية رأسمالييهم»(٥٥) وبعبارة أخرى... لم يستلم العمال والفلاحون السلطة في بلدانهم بعد، وهذا يعني استمرار الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية:

– السلطة السوفييتية بدأت بناء الاشتراكية وفق مبدأ توزيع الثروة من

الأعلى إلى الأسفل وصولاً إلى الديموقراطية الحقيقية، هذا أولاً.

- السلطة الإمبريالية في البلدان الأخرى، تقوم على مبدأ توزيع الثروة من الأسفل إلى الأعلى وصولاً إلى ديكتاتورية طاغية، يتصاعد طغيانها مع توسع الهوة بين التخمة والجوع، هذا ثانياً.

(أولاً) دخل ملعب الصراع الطبقي، ليقبض على الكرة وفق قواعد اللعبة، غير أن (ثانياً) لا يحترم أية قواعد غير تلك التي تمكنه من استمرار القبض على الكرة لاستمرار تدفق النّهب على احتكاراته. ومن أجل هذا التدفق سيكرر توحشه (حرب – سطو) على (أولاً)، والدليل الأبرز على ذلك، الحرب العالمية الثانية التي من أولويات أهدافها القضاء على السلطة السوفييتية... غير أن هذا لم يحدث... حيث خرج الاتحاد السوفييتي قوياً وتابع بناء الاشتراكية التي أصبحت منارة تهتدي بها الطبقة العاملة العالمية، وكل الشعوب المظلومة. (ثانياً) لم يستسلم كما قال لينين بل استمر في اللعب غير النظيف، وقاد ثورة مضادة (داخل وخارج) الاتحاد السوفييتي، وحشد كل شياطين هذا الكوكب، وصرف مليارات الدولارات، حتى فاز (مرحلياً) بالنقاط على عدوّه الطبقي... على هذا المفصل من العملية التاريخية فلت العفريت من القمقم، وراح يوزع الشرّ في الجهات الأربع، لنهب الكرة الأرضية (أرضاً وثروة)، والسؤال الذي لا مفر منه الآن:

- لماذا تنال الاشتراكية كل هذا الحقد الإمبريالي...؟

الاشتراكية بعد أن أسقطت طغيان القيصر... وفازت على الطغاة الذين حاولوا إسقاطها في حربهم عليها أربع سنوات، بدأت عملها إذ:

- حوّلت الملكية الخاصة المستغلّة إلى ملكية مشتركة.
- حوّلت الصراع الطبقي إلى تسابق على بناء المجتمع الجديد.
- حوّلت الإنسان من أداة إنتاج إلى أثمن رأسمال.
- حوّلت الإنسان من عبد للعمل المأجور إلى سيد الإنتاج.
- حوّلت العمل من سوق العرض والطلب إلى حق للجميع.

على هذا الدرب بدأت الاشتراكية خطوها «فقبل بدء التصنع، كان المستوى التقني في بلادنا دون مستوى إنكلترا بأربعة أمثال، ودون مستوى ألمانيا بخمسة، ودون الولايات المتحدة الأميركية بعشرة. وخلال سنوات الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٩- ١٩٣٢)، والخطة الخمسية التالية (١٩٣٣- ١٩٣٧)، ظهرت مجالات جديدة في حقل الصناعة، وخطت صناعة الحديد والصلب وصناعة المعادن الملونة والكيمياء والطاقة وصناعة المركبات خطوات واسعة جداً إلى الأمام. وارتفع الإنتاج الإجمالي في صناعات الاتحاد السوفييتي جميعها في عام ١٩٣٧ إلى أربعة أضعاف ما كان عليه عام ١٩٢٩ تقريباً، وإذا ما قارنا عام ١٩١٣ بسني ما قبل الحرب، نجد أن الإنتاج الإجمالي في صناعة السيارات ومعالجة المعادن قد ارتفع بمقدار ٣٥ ضعفاً. وخلال السنوات الخمس التي سبقت، تمّ بناء ما يقارب من تسعة آلاف مرفق صناعي ضخم، وأنشئت قاعدة تصنيع ضخمة جديدة في شرقي البلاد قدمت لنا خدمات جلّى في سنوات الحرب الوطنية العظمى. وعلى العموم تقدم الاتحاد السوفييتي، بالنسبة لحجم الإنتاج الصناعي، والتجهيز التقني في المرافق الصناعية المنشأة حديثاً إلى المرتبة الأولى في أوروبة، واحتل المرتبة الثانية في العالم»(٥٦).

المرتبة الأولى في أوروبة... الثانية في العالم، خلال فترة قصيرة من عمر الاشتراكية، حقق الاتحاد السوفييتي بعد أن أصبحت الملكية المشتركة هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع... فأصبحت المصلحة العامة في الصعود على سلّم التقدم همّ الجميع، من أجل الوصول إلى إنتاج يوفر لهم السعادة كما هي طبيعة الاشتراكية... فالإنتاج في الاشتراكية ليس لإغراق أسواق الآخرين لنهبها، بل هو «من أجل تلبية حاجات المجتمع بالذات، حاجات جميع أعضائه. كتب انجلس يقول: «عندما يشرع الناس في استخدام القوى المنتجة الحالية وفقاً لطبيعتها المعروفة أخيراً... يحل محل فوضى الإنتاج الاجتماعية تنظيم مبرمج اجتماعياً للإنتاج المعد سواء لتلبية حاجات المجتمع كله أم لتلبية حاجات كل فرد من أفراده».

وأوضح لينين أن حلول المجتمع الاشتراكي محل المجتمع الرأسمالي سيتحقق من أجل تأمين الرفاهية الكاملة لجميع أعضاء المجتمع وتطورهم من كل النواحي. وقد أشار لينين مراراً عديدة إلى فكرة أن الاشتراكية وحدها هي التي توفر إمكانية تكييف الإنتاج الاجتماعي وتوزيع المنتجات، وإخضاعهما إلى حد كبير للاعتبارات العلمية ولمصالح الناس وحاجاتهم، بغية جعل حياة الشغيلة كافة أسهل وأطرف. فيما مضى، كانت منجزات العقل البشري والعبقرية البشرية تستأثر بها الأقلية الاستثمارية، وكان الشغيلة محرومين من نعم التنوير والتطور، أما الآن، في ظل الاشتراكية، فإن جميع معجزات التكنيك وجميع مكاسب الثقافة قد أصبحت ملك الشعب بأسره. أن تلبية حاجات أعضاء المجتمع كافة تشترطها موضوعياً علاقات الإنتاج الاشتراكية، ولا وجود بالتالي للقاعدة الاقتصادية لاستثمار الإنسان للإنسان. فإن جميع وسائل الإنتاج وجميع ثمار العمل تخص الشغيلة أنفسهم المتحدين على أساس الملكية الاجتماعية الاشتراكية لوسائل الإنتاج. وأم مصالح الشغيلة الذين يملكون وسائل الإنتاج وثمار العمل، مصالحهم الاقتصادية إنما هي القوة المحركة الرئيسية للإنتاج في ظل الاشتراكية، وكل تطور الإنتاج الصناعي يتحقق من أجل الإنسان، لما فيه خير الإنسان»(٥٧)، وبكلام آخر: فإنه في ظل الاشتراكية يبرمج كل شيء في المجتمع والطبيعة على خير من وصفته الماركسية بـ (أثمن رأسمال)، على هذا المحور لا غير تتراكز الديموقراطية الحقيقية... ومن أجل هذه الديموقراطية، وفي خطوة غير مسبوقة تاريخياً... انتشلت ثورة أكتوبر ١٩١٧ الإنسان من بيت عبودية الطبقة المستغِلّة... يقول لينين: «للمرة الأولى بعد قرون وقرون من الكدح لأجل الغير. من العمل القسري لأجل المستثمرين، تتبدى إمكانية العمل من أجل الذات. مع العلم أن هذا العمل يستند إلى جميع مكتسبات أحدث منجزات التكنيك والثقافة»(٥٨)، واستناده هكذا لم يعد في خدمة ديكتاتورية اللصوص.. وإنما أصبح في خدمة كل أعضاء المجتمع، على هذا الدرب الديموقراطي وفرت الاشتراكية: «لأول مرة إمكانية

واسعة للتعجيل في إنماء تزويد العمل بالتكنيك في جميع فروع الإنتاج الاجتماعي.
إن تعاظم تزويد العمل بالآلات والمعدات في ظل الاشتراكية يتجلى في استخدام الآلات والمعدات الطليعية بأعداد أكبر فأكبر، في زيادة تزويد العمل بالطاقة، الأمر الذي يسهل عمل العامل ويحوله إلى عمل رفيع الكفاءة ويؤدي تدريجياً إلى محو الفوارق بين العمل الفكري والعمل اليدوي.

إن الإنتاج الاشتراكي، المرتكز على التكنيك العصري، يتطلب يداً عاملة حسنة التحصيل، ومثقفة تكنيكياً. إن كل شغيل من شغيلة المجتمع الاشتراكي يملك أوسع الإمكانيات لتحسين كفاءته المهنية، لإتقان تحصيله. فإن التعليم، بجميع أشكاله الأساسية: - التعليم الثانوي العام، التعليم الثانوي المختص، التعليم العالي، التعليم في المدارس الإنتاجية التكنيكية وفي دورات رفع الكفاءة وفي الاسبيرانتورا والأوردبناتورا - مجاني في الاتحاد السوفييتي»(٥٩).

التعليم مجاني في الاتحاد السوفييتي.. سياسة مجانية التعليم تفرزها طبيعة الاشتراكية لتحقيق غرضين:

- التعليم يوفر الغذاء الروحي للإنسان، هذا أولاً.
- التعليم يوفر القدرة المادية للإنسان، هذا ثانياً.

(أولاً وثانياً): يُخرّجان الإنسان المتكامل والمنسجم مع ذاته ومجتمعه... وفي إطار تكامله وانسجامه هذا، تكون ممارسته الديموقراطية الحقيقية الملفوفة بالعزة والكرامة... ولمزيد من هذه وتلك كانت المدارس السوفييتية في ازدياد وكان خريجوها بازدياد... ولم يعد بالإمكان ردّ هذا الكلام إلى المبالغة والتعصب... بعد أن شهد به أمام محكمة التاريخ ابن الرأسمالية البار، حيث «انتقد جون كينيدي في بداية حديثه حكومة أيزنهاور بشدّة، وعبر عن قلقه إزاء تردي الأوضاع الاقتصادية الأمريكية، وأعلن كينيدي أن الاتحاد السوفييتي يُخرج سنوياً من المهندسين والأطباء ضعف ما تُخرجه الجامعات الأمريكية.

وأشار إلى أن المدارس الأمريكية مزدحمة جداً، وإلى أن المعلمين لا يتلقون

رواتب جيدة، وإن التمييز العنصري لا يسمح باستخدام عبقرية كل المواطنين الأمريكيين»(٦٠).

زبدة شهادة كينيدي تقول:

- الاشتراكية أكبر قدرة على تحقيق التقدم.
- الرأسمالية عنصرية، ولهذا، ليست ديموقراطية.

على هذا المحور... تصبح الاشتراكية الطريق الوحيد لسعادة الإنسان، لقدرتها على قلع كل ما زرعته الملكية الخاصة من أوهام وأسواء وشرور، ومن صراع واستغلال واستعباد، «وإن تحرير الناس من مخلفات الأخلاق والسيكولوجيا القائمتين على أساس الملكية الخاصة، ومن مخلفات النظرات الدينية المخالفة للعلم، ومن الأوهام وغيرها تحريراً كاملاً، وإن تخليص المجتمع من المجرمين واللصوص وغيرهم كل هذا يؤلف المهمة التي لا يمكن أن تُحقق بضربة واحدة، وإنما يجري تحقيقها مع تطور الاشتراكية وفي النضال، لأن القديم (ذاك الذي ترسب في الوعي خلال قرون كاملة) يدافع بعناد ولا يمكن أن يستسلم طواعية للجديد. لكن الاشتراكية تخلق بصورة دائمة الشروط الضرورية والمنطلقات من أجل تصفية مخلفات القديم ومن أجل تربية الإنسان الجديد للمجتمع الشيوعي»(٦١)، وبعبارة أخرى: في الاشتراكية، تقوم الماركسية بتكنيس الأمخاخ من كل الأوهام والخرافات، ضمن عملية تربوية لخلق الإنسان الجديد المؤمن بالديموقراطية الحقيقية... المؤمن بالماركسية التي جاءت تغيّراً كيفياً لتراكمات الفكر الإنساني، من أجل توليد المجتمع الجديد من القديم... فالماركسية، «وهي فلسفة تملك نظرة شمولية إلى الكون والمجتمع والثقافة والأدب، وهي ترى أن التطور التاريخي ليس عشوائياً، بل هناك قوانين وقواعد تتحكم فيه وتوجهه، وعلى رأس تلك القوانين قانون الصراع الطبقي. فالتاريخ من وجهة نظر ماركسية ليس تكراراً للماضي، بل حركة موجهة، حركة تجاوز وانتقال مما هو قائم إلى مرحلة أعلى وأرقى من مراحل التطور الناجم عن قوانين الجدل أو الديالكتيك، وتقول النظرية الماركسية بوجود

علاقة جدلية بين القاعدة المادية أو البناء التحتي للمجتمع، وبين البناء الفوقي الذي تشكل الثقافة والأدب أهم مكوناته، وفي نظرتها إلى العلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي، أي بين المجتمع والثقافة. ترجح النظرية الماركسية كفة الطرف الأول، أي البناء التحتي والمجتمع، وترى فيه الطرف الرئيس، في المعادلة الجدلية. فالوجود المادي يحدد الوعي الاجتماعي، والبناء التحتي يتحكم في البناء الفوقي، أي في الثقافة والأدب، ويوجه مسارهما. صحيح أن البناء الفوقي يؤثر في البناء التحتي ولكنه يتأثر به بدرجة أكبر، ويظل البناء التحتي الطرف الرئيس في العلاقة الجدلية بين البناءين»(٦٢)، والعلاقة الجدلية هذه، هي محرّك قانون التناقض، فالتيارات التحتية هي الطرف الرئيس في حلّ معادلة هذا القانون لصالح الديموقراطية الحقيقية في مجتمع خالٍ من الطبقات... هذا هو مركز دائرة الماركسية في سلوكها النظري والعملي، «لأن أحد المبادئ الأساسية للأيديولوجية الشيوعية، هو وحدة النظر والعمل، أو بالأحرى التفاعل الديالكتيكي بينهما»(٦٣)، وفق قوانين علمية اكتشفتها الماركسية، ومن هنا، جاء «المقام الرفيع الذي يحتله العلم في الأيديولوجيا الشيوعية»(٦٤)، ومن هذا المقام.. كان شموخها.. كان قدرتها على استيعاب الجديد... كان وحدتها مع المكتشفات العلمية في الطبيعة والمجتمع... ومن هذه الوحدة كان إيمانها بمستقبل سعيد للبشرية على قاعدة الملكية المشتركة، يقول نهرو: «لقد كانت روسيا بقيادة لينين تتطلع إلى المستقبل وتفكر بما يجب أن يكون عليه الأمر في المستقبل، بينما كانت الأقطار الأخرى ترقد مخدرة تحت يدي الماضي الميتة وتنفق طاقتها في الحفاظ على مقومات وآثار عهد مضت أيامه.

لقد أعجبت بصورة خاصة بأنباء التقدم العظيم الذي حققته المناطق المتأخرة في آسيا الوسطى في ظل النظام السوفياتي. وهكذا نتيجة الموازنة بين العالمين كنت بكليتي مع روسيا ومتجهاً بتحبيذي إليها. وقد بدا المثل الذي ضربه السوفيات بمثابة ظاهرة عجائبية وضيئة مبهجة للقلب في عالم مظلم قاتم مقبض.

إلا أن نجاح روسيا السوفياتية أو إخفاقها (بالرغم من أن النجاح أو الفشل

كان شيئاً هاماً نظراً لأن ما جرى في روسيا كان تجربة عملية لإقامة دولة شيوعية) لا يؤثر على سلامة صحة النظرية الشيوعية. ذلك أن البلاشفة قد يخبطون خبط عشواء ويضلون بل قد يفشلون لأسباب قومية أو دولية، ومع ذلك قد تكون النظرية الشيوعية صحيحة»(٦٥)، وهي بالفعل كذلك لمجيئها من رحم الفكر الإنساني كتغيّر كيفي لهذا الفكر في إطار قوانين علمية شخصت مخاض الماضي لولادة مستقبل السعادة للجميع، يقول نهرو: «أنني أعتقد فعلاً بأن الفلسفة الشيوعية تساعدنا على فهم وتحليل الأوضاع القائمة في أي بلد وبأنها تشير إلى طريق التقدم في المستقبل، ولكن من التجني على تلك الفلسفة لتطبيقها تطبيقاً أعمى ودون الأخذ بعين الاعتبار الحقائق والأوضاع الخاصة بكل قطر»(٦٦)، وهذا ما تأخذ به الماركسية ذاتها... عندما تصف نفسها بمرشد عمل حسب الزمان والمكان... يقول نهرو: «فإنه يبدو لي أن كارل ماركس كان يتمتع بقسط غير عادي من القدرة على التبصر في خفايا الظاهرة الاجتماعية، ويبدو لي أن الفضل في بصيرته هذه يعود إلى المنهج العلمي الذي تبناه.

إن هذا المنهج الذي طبق على التاريخ الماضي كما طبق على الأحداث الراهنة، يساعدنا في فهم هذه الأحداث أكثر من أي منهج آخر. ولهذا فإن أكثر التحليلات منطقاً في بحثها التطورات والتغيرات التي تطرأ على عالم اليوم تأتي من الكتاب الماركسيين. إنه من السهل التدليل على أن ماركس قد تجاهل أو قلل من قيمة نزاعات معينة مثل ارتقاء وظهور العنصر الثوري في الطبقات الوسطى. إلا أن القيمة الكلية للماركسية تبدو في نظري كامنة في انعدام اليقينية منها وفي تشديدها على عقلية معينة وعلى منهج للمعالجة وفي موقفها ورأيها من العمل والنضال. إن تلك النظرة الماركسية تساعدنا على فهم الظاهرة الاجتماعية في زمننا وتشير إلى طريق العمل والنجاة.

إن الفلسفة الماركسية لم تقيد ولم تحدد طريقة العمل والكفاح تلك، ولم تجعلها سبيلاً لا يمكن تغييره، ففي رأي لينين: إنه يجب جعل تلك الطريقة

ملائمة للظروف. وهو يبرر رأيه ببراعة قائلاً: إن القيام بمحاولة سلبية أو إيجابية لتحديد وسائل النضال دون دراسة تفصيلية للوضع المركز في فترة معينة وفي مرحلة معينة من تطوره، إنما هي محاولة تنطوي على الخروج عن الصعيد الماركسي... فليس هناك من شيء نهائي لا يتغير وعلينا دائماً أن نتعلم من الظروف»(٦٧)، ونحن لا نتعلم من الظروف الحقيقية الموضوعية إلاّ إذا كانت الماركسية مرشدنا إلى ذلك، والخطأ في تطبيق ما أرشدنا إليه، يقع على عاتق من اجتهد... يقول نهرو: «إن نجاح التجارب الاجتماعية في روسيا أو إخفاقها لا يغيّر مباشرة سلامة النظرية الشيوعية ووجاهتها... فلقد يمكننا أن نتصور ظروفاً تقلب ما بنته تلك التجارب رأساً على عقب، ولكن قيمة تلك الانتفاضات الثورية القوية التي حققتها تلك التجارب ستظل باقية»(٦٨)... ستظل باقية، يهتدي بها المعذبون في الأرض للخروج من نظام الاستغلال، إن نجاح أو إخفاق الاشتراكية، خاضع:

- لقدرة أو عدم قدرة فهم إرشاد الماركسية.
- كيفية توليد الجديد من القديم.

على ضوء هذه المعادلة أقول:

الإنسان الماركسي في المجتمع الاشتراكي، يشكل حجر الزاوية في سياج هذا المجتمع لحمايته من الثورة المضادة في (الداخل والخارج)... لهذا فإن بناء هذا الإنسان نقطة هامة في حياة وتطور المجتمع الاشتراكي.

نعم: الماركسية لم تخرج عن إطار ما رغب به الحكماء والمصلحون على هذا الكوكب من بسط للحق والعدل بين الناس... بل أخرجت رغبتهم من حيّز الوعظ والإرشاد والتمني... إلى حيز العلم وقوانينه التي يُبسط بها الحق والعدل... من هنا، نالت الماركسية بامتياز شرف حقد نقابة النهابين عليها، لدعوتها توزيع الثروة من الأعلى إلى الأسفل وصولاً إلى مساواة اقتصادية حقيقية هي مركز الديموقراطية الحقيقية حيث «لم يتحدث التاريخ عن المساواة الاقتصادية إلا قليلاً، عندما تصورت الماركسية أن «لكل فرد بمقدار ما يحتاج ومن كل فرد

بقدر ما يستطيع»... ولكن التاريخ أيضاً لم يشهد هذا القدر الهائل من «اللامساواة» والتي باتت أكثر وضوحاً للعيان.

في إبريل من عام ٢٠٠١ نشرت جريدة بريطانية ذات مصداقية وهي «صنداي تايمز» قصة أغنى الأغنياء في العالم، وكيف تراجع ملك ومالك «المايكروسوفت» بيل جيتس من المركز الأول إلى المركز الثاني في قائمة الأثرياء بعد أن فقد «١٥» مليار دولار، وبات مالك «وول مارت» وهي سلسلة المحلات الأمريكية الشهيرة هو أغنى الأغنياء بثروة تقدر بـ «٦٥» مليار دولارا

ولم يكن ذلك غريباً، فقبلها كان تقرير التنمية في العالم كان يصدره البنك الدولي قد ذكر في طبعة (٢٠٠٠- ٢٠٠١) أن تركز الثروة في العالم، مع انتشار الفقر في ربوعه قد بلغا أشدهما فباتت شريحة من الدول منخفضة الدخل والتي تضم أربعين بالمائة من السكان تقريباً لا تحوز أكثر من «٣,٤» بالمائة من الناتج القومي للعالم... بينما تحوز الدول الغنية والتي لا يصل سكانها إلى «١٥» بالمائة من سكان العالم نحو «٧٩» بالمائة من الناتج القومي العالمي.

إنه البون الشاسع يأتي بعد رحلة طويلة من تنمية التخلف وتنمية التقدم طوال أربعين أو خمسين عاماً مضت، وطبقاً لتقرير التنمية البشرية الصادر عام «١٩٩٥» عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة فقد زاد الناتج العالمي سبعة أضعافه في خمسين عاماً... لكن الفقر كان يزداد أيضاً، وهو ما أكده تقرير العام التالي حيث ذكر أن العالم ينتقل من حالة «اللامساواة» إلى حالة «اللاإنسانية»(٦٩)... وبكلام آخر: إن العالم ينتقل إلى الغابة مع انتقال الاحتكارات إلى التخمة بالمال الحرام... والغابة يسودها التوحش... يسودها بطش القوي الضعيف... يسودها كل ذلك لترتع نقابة النهابين، حيث:

- تسرق البعض، هذا أولاً.
- تشرد البعض الآخر، هذا ثانياً.

(أولاً وثانياً) في تزايد... فيتزايد عمق واتساع الهوة بين التخمة والجوع منبع عذابات الناس، وعليه، فـ «إن أكثر من سدس سكان العالم أصبح يعاني من

الفقر الشديد وأكثر من بليون إنسان لا يتجاوز إنفاقه اليومي الدولار الواحد. وفي خضم هذه الظروف المرافقة والناتجة عن العولمة فإن المرأة والمرأة العربية تمثل الجانب الأكثر صعوبة، إذ تعاني من البطالة ومن العوز والتهميش وتشير البيانات أن عدد العاطلين عن العمل في الوطن العربي يقارب العشرين مليون فرداً من مجموع حوالي ٩٥ مليون عامل عربي أي أن نسبة البطالة ترتفع إلى حوالي ٢٠ إلى ٢٥٪»(٧٠)، «وماذا نقول بشأن دول الشرق الأدنى والمغرب، المنطقة التي تحتوي على ما يزيد على /٢٦٠/ مليون نسمة، /٩/ مليون نسمة، من حملة الشهادات العليا يتسكعون في الطرقات بلا عمل، و/١٢/ مليون منهم يعيشون بأقل من خمس فرنكات فرنسية في اليوم»(٧١)، والشعوب الغربية في بلدان الشمال، «ليست بأفضل حال، والبطالة تمس كافة الطبقات والمستويات، وأصبح الخوف من الطريق والحياة في الطريق يهدد كل فرد، فالجميع يردد: لا يوجد إنسان بمنأى عن الطريق» (Personue uiestl'abrile larue)، والأزمة تزداد استفحالاً، مهما موهتها الأرقام الرسمية: إذ كيف يمكن لها أن تنفرج في الوقت الذي تعاني منه بلدان العالم الثالث من استفحال الديون لدرجة تمنعها من الاستيراد الذي لابد منه لعودة الحياة إلى معاملها، إلى جانب هجرة الشركات الكبرى المنتجة، مع أموالها، إلى البلدان التي تسلمها مفاتيحها؟

فحسب الأرقام الرسمية، فإن ربع السكان في وسط الاتحاد الأوروبي، يعيش حالياً تحت عتبة الفقر، وأصبح تحقق معدل بسيط من النمو يرتبط ارتباطاً مباشراً بتسريح العمال. فمعادلة: الزيادة في النمو يساوي زيادة البطالة (Croinauce pheuiape) أصبحت على كل لسان»(٧٢).. أي أصبحت بديهية في نظام هو الغابة عينها... حيث تنتخم كروش، لترمى أخرى في أتون البطالة التي يقول أحد الفلاسفة عنها: «إذا أردت أن تعذب إنساناً، اتركه بلا عمل»، أي أن البطالة هي صقر... هي العذاب الأكبر، ولإنقاذ الإنسان من هذا العذاب، جاءت الماركسية لتقطع أيدي الحرامية، ولتعيد الحق إلى أهله، «إن كل ثروة الطبقة الرأسمالية، إنما أبدعتها أجيال من الطبقة العاملة»(٧٣).. أبدعها العمال، وسطا

عليها اللصوص، وجعلوا منها قيد العمال المتين لاستمرار حلبهم... فجاءت الماركسية لتحطيم هذا القيد... هذه الملكية التي جُمعت من حرام، يقول ماركس/ انجلس في بيانهما الشيوعي: «ليس الذي يميز الشيوعية هو محو الملكية بصورة عامة، بل هو محو الملكية البرجوازية»(٧٤)، التي أفرزت مجتمع الصراع والشرور... اللصوص أدركوا بحسهم الطبقي، أن الماركسية هي سلاح تغيير هذا الواقع المتوحش، إلى واقع جديد قاعدته الملكية المشتركة ولحمته وسداه الديموقراطية الحقيقية... لطمس هذه الحقيقة... لإبعاد العقل عن التفكير بها، لجأ اللصوص إلى الخداع والتضليل لقلب ديكتاتوريتهم ديموقراطية لا قبلها ولا بعدها، ووظفوا كل وسائل إعلامهم للثرثرة صباح مساء ليصبح خداعهم وتضليلهم تيهاً تضيع فيه الحقيقة الموضوعية التي تتسلح بها الماركسية، مثلهم في ذلك مثل «المخترع الإغريقي «ديدالوس» الذي صمم المتاهة وشيدها في الأسطورة اليونانية ليسجن فيها ذلك المخلوق الشاذ، أو الوحش الأسطوري «مينوطور Minotaur». ذلك المسخ الذي ولد لملك قبرص «مينوس» نصف ثور ونصف إنسان»(٧٥).

اللصوص صنعوا المتاهة لحجب الحقيقة الموضوعية عن أعين الجماهير الشعبية، لينين أدرك سوء فعلهم هذا، فقاد البلاشفة في أكتوبر ١٩١٧ وأسقط الطاغوت فسقط معه استغلال الإنسان للإنسان في أول تجربة اشتراكية على هذه البسيطة، وقال: «إن مبدأ من لا يشتغل لا يأكل ينطوي على ... أساس الاشتراكية وينبوع قوتها الذي لا ينضب والضمانة الوطيدة لانتصارها النهائي»(٧٦).

في الاشتراكية مَن لا يعمل لا يأكل... وفق هذا المبدأ أصبح حق العمل للجميع..وقُضي على البطالة ذروة عذاب الإنسان وهدر كرامته، حيث لا كرامة بلا عمل... ولا ديموقراطية دون كرامة، يقول نهرو: «فروسيا السوفياتية على الرغم ما قد يكون فيها من نقائص منزهة عن نقيصة البطالة»(٧٧)، ولم تكن وحدها هكذا، بل كل بلدان المنظومة الاشتراكية «كانت تخلو حتى من

عاطل واحد عن العمل»(٧٨)، وبعبارة أخرى: كانت تخلو من معذب واحد... من مهان واحد، بعد أن وفّرت الاشتراكية العزّة للجميع... نقيض ذلك الرأسمالية.. حيث وفّرت المهانة للجميع:

- **المستغَلّ:** مهان... بل يصبح (لا شيء) عندما يرمى في سوق البطالة.
- **المستغِل:** أكثر مهانة لتحوله إلى ذئب ضارٍ... إلى لصٍ لخطف ما بيد الغير.

قضاء الاشتراكية على هذه المعادلة الطاغية... حقق الكرامة للجميع، حيث لا مستغَل ولا مستغِل ولا عاطل عن العمل. «إن ابن سينا كان يجد في بطالة الكادحين وتعطلهم عن العمل خللاً في المجتمع وظلماً للمتعطلين ولذا نرى في تصوره المدينة الصالحة أنها المدينة التي تحرم فيها البطالة ويمنع التعطل عن العمل، بحيث لا يكون فيها «إنسان معطل ليس له مقام محدد. بل يكون لكل واحد منهم منفعة في المدينة»(٧٩).

ابن سينا: أصاب الهدف بدقة وبراعة، بعد أن اعتبر:

- **البطالة:** تُحدث خللاً في المجتمع.
- **البطالة:** هي القهر والذّل للكادحين.
- **البطالة:** محرمة في المجتمع الصالح.
- **المجتمع الصالح:** هو الذي يكون لكل واحد من أعضائه منفعة فيه

وفق هذه المعادلة السينائية، تكون الاشتراكية أول من حقق المجتمع الصالح في العملية التاريخية... فكانت أول من عزّز الكرامة الإنسانية فتعززت الديموقراطية الحقيقية.

التجربة الاشتراكية الأولى، بدأت بناء المجتمع الصالح – حسب تعبير ابن سينا - ... أي بدأت حلّ معادلة قانون التناقض لصالح المجتمع بأسره... لصالح إنقاذ أفراده من طغيان الرأسمال... كان هذا داخل وطنها، غير أنها في إطار واجبها الأممي، اتجهت نحو الخارج لتخليص الكادحين من براثن ناهبيهم. «فالاشتراكية وخاصة الماركسية، ليست مجرد دعوة لتغيير النظام الاقتصادي

والسياسي في دولة، بل إنها حركة تبشيرية لتحرير العالم من مظالم الرأسمالية. ومن هنا نشب العداء بين النظامين»(٨٠) لتضادهما 180 درجة.

- **الرأسمالية**: تنهب الناس في وطنها، وعلى درب خستها هذه تخرج في سطو استعماري لتنهب الشعوب الأخرى.

- **الاشتراكية**: تحقق الكرامة للناس في وطنها. وعلى درب نبلها هذا، تعمل على تخليص الشعوب من مستعمريها.

التدقيق في المعادلتين، يكشف، أي النظامين ديموقراطي وأيهما ديكتاتوري، وكشف الواقع عن ذلك أمام الجميع، إذ «أخذت السلطة السوفياتية، وبغض النظر عن الوضع الصعب في السنوات الأولى بتدعيم نضال شعوب آسيا ليس معنوياً وحسب، بل مادياً أيضاً، ففي العشرينات مثلاً: وفي الوقت الذي كانت تعاني فيه الجمهورية السوفييتية الشابة من الصعوبات المادية، أخذت تقدم العروض طويلة الأمد لأفغانستان من أجل تحسين ظروفها الزراعية، وقدمت المساعدات لتركيا من أجل إنشاء الصناعات النسيجية.

إن قضية الدعم للدول النامية الفقيرة قد تأسست وترسخت من قبل ف. ا. لينين، الذي قال في خطابه عام ١٩٢٠، والذي ألقاه في اجتماع اللجنة الخاصة لبحث قضايا القوميات والاستعمار في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية ما يلي: «من غير الممكن أن تظهر أية نقاشات حول مسألة أساسية مفادها، أن البروليتاريا في الدول المتقدمة مضطرة لمساعدة جماهير الكادحين في البلدان المتخلفة، ومن الممكن أن تجتاز الدول المتخلفة هذه المرحلة من التخلف بمساعدة البروليتريا المنتصرة في الجمهورية السوفييتية، وبواسطة الدعم والتأييد في جميع المجالات»(٨١)... وبكلام آخر: واجب الاشتراكية المنتصرة الوقوف بحزم إلى جانب الدول المتخلفة لتجاوز تخلفها الذي زرعه نهب الرأسمال... على هذا المحور من الشعور الإنساني الرفيع تقوم ديموقراطية الاشتراكية في العملية التاريخية. «إن التطور السريع للاتحاد السوفييتي وللدول الاشتراكية الأخرى، وتحول المنظومة الاشتراكية إلى قوة اقتصادية جبارة، جعلها تمتلك جميع منجزات العلم

والتكنولوجيا التي تشكل القاعدة المادية الأساسية لتوسيع علاقات التعاون الاقتصادي مع الدول النامية. ومع كل سنة يزداد عدد البلدان التي تستفيد من هذا التعاون المبدئي الصحيح، ففي عام ١٩٥٢ قدمت دول المنظومة الاشتراكية المشاركة في مجلس التعاضد الاقتصادي مساعدات اقتصادية وعلمية تكنولوجية لـ ٣٤ بلداً من البلدان النامية، أما في عام ١٩٧٨، فقد ساعدت ٧٨ بلداً بما في ذلك ٢٥ بلداً آسيوياً و٣٤ بلداً أفريقياً و١٩ بلداً من بلدان أمريكا اللاتينية. ففي هذه البلدان، وبمساعدة الدول الاشتراكية الاقتصادية والتكنولوجية، تم بناء أكثر من ٣٥٠٠ مشروع اقتصادي هام، مع العلم أنه في أكثر الحالات تقدم المساعدة عن طريق منظمة مجلس التعاضد الاقتصادي التي تنسق العمل بين الشركات المختلفة للدول الاشتراكية. كما تم بناء أكثر من ألف مشروع اقتصادي، وتُبنى الكثير من المشاريع الهامة الأخرى في البلدان النامية بمساعدة الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى»(٨٢).

أقول: طبيعة الاشتراكية أفرزت التحرر الاقتصادي أساس كل تحرر... ومن إفرازها هذا كان:

- تحرير وطنها من استغلال الإنسان للإنسان.
- مساعدة الشعوب على طرد الاستعمار وقطع دابر الاستغلال هذا الوضع الذي خلقته الاشتراكية، سند البلدان النامية، وكشف أمامها طريق التقدم والتحرر الاقتصادي، وعلى هذا المفصل أصبح وضعها «لا يمكن اعتباره مماثلاً للوضع الذي كانت عليه منذ عشرين إلى ثلاثين عاماً خلت. أولاً، إن هذه البلدان وإن تكن ما تزال قسماً مستثمراً من العالم الرأسمالي، بيد أن شعوبها باتت تعلم أنه إذا ظلت البلدان المتحررة ملحقاً يزود البلدان المستعمرة بالمواد الأولية والزراعية، فإنها ستظل موضعاً للاستثمار في المستقبل أيضاً. ولذلك فإن شعوب هذه البلدان، بعد أن نالت استقلالها الوطني، تناضل في سبيل تحطيم البنيان الاستعماري لاقتصادها وانتشال نفسها من ربقة التخلف الاقتصادي والسياسي المستقل.

وما من شك في أنها ما كان يمكن أن تحصل على هذه الإمكانية لو لم تكن المنظومة الاشتراكية العالمية موجودة. ففيما مضى كانت جميع هذه البلدان تشعر بالاحتكار الاستعماري على كاهلها: احتكار في المناطق الاقتصادية، وفي تقديم التجهيزات والقروض، وفي الملاكات العلمية والتكنيكية، وفي السلاح، ولهذا فقد كانت هذه البلدان موضوعياً مربوطة بأغلال المنظومة الاستعمارية، وكان دورها في الاقتصاد العالمي مقتصراً على أن تكون «ريفا عالمياً» لصناعة المتروبول الاستعماري.

لقد قوضت المنظومة الاشتراكية العالمية احتكار الاستعماريين وأصبح النمو السريع للعلاقات الاقتصادية بين البلدان النامية وبين بلدان المعسكر الاشتراكي السمة المميزة للعصر. وإذا كان الاتحاد السوفييتي قد قدّم لهذه البلدان في عام ١٩٥٩ معونة فنية في بناء ما يزيد قليلاً عن مئة مؤسسة صناعية و ١١٠ من المنشآت الأخرى، فإن عدد المنشآت الصناعية فقط، التي بنيت بالمساعدة السوفييتية في عام ١٩٦٠ قد بلغ ٣٠٠، أما في عام ١٩٦١ فقد بلغ ٣٥٠، وفي عام ١٩٥٩ تجاوز رقم تجارة الاتحاد السوفييتي الخارجية مع بلدان آسيا وأفريقيا ثلاثة مليارات من الروبلات، أي ازداد ٨ مرات بالمقارنة مع عام ١٩٥٣. وتجدر الإشارة بصورة خاصة إلى نمو حصة الماكنات والتجهيزات في صادرات البلدان الاشتراكية إلى البلدان الآسيوية والأفريقية. ففي عام ١٩٥٨ كانت الماكنات والتجهيزات تؤلف ٥٠ بالمئة من صادرات تشيكوسلوفاكيا إلى هذه البلدان، مقابل ١٨٫٨ بالمئة في ١٩٤٨.

إن دول المعسكر الاشتراكي، إذ تقدم مساعدة نزيهة قائمة على أساس المنفعة المتبادلة والمساواة بين الأطراف، وإذ تساعد البلدان المستعمرة والتابعة السابقة في تطورها الصناعي، تسهم بقسط كبير في قضية التطور الاقتصادي لبلدان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية»(٨٣).

يا إلهي!!

أي موقف نبيل للاشتراكية هذا... أي ديموقراطية حقيقية أفرزتها طبيعة الاشتراكية لرفع الذّل والمهانة عن الإنسان... عن الشعوب، وهي تسهم في ترحيل

الرأسمالية إلى مأواها الأخير... تسهم في تحطيم قيد العبودية، وتعزيز الكرامة الإنسانية، التي من أجلها «أعطت ثورة أكتوبر العظمى دفعة قوية لحركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة»(٨٤)، مكنتها من الصعود على سلّم التحرر... وما كان لصعودها هذا أن يتحقق لولا أن «أعانتها في ذلك الحركة الماركسية الشيوعية التي أطلقت دعوتها العنيفة الجارفة إلى مكافحة الاستعمار الرأسمالي»(٨٥) ... إلى تحطيم قيد العبودية ورجم الطاغوت... هذا الموقف الاشتراكي الديموقراطي، أقلق اللصوص على مصير نهبهم الذي بدأ مقصّ الاشتراكية بقص أطرافه... ومع قصّ الأطراف هذه أصبحوا أكثر قرباً من المصيدة، وأكثر بعداً عن عالم الإنسان... وتعبيراً عن هذا الوضع كتب «هنري كيسنجر عام ١٩٦١ في مؤلفه «ضرورة الاختيار» يقول: لن تسمح الولايات المتحدة الأمريكية لنفسها بالسقوط أكثر مما وصلت إليه خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة، ولو تابعنا الطريق التي نسير عليها الآن، سنصبح بعد خمسة عشرة عاماً أخرى معزولين تماماً عن العالم الخارجي، وسنصبح غرباء عنه»(٨٦).

لم يكن كيسنجر وحده المرعوب والخائف على رزقه الحرام... بل كل أضرابه من قادة نظام النهب يعيشون حالته هذه، حيث اعترف «كل من كينيدي وأيزنهاور بالحقيقة المرّة والقائلة: إن حركات التحرر الوطنية تشهد تصاعداً مستمراً، وتحرز الانتصارات المتتالية على الرغم من تشديد الإجراءات الأمريكية ضدها، وقال أيزنهاور: «تفوق معنويات الجندي الشيوعي معنويات جنود القوى الديموقراطية، ويوجد في الفلسفة الشيوعية شيء خفي يجعل أنصار الشيوعية مخلصين لمبادئهم وأفكارهم»(٨٧).

إيزنهاور لم يدرك سرّ إخلاص الشيوعيين لأفكارهم ومبادئهم.. لم يدرك ذلك، لممارسة الديكتاتورية حتى على تفكيره وحبسه إياه في إطار نهب الناس، ولو أن أيزنهاور منح تفكيره الديموقراطية في التفكير فيما هو إنساني وحسن على هذا الكوكب لوجد:

- التوحش الأكبر يكمن في نهب الناس أرزاقهم.

- قدس الأقداس يكمن في تحرير الناس من الاستغلال.

تحرير الناس من الاستغلال، قدس أقداس الماركسية، ومن مقامها الإنساني الرفيع هذا، جاء إخلاص أتباعها لها، وجاء تفانيهم من أجل تحرير بني البشر من شرائع الغابة الرأسمالية... وبتفانيهم هذا تراجع نهب النهابين، فتراجع اقتصادهم على خط بياني هابط في الاقتصاد العالمي، حيث «يتضح أن حصة خمس دول رأسمالية متقدمة صناعياً هي بريطانيا العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية، ألمانيا الغربية، فرنسا، بلجيكا، التي عاش فيها عام ١٨٧٠ ما يقارب من ١٠٪ من سكان العالم، كانت تحصل على ٨١,٥٪ من الإنتاج الصناعي العالمي. وبعد ٦٧ سنة من هذا، تغيّر العالم عام ١٩٣٨، وانخفض إنتاجها الصناعي إلى ٥٧,٩٪ من إنتاج العالم. وإن هذا التغيير في الميزان النوعي لدور هذه الدول في المجال الصناعي قد حصل بشكل أساسي على أثر ازدياد حصة الاتحاد السوفييتي من إنتاج الصناعات التحويلية في العالم»(٨٨). الاشتراكية دخلت الملعب، وبدأت لعبها في عرقلة النهب الرأسمالي، وتمهيد الطريق أمام الشعوب للتحرر سياسياً واقتصادياً، وبهذا «وحسب تقديرات الأكاديمي فارغ تضاعف الإنتاج الصناعي عام ١٩٦٠ في البلدان الرأسمالية ٥ مرات بالمقارنة مع الإنتاج في بداية القرن الحالي. ولو لم تكن قيود العلاقات الرأسمالية موجودة لتضاعف خلال هذه الفترة ٢٠- ٣٠ مرّة»(٨٩)... عدم تضاعفه هكذا، يبين بوضوح أن مقياس الصراع الطبقي بدأ يؤشر إلى صعود الاشتراكية وهبوط الرأسمالية، ولو كان عشق قادة الرأسمالية للديموقراطية شريفاً وعذرياً لتركوا اللعب يجري بروح رياضية، وفي جو من السلم والحرية... ووفروا على الشعوب الدماء والدموع... غير أن التاريخ أكد خلاف ذلك، وقال: الرأسمالية ما فهمت الديموقراطية يوماً إلا من منظور ما يتدفق على احتكاراتها من مال حرام... ولتدفق يروي ظمأ هذه الاحتكارات.. كان التسلط والقهر... كانت الديكتاتورية المتوحشة... كانت الحروب الطاحنة... كان استعار الصراع الطبقي بين الثورة والثورة المضادة... واستطاعت هذه الأخيرة: بمليارات الدولارات المسروقة... حشد كل أعداء

الاشتراكية... بل وشراء أعداءٍ من سوق النخاسة... نعم: وبهذا كله، استطاعت إفشال التجربة الاشتراكية الأولى، وتدمير الاتحاد السوفييتي اللاعب الرئيسي في ملعب الصراع الطبقي، والخروج من عنق الزجاجة لتعيث في الأرض فساداً.

أقول: التاريخ لم يتحدث يوماً عن ديموقراطية حكم الشعب فيها نفسه بنفسه في المجتمع الطبقي. بل العكس تحدث وقال: عنف الطبقة النهابة ساد العملية التاريخية منذ نشوء الملكية الخاصة... ولم تتورع هذه الطبقة عن ارتكاب الفظائع... ولم تصغ لصوت العقل يوماً... لم تصغ حتى لو سلك خصومها الطريق السلمي للوصول إلى حقوقهم المغتصبة، فـ «عندما يعجز المجتمع الدولي، أو الدول عن حل المشاكل بالحوار السلمي، فإن ذلك يؤدي حتماً إلى الرفض، ثم الضعف. إن أمثلة كثيرة من التاريخ الحديث تؤكد أن العنف يصبح ردّ الفعل الوحيد الممكن ضدّ الطرش السياسي، وتجاهل صيحات الإنذار، فقد كشف مانديلا كيف أن حزبه ناضل سلمياً من أجل الحوار مع البيض، ولكنه اضطر أمام رفض الآخر إلى حمل السلاح، وهو ما عاشته الحركة الوطنية التونسية بعد أن رفضت الحكومة الفرنسية الحوار، وأعلنت القطيعة في رسالتها الشهيرة إلى حكومة التفاوض يوم الخامس عشر من ديسمبر ١٩٥١، فاندلعت عندئذ الانتفاضة المسلحة، وهو ما تعبر عنه اليوم انتفاضة الشعب الفلسطيني الصامد بعد أن أوصد الصلف الصهيوني جميع أبوب الحوار، وفقد الناس الأمل في حل سياسي سلمي.

الشق الثاني من الإشكالية المطروحة في بداية هذا النص يتصل بالتساؤل التالي:

كيف يمكن الدفاع عن مبادئ «حوار الحضارات» في ظل هيمنة ثقافية..؟

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل لابدّ من الإلماع بإيجاز إلى الاستراتيجيات التي وضعت في العصر الحديث لفرض النموذج الثقافي الغربي على الشعوب الأخرى:

– مثلت الاستراتيجية الأولى ركناً أساسياً من أركان المشروع الاستعماري الإمبريالي في القرن التاسع عشر. ونشر منظرو السياسة الاستعمارية

مقولة «رسالة التمدين»، ولا ننسى التذكير في هذا الصدد بأن التبشير الكنسي كان عنصراً بارزاً من عناصر «رسالة التمدين».

– وجاءت الاستراتيجية الثانية دعامة متينة من دعائم الحرب الباردة غداة الحرب العالمية الثانية، فقد تفطنت الرأسمالية ذات البعد الإمبريالي التوسعي أن المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفييتي يمثل عائقاً خطير الشأن أمام نشر النموذج الغربي الرأسمالي في العالم. بل يمثل خطراً على النموذج نفسه، ذلك أن النموذج الشيوعي طرح نفسه بديلاً عن النموذج الرأسمالي عامة، والنموذج الأمريكي بصفة خاصة.

مثلت الثقافة سلاحاً ناجعاً من أسلحة الحرب الباردة، ولقد كشفت عن هذا الدور الباحثة البريطانية ف. س. سوندرز (F.S. Saunders) في كتابها الرائع بعنوان «الحرب الباردة الثقافية» (المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب)، والصادر بالإنكليزية بمدينة نيويورك عام ٢٠٠٠ (صدر بالعربية عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة سنة ٢٠٠٢)، فمن المعروف أن «منظمة الحرية الثقافية» التي أسستها عام ١٩٥٠ المخابرات المركزية (CTA)، مثلت ذراع التجسس السري في المجال الأكاديمي والثقافي داخل الولايات المتحدة وخارجها، وأسست مكاتب في ٣٥ دولة يعمل بها مئات الموظفين وبينهم مثقفون كبار، وأصدرت أكثر من ٢٠ مجلة ذات نفوذ وانتشار واسع، وأقامت المعارض الفنية، وعقدت مؤتمرات دولية، كما امتلكت مؤسسات إعلامية كبرى.

وقد بلغت سيطرة المخابرات الأمريكية على الحياة الأكاديمية والثقافية درجة مأساوية، لما نجح السيناتور مكارثي في بعث لجنة داخل الكونغرس خاصة بالنشاط المعادي لأمريكا، تمكنت عام ١٩٥٣ من إصدار مشروع قانون خاص بالرقابة على الثقافة.

عصر تنوير جديد:

ركزت هذه الاستراتيجية على مقولة أن العالم في حاجة إلى سلام أمريكي، وإلى عصر تنوير جديد يؤسس للقرن الأمريكي، وإلى رسالة تمدينية جديدة

تبشر هذه المرّة، ليس بالنموذج الغربي بصفة عامة، كما كان الشأن في الاستراتيجية الأولى، بل تبشر بالنموذج الأمريكي تحديداً. ووظف الدين ليتحمس المواطن الأمريكي المعادي لسياسة نشر النموذج الأمريكي. فقد نجحت لجنة النشاط المعادي لأمريكا بالكونغرس في أن تضيف عام ١٩٥٤ لقسم الولاء لأمريكا عبارة «أمة واحدة تحت راية الرّب».

وهل نستغرب بعد ذلك من دور الكنيسة المحافظة في التأثير على نتائج الانتخابات الأمريكية؟!

أما الاستراتيجية الثالثة، ودور الهيمنة الثقافية فيها، فقد وضعت أسسها غداة انهيار كتلة أوربا الشرقية، وبداية التنظير للإمبريالية الجديدة، ومثل مقال «صدام الحضارات» المبادرة الأكاديمية في هذا المجال لإضفاء الجدية والصدق عليها.

وقد اتضح من جديد أن الرأسمالية الاحتكارية تحتاج إلى خلق عدو، ولو كان وهمياً، فقد بشر دعاتها أيام الحرب الباردة بأن سقوط ديكتاتورية بلدان المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفييتي سيكون انتصاراً لمبادئ الحرية وحقوق الإنسان، وسيؤدي سقوط الأصنام الكبيرة في هذا المعسكر إلى سقوط الأصنام الصغيرة في بلدان العالم الثالث، وزعموا أن ميزانيات المعسكر الغربي الضخمة المخصصة للحرب الباردة، وإنهاك الاتحاد السوفييتي في مجالي المعركة الاقتصادية، وسباق التسلح ستصرف بعد سقوط المعسكر على مخططات التنمية الاقتصادية في المجتمعات السائرة في طريق النمو.

ولم تمر إلا سنوات معدودات على سقوط جدار برلين ١٩٨٩ حتى عادت حليمة إلى عادتها القديمة، فبدأت الرأسمالية الاحتكارية تسعى إلى خلق عدو جديد تنظم له فكرياً وإعلامياً، وتعد له في الوقت ذاته الخطط الاستراتيجية والعسكرية، فطلعت علينا بنظرية «نهاية التاريخ»، وانتصار الليبرالية نهائياً، ثم انتشرت مقولة «صدام الحضارات»، لتحذر الرأي العام الغربي قائلة: إن العدوّ قادم من الجنوب هذه المرّة، ومن بلاد الإسلام بصفة أخص، وهكذا تحول

الصراع أيام الحرب الباردة من صراع أيديولوجي سياسي إلى صراع حضاري ديني، ولم يبق الأمر مقتصراً على كتابات ممثلي اليمين الأمريكي المتطرف، بل سقط القناع، وانكشف اللّب لما طفت مفاهيم ذات محتوى كهنوتي يذكرنا بالمفاهيم المتداولة في أروقة محاكم التفتيش في العصور الوسطى مثل مفهوم «الحروب الصليبية» ومفهوم «محور الشر»، إن هذا المناخ الفكري «القروسطي» هو الذي يكمن وراء التنظير للحروب الوقائية قصد السيطرة على ثروات شعوب الجنوب، وفي مقدمتها الشعوب العربية والإسلامية.

وحسب كثير من أهل الاختصاص في الشؤون السياسية والاستراتيجية أن الحلف الأطلسي سيحمل بعد سقوط جدار برلين إلى مثواه الأخير في مقبرة الحرب الباردة، ولكنهم فوجئوا بتلويحة بالجزرة في اتجاه شرق أوربا، وبالعصا الغليظة في اتجاه بلدان الجنوب، فأصبحت له مشروعاته في أفغانستان والعراق، كما بات باحثاً عن تعاون وثيق في منطقة المغرب العربي، ويندرج كل ذلك ضمن البحث عن هذا العدو الجديد الذي أطلّ برأسه من الجنوب، وأطلقوا عليه اسم «الإرهاب»، وضرورة شن حروب ضدّه بأشد الأسلحة فتكاً وتدميراً نهدف من وراء هذه الإشارة السريعة إلى البرهنة على أن التنظير لمرحلة الإمبريالية الجديدة قد بلغ مرحلة التنفيذ مع وصول المحافظين الجدد إلى مركز المنظرين للحروب الوقائية أو الاستباقية غلاة الأيديولوجية الصهيونية»(٩٠).

الحرب الاستباقية، أفرزها تلقف الإمبريالية الكرة في ملعب الصراع الطبقي... فبين رسالة الإمبريالية «التمدينية» إلى رسالتها «الديموقراطية»، جرت تغيّرات في العملية التاريخية عرقلت مسار التقدم في هذه العملية، وأصبح قانون التناقض يعمل لصالح الطغمة المالية اللاهثة وراء الحشيش الكثيف... ومن أجل هذا الحشيش، كانت الحروب الوحشية، وكان ذروة توحشها الحروب الاستباقية... ولفهم طبيعة هذه الحروب، نسأل:

أولاً: ما شكل الحرب: قبل الاتحاد السوفييتي.

ثانياً: ما شكل الحرب: في وجود الاتحاد السوفييتي.

ثالثاً: ما شكل الحرب: بعد الاتحاد السوفييتي.

أولاً- ما شكل الحرب قبل الاتحاد السوفييتي..؟

الحرب في التشكيلة البرجوازية من طبيعة الرأسمالية، لحاجة هذه الطبيعة للمال الحرام باستمرار، على هذا المفصل، شكلت الإمبرياليات مجلس حرب لها، يقرر طريقة نهب الشعوب «ديموقراطياً»، وفق ترتيب القوى المشاركة فيه، ومع كل تغيّر لهذا الترتيب تُشن الحروب من جديد لإعادة اقتسام المال الحرام، وفق الوضع الجديد... وهكذا دواليك... وخلال هذه الدواليك تقتل الإمبرياليات أعداداً كثيرة من شعوبها وأعداداً أكثر من الشعوب الساعية لسرقتها، «ويفترض لينين إمكانية قيام حلف سلمي بين الدول الإمبريالية من أجل اقتسام سلمي للمستعمرات، كما حصل هذا الحلف واقعياً عام ١٩٠٧ لقمع انتفاضة «البوكسر» في الصين، حيث اشترك الألمان واليابانيون والإنجليز والأمريكيون والروس في قمعها. وبعدها تمّ توقيع البروتوكول النهائي لاثنتي عشر دولة مع الصين، حيث تحولت الصين بموجبه إلى نصف مستعمرة أجنبية. ونال الرأسمال الأجنبي إمكانيات جديدة لاستثمار الصين ونهبها. وبعد هذا الحلف الإمبريالي بسنوات قليلة بدأت الحرب العالمية الأولى لإعادة التقاسم من جديد. ويقول لينين: لأنه من غير المعقول في ظل الرأسمالية أن يكون هناك أساس لتقاسم مناطق النفوذ والمصالح والمستعمرات... إلخ غير مراعاة درجة قوة المشتركين في التقاسم. قوتهم الاقتصادية... والعسكرية وهلم جرا. بيد أن القوة تتغير بصورة متفاوتة لدى هؤلاء المشتركين «في التقاسم». وطالما أن نسب القوى ستتغير من فترة لأخرى فسيتم إعادة هذا التقاسم من جديد. ولا يمكن إعادة القسمة إلا باستخدام القوة، وهذا ما نعيشه حالياً في العقد الأخير للقرن العشرين. ولذلك رأى لينين بأن أحلاف الإمبريالية العليا السلمية ليست إلا فترات تنفس بين الحروب. فهي تحضر للحرب وتنشأ بدورها عن الحروب مشترطة بعضها بعضاً ومكونة تغير أشكال الصراع السلمي وغير السلمي على أساس واحد لا يتغيّر هو الصلاحيات والعلاقات الإمبريالية على صعيد الاقتصاد العالمي والسياسة العالمية، هذه

الصلاحيات والعلاقات المبنية على نزوع الإمبريالية للسيطرة والظلم القومي والإلحاق، لا إلى الحرية والاستقلال الوطني». وتجربة القرن الماضي كله تؤكد هذا بعشرات الأمثلة. وستحمل الإمبريالية للقرن القادم الحروب العديدة والقتل الجماعي بأسلحة الدمار الشامل – وإن كان القتل سيتم بصورة أكثر أناقة من السابق – حيث يستمر ويشتد أكثر تناقضات الإمبريالية جذرية وعمقاً وهو التناقض بين الاحتكارات أو الشركات المتعددة الجنسية والمزاحمة الحرة القائمة على جانبها – كما يشير لينين – ونظرية فوق الإمبريالية تسعى إلى طمس هذا التناقض، وتجميل وجه الإمبريالية كما يجري حالياً مع العولمة الجديدة»(٩١).

إذن: الاحتكارات تلد الحرب، وأن تغيّر ميزان قواها يعيد الحرب، لإعادة اقتسام النهب.

على محور الحرب / النهب هذا، كانت الشعوب «تنعم» بـ «الديموقراطية» البرجوازية التي أقل مفرزاتها الدم والدموع.

ثانياً – ما هو شكل الحرب في وجود الاتحاد السوفييتي..؟

بعد الحرب العالمية الثانية:

- خرجت أمريكا من الحرب حاصدة كل المكاسب، ومتراكزاً فيها الرأسمال الأعظم.
- خرجت أوربا من الحرب مهزومة مدمّرة.
- خرج الاتحاد السوفييتي قوياً معافى.

أمريكا والاتحاد السوفييتي دخلا حلبة الصراع ونشأ ما سمّي بـ (الحرب الباردة) التي شكلت التوازن بينهما... والتوازن هذا يعني: أن الاشتراكية أصبحت لاعباً يحسب له ألف حساب، حيث:

- عرقلت سطو الإمبرياليات على الشعوب لنهبها، هذا أولاً.
- دعمت حركات التحرر الوطني لطرد الغزاة من بلدانها، هذا ثانياً.

تحت ضغط (أولاً وثانياً)، رحلت جيوش الاستعمار، ولكن، بقيت الجيوش

السرّية... بقي الاستعمار الطبقي... ما تفسير هكذا كلام..؟ الاحتكارات بعد أن عُرقِل سطوها... لجأت إلى الحرب الصامتة فيما سمّي «الاستعمار الجديد»... أي الاستعمار الطبقي... كيف تمّ ذلك...؟ في حلبة الصراع بين الاشتراكية والإمبريالية، لجأت هذه الأخيرة إلى تابعها الطبقي – البرجوازية الكسحاء – في العالم (الثالث والرابع) ودفعته ودعمته لقيادة أنظمة الحكم المستبدة في أوطانه التي جعل منها السجن الكبير.. وكردّ على هذا الجميل فتح نفقاً سرياً لفّه بالخطابات اللقمانية ليتدفق النهب على من دفعه ودعمه بأمان الشيطان... وحفظاً على سرية ما يتدفق، زجّ العارفين به في الزنزانات وأحواض الأسيد... حتى لا يقولوا للجماهير حقيقة ما يجري.

على هذا المحور من الخسّة كان الاستعمار الجديد:

- حرباً صامتة لنهب مستور.
- حرباً صامتة لاحتواء الاتحاد السوفييتي.

أي أن الاستعمار الجديد، كان نهباً بسلاح طبقي... وبهذا السلاح ذاته، كان احتواء الاتحاد السوفييتي.. ونتيجة هذا وذاك تجاوزت في حجمها كل ما نسفته الإمبريالية، بعد أن تمكنت من تدمير الاتحاد السوفييتي.

ثالثاً: ما هو شكل الحرب بعد تدمير الاتحاد السوفييتي..؟

قبل الاتحاد السوفييتي، كانت الضواري تتقاسم النهب بعد كل حرب.

في وجود الاتحاد السوفييتي، لجأت الضواري إلى السلاح الطبقي لنسف ما تريد من نهب.

بعد الاتحاد السوفييتي، نشطت الضواري من عقال، يتقدمها سيد الغابة، الذي جعل من رفاق دربه أحجار شطرنج يحركها على هواه، ووفق ما يخدم لصوصيته... بل الأنكى من ذلك سمّاها «المجتمع الدولي»، ليصبح توحشه مشروعاً ما دام يجري باسم هذا المجتمع... وباسم هذا المجتمع خرج في ثياب الواعظين، وكأن السماء كلفته إخراج البشرية من الظلمات إلى النور... من الديكتاتورية إلى الديموقراطية التي لم تعد كالسابق يقررها ميزان قوى

الضواري في توزيع النهب... بل أصبحت تعني في منظور سيد الغابة (نسفه الدك) كاملاً.

أقول: الإمبريالية الأمريكية، وبعد غياب شرطي البلدية، خرجت مسعورة تنهش الجهات الأربع لنهب ثرواتها وسحق مواطنيها... على هذا المفصل من التوحش، تطلب إلى الجميع الخشوع والدعاء لها بالتوفيق، والساكت عن هذا الدعاء — مجرد ساكت — هو معاد «للديموقراطية».. أي معاد (لنسفها الدك)، ولتقانة ذلك، تشن الإمبريالية الأمريكية الحرب العالمية الثالثة على الفقراء. «والحرب تعني الكثير للرأسمالية، فمن خلالها، يمكن تحريك عجلة الاقتصاد، فمصانع الأسلحة تعمل بطاقتها، ومستلزمات الحرب (الذخيرة والدواء والعتاد والغذاء) يزداد الطلب عليها، مما يستتبع زيادة العرض، لقد بدأت بوادر انتعاش في الاقتصاد الأمريكي بعد شن الحرب ضد أفغانستان... ولكن هذا الانتعاش لم يكن سوى وهماً، تفاءل به المتفائلون من دعاة الحرب ليخفوا عجزهم، وليسوغوا (فوائد) حربهم المقبلة ضد العراق، لقد كان الطلب على البضائع والأسلحة والذخيرة أقل مما هو في المستودعات والمخازن، ولم يستطع الطلب الإضافي تجاوز حالة الركود. مما اقتضى المضي في خلق حالة التوتر والاستمرار بدق طبول الحرب ضد العراق، حيث أصبح الهدف الأمريكي — الصهيوني: الانتقال من مرحلة الرغبة في قيادة العالم، إلى مرحلة الاستبداد بمقاليد العالم، أي إرساء نوع من الديكتاتورية الكونية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في أعتى الإمبراطوريات»(٩٢)، وسبب ذلك، أن الإمبريالية الأمريكية تراكز فيها:

- الرأسمال الأعظم.
- القوة الأفظع.

وفق هذه المعادلة، طُرحت أخلاق الرأسمال المتوحشة في السوق... بل وفرض على البشر الأخذ بها، رغم ما ترمي إليه من تضليل وتزييف للحقائق الموضوعية، «فالمال وما يتبعه من قوة أصبح السلّم الوحيد لكل الأخلاقيات، فأطروحات

الديموقراطية وحقوق الإنسان والسلام العالمي التي تأتينا من الغرب البعيد وتشنف لها الأسماع، ليست إلا مزيداً من الاستلاب والهيمنة والقهر»(٩٣)، ولهذا المزيد بالذات، كان احتشاد الأشرار لتدمير الاتحاد السوفييتي، حيث حقق تدميره «تقليص مجال الحرية، التي كان يضمنها للقوى المتوسطة، والصغيرة في الشمال، وبشكل خاص في الجنوب، وهكذا - حسب المؤلف - فإن القومية العربية أصبحت يتيمة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، حيث كانت تتأمل سنده على الدوام»(٩٤)، والواقع يقول: ليست الشعوب العربية وحدها أصبحت يتيمة... بل كل الشعوب أصبحت هكذا، ومن هذه الزاوية أعلنت الإمبريالية الأمريكية الحرب على شعبها، «وفي هذا السياق كتب لسترثارو Lester Thurow، الاقتصادي في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (MIT) «Massachusetts Institute of Technology» قائلاً: إن بوسع المرء أن يدعي أن مَن في أمريكا من «رأسماليين» قد أعلنوا الحرب الطبقية على عمالهم - وأنهم قد فازوا بها»(٩٥)، بعد أن «أدخلت الحكومة والكونغرس تغييرات عديدة على قانون العمل بما يخدم مصلحة رجال الصناعة، الأمر الذي مكن رواد الصناعة ومديري المؤسسات من أن يتبعوا سبلاً متطرفة في علاقات العمل على نحو لا مثيل له منذ نهاية الحرب العالمية الثانية»(٩٦)، وبهذه السبل المتطرفة، أصبح «ما يزيد على خمسة ملايين مواطن أمريكي صاروا مكرهين على الإذعان لمثل شروط العمل هذه الفاقدة لأي ضمانة»(٩٧)، والسؤال هنا!

- لماذا الضمانة...؟

الإنسان في مفهوم الرأسمال، جرذ أزقة، والسيادة كل السيادة للسوق الحرّة التي تضمن له النهب المطلوب، ومن أجل هذا النّهب، تُكف يد الدولة عن التدخل في حركته، لتترك هذه الحركة في قبضة لصوص الدنيا، «فإن ثمة كاتبين يرتبطان بمجلة «أسبوعية الأعمال» (Business Week) شنا هجوماً شجاعاً على رأسمالية السوق لم يصدر عن كاتب من اليسار المعاصر كله. إن وليام ولمان وآن كولا مسكل لم يكتفيا في كتابهما «اقتصاد يهوذا: انتصار رأس المال وخيانة

العمل»، لم يكتفيا بالدفاع عن العاملين بأجر، بل طرحا للتساؤل مسألة نجاح الرأسمالية غير المقيدة. إن انحلال الإمبراطورية السوفييتية كان يعني انتصاراً للغرب في الحرب الباردة، لكنه أيضاً «دمرا مكان تدخل الدولة بأشكال أكثر رقة، تتراوح بين الاشتراكية الديموقراطية، وتلك الإصلاحات الرقيقة في السوق مثل النيوديل الأمريكي»، ليس ورثة ماركس فقط، بل أيضاً ورثة فرانكلين د. روزفلت وليندون بـ. جونسون باعوا بالخسران.

ولليوم، نجد حتى أحزاب اليسار تمجد القطاع الخاص وتطريه، وتشكك في قدرة الحكومة على الخدمة العامة. على الرغم من ذلك فإن ولمان وكولا مسكا يذكران بحقيقة يعمد اليسار إلى خفض صوتها:

«إن الأمراض الاقتصادية في الدولة الشيوعية والاشتراكية لا تقيم — في ذاتها — الدليل ضد الحكومة. لقد فعلت الحكومة ما يكفي من الخير، وفعل السوق الحر غير المقيد ما يكفي من الشر في الدول الصناعية الغربية خلال القرن العشرين، مما يثير قلقاً جاداً حول التأثير النهائي لانحراف السياسة الاقتصادية نحو اليمين في كل أرجاء العالم الصناعي...» ومن المؤكد أن هذين الكاتبين لا ينطويان على رؤية بعيدة المدى للمستقبل، وهما يستبقان وجود الأزمات والعمالة المحدودة، لكنهما يدعوان إلى إصلاحات محدودة «تقوم على ما هو ممكن»: توازن أفضل بين العمل ورأس المال. باختصار: إنهما يعتقدان بوجوب «إنقاذ الرأسمالية من نفسها»(٩٨)... أي يعتقدان بوجوب «إنقاذ الرأسمالية من الانتحار»، غير أن هذا سيحدث يوماً... ولعرقلة مجيء هذا اليوم أفرزت طبيعتها:

- الاستعمار لنهب الشعوب من أجل نموّها واستمرار حياتها.

وبعد قيام الاتحاد السوفييتي، أفرزت طبيعتها وفق الظروف الجديدة:

- الاستعمار الطبقي — الاستعمار الجديد — للنهب بشكل جديد.
- دولة (الرفاه) في بلدانها... أي أنفقت بعض ما تسرقه على شعوبها لصرفها عن التفكير بالاشتراكية.

وبعد تدمير الاتحاد السوفييتي أفرزت طبيعتها:

- عودة حليمة لعادتها القديمة (البطش بالجميع دون تمييز).

نعم: البطش بالجميع هو الأساس في طبيعة الرأسمالية... وإن غيّرت الظروف شكله في فترة معينة، فسرعان ما يعود إلى أصله بعد زوال هذه الظروف، «فمنذ نهاية خطر الديكتاتورية البروليتارية، فإن العمل جارٍ على قدم وساق، وبكل جدية وإصرار على تشييد ديكتاتورية السوق العالمية. وهكذا تبين فجأة أن الرفاهية التي تنعّم بها جمهور عريض من العاملين، لم تكن سوى تنازل اقتضته ظروف الحرب الباردة، وحتمته الرغبة في عدم تمكين الدعاية الشيوعية من كسب موقع قدم»(٩٩).. وبكلام آخر: فإن دولة (الرّفاه) أقيمت كحاجز لمنع إشعاع نجاحات الاشتراكية من اختراق المجتمعات الرأسمالية، ورفع الوعي الطبقي فيها، وبالتالي، نسف أنظمتها المستغلة المستعبدة، وما أن توارت الاشتراكية خلف حجاب... حتى توارت معها دولة (الرفاه)، عندئذ، ظهر سيد الغابة على الشاشة البيضاء وأمام جميع الناس يعلن دون حياء أو خجل رغبته في ابتلاع هذا الكوكب بسلاح ديكتاتورية سوقه الحرّة المستلبة كرامة الإنسان جوهر الديموقراطية الحقيقية، «لقد «كسب» الغرب الحرب الباردة، و غذّى هذا الانتصار – على نحو مؤقت – الأمل والتفاؤل، وللحظة هبّت نسمة يوتوبية ضعيفة على أرجاء العالم، ودفع الخوف من الشيوعية العالمية الدول الغنية إلى إنفاق البلايين على القنابل والدفاع والصواريخ، ومع كسوف الاتحاد السوفييتي، بدأ الحديث عن «السلام المقسوم» يصبح مسموعاً، والأموال التي تحررت من الإنفاق العسكري يمكن أن تتدفق نحو التعليم والصحة واحتياجات المجتمع. وللمرة الأولى منذ عقود كثيرة، تستطيع دول الغرب الغنية أن تركز جهودها على احتياجات العالم دون أن يعوقها خطر التخريب الشيوعي. ماذا حدث...؟ لم يتغير سوى القليل. إن حروباً وحشية: محلية وإقليمية ودينية تندلع بانتظام. يشير مسح الصراعات العالمية إلى «أن هناك صراعات إقليمية وحروباً أهلية أكثر من أي وقت مضى في هذا القرن... ولم يكد الإنفاق العسكري يقل، وتساءل عدد من المعلقين الذين استعادوا وعود ١٩٨٩: «ماذا حدث لتقاسم

السلام...؟» وتنتهي دراسة كئيبة عن العنف العالمي إلى أن الآمال التي قامت بنهاية الحرب الباردة في عالم أفضل وأكثر حكمة قد تبددت...

انقشعت التهديدات العالمية للديموقراطيات الغربية، واختفت الشيوعية بالفعل، وبدا العالم متهيئاً لاحتفال، لكن المزاج بقي كئيباً منذراً بالسوء، وبعث عدد من الكتب التي تتابع صدورها شبح الانهيار العالمي والفوضى العالمية، لقد أصبحت الأمور أسوأ، وليس أفضل، يبدأ الاقتصادي البريطاني ستيورات لانسلي كتابه «بعد هجمة الذهب» بفصل مخطط المشهد العام: «حرب وركود في أوروبا، مجاعة في ثلث أفريقيا، هجرة متزايدة لا تتوافر لها أسباب الحياة، بيئة عالمية متدهورة، تآكل الاستقرار السياسي والاقتصادي في كل أنحاء الغرب».

وقد يتوقع المرء أن معادياً صلباً للشيوعية مثل زيجنيو بريجنسكي سيبدي ابتهاجه باختفاء الشيوعية السوفييتية. لا، ليس الأمر هكذا، إنه يعنون تأملاته عن فترة ما بعد الحرب الباردة: «خارج نطاق السيطرة» وهو يرى زيادة اشتعال الحروب الإقليمية وانتشار أسلحة الدمار الشامل والولايات المتحدة غارقة.

يكتب: «إن الأزمة في عالم ما بعد الشيوعية يمكن أن تتعمق»، وتؤدي إلى «عودة ظهور ديماغوجية ألفية»، وحروب بين دول الشمال والجنوب، ويمكن أن يقوم عندها «تحالف جديد بين الدول الأشد فقراً — ربما بقيادة الصين — ضد الدول الغنية» صامويل هنتنجتون: مناضل صلب آخر من مناضلي الحرب الباردة يختلف مع مخطوط بريجنسكي، لكنه يتنبأ كذلك بإراقة الدماء والانهيار. يقرر في كتابه «صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي»، إن «لحظة الفرح الطاغي ونهاية الحرب الباردة فجرت وهم الانسجام» هذا الأستاذ الخطير من هارفارد يتنبأ «بقيام عالم من الصراع العنصري والصدام الحضاري»، ويخطط حرباً عالمية تنشب بين الولايات المتحدة والصين تؤدي إلى دمار نووي، وقيام إسبانية — برتغالية جديدة — غير محسوب حسابها — في الولايات المتحدة، تتهم نخبة «الواسب WASP» بالمسؤولية عن هذا الدمار. في الوقت ذاته تندفع «حشود»

من الأفارقة إلى حطام السفينة الأوروبية الغارقة. وإذا أمكن تفادي الحرب، ينكر هنتنجتون فيما إذا كان على الغرب المتوعك الذي أنهكه «الانحطاط الأخلاقي والانتحار الثقافي والتفكك السياسي» أن يخضع للأمم الإسلامية والآسيوية. إن المستقبل يبدو عبوساً... «فهل يستطيع الغرب أن يجد نفسه، أو سيعمل تفسخه الداخلي على التعجيل بنهايته؟!! ولعل المزاج المعاصر يمكن اقتناصه على نحو أفضل من كتابات الصحافي روبرت د. كابلان، في تقريره عن الفوضى والتفكك في كل أنحاء العالم، والمنشور بعنوان «نهايات الأرض»، انتهى إلى القول: «إننا خارج نطاق السيطرة»، فأوروبا وأمريكا الشمالية خاضتا حربين عالميتين ثم حرباً باردة ليجدا أنهما تجتاحهما أمراض وبائية مثل «الإيدز» وكوارث بيئية وجريمة منظمة.. وأحوال متردية... «إضافة إلى تزايد بشري على مستوى العالم. واشتداد الكوارث في كل أرجاء العالم يهدد بأن يغرق الرخاء والحريات المقلقة في الغرب، «إن الحقيقة المبتذلة هي أن المستقبل سيكون قاسياً ومؤلماً وعنيفاً وغير مؤكد...».

وأخيراً، قال كابلان: بأن الديموقراطية ذاتها أصبحت منظوراً مشكوكاً فيه لمعظم أرجاء العالم، فهو يكتب: «إن جهود فترة ما بعد الحرب الباردة» لفرض الديموقراطية تخلو من منطق معقول، «نحن نصوب البنادق إلى رؤوس شعوب العالم النامي، ونقول لهم: «تصرفوا كما لو أنكم قد مررتم بتجربة الاستنارة الغربية... تصرفوا كما لو أن ٩٥٪ من شعوبكم متعلمون... تصرفوا كما لو أنه لا توجد بينكم صراعات عرقية أو إقليمية دامية..». ويقدم أمثلة وافرة: «انظروا إلى هايتي» حيث حاول ٢٢ ألف جندي أمريكي إعادة «الديموقراطية» في ١٩٩٤، حيث لم يشارك سوى ٥٪ ممن لهم حق الانتخاب في ممارستها، وحيث تهددهم المجاعات والكوارث على نحو دائم... عند كابلان ومراقبين كثيرين. فإن انتصار الديموقراطيات الغربية في الحرب الباردة لم يؤد إلا إلى الغم والاكتئاب»(١٠٠). وبكلام آخر: إن «الديموقراطيات» الغربية، القائمة على المال الحرام، والتي يقودها (عيّارون شطار)، كشفت عن قبح

وجهها بعد أن فازت – مرحلياً – في ملعب الصراع الطبقي، فبعث انتصارها هذا في النفس البشرية الغم والاكتئاب، وبشر بمستقبل يتراكز على كف عفريت، وذلك بعد أن أنشبت الرأسمالية مخالبها في الجسم الجمعي للبشرية لبلعه دون غصّة.. لبلعه بتوحش لا مثيل له في التاريخ، حيث انتصرت – موقتاً – شريعة الغاب، التي أخذت تقود مستقبل الإنسان إلى الهاوية، مبتدئة بـ (الدمار – الدعارة – المخدرات – المافيا... إلخ)... وكل هذه الأسواء، التي أفرزها انتصار «الديموقراطيات» الغربية الرأسمالية، كشفت عنها الماركسية بقوانين علمية، وبيّنت طريق الخلاص منها... بيّنت أن كرامة الإنسان لا تتحقق إلاّ في العيش الكريم الذي تفرزه الملكية المشتركة... على هذا المحور فقط، أكدت الماركسية قيام الديموقراطية الحقيقية... وهذا يعني أن لا ديموقراطية حقيقية إلا في القضاء على الرأسمالية المتوحشة، التي تتابع وبتسارع أكل الإنسان لحماً ورميه عظماً في سلّة المهملات بعد أن تحلّ آلة متطورة محلّه. «في عام ١٩٩٦ زاد عدد السكان الذين يبحثون عن فرصة عمل من غير جدوى في بلدان التنمية والتعاون الاقتصادي على ٤٠ مليون مواطن، ومن الولايات المتحدة الأمريكية شمالاً وحتى استراليا جنوباً ومن بريطانيا العظمى غرباً وحتى اليابان شرقاً، ينخفض على نحو سريع المستوى المعيشي الذي تمتع به الجمهور العام في الأمم الرائدة في الاقتصاد العالمي»(١٠١)، والسؤال هنا!

– لماذا انخفض المستوى المعيشي..؟

انخفض، بعد أن تنكرت الرأسمالية لدولة (الرفاه)، التي رعتها لا حبّاً بمواطنيها... بل لصرفهم عن التفكير بالاشتراكية، وبعد زوال هذا السبب، فلت الوحش من محبسه، وأخذ يدفع الناس نحو الإملاق... نحو الجحيم، ولا جحيم أكثر استعاراً من جحيم البطالة التي «ستهدد خمسة عشر مليون عامل ومستخدم آخرين، في الاتحاد الأوروبي في السنوات القادمة، أي أنها ستهدد عدداً يكاد يساوي عدد المسجلين في صيف عام ١٩٩٦ بصفتهم عاطلين عن العمل»(١٠٢)، وعاطلين عن العمل، يعني، نزع كرامتهم، وإنزال الذّل والمهانة

بهم، وكل هذا، يجري من خلال ركض الرأسمال وراء القيمة الزائدة... وفي ركضه هذا يعمل الرأسمال الأكبر على بلع الأصغر في إطار المنافسة على هذه القيمة، «إن ألمانيا والاتحاد الأوروبي أضحيا فريسة دسمة للذئاب الجائعة في حلبة المنافسة الشمولية»(١٠٣)، والذئاب الجائعة المسعورة، أخذت راحتها في هذه الفترة من العملية التاريخية التي غاب فيها شرطي البلدية، فراحت تسرح وتمرح، دافعة منتجي الخيرات المادية إلى الدرك الأسفل من العيشة والضنك، و«يتوقع المهيمنون على مصائر الاتحادات والمؤسسات الصناعية أن الأمر لن يستمر طويلاً، حتى نرى في الدول الصناعية أفراداً ينظفون الشوارع بالسخرة، أو يعملون خدماً في المنازل قصد الحصول على ما يسد الرّمق»(١٠٤).

يا إلهي!!

أي مستقبل هذا، ينتظر البشرية بعد أن تلقفت الرأسمالية الكرة في ملعب الصراع الطبقي... ولضمان استمرار تلقفها هذا، رفعت شعار الوحدة ضد الآخر. «لقد صارت الأممية التي كانت، فيما مضى من الزمن، الشعار الذي اخترعه القادة العماليون في الحركة الاشتراكية الديموقراطية ليواجهوا به تجار الحروب الرأسماليين — صارت شعار الطرف الآخر من أجل ليس بالقصير»(١٠٥)... صارت هكذا، لنهب البشر وقتل مستقبلهم.

أقول:

- **الرأسمالية**: تفرز وبتزايد العاطلين عن العمل، هذا أولاً.
- **الاشتراكية**: خلت مجتمعاتها من عاطلٍ واحدٍ عن العمل، كما مرّ معنا — هذا ثانياً.

في أيهما تتحقق الكرامة الإنسانية..؟

ما من عاقل يمكنه القول إلاّ في (ثانياً)... وهذا يعني أن الاشتراكية تحقق الكرامة الإنسانية التي هي جوهر الحرية، ومركز الديموقراطية الحقيقية... وحتى لا يحدث هذا تخوض الإمبريالية حرباً ضروس ضد الآخر للفّ حبل سوقها الحرّة حول عنقه. «هكذا إذن يصبح الخضوع لحكم أسواق المال ضرية

للديموقراطية. حقاً لا يزال يحق لكل مواطن التصويت، ولا يزال السياسيون، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في ألمانيا، يسعون للموازنة بين مصالح الفئات الاجتماعية المختلفة لكسب ود الأغلبية، ولكن ومع هذا، فإن ما يتحقق بعد إجراء الانتخابات يقرره الناخبون القائمون على إدارة الأموال. ولا مجال للحديث عن الأخلاقيات هنا. فالمكلف، بحكم مهنته، بإدارة الأموال، عليه أن يسعى إلى تحقيق أكبر معدل ربحية لهذه الأموال. وكيفما كان الحال، فإن الأمر الذي لا شك فيه هو أن هؤلاء قد صاروا يضعون اليوم على طاولة المناقشة، كل الإنجازات التي تحققت إثر صراع طبقي دام مائة عام وبعد سياسات إصلاحية، كانت ترمي إلى تحقيق التوازن الاجتماعي.

ولعله من سخرية القدر أن النجاح العظيم الذي حققته الاشتراكيات الديموقراطية في الحد من هيمنة رأس المال، هو الذي يدفع الآن إلى السيادة الشمولية الجديدة للنظام الرأسمالي. فالارتفاع المستمر في الأجور وسياسة الرعاية الاجتماعية الحكومية في الخمسين سنة الماضية، كانتا قد خلقتا تلك الطبقة الاجتماعية المتوسطة التي تعمل بمدخراتها الآن في أسواق المال، ولم تشهد العصور الماضية، قط هذا العدد الكبير من الناس الذين تزيد دخولهم على ما ينفقونه على وسائل المعيشة. وفي الواقع فإن هؤلاء هم الذين يزودون، بما لديهم من مدخرات، مؤسسات التأمين والمصارف وصناديق الاستثمار بالمادة الأساسية الضرورية للهجوم على النقابات ودولة الرعاية الاجتماعية. فحسب تقدير قسم الدراسات في المصرف الألماني (Deutsche Bank) تدير صناديق الاستثمار بمفردها سبعة بلايين مارك من هذه المدخرات. وهناك عشرة بلايين أخرى تديرها مؤسسات مختصة باستقطاب المدخرات التي يراد منها توفير مستلزمات العيش بعد بلوغ سن التقاعد، وهو أمر تخصصت به في ألمانيا شركات التأمين على الحياة. وهكذا فإن صاحب الدخل الجيد من أبناء الطبقة الوسطى هو غالباً ما يكون الجاني والمجني عليه، والرابح والخاسر في نفس الوقت. ففي حين تحقق له مدخراته لدى شركة التأمين ربحية متزايدة يتآكل دخله بفعل العبء الضريبي

المتزايد. كما يمكن لمديري صندوق الاستثمار الذي يسهر على مدخراته أن يكون السبب في فقدانه لفرصة العمل، وذلك إذا شاءت المصادفة واشترى صندوق الاستثمار بمدخراته ومدخرات الآخرين أسهم المؤسسة التي يعمل فيها، وكلفوا مجلس إدارة جديداً بإدارة المشروع مطالبين إياه بضرورة رفع جدارة العاملين وتسريح من سيفيضون عن الحاجة منهم، رغبة في زيادة الربحية وحرصاً على مصلحة المستثمرين أموالهم في الصندوق»(١٠٦).

على نفسها جنت براقش: مدخرات العمال، تتحول إلى قوة داعمة لديكتاتورية الرأسمال، لتحويلهم في تطور لاحق إلى:

- منظفي شوارع بالسخرة.
- خدم في المنازل لسدّ الرّمق.

وسدّ الرمق مكسباً عظيماً إذا ما أصبح العامل على شفا حفرة من الإملاق... وإذا ما أصبح هكذا، تحوّل كل ما فوق الرّمق من قيمة زائدة إلى جيوب ناهبيه «وعلى هذا النحو تتحول الدول إلى مؤسسات تنفذ إعادة توزيع الثروة والدخل القوميين من الفئات الموجودة في أدنى السلّم الاجتماعي إلى الفئات الموجودة في قمته. ويؤكد على هذه الحقيقة القانون الضريبي الذي قدمته الحكومة الاتحادية في صيف عام ١٩٩٦، مفتتحة به المناقشات البرلمانية بشأن الموازنة الحكومية للعام القادم. فحسب هذا القانون ستنخفض عوائد قطاع الأفراد والقطاع الحكومي بمقدار ١٤،٦ مليار في العام الواحد، وبالمقابل، سيخفف العبء الضريبي بالنسبة للمشروعات وللعاملين لحسابهم الخاص بنفس المقدار»(١٠٧)... وبنفس المقدار هذا، تهرب ديكتاتورية الرأسمال، لتختبئ بخبث قلّ نظيره تحت يافطة الديموقراطية المزيفة، «فالديموقراطية التي يُجرى الدفاع عنها الآن هي تلك التي تدافع عن — وتحمي — مصالح الأثرياء والمتفوقين اقتصادياً، وتضر بالعمال وبالطبقة الوسطى، وهو ما نراه في الدعوة للتخفيض المستمر للأجور وزيادة ساعات العمل، وخفض المساعدات والمنح الحكومية تحت حجة «تهيئة الشعوب لمواجهة سوق المنافسة الدولية»(١٠٨)... وبعبارة أخرى: تهيئة

الشعوب على تحمّل ألم طحنها في السوق الدولية، التي تتنافس فيها الاحتكارات على نسف حصة الأسد من المال الحرام... وللفوز بهذه الحصة، تعمل كل إمبريالية على رفع وتيرة نهب شعبها، لرفع درجة قوتها في مواجهة الإمبرياليات الأخرى... على هذا المحور تشكل منافسة الضواري في السوق الدولية الاستبداد الطاغي والمتضاد 180 درجة مع الديموقراطية الحقيقية، «أن الديموقراطية الحقة تمارس فقط حينما يكون الناس في مأمن ضد غوائل الفقر والمرض والبطالة، وأنه ما لم يتحقق الاستقرار والتقدم في حياة الناس، سيبقى الناس مهددين بأن تحكمهم نظم تسلطية»(١٠٩)... بل سيبقى الناس تحت رحى الرأسمال، ما دام الأخيار غير متحدين لتحطيم هذه الرحى... غير متحدين لتحطيم رؤوس الأشرار الذين فازوا في هذه المرحلة التاريخية بالقبض على الكرة وشوطها وفق مصالحهم في معلب بدأوا تخطيطه على خدمة نهبهم بتقانة، ولذلك فمنذ «مطلع عام ١٩٩٦ تستغل اتحادات أرباب العمل الألمانية ما أصاب النقابات العمالية، حديثاً، من ضعف ووهن، فراحت تشن عليها هجوماً تلو الآخر، وبتشجيع من الحكومة الاتحادية، طالب رئيس اتحاد الصناعيين الألمان أولف هنكل Olf Henkel في مايو ١٩٩٦، بأن تلغى في جميع القطاعات الشروط العامة للعمل التي كان قد اتفق عليها مع النقابات، وذلك بهدف تقليص مستوى الأجور التي تُدفع للعامل عند مرضه. وبعد شهر من ذلك بدأ فرنر شتومفه Wemer Stuvmpfe، رئيس اتحاد صناعة الصلب والحديد، محاولته الأولى الرامية إلى إلغاء حق الإضراب. فاتحاده يريد أن تقتصر المفاوضات الخاصة بعموم المصانع على النسب المئوية التي يتعين رفع الأجور وفقها وعلى تحديد مدة العمل السنوية. أما الأمور الأخرى، من قبيل ساعات العمل الأسبوعية أو موضوع المبالغ التي تُدفع للعامل إبان عطلته السنوية أو في حالة مرضه، فإنها ينبغي أن تُحدد من خلال المفاوضات المباشرة التي يجريها العمال مع أرباب عملهم في كل مصنع. وبناء على هذا، فإنه يطالب بإلغاء حق النقابات في الإضراب كوسيلة لتحقيق تصوراتها بشأن هذه الأمور، وذلك لأن «الإضراب لم يعد يتماشى مع طابع العصر

أصلاً»، ولأن الإضراب يعني «خسارة المشروعات لأسواقها»، وعلى ما يبدو لم يدرك Stumpfe بأن محاولته هذه تتعارض مع حق مضمون دستورياً»(١١٠)... بلى والله: إنه يدركها بامتياز، غير أن تغيّر ميزان القوى في ملعب الصراع الطبقي لصالح الأشرار، أعطاه فرصة ليلعب لعبه غير النظيف ضدّ الطبقة العاملة من أجل بلع المزيد من حقوقها، فـ:

- تقليص مستوى الأجور.
- إلغاء حق الإضراب.

وفق هذه المعادلة... يصبح الهجوم «ديموقراطياً» في نظر الأشرار لإرواء ظمأ الرأسمال من النهب. والسؤال الذي يثور الآن!

- ماذا حدث لشعوب المنظومة الاشتراكية بعد أن سقطت في أتون «الديموقراطية الإمبريالية»؟

روسيا التي كانت الاتحاد السوفييتي، وكان هذا الاتحاد دولة عظمى تُدافع في إطار الديموقراطية الحقيقية عن المنهوبين والمعذبين في الأرض، والذين أصبحوا بعد غيابها كالأيتام على مائدة اللئام.

نعم: روسيا ذاتها أصبحت نهباً للأشرار. «فقد كشفت السلطة السويسرية أنه وصل منذ عام ١٩٩٦ من روسيا الواقفة على حافة الإفلاس إلى البلدان الغربية نحو خمسين مليار دولار جرى جمعها بطرق غير شرعية. ونجد ضمنها أموال المافيا الروسية»(١١١). والمافيا من خلف حجاب، تتحكم بمصير روسيا اليوم، وتبرمج مسارها وفق منهج «ديموقراطية» شريعة الغاب الرأسمالية، التي تعني في جوهرها إطلاق يد النهابين الساقطين في الثروة الوطنية. «وصرح، حديثاً، الكسندر كوليكوف، نائب رئيس لجنة الأمن في مجلس الدوما التشريعي، أن روسيا تخسر سنوياً ما يقارب /١٥/ ملياراً من الدولارات بسبب الفساد»(١١٢)، ولا غرابة في ذلك أبداً، فالفساد من طبيعة «الديموقراطية» الإمبريالية، ومن هذه الطبيعة بالذات يجري خصخصة القطاع العام في بلدان المنظومة الاشتراكية السابقة... أي نهبه رأد الضحى. «ففي البلدان الاشتراكية السابقة، وبعد انهيار

التجربة الشيوعية كان اللجوء إلى الخصخصة بالدرجة الأولى، تعبيراً عن الرغبة في التخلص من أحد أهم أسس البناء الاشتراكي، أي الملكية العامة لكل وسائل الإنتاج، والانتقال من هيمنة الدولة الكاملة، على العملية الاقتصادية والتحوّل من المركزية المطلقة في الاقتصاد إلى اقتصاد السوق. وكان هذا يعني تفكيك القطاع العام من أجل خلق قطاع خاص كان غائباً عملياً في ظل النظام الاشتراكي، وإعادة التربة المناسبة للانتقال إلى الرأسمالية. وقد ارتسمت هذه العملية في تلك البلدان بالتسرّع وعدم مراعاة الشروط الضرورية، القانونية والاقتصادية، الكفيلة بجعل عملية إعادة توزيع الثروة عادلة اجتماعياً، وذات جدوى اقتصادية. وكأنه كان المطلوب هو إنجاز هذه العملية بأسرع ما يمكن وتسهيل عملية تراكم الرأسمال الخاص، وخلق الطبقة الرأسمالية الجديدة، لقطع الطريق أمام احتمال العودة عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلدان.

لذا، اتسمت هذه العملية، خصوصاً في روسيا، بتجاوزات فاضحة وخرق للقوانين، حيث وصفها أحد الاقتصاديين الروس بأنها «أكبر عملية لصوصية في التاريخ»، فقد جرى تحويل المؤسسات الكبرى التابعة للدولة في الميدان المالي وميدان التجارة الخارجية والداخلية، وكذلك في القطاعين الصناعي والخدماتي وفي مجال الإعلام، إلى شركات مساهمة استولى المتموّلون الجدد على معظم أسهمها بأبخس الأثمان، فقد بيع ٣٢٤ مصنعاً بسعر وسطي يقل عن ٤ ملايين دولار للمصنع الواحد. فجرى بيع شركة «أورال ماش» عملاق صناعة السيارات والشاحنات بـ ٣,٧ مليون دولار، ومجمع تشيليابنسك للميتالوغيا بسعر مماثل، أما مصنع كوفروف للتجهيزات الذي كان يمد الجيش وقوات الأمن الداخلي وأمن الدولة بالأسلحة الفردية، فقد تمّ بيعه بـ ٢,٧ مليون دولار... إلخ.

هكذا تمكنت حفنة من كبار المتموّلين الجدد في روسيا من وضع اليد على أهم قطاعات الاقتصاد الروسي»(١١٣).

أقول: الثروة الوطنية في روسيا، نُهبت في أكبر عملية لصوصية في التاريخ...

والثروة الوطنية هذه، عندما كانت توزع من الأعلى إلى الأسفل... كانت قاعدة للديموقراطية الحقيقية التي تحفظ كرامة الإنسان وسعادته، وفي الوقت نفسه كانت إلى جانب المعذبين في الأرض، تقدم لهم كل عون للخلاص من عذاباتهم هذه والتي تفرزها طبيعة الرأسمالية... وهذا يعني أنها كانت عقبة كأداء في طريق نهب الإمبريالية للشعوب... ولإزالة هذه العقبة، حشدت الإمبريالية كل الأشرار في العالم وصرفت مليارات الدولارات لتدمير الاتحاد السوفييتي، وما أن تمّ لها ذلك، حتى أخذت ببرمجة الكرة الأرضية بقوة السلاح لتكون بقرة حلوب لاحتكاراتها التي تشكل طاقم البيت الأبيض، وعلى شبه هذا الطاقم أخذ يتشكل طاقم الكرملين ليكتمل إطار أبشع ديكتاتورية للبطش بالبشر، ومن هنا، «فإن كافة المزايا والحسنات التي ادعتها روسيا الجديدة لنفسها كدولة تريد أن يسود فيها القانون تتلاشى بصورة رئيسية تحت مطارق نقد القوى والسلطات التي تعتبر كشريكة في السياسة امتداداً للمشاركة في الملكية الخاصة من خلال خصخصة الشقق والمزيد من الإمكانات في ميدان الأراضي والملكية العقارية الفعلية»(١١٤)، ولمثل هذا بالضبط، عمل العاملون في البيت الأبيض، ليسود الرأسمال العالم... ولسيادته بتقانة، يجب أن يكون المقود بيد نقابة النهابين... ومن هذه النقابة جاءت السلطة في روسيا، لتنهب وشركائها المتمولين الجدد ما بنته الجماهير الشعبية بعرقها ودمها. النهابون في الغرب، كانوا يصفقون للتافهين الذين عشقوا «ديموقراطيتهم» وعارضوا «ديكتاتورية البروليتاريا»، وسموهم بـ «المنشقين»، وما أن دمّر الغرب وشياطينه التجربة الاشتراكية الأولى، وعاد «منشقوهم» ليروا بأعينهم كيف أصبحت:

- روسيا «الديموقراطية» خراباً.
- لقمة سائغة للحرامية.
- نصف شعبها متسولاً.
- البطالة حدث ولا حرج.

هذه حال روسيا بعد أن أصبحت «ديموقراطية»... هذه حالها بعد أن سقطت في

سعير الإمبريالية، وعند هذه الحال، توقف حديث الغرب عن المنشقين، تماماً، كتوقف الكلاب عن النباح عندما تنحني لتأكل، وعلى هذا المحور «مضت الآن سنوات، ولم نقرأ في صحف الغرب الواسعة الانتشار، أخبار الكتاب والفنانين والعلماء الذين وصفتهم هذه الصحافة بـ«المنشقين» لأنهم «انشقوا» تمرّدوا على سلطتهم الحاكمة الديكتاتورية، في ما كان يُسمى بالمعسكر الشرقي أو الشيوعي أو بلدان الستار الحديدي، ... لقد انهار المعسكر الشرقي، وفتح الستار الحديدي على هذا العالم الذي كان يخيفهم، فأخذ يتناول جرعات «الديموقراطية» وأدوية قوانين السوق الآتية من الغرب، لكي يشفى من أمراضه ويستعيد عافيته كما يقولون. وسكت «المنشقون» وناموا على حرير انتصارهم النهائي الذي توّج عدة انتصارات في الحرب الباردة:

بوريس باسترناك حصل على جائزة نوبل للآداب، ونُصّب الكاردينال فوجتيلا بابا غير لاتيني لأول مرّة في التاريخ، ونال العالم زاخاروف جائزة هو الآخر ومات قرير العين، و«أقطعوا» الأديب المعروف هافل «ملكية» في ما كانَ يعرف بتشيكوسلوفاكيا، وأصبح رئيساً لجمهورية تشيكيا، يشرب كل يوم حتى الثمالة، بكل اطمئنان، مسنوداً بأوروبا الموحدة وحلف الأطلسي، متبادلاً الأنخاب مع المنتصر الآخر يلتسين الذي هدم جدران البرلمان على أعضائه، وملأ جيوبه وجيوب ابنته وصهره من دولارات البنك الدولي والخزينة الأمريكية والمفوضية الأوروبية... وخرج المنشق الأكثر شهرة شرانسكي من جحيم الدكتاتورية السوفياتية، وتمتع أخيراً بحريته فأصبح اليوم وزيراً لداخلية إسرائيل، بعد أن كان يقف في غرفته المتواضعة في موسكو، أمام كاميرات الغرب وقد زُيّنت الجدار، خلفه، صورة نجمة إسرائيل ولحية هرتزل الأنيقة...! وجب التذكير بهذه «الإنجازات» لكي تصحّ المقارنة مع ما وصلت إليه الأمور الآن، بعد المعارك الضارية في سبيل الحرية والديموقراطية والليبرالية، والتي كانت الحرب الباردة مسرحاً لها، وتخلّلتها محطات لا تنسى: ثورة المجر عام ١٩٥٦، عندما تسلّل اللاجئون والمنشقون من غابات ألمانيا (الغربية حينذاك)

مسلحين تسليحاً جيداً تدعمهم إذاعة (الحرية) من صوت أمريكا، المنصوبة على حدود المجر، فاجتاحوا شوارع بودابست وعلّقوا الشيوعيين على أشجارها، من أرجلهم... إلى «ربيع براغ» الذي تصدى فيه شبابها للدبابات السوفياتية، بصدورهم المزينة برقع ماركات الألبسة الشهيرة في الغرب، تعلوا شفاههم سجائر مارلبورو ونستون وكنت... أو فقاعات علكة «الشيوينغ غام»..!

وفي تلك الأيام، كان الجميع، تقريباً، يتعاطفون مع مناضلي «الحرية» هؤلاء، حتى أولئك الاشتراكيين جداً من أصحابنا الذين يتباكون اليوم على الاتحاد السوفياتي، إنما باستثناء حفنة من «الرجعيين الإسلاميين» الذين أعلنوا أنهم ضد هذا النوع من «الربيع» الذي يجعل «المثقفين» التشيكوسلوفاكيين يمزقون جوازات سفرهم، ويلجأون إلى إسرائيل طلباً للحرية والكرامة، لأن طبيعة المعركة لا تسمح بالوقوف معهم في خندق واحد...!

وخيّل إلينا أن الستار قد أسدل نهائياً بعد الانتصار... فقد انهارت المنظومة الاشتراكية، وانتهت الحرب الباردة، وانتهى «التاريخ» أيضاً..! وبدأت مسيرة جديدة جارفة: العولمة والنظام العولمي الجديد، و«سيادة الديموقراطية وحقوق الإنسان»، وبدأ النظام الجديد يرسّخ أركانه ويفرض قوانينه «الديموقراطية»، ويأمر وينهي، فيضرب هنا، ويعزل هناك، ويعاقب ويحاصر هذا البلد أو ذاك، ممن لا يلتزمون بمكافحة «الإرهاب» و«احترام» حقوق الإنسان.

لكن هذا النظام الرائع، المفعم بالثقة والتفاؤل على طريقة كلينتون، والوعود المغرية، ما لبث أن بدأ يهتز في عقر داره ومن داخله بالضبط، فقد فوجئ المؤتمرون حول اتفاقية التجارة العالمية في سياتل، بالناس يتجمعون من كل صوب، بعفوية تامة ودون سابق تنظيم، ويتظاهرون بصخب ضد هيمنة الشركات عابرة القارات. كما فوجئ أعضاء منتدى دافوس، المعزولة بالثلج والجبال والشرطة المدججة بالسلاح، بالناس البسطاء يقتحمون خلوتهم، ويحطمون بسلّم خشبي أخذ من الطريق، واجهة «مكدونالد» أحد أكبر «أخطبوطات» عابرات القارات...!

ولم يقل أحد هذه المرّة: هذه مؤامرة من موسكو... موسكو لم يعد لها حساب في المؤامرات..!

وقبل هذا، وبالتلازم مع هذا، عاد سولجنتسين الشهير غاضباً حانقاً إلى بلده روسيا، وقرّر «منشق» آخر لا يقل شهرة، هو الكسندر زينوفيف «اللجوء» إلى روسيا بعد عشرين سنة من الإقامة السعيدة في الغرب!

كيف حصل هذا؟ ما هذا العقوق، وماذا جرى لهؤلاء الناس الذين فتح لهم الغرب ذراعيه بالطبول والزمور»(١١٥)... فتح لهم ذراعيه هكذا، ليوسّع دائرة احتواء الاتحاد السوفييتي تمهيداً لتدميره، وما أن تمّ له ذلك، حتى انتفت حاجته إليهم... بل وسحب احترامه لهم... فعادوا إلى «وطنهم» الذي انشقوا عليه ليروا «إن التاجر والمرابي ميشكا يكتشفان في الاتحاد السوفييتي السابق وفي أوروبا الشرقية أرضاً جديدة وخدماً للدين جدداً»(١١٦)... يكتشفان ذلك، بعد أن غرق مواطنو المنظومة الاشتراكية في جحيم البطالة التي أفرزتها «الديموقراطية» الإمبريالية، والتي بها أصبحت بلدانهم «الحقل الأول للاستثمارات الأمريكية، في الوقت الحاضر، فالبطالة التي عمّت القسم الأكبر من شعوبها، بعد أن كانت تخلو حتى من عاطل واحد عن العمل في ظل أنظمتها الاشتراكية السابقة، إلى جانب التضخم الفاحش، صنيعة «المافيا» المتفشية مع العولمة» وارتفاع الأسعار بمئات بل بألوف المرات، قد دفع بما يزيد على نصف شعوبها إلى الجريمة لتأمين لقمة العيش، وهرب القسم الأكبر من مهندسيها وعمالها الفنيين، للعمل كخدم وصناع في البلدان الغربية»(١١٧).

نعم: «الديموقراطية» الجديدة جداً، والتي فصّلها البيت الأبيض على قدر مصالحه الطبقية، دفعت شعوب المنظومة الاشتراكية إلى:

- الجريمة للحصول على لقمة العيش.
- نزوح الكوادر العلمية للعمل في الغرب خدماً لسدّ الرمق.

على هذا المحور، «خرجت» شعوب البلدان الاشتراكية من «العبودية» إلى «الحرية». «ففي روسيا وصل ما يزيد على نصف الشعب، في فترة «الانتقال إلى

الحرية المطلقة الموعودة»، إلى درجة شبه المتسولين، وهبط الدخل للسنة الرابعة على التوالي بمعدل ١٤٪، واستولت «المافيا» على كافة المؤسسات التي فرض عليها التخصيص من قبل صندوق النقد الدولي، بينما اضطرت الدولة إلى بيع مخزونها من المعادن الثمينة لكي تدفع قسماً من رواتب التقاعد، وخاصة لضباط الجيش، التي خفضت إلى درجة الكفاف، بسبب التضخم»(١١٨).

أقول: سقطت البلدان الاشتراكية في صقر، بعد أن أسقطتها الإمبريالية في أتون «الديموقراطية البرجوازية»، مبعدة إياها عن الاشتراكية إلى واقع جديد، يؤكد صحة وسلامة الماركسية بامتياز، حيث يقول ماركس: «هل أن البرجوازية... أحرزت يوماً ما دون أن تكره أفراداً وشعوباً برمتها سواء بسواء على السير في طريق شاق، في طريق الدمار والأقذار والفقر والمذلة.

وبعد الثورة الاشتراكية فقط «لن يبقى التقدم البشري شبيهاً بذلك الصنم الوثني الكريه الذي لم يكن يرغب بشرب الرحيق إلا من جماجم القتلى»(١١٩). ولقد استطاع هذا الصنم الوثني الكريه أن يفوز في قلب المعادلة في ملعب الصراع الطبقي، وأن يشرب الرحيق:

- من جماجم القتلى الذين بنوا الاشتراكية.
- من جماجم القتلى في أفغانستان والعراق.. إلخ.

يشرب الرحيق هكذا.. يشرب القيمة الزائدة ليتراكم رأسماله.. هذا هو محور (الديموقراطية) الإمبريالية. يقول ماركس: ((كلما ازدادت الثروة الاجتماعية والرأسمال العامل، وأحجام نموه وطاقته، وبالتالي، كلما ازدادت الكمية المطلقة للبروليتاريا وقوة عملها المنتجة، كلما ازداد الجيش الصناعي الاحتياطي.. بَيْدَ أنه بقدر ما يزيد هذا الجيش الاحتياطي بالمقارنة مع جيش العمل العامل، يزيد كذلك فائض السكان الدائم، الذي يتناسب فقره طردياً مع آلام كدح الجيش العمالي العامل. وأخيراً كلما كثرت الفئات الفقيرة من الطبقة العاملة والجيش الصناعي الاحتياطي كلما ازداد الإفقار الرسمي. ذلك هو القانون العام المطلق للتراكم الرأسمالي))(١٢٠).. وهذا القانون، هو، القلب

من الرأسمالية، ولاستمرار نبضاته، لابد من استمرار الإفقار الرسمي ... أي استمرار الذل والمهانة، وعلى هذا المحور وبالضرورة تتركز (الديموقراطية البرجوازية).

الواقع المعاش يؤكد صحة هذا.. يؤكد أن هجوم الإمبريالية على بني البشر وسط مجازر تترفع الوحوش عن صنع مثلها، ما هو إلا:

- ليتقاسم النهابون المال الحرام (ديموقراطياً).
- لتتقاسم الشعوب الإملاق والجوع (ديموقراطياً).

على هذا المفصل من اللصوصية، يبرمج اليوم مسار العملية التاريخية، ولبرمجة بتقانة يصر الرأسماليون على (إعادة إنتاج علاقات الإنتاج القائمة وليس نقدها وتغييرها)(١٢١).. وبكلام آخر: الرأسماليون محكومون بإعادة إنتاج علاقات الإنتاج الاستغلالية.. بل وتطويرها على خط استغلالي صاعد، وذلك، للحفاظ على قدرة متزايدة، لقلبهم الطبقي على مصّ الدماء الضرورية لحياة نظامهم المتوحش، ومن هنا، يصعدون استغلال رأسمالهم من سيء إلى أسوأ في العملية التاريخية، إلى أن بلغ تصعيدهم هذا ذروة توحشه في رأسمالهم المالي، الذي أخذ طريقه (الديموقراطي) إلى اجتياح البلدان الأخرى لحبس شعوبها في بيت عبوديته لنهبها دون رحمة، ((وفي حقيقة الأمر أن تصدير رؤوس الأموال في مرحلة الإمبريالية قد اتسم بطابع الرياء الطفيلي وأن (فائض) رأس المال في بعض الدول الرأسمالية الإمبريالية قد هيأ الظروف للبحث عن المجالات الأكثر ربحاً، وقبل كل شيء في الدول المتخلفة اقتصادياً، ولقد كسبت الدول المرابية منذ فترة طويلة الكثير من الأموال من العمليات التجارية، وحصلت على الكثير من الأرباح لقاء بيعها لمنتوجاتها الصناعية في الدول النامية، وتبلغ نسبة الأرباح الإجمالية أكثر بكثير من رؤوس الأموال التي وظفت في هذه البلدان. ففي مرحلة الإمبريالية، توظيف رأس المال في الدول النامية يصبح فعالاً بالنسبة للإمبريالية، لأنه لا يوجد رأسمال محلي يكفي لإقامة المشاريع المحلية، ولهذا يستغل رأس المال الإمبريالي هذه القضية مما يعود عليه بالأرباح الكبيرة جداً،

ولقد بلغت قيمة الاستثمارات البريطانية منذ عام ١٨٧٥م وحتى ١٩١٢ ما يقارب ٢٠٢٩ مليون جنيه استرليني، بينما بلغت الأرباح الناجمة عن توظيف رأس المال في البلدان النامية خلال هذه الفترة نفسها ما يقارب ٣٥٣٨ مليون جنيه استرليني،

أن تصعيد عملية تصدير رؤوس الأموال قد أدى إلى الزيادة المتوقعة في القوى الإنتاجية، وظهرت في الدول الفقيرة اقتصادياً بعض المشاريع الصناعية، ونمت الأعمال التجارية الناجمة عن استغلال الأراضي ونتيجة لهذا وغيره تفسخ المجتمع الإقطاعي، واغتصبت أراضي الفلاحين واضمحل الإنتاج الناجم عن استخدام الأثمار، ومع اضمحلال العلاقات الاجتماعية القديمة عمل المستعمرون على تطبيق سياسة الحفاظ على أشكال الإنتاج التي سبقت الرأسمالية وتدعيمها بوسائل شتى، بما في ذلك دعم الممثلين الرجعيين من أنصار المرحلة الإقطاعية.

هذه السياسة وقبل كل شيء في مجال الزراعة التي يعمل فيها أكبر نسبة من السكان، وعرقلة عملية تكون السوق الداخلي، وكنتيجة لكل هذا تأخر نمو القوى الإنتاجية في الدول الاستعمارية نفسها.

ولقد حققت الإمبريالية، بسياستها هذه، إبقاء وتدعيم تبعية الدول المستعمرة، وأوجدت المعوقات لنمو الأشكال التقدمية للإنتاج فيها، وأخرجتها عن تطورها المستقل بوسائل شتى. ومن المعروف أن القسم الأساسي من رأس المال المنقول إلى المستعمرات، من أجل أهداف إنتاجية، قد أدى إلى تسريع التطور الصناعي، وعلى هذا الأساس، وضع مؤد لجو الإمبريالية بعض (النظريات)، لإعادة النظر بالطرق الاستعمارية القديمة. وفي واقع الأمر، قد تكونت الظروف في الدول المستعمرة والتابعة، حيث نشأت بعض الصناعات، مما أدى إلى ازدياد الارتباط الاقتصادي المحلي في الدول النامية برأس المال الإمبريالي.

ولقد أثر هذا، وقبل أي شيء، على القطاعات التي تنتج الخامات الزراعية

والمصنوعات الغذائية المحلية.

ومن المعروف أنه في هذه القطاعات من الاقتصاد الوطني المحلي في البلدان النامية، قد أقيمت تلك المشاريع الخاصة باستخراج وتصنيع المواد الخام، وكذلك المشاريع المنتجة للصناعات الخفيفة.

أما ما يخص الصناعات الثقيلة، فإن الاحتكارات الإمبريالية، وقد عرقلت عن قصد تطورها، وعملت على إبعاد الدول النامية المستعمرة والتابعة، عن إشادة الصناعات الوطنية اللازمة. ولكن هذا الوضع، في مجال الصناعة، لم يغير الطبيعة الاستعمارية التي تعيث خراباً في اقتصاد الدول التابعة والمستعمرة. وأكثر من هذا فقد عمل الاستعمار على تطوير الاقتصاد في هذه البلدان من جانب واحد، مما زاد ارتباط هذه البلدان برأس المال الاحتكاري.

هذا ولم يسخر إلا قسط ضئيل من راس المال الإمبريالي لتطوير هذه الصناعة. وعلى سبيل المثال قبل الحرب العالمية الثانية، لم يخصص رأس المال الاحتكاري لتدعيم صناعة الهند وغيرها من المجالات الاقتصادية إلا بنسبة ٢٠٪ من رأس المال الموظف في هذا البلد. أما القسم الباقي من رأس المال، فقد وضع في البنوك والتجارة والمواصلات والقروض الحكومية وما إلى ذلك. وبالطبع فإن نشاط رأس المال الأجنبي في هذا المجال أيضاً كان موجهاً للحصول على الربح الذي يساوي الربح في المجال الاحتكاري ومن أهدافه الأساسية كان إخضاع الحياة السياسية والاقتصادية في هذه البلدان النامية له، ولقد بين هذا ف.أ.لينين في كتابه (الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية) وقدم على سبيل المثال تمديد الخطوط الحديدية إذ كتب لينين في هذا المجال ما يلي:

(أن تمديد الخطوط الحديدية يبدو للوهلة الأولى من المشاريع السهلة وذات الطبيعة الديموقراطية والثقافية: هكذا هي من وجهة نظر (العلماء البرجوازيين) الذين يأخذون على عاتقهم مسألة تلوين العبودية بألوان زاهية براقة تروق أيضاً لدعاة البرجوازية الصغيرة. وفي حقيقة الأمر أن خيوط

الإمبريالية، والوف الشبكات الحديدية، هي التي تربط بين هذه المشاريع والملكيات الخاصة لوسائل الإنتاج، فقد حولت هذه المشاريع إلى وسيلة لاستغلال مليار إنسان في المستعمرات وشبه المستعمرات، أي أكثر من نصف سكان الأرض في الدول التابعة والعبيد المأجورين لرأس المال في الدول (المتحضرة))(١٢٢)، الرافعة راية (الديموقراطية) لتمارس تحت ظلها كل أنواع الخسة والنذالة في بلع حقوق الآخرين، فهي (متحضرة) لأنها:

- تستعبد عمالها.
- تستعبد الشعوب.

هذه العبودية المركبة، تتشابك خيوط عقدتها أكثر مع كل تطور لوسائل الإنتاج.. فتطور هذه الوسائل في ملكية الرأسماليين، يرفع درجة توحش (ديموقراطيتهم).. حيث تتسع وتتعمق الهوة بين التخمة والجوع بتناسب مع تطورها. ((ويبرهن ماركس بالاستناد إلى مادة فعلية غنية أن النمو العاصف للرأسمالية بعد عام ١٨٤٨ لم يؤد إلى تحسين وضع الجماهير العمالية الواسعة.

ويستخلص من ذلك استنتاجاً نظرياً هاماً هو (أن أي تطور لاحق لقوى العمل المنتجة على الأساس الفاسد الراهن سيؤدي حتماً إلى تعميق التباينات الاجتماعية وتفاقم التناحرات الاجتماعية))(١٢٣)، ومن تفاقم هذه، وتباين تلك، تولد ديموقراطية الفاسد الراهن.. وبمعنى آخر: تولد ديموقراطية الملكية الخاصة.. هذه الملكية التي أسست للمجتمع الفاسد – حسب تعبير روسو – ولا سبيل للعودة إلى المجتمع العادل إلا بالعودة إلى الأصل إلى الملكية المشتركة التي تلد الديموقراطية الحقيقية.. تلد (حكم الشعب نفسه بنفسه) في مجتمع خال من الطبقات.. وهذا هو جوهر الاشتراكية التي حددت الماركسية قوانينها. ((فعلى الرغم من أن استغلال الإنسان للإنسان يزول من الطور الأول للشيوعية إلا أنها لا تزال باقية هنا على حد تعبير ماركس (الامتيازات الطبيعية) مثل عدم المساواة في المواهب الفردية وفي المقدرة على العمل. وبالإضافة إلى ذلك هناك عامل متزوج وآخر عازب ورب عامل لديه من الأولاد

أكثر مما لدى عامل آخر. وبالنتيجة فإن أحدهم يتلقى بالفعل أكثر من الآخر، ويبدو أغنى منه. ولكنها تلك عيوب محتومة لا مناص منها في الطور الأول من المجتمع الشيوعي، الذي هو على حد تعبير ماركس (يحمل سمات المجتمع القديم الذي خرج من أحشائه، من جميع النواحي، الاقتصادية والأخلاقية والفكرية) وإذا كان الطور الأول من المجتمع الشيوعي لا يخلو من (سمات) الرأسمالية، فإن الطور الثاني يتخذ طابعاً مغايراً تماماً عندما تسود الشيوعية المكتملة

(وفي الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي، بعد أن يزول خضوع الأفراد المذل لتقسيم العمل ويزول معه التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي، وحين يصبح العمل، لا وسيلة للعيش وحسب، بل الحاجة الأولى للحياة أيضاً، وحين تتنامى القوى المنتجة مع تطور الأفراد في جميع النواحي، وحين تتدفق جميع ينابيع الثروة العامة بفيض وغزارة، - حينذاك فقط، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البرجوازي تجاوزاً تاماً، ويصبح بإمكان المجتمع أن يسجل على رايته: من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته)(١٢٤) ..وبعبارة أخرى، يسجل على رايته العزة والكرامة للجميع.. على هذا المفصل وحده تتحقق الديموقراطية الحقيقية.. تتحقق بعد أن تصبح وسائل الإنتاج في ملكية الجميع، حيث يصبح تطورها الذي يخلق تدفق الثروة في خدمة رفاهية الجميع، هنا، يصبح (الحق) البرجوازي في استغلال الجميع في خبر كان، وذلك بعد إعادة الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، فبقاء هذه الملكية في قبضة لصوص الدنيا.. يعني بقاء الديكتاتورية المتوحشة لبلع الحق بتصاعد يتناسب مع تطور القوى المنتجة، فـ((مع تطور الرأسمالية، تجري عملية تردي وضع البروليتاريا النسبي. وهذا يعني أنه بقدر ما تتنامى الثروة الاجتماعية، بقدر ما ينخفض نصيب العمال في كامل القيمة المخلوقة من جديد في المجتمع (أي في الدخل الوطني) ويتعاظم نصيب الرأسماليين.

هناك مثل مقنع لإيضاح الإملاق النسبي المتصاعد في وضع الطبقة العاملة

تقدمه لنا البلدان الرأسمالية المتطورة ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها. فإن نصيب الشغيلة في الدخل الوطني في الولايات المتحدة مثلاً بلغ ٥٦ بالمئة في عام ١٨٩٠، و٥٤ بالمئة في عام ١٩٢٣، وأقل من ٥٠ بالمئة في الوقت الحاضر.

ولكن إذا كان نصيب الطبقة العاملة في الدخل الوطني ينخفض، فإن نصيب الرأسماليين ينمو بلا انقطاع. ففي الولايات المتحدة الأمريكية تستأثر الطبقات الاستثمارية أكثر من نصف الدخل الوطني في حين أنها لا تشكل سوى عشر مجمل السكان.

أن تردي وضع الطبقة العاملة النسبي ينعكس في تغييرات النسبة بين الأجور والأرباح لما فيه ضرر الطبقة العاملة وفائدة الرأسماليين.

كذلك يولد القانون العام للتراكم الرأسمالي ميلاً إلى تردي وضع الطبقة العاملة المادي تردياً مطلقاً، إلى الإملاق المطلق)(١٢٥).. وتخمة مطلقة للنهابين، ((فلم يسبق أبداً أن حاز المواطنون الأمريكيون على ما يحوزنه اليوم من الثروة والدخول، إن المشكلة تكمن فقط في أن النمو المتحقق هو برمته من حصة الخمس الثري، أي من حصة العشرين مليون عائلة لا غير كما هو ثابت إحصائياً.

وحتى في إطار هذه الفئة نفسها توزع الربح توزيعاً غير عادل على نحو شديد. فواحد بالمائة من أثرى العائلات ضاعفوا دخولهم منذ عام ١٩٨٠ وهكذا أضحى أغنى الأغنياء، أي حوالي نصف مليون مواطن.. يمتلكون اليوم ثلث مجموع الثروة التي يمتلكها الأهالي في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى نحو واضح أسبغت التغييرات الكلية في الاقتصاد الأمريكي ثمارها على مديري المشروعات الكبيرة.

ففي المتوسط ارتفع دخلهم، العظيم أصلاً، بشكل صاف بمقدار ٦٦ بالمائة منذ عام ١٩٧٩. وكانوا قد حصلوا في وقت مبكر من احتواء التغييرات، أي في عام ١٩٨٠ على وجه التحديد، على دخول تزيد بمقدار ٤٠ مرة على ما يحصل

عليه مستخدموهم العاديون))(١٢٦)، ووفق هذه النسبة الطاغية في توزيع الثروة الوطنية، تقوم بالضرورة (ديموقراطية) أكثر طغياناً في المجتمع الرأسمالي.

الرأسمالية: أسست مجتمع الذئاب الضارية التي حفر نهبها الهوة بين التخمة والجوع، ومع تزايد النهب تتسع هذه الهوة باستمرار في الداخل، وفي الخارج، حفر ((هوة تتسع بشكل مستمر، وربما كانت وصلت إلى حدود جعلتها أكثر من واضحة، حيث أن ١,٢ مليار من البشر يعيشون في فقر مدقع، ورغم أن إيديولوجيا الرأسمالية لا تمل من تكرار أن الرسملة والسوق الحرة يقودان إلى (عالم أفضل) فإن الفارق في الدخول (وبالتالي في المستوى المعيشي) لايزال يتصاعد بشكل أسرع كلما عمت السوق الحرة وتوسعت الرسملة، حيث تصاعد التفاوت بين ١ إلى ٣ عام ١٨٢٠ إلى ١إلى ٣٥ عام ١٩٥٠ إلى ١ إلى ٧٢ عام ١٩٩٢، وهي المسيرة التي توسع فيها اندماج الأمم المخلفة في النمط الرأسمالي))(١٢٧)، حيث أصبح في هذا النمط:

- كرش الرأسمال في تخمة
- كرش الشغيلة في إملاق
- ومن رحم هذا (الإملاق والتخمة) تولد (ديموقراطية) النهابين المتوحشة،

ولشدة طغيانها.. وخوفاً على رؤوس قادتها، نبه ابن الرأسمالية البار (بول كينيدي) إلى خطورة الوضع، حيث قال: ((ستكون النتائج طبعاً مؤلمة عند السدس الأغنى لسكان الأرض الذي يتمتعون اليوم بصورة غير متكافئة بخمس أسداس ثروة العالم))(١٢٨).

- يا إلهي!! كيف نُورت محكمة التاريخ..؟
- سدس العالم، يملك خمس أسداس ثروة العالم، هذا أولاً
- خمس أسداس العالم يملكون سدس ثروة العالم، هذا ثانياً المعادلة

تكشف حجم ما ينهبه (أولاً) من عرق ودماء (ثانياً)، وتكشف في الوقت ذاته، متانة السوط الذي يُساق به (ثانياً)، إلى المحلب.. ليحلب.. ثم يحلب.. ثم يحلب.. ثم يرمى به عظماً في سلة المهملات.. على هذا المسار من التوحش تقوم (ديموقراطية)

الحرامية، والتي تعني الإملاق وما يفرزه من الذل والمهانة، والموت جوعاً لبني البشر.. يعترف بذلك بول كينيدي، حيث يقول: ((يقترب العالم من القرن الواحد والعشرين مع أكثر من مليار فقير))(١٢٩).

- إذن: بعصا الرأسمال تساق البشرية إلى الهاوية، هذا الكلام ليس كلام ماركس، وإنما هو كلام قائد من قادة الرأسمالية.. ويضيف هذا القائد إلى أن الرأسمال لا يهمه من الأمر شيئاً حتى لو سقطت هذه البشرية في الهاوية فعلاً.. وإنما كل همة الربح، والربح فقط، ويضرب مثلاً على ذلك، حيث يقول: ((لو بذلت الحكومة الفرنسية الاشتراكية، مثلاً، جهداً واعياً لتعديل التربية، الصحة، السكن، والخدمات العامة، كيف يمكن أن تجد الأموال الضرورية دون أن تقلق المولين الدوليين الذين لا يبالون أبداً بحياة المواطنين بل فقط بربحهم الشخصي؟ السوق المعقلنة بطبيعتها، لا تهتم أبداً بالنزاهة ولا بالعدالة الاجتماعية))(١٣٠).

- سجلت محكمة التاريخ في محاضرها ما قاله الشاهد من أهلهم:
- الرأسمال لا يبالي بحياة المواطنين.
- الرأسمال لا يهمه إلا الربح.
- الرأسمال لا يهتم بالنزاهة والعدالة الاجتماعية.

هنا سألت محكمة التاريخ الشاهد:

- ما العمل إذا كانت طبيعة الرأسمال هكذا..؟
- ما العمل لإنقاذ البشرية من صقر..؟

سألت، ولم تنطق بالحكم بعد.. لعدم ورود مرافعة التيارات التحتية في المجتمع بعد.. لكنها سترد -كما يحكي التاريخ- وسيُعلن الحكم على قاعدة النزاهة والعدل، عندئذ، سيساق لصوص الدنيا إلى المقصلة، وسيساق نظامهم المتوحش إلى السعير.. نظامهم هذا القائم أساساً على قهر الآخرين ونهب أرزاقهم. ((ويذكر تقرير حديث عن التنمية البشرية أن ستين دولة ازدادت فقراً عما كانت عليه في العام ١٩٨٠))(١٣١).. ازدادت فقراً، مع ازدياد ثرثرة

الإمبريالية عن (الديموقراطية) في غياب شرطي البلدية.. وفي غياب هذا الشرطي فلت المسعورون في كل الاتجاهات، لنهب المزيد من النهب ولترسيخ المزيد من الفقر.. ولم يكن هذا وحسب. بل يطلبون من المنهوبين التصفيق لتشجيعهم على المزيد من النهب.. على هذا المحور من العهر المكشوف تسير الأمور في هذه المرحلة من التاريخ بعد غياب الاتحاد السوفييتي، حيث كانوا يجلببون عهرهم هذا بثوب من الطهارة للغش والخداع.. ((بمعنى أنه إذا كانت الرأسمالية، طيلة القرن الماضي، أي منذ انتصار الاشتراكية، (تخفف) من طابعها الاستغلالي، ومن ممارستها الوحشية خشية استغلال الاشتراكية لنتائج هذا الطابع وتلك الممارسات، فقد جعلها انهيار الاشتراكية تتجاوز هذه الوحشية، وبالتالي تسعى من أجل تعميم الاستغلال والنهب والوحشية))(١٣٢).

أقول: الخشية وتجاوزها، تكتيك الرأسمالية في مرحلتين مختلفتين، لخدمة استراتيجية نهبها.

في الخشية: (خففت) استغلالها، مما ساعدها على حشد أكبر عدد من أشرار هذا الكوكب إلى جانبها.. وفوق هذا وذاك، صرفت مليارات الدولارات لدعم ثورتها المضادة. بهذه الأسلحة وغيرها استطاعت تدمير الاتحاد السوفييتي.

في التجاوز: زالت العقبة الكأداء من طريقها، فنشطت من عقال، ورفعت (الكلفة) بينها وبين عبيدها، وأعادتهم إلى (منازلهم) رأد الضحى، وأصبحت الفحل الذي لا يقرع أنفه في العملية التاريخية، حيث صاحت بالجميع أنا (ربكم الأعلى).. اتركوا ثرواتكم تتدفق على احتكاراتي (ديموقراطياً)... وإلا فالسيف أصدق إنباءً من الكتب لتحقيق (ديموقراطية) هذا التدفق.. ولا فرق عندي بين أبيض وأسود إلا بالتزام طريقي.. ولهول المصاب في طريقها هذا، (نرى، مثلاً، دبلوماسيين خليجيين يحنون الآن إلى الحكم السوفياتي السابق، كما جاء على لسان السيد فيكتور بوسوفاليوك، نائب وزير الخارجية الروسي السابق في قوله: (ومنذ فترة وجيزة تحدث أصدقاء خليجيون بنوع من الحنين عن الفترة التي كان فيها نظام شيوعي يحكم الاتحاد السوفياتي. لكم تتغير

الأزمان!) (جريدة «الحياة»: ١٦/١٠/١٩٩٧)(١٣٣).

الخليجيون: لقسوة توحش:

- مرجعية (الديموقراطية) البرجوازية المزيفة.

أخذوا يحنون إلي:

- مرجعية الديموقراطية الاشتراكية الحقيقية.

ومعهم كل الحق في ذلك.

الديموقراطية الاشتراكية، كانت تقف معهم- رغم وقوفهم مع الإمبريالية- وتحد من دخول أنياب الذئاب الضارية في أجسادهم.

الإمبريالية، تدرك حنين الخليجيين هذا.. وتدرك أكثر وأكثر حنين المعذبين والضعفاء على هذا الكوكب، لذاك الموقف النبيل الذي كانت تقفه الاشتراكية الماركسية.. حيث حمتهم من هذا الأخطبوط الطاغي الذي يعيث اليوم في الأرض فساداً.

نعم: الإمبريالية تدرك كل هذا تماماً، ولذلك تعمل ليل نهار على محو كل ما من شأنه الإشارة إلى الاشتراكية من قريب أو بعيد.. ولم يكن هذا وحسب، بل تعمل على برمجة إيديولوجية تجعلها (نهاية التاريخ) ... غير أن التاريخ لا سلطان عليه، وسيقول كلمته الفصل يوماً. (ويرى جاك دريدا أنه ليس لأحد أن يمنعنا من الوفاء لروح نقدية وهاجس للعدالة أشاعته الماركسية في العصر الحديث، وذلك حتى إذا أثبت هذا الهاجس تعذره على التحقق في التجارب المشخصة. والحق، إن الرأسمالية، في صرخات انتصارها المتعالية بصورة مستحوذة، إنما تتعامل مع الماركسية كطيف، روح عائدة، شبح يتعين تعزيمه، طرده، وتتوهم أنها طردته مرة وإلى الأبد. لكن الطيف ما برح يتكلم، والروح تعود. وليس قليل الدلالة أبداً، أن يفتح دريدا كتابه بفصل عن هاملت يدرس فيه (حركية) الطيف أو الشبح وما يجعله يعود ويعاود الكلام، في داخلنا خصوصاً)) (١٣٤)، وما في داخلنا يقول:

الإمبريالية ونتيجة لعوامل عديدة، فازت على جسد الاشتراكية في ملعب

الصراع الطبقي.. غير أن روح الجسد، وعيه، فكره، لا يزال في هذا الملعب يشكل كابوساً مرعباً ومخيفاً لهذه الإمبريالية، وتحت تأثير هذا الكابوس ترقّى صرع الإمبريالية، ودفعها للخبط خبط عشواء في كل مكان.. خبطها هذا، محاولة لجعل انتصارها على الاشتراكية كاملاً ومكتملاً، غير أنه في واقع الحال ينعكس عليها سلباً ... إذ يؤكد صحة وسلامة الماركسية، وفي الوقت ذاته يدفع الروح والوعي والفكر للعودة إلى الجسد الاشتراكي المهزوم.. وفي محاولة لقطع الطريق على هذه العودة، تطرح الإمبريالية في سوق الغش والخداع خطابها المزيف لستر عهرها وتوحشها، وإنها – لا بارك الله فيها– تحمل السيف للدفاع عن (الديموقراطية وحقوق الإنسان).. ومن أجل هذه المقدسات (لا غير) ترسل جيوشها إلى هنا وهناك (بواجب) التدخل الإنساني.. لإخراج البشرية من الديكتاتورية المتوحشة إلى مجتمعها السعيد الذي بدأت تشكيله ليصبح الناس بدينها إخواناً. الإمبريالية تحاول محوها ما في ذاكرة التاريخ.. وعلى وجه الخصوص، ما تشكل في هذه الذاكرة في الفترة السوفياتية.. تحاول ذلك متجاهلة قوة هذه الذاكرة على الصمود.. بل وقدرتها على ولادة الجديد.. ولادة الحكم الفصل بقطع رؤوس كل الطغاة وانتصار العدالة الاجتماعية.. انتصار التيارات التحتية صاحبة الحق في ترتيب الأوراق على هذا الكوكب وبرمجتها على تحقيق سعادة الإنسان وكرامته. ومن هنا، جاء الفوز على (إمبراطورية الشر).. جاء ليؤكد بالقوة وبالفعل مفهوم الإمبريالية الذي صاغته الماركسية، حيث بينت أن الإمبريالية غول يسعى لالتهام ثروات العالم من أجل حفنة من اللصوص...

جاء ليؤكد أن تدمير النظم الاشتراكية ((الذي فتح الأفق لتعميق الطابع الاستغلالي، وتعميم الممارسات الوحشية، يفرض شطب مفهوم الإمبريالية، الذي كان نتاج تحليل الاشتراكية ذاتها، والذي عمم من قبلها، بعد ما اكتسى بكل هيبة العلم ودقته. فالمفهوم يعمم تلك السمات لها، ويستخدم ككاشف لطبيعتها، وفاضح لممارساتها، وبالتالي فقد غدت معنية بشطب

كل ذلك من وعينا لكي يتاح لها ممارسته واقعياً دون حاجة إلى (تخفيف)، أو خوف من (استغلال)، أو اضطرار لتقديم تنازلات (ومنها مثلاً التنازلات للطبقة العاملة في المراكز). فهو، بمضامينه، المحدد لطبيعتها، وبالتالي فهو المحرض والمؤسس لوعي مناهض لمجمل النمط الرأسمالي. بمعنى أنها معنية بشطب مستوى من الوعي يخص آلياتها لاشك في دقته وعلميته، إنها معنية بالتعمية وبإخفاء طابعها، لكي يكون ممكناً لها ممارسته، ولكي تحقق ذلك فقد غدت معنية بترويج طابعها، لكي يكون ممكناً لها ممارسته، ولكي تحقق ذلك فقد غدت معنية بترويج خطاب معاكس، يوضح (مزاياها)، ويعلي من منجزات آلياتها، ويستند هذا الخطاب إلى ليبرالية في الاقتصاد والقائمة على الحرية المطلقة لقوانين السوق (وهي الحرية التي يتضمن مفهوم الإمبريالية تفنيداً لمآلاتها، حيث أنها تنفي لمصلحة الاحتكارات عبر المنافسة)، والدمقرطة، و(حق الشعوب في تقرير مصيرها)، خطاب يغرق في تمجيد (الحرية)، الاقتصادية/السياسية، ويغرق في توضيح مفعولها السحري في حل مشكلات الأمم، وخصوصاً المتخلفة منها، وتأكيد أنها أساس النهوض والتقدم كذلك.. الرخاء. لتبدو أنها الخيار لتجاوز مشكلات تولدت نتيجة (الحرية) ذاتها، نتيجة سيادة منطق الليبرالية.

إنه الخطاب المعاكس لسياساتها العملية إذن، وهو الغطاء الإيديولوجي لكل وحشيتها، وآليات نهبها. لهذا يجري التشديد على أن يبدل مفهوم الإمبريالية بقوانين السوق المطلقة الحرية، ويبدل النهب والاستغلال والتدمير و(تقاسم العالم). بحقوق الإنسان والديموقراطية و(التدخل الإنساني) ومفهوم الهويات وتقليص السيادة الوطنية، أي لقد أبدل مفهوم الإمبريالية بالإمبريالية الواقعية، ولاشك في أنه لم يكن من هدف لتحديد المفهوم والتأكيد عليه سوى كشف هذه الإمبريالية الواقعية، كشف هذا التكوين للرأسمالية، الذي يعزز من هيمنته وثراء قلة على حساب كل العالم. وكذلك كشف كل هذا الخطاب، الإيديولوجي، أو بالأحرى كشف إيديولوجية هذا الخطاب، حيث

تنقلب الحرية إلى استبداد، وأقصد استبداد الشركات الاحتكارية متعدية القومية، الممعنة في النهب والاستغلال وتركيز الثروة. وحيث تنقلب الديموقراطية إلى شعار لا معنى له سوى خدمة الاحتكارات في تحقيق مصالحها، ويقلب (حق تقرير المصير) إلى حق كل اثنية وطائفية وقبلية.. و...إلخ/ في (الاستقلال)، وينقلب بالتالي إلى حق في التفكك والتفتت، وينكشف (التدخل الإنساني) كتدخل فظ حيث تفرض مصلحة الاحتكارات ذلك، ومن أجل تحقيق أهداف ليست إنسانية على الإطلاق، لأنها أهداف تدميرية. لهذا يجب أن يشطب مفهوم (السيادة الوطنية)، لأن مصلحة الاحتكارات هي الأساس، وكل مساس بها أو معيق لها يجب أن يزول لأن لها (السيادة العليا))(١٣٥)...

وسيادتها العليا، يكشف عنها الواقع المعاش، حيث، يقول بلسان فصيح: أنها ذروة التوحش، ويؤكد قول هذا الواقع فارس من فرسانها –بول كينيدي – ووضعها في تضاد مع العدالة الاجتماعية من اجل النهب، لا غير، – كما مر معنا – والسؤال الذي لا مهرب منه الآن!

– هل سيستمر هذا الباطل الطاغي...؟

طول عمر الباطل لا يحوله إلى حق.. والحق إن عرقل مجيئه، إلا أنه سيأتي كما يؤكد التاريخ ((وفي جميع الدراسات والبحوث المقدمة من منظري العولمة، تسقط الشعوب من حساباتهم. فالمظاهرات التي ضمت الملايين في أنحاء العالم، قوبلت من الإدارة الأمريكية بعدم الاكتراث، ووسط (عمى الألوان) الذي أصيبت به هذه الإدارة، لم تستطع أن تميز عدوها من صديقها، وهي لا تستطيع أن تسمع سوى ما تريد، ورفضت الاستماع حتى إلى شركائها في المنظومة الرأسمالية مثل فرنسا وألمانيا. فهل يترك مصير العالم بيد مثل هؤلاء، نعتقد أن الإجابة تحددها الأيام القادمة: ولكن بالتأكيد النصر النهائي سيكون للشعوب، وستهزم في النهاية (إمبراطورية الشر) الحقيقية. إن الإدارة الأمريكية، بكل ما تمثله، أثبتت أنها ضد الشعوب بجدارة، وهي ليست ضد

شعوب الأرض فقط، بل إنها ضد شعبها الأمريكي بالذات، إن (اللعبة) الكبيرة التي أدخلت العالم في نفقها، لم تنته بعد كما يعلن بوش. وهي ما تزال في بدايتها، وكل ما نأمله ألا يتسرب الوهن واليأس إلى شعوبنا المغلوبة على أمرها، ولعل تصاعد عمليات المقاومة الشعبية في العراق، وصمود الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة هما مما يعزز هذا الأمل))(١٣٦)، ويعزّز أيضاً، ديالكتيك العملية التاريخية... هذا الديالكتيك الذي يجعل انتصار التيارات التحتية أمراً لا مفر منه، وعلى هذا المفصل يصبح انتصار الشعوب وتحررها قدراً محتوماً، مهما تفننت نقابة النهابين في عرقلة مجيء هذا القدر.

مفكرو الإمبريالية: بتسويقهم خطابهم الجديد الذي يخفي الطبيعة الشريرة لإمبرياليتهم، يهدفون من وراء ذلك برمجة الحاضر للسيطرة على المستقبل، ولمثل هذا، قالوا: إن إمبرياليتهم (نهاية التاريخ).. والتاريخ يقول: إن محاولتهم هذه ((تمثل وجهاً من وجوه الاستعمار الجديد)الذي يرمي للسيطرة على العالم الثالث بوسائل الاقتصاد والعلم والإعلام وسواها من الأسلحة الجديدة النافذة التي تبدعها عقول أبناء الطبقات المسيطرة في المجتمع الرأسمالي، وبكلام آخر، إن هذه المحاولات لتحري المستقبل، في الولايات المتحدة وسواها من الدول الغربية المتقدمة، إنما هي محاولات برجوازية رأسمالية ترمي إلى (استعمار المستقبل)، أو الانتقال من استعمار الأرض إلى (استعمار الزمن)، وذلك بتجنيد طاقات الطبقات الحاكمة للتحكم في الاتجاهات العالمية الحاضرة والمقبلة وإخضاعها لمصالحها. وأما من حيث الاسلوب، فإن هؤلاء المنتقدين والمهاجمين يرون أن جميع هذه المحاولات، التي تدعي صفة العلم، قد أخفقت في الماضي وستخفق في المستقبل، لانها تتنكر للواقع (الموضوعية) التي تحتم مجاري التطور التاريخي والتي أوضحتها الماركسية اللينينية. ومن هذا القبيل ماقاله الكاتب السوفياتي A.Sergiyev (إن الخلل الأول والرئيسي في علم المستقبل، كما هي الحال في علم الاجتماع البرجوازي بوجه عام، هو مثاليته وذاتيته وإنكاره أن العلاقات السياسية تحتمها الوقائع الموضوعية.. وفي الوقت ذاته إن

علماء السياسة البرجوازيين يتجاهلون كلياً محتوى السياسة الرئيسي ووجوهها الموضوعية، وبكلام آخر، أنهم يتجاهلون حقيقة السياسة في أنها تمثل علاقات بين الطبقات المختلفة، وبين الطبقات والمنظمات والمؤسسات التي تمثل مصالحها، وأهم هذه المؤسسات الدولة بجميع أجهزتها.. أن تنبؤ المستقبل كان ومازال سلاحاً نافذاً في الصراع السياسي. والدوائر الحاكمة من البرجوازية، إذ تدرك إدراكاً تاماً الدور السياسي الهام الذي يمثله توجيه الجماهير إلى احتمالات التطور الاجتماعي، تسعى إلى استخدام الاستطلاع الاجتماعي لمصالحها الخاصة وإلى اتخاذه سلاحاً في محاربة النظرية الماركسية اللينينية للتنبؤ السياسي الاجتماعي، وفي مكافحة نظرية الاشتراكية وتطبيقها)(١٣٧)، ومهما بلغت قوة هذه المكافحة في تزييفها وعي الجماهير الشعبية.. لا تتمكن من الصمود أمام قوة الظروف الموضوعية، التي تفرزها طبيعة الرأسمالية من البؤس والإملاق والموت جوعاً. فإن هذه الإفرازات كفيلة بالانتصار على كل ما تفعله الرأسمالية من تزييف، وبالتالي، رفع درجة الوعي الطبقي عند الجماهير المنهوبة، عندئذ، يكشف لهذه الجماهير طبيعة الرأسمالية الخاطفة للقمة عيشهم، وإنها -أي الرأسمالية- ((التي تبدو الآن كما لو كان انتصارها على المستوى العالمي قد صار أمراً حتمياً، إنما هي في طريقها لهدم الأساس الذي يضمن وجودها))(١٣٨)، وبكلام آخر: الرأسمالية في طريقها إلى جهنم وبئس المصير. وأن هجومها الذي أعقب فوزها على جسد الاشتراكية في ملعب الصراع الطبقي، يمثل في واقع الحال سقوطها في حالة النزع الأخير، حيث ((يشبه السباحة ضد التيار، يبدأ المرء باندفاعة قوية، ويتقدم قليلاً للأمام، ثم ما يلبث أن يستسلم لقوة التيارات التحتية))(١٣٩).. ولقوة هذه التيارات ستستسلم يوماً نقابة النهابين، ويسود العالم:

- توزيع الثروة من الأعلى إلى الأسفل، هذا أولاً.
- السلام وسعادة الجميع، هذا ثانياً.

وبـ (أولاً وثانياً):

- تسود الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج.

وبسيادتها:

- يتحقق المجتمع الخالي من الطبقات.
- تتحقق الديموقراطية الحقيقية.

كتب في مدينة داعل في عامي ٢٠٠٤- ٢٠٠٥.

المؤلف

أحمد حسن الفقرة

هوامش الفصل الثالث

١- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الأول)- دار الفارابي (بيروت)- الطبعة السادسة ١٩٨٨- ص٤١.

٢- د. محمد الخزنجي- وداعة الثعابين- مجلة العربي(الكويت)، العدد/٥١٨/٢٠٠٢- ص٢٤٢.

٣- ستيبانوفا- ماركس (سيرة حياته)- دار التقدم (موسكو) -طبعة ١٩٧٩- ص٩.

٤- المصدر السابق – ص(٨٥- ٨٦).

٥- المصدر السابق- ص١٨٠.

٦- المصدر السابق- ص٩٤.

٧- كارل ماركس- رأس المال (١٠ أجزاء- رقم متسلسل)- ترجمة (محمد عيتاني- لجنة من الجامعيين)- منشورات مكتبة المعارف (بيروت)- ص(١٠٥٢- ١٠٥٥).

٨- المصدر السابق- ص٦٩٥.

٩- المصدر السابق- ص١١٥٦.

١٠- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- دار التقدم (موسكو)- طبعة ١٩٨٤- ص٤٩.

١١- المصدر السابق- ص٤٨.

١٢- نخبة من الأساتذة السوفييت – الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الثاني)- ترجمة: د.بدر الدين السباعي- دار الجماهير (دمشق)- ص(٥٢٠- ٥٢١).

١٣- المصدر السابق (القسم الأول)- ص٢٦٩.

١٤- سلسلة دراسات مؤسسة الأرض (رقم٥) بإشراف حبيب قهوجي- استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة (دمشق)- الطبعة الأولى ١٩٧٨- ص٣٤ الهامش.

١٥- تقرير الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي المقدم إلى المؤتمر التاسع- مجلة المستقبل العربي (بيروت)= العدد /٢٤٢/١٩٩٩- ص٧٤.

١٦- هانس- بيترمارتين/ هارالدشومان- فخ العولمة- ترجمة: د.عدنا عباس علي/ مراجعة وتقديم : أ.د. رمزي زكي- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ١٩٩٨- ص٦٠.

١٧- د. عفيف البهنسي- ما بعد الحداثة والتراث- مجلة عالم الفكر (الكويت)- المجلد السابع والعشرون (العدد الثاني) ١٩٩٨- ص٧٩.

١٨- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول)- سبق ذكره- ص٣٣.
١٩- بول كينيدي – الإعداد للقرن الواحد والعشرين- ترجمة: نسيم واكيم يازجي- دار علاء الدين (دمشق)- الطبعة الأولى/٢٠٠٤- ص(٨٦- ٨٧).
٢٠- هانس- بيترمارتين/هارالدشومان- فخ العولمة- سبق ذكره – ص(١٩٠- ١٩١).
٢١- المصدر السابق- ص١٩٢.
٢٢- ماركس- رأس المال- سبق ذكره- ص٦٢٧.
٢٣- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص١٠.
٢٤- ماركس- رأس المال- سبق ذكره- ص١١٦٣.
٢٥- مقدمة ابن خلدون- دار إحياء التراث العربي (بيروت)- طبعة ١٩٨٨ ص١٧٧.
٢٦- نخبة من الأساتذة السوفييت – الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول)- سبق ذكره- ص١٠٨.
٢٧- المصدر السابق- ص٢٣٢.
٢٨- المصدر السابق- ص١٣٨.
٢٩- ماركس انجلس – منتجات (١٥) مجلداً (المجلد ١)- دار التقدم (موسكو)- طبعة ١٩٨٨- ص(٢١- ٢٢).
٣٠- حسين مروة- دارسات في الفكر والأدب- دار الفارابي (بيروت) –الطبعة الأولى ١٩٩٣- ص(٢٥٠- ٢٥١).
٣١- المصدر السابق- ص(٢٥١- ٢٥٢).
٣٢- لينين- الاشتراكية والحرب- دار التقدم (موسكو) – ص٥.
٣٣- المصدر السابق- ص(٨- ٩).
٣٤- المصدر السابق- ص(٢٦- ٢٧).
٣٥- لينين- في التعايش السلمي- دار التقدم (موسكو) – ص(٧- ٩).
٣٦- نخبة من الأساتذة السوفييت- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني- القسم الأول)- سبق ذكره- ص٩٠.
٣٧- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- عالم المعرفة (الكويت) – طبعة /٢٠٠٠- ص٨.
٣٨- ماركس /انجلس- منتخبات في (١٥) مجلداً (المجلد١)- سبق ذكره-

ص١٧.

٣٩- لينين- في التعايش السلمي- سبق ذكره- ص(٤٠- ٤١).

٤٠- إ.س. بورتيا نيكوف- البلدان النامية- ترجمة: د: ماجد علاء الدين - مطبعة الكاتب العربي (أوست)- ص١٦٤.

٤١- المصدر السابق- ص١٣٥.

٤٢- د. آمال السبكي- تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦- ١٩٧٩)- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ١٩٩٩- ص٤٨.

٤٣- المصدر السابق- ص٤١.

٤٤- محمد صلاح عبود- العالم ليس للبيع- مجلة العربي (الكويت)- العدد ٥٢٠/ ٢٠٠٢- ص٢١.

٤٥- المارشال جوكوف- مذكرات وآراء- ترجمة: وزارة الدفاع في الجمهورية العربية السورية- الطبعة الثانية ١٩٧٢- ص٢٣٤.

٤٦- د. خير الدين عبد الرحمن- الدور المزدوج للتشظي في الصراع العربي- الصهيوني- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (٩/ ١٠)٢٠٠٠- ص٦٩.

٤٧- د. محمد م. الأرناؤوط- في الذكرى الثمانين لإعلان الاستقلال/ العروبة والاسلام في برنامج/ دستور الحكومة/ الدولة العربية المعلنة في دمشق ١٩١٨- ١٩٢٠- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (٩/ ١٠) ٢٠٠٠، ص(٢١٢/٢١٣).

٤٨- إ.س بورتيا نيكوف- البلدان النامية- سبق ذكره- ص(٤٩- ٥٠).

٤٩- المصدر السابق - ص٥٣.

٥٠- المصدر السابق - ص١٣٤.

٥١- المصدر السابق - ص(١١٢- ١١٣).

٥٢- المارشال جوكوف- مذكرات وآراء - سبق ذكره- ص٥١.

٥٣- المصدر السابق - ص(٥٢- ٥٣).

٥٤- المصدر السابق - ص٨١.

٥٥- لينين- في التعايش السلمي- سبق ذكره- (١٨- ١٩).

٥٦- المارشال جوكوف- مذكرات وآراء- سبق ذكره -ص١٤٧.

٥٧- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص٢٢٦.

٥٨- المصدر السابق - ص(٢٤٧- ٢٤٨).

٥٩- المصدر السابق - ص(٢٤٨).

٦٠- أ.غروميكو/ أ.كوكوشين- الأخوة كينيدي- ترجمة: د.ماجد علاء الدين/ شحادة عبد المجيد- دار علاء الدين (دمشق)- الطبعة الأولى ١٩٨٦- ص٦٦.
٦١- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية- ترجمة: أحمد داود –دار الجماهير (دمشق) –طبعة ١٩٦٧- ص١٨١.
٦٢- د. عبده عبود –الأدب المقارن /والاتجاهات النقدية الحديثة – مجلة عالم الفكر (الكويت)- المجلد الثامن والعشرون (العدد الأول) ١٩٩٩- ص٢٨١.
٦٣- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (المجلد الثالث)- مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)- طبعة ١٩٩٤- ص١٣٥٤/٨.
٦٤- المصدر السابق (المجلد الرابع) – ص١٨٢٢.
٦٥- جواهر لال نهرو- قصة حياتي- ترجمة: مروان الجابري- المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر- الطبعة الأولى ١٩٥٩- ص٣٧٦.
٦٦- المصدر السابق – ص٤٢٠.
٦٧- المصدر السابق – ص٥٢٩.
٦٨- المصدر السابق – ص٥٣٠.
٦٩- محمود المراغي- القرية الظالمة- مجلة العربي (الكويت)- العدد ٢٠٠١/٥١٢/- ص٩٦.
٧٠- د. عصام خدري- انعكاسات العولمة على الحقوق والمكاسب الاقتصادية والاجتماعية للمرأة العاملة العربية- مجلة المعرفة (دمشق) –العدد ٤٨٣/ ٢٠٠٣- ص٥٦.
٧١- د. نعيمة شومان- العولمة في التكنولوجيا الحديثة- مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العدد الأول ١٩٩٧- ص٧٨.
٧٢- المصدر السابق- ص٧٨.
٧٣- نيكيتين- اسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص١٩٧.
٧٤- المصدر السابق- ص٢٢٠.
٧٥- د. عبد العزيز حمودة- الخروج من التيه- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠٣- ص٢٩.
٧٦- نيكيتين- أسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص٢٧٠.
٧٧- نهرو- قصة حياتي- سبق ذكره- ص٤٩٦.
٧٨- د. نعيمة شومان- العولمة في التكنولوجيا الحديثة- سبق ذكره- ص٧٦.
٧٩- حسين مروة- النزعات المادية (الجزء الثاني)- سبق ذكره- ص٥٥٩.

٨٠- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- سبق ذكره- ص٢٤.

٨١- أ.س. بورتيانيكوف- البلدان النامية- سبق ذكره- ص(١٣٥- ١٣٦).

٨٢- المصدر السابق- ص(١٤١- ١٤٢).

٨٣- ارزومانيان- أزمة الرأسمالية في المرحلة الحالية- دار التقدم (موسكو) – ص(٦١- ٦٣).

٨٤- كيللي- /كوفالزن- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٣٤٠.

٨٥- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (المجلد الثالث)- سق ذكره- ص١١٧٢/٨.

٨٦- أ. غروميكو/ أ. كوكوشين- الأخوة كينيدي- سبق ذكره- ص٧٧.

٨٧- المصدر السابق- ص١٨٨.

٨٨- أ. س. بورتيانيكوف- البلدان النامية- سبق ذكره- ص٢٣.

٨٩- كيللي/كوفالزون- المادية التاريخية- سبق ذكره- ص٣٠٢.

٩٠- د. الحبيب الجنحاني- حوار الحضارات- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٥٥٧/٢٠٠٥- ص(١٩- ٢٠).

٩١- مروان عبد الرزاق- ملاحظات حول العولمة الجديدة- مجلة الطريق (بيروت)- العدد الرابع /٢٠٠٠- ص(٤٣- ٤٤).

٩٢- د. منير الحمش- الاقتصاد السياسي للعولمة والحرب – مجلة المعرفة (دمشق)- العدد/٤٨٥/٢٠٠٤- ص١٢٦.

٩٣- حسناء مكانسي- وشهد شاهد من أهلهم – مجلة الفكر السياسي (دمشق)- العددان (١٣- ١٤) ٢٠٠١- ص٢٤٨.

٩٤- المصدر السابق – ص٢٥١.

٩٥- هانس- بيترمارتين/ هارالدشومان- فخ العولمة- سق ذكره- ص٢١٨.

٩٦- المصدر السابق- ص٢١٨.

٩٧- المصدر السابق- ص٢١٩.

٩٨- راسل جاكوبي- نهاية اليوتوبيا- ترجمة: فاروق عبد القادر- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠١- ص٣٩.

٩٩- هانس بيترمارتين/ هارالدشومان- فخ العولمة- سبق ذكره- ص(٣٤- ٣٥).

١٠٠- راسل جاكوبي- نهاية اليوتوبيا- سبق ذكره ص(١٨٤- ١٨٦).
١٠١- هانس- بيترمارتين/ هارالدشومان- فخ العولمة- سبق ذكره -ص١٩٢.
١٠٢- المصدر السابق- ص١٩٨.
١٠٣- المصدر السابق- ص١٩٣.
١٠٤- المصدر السابق- ص٢٧.
١٠٥- المصدر السابق- ص٣١.
١٠٦- المصدر السابق- ص(١٣٦- ١٣٧).
١٠٧- المصدر السابق- ص٣٦٥.
١٠٨- المصدر السابق- ص١٥.
١٠٩- المصدر السابق- ص١٥.
١١٠- المصدر السابق- ص٢٤٠.
١١١- د. الحبيب الجنحاني- ظاهرة العولمة/ الواقع والآفاق- مجلة عالم الفكر (الكويت)- المجلد الثامن والعشرون (العدد الثاني) ١٩٩٩- ص٢٦.
١١٢- عبد الوهاب محمود المصري- قراءة في فقه العلاقات بين الثقافة والسياسة والاقتصاد- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٢٠٠٢/٤٦١- ص٩٦.
١١٣- د. محمد دياب- الخصخصة /من الاحتكار العام إلى الاحتكار الخاص- مجلة العربي (الكويت)- العدد /٢٠٠١/٥٠٧- ص٣٢.
١١٤- أولف مارتشين- آفاق دولة القانون / روسيا الراهنة نموذجاً – ترجمة: أمل حسن- مجلة المعرفة (دمشق)- العدد /٤٢٧/ ١٩٩٩- ص٨٨.
١١٥- حديث الكسندر زينوفيف- من الديكتاتورية... إلى الديكتاتورية الشمولية- تقديم واكيم أستور- مجلة الطريق (بيروت) – العدد الثالث /٢٠٠١ ص(٨٧- ٨٩).
١١٦- شوقي رافع- خادم الدين- مجلة العربي (الكويت)- العدد /١٩٩٩/٤٨٦- ص١٤٨.
١١٧- د. نعيمة شومان- العولمة في التكنولوجيا الحديثة- سبق ذكره- ص٧٦.
١١٨- المصدر السابق- ص٧٦.
١١٩- سيتبانوفا- ماركس (سيرة حياته) – سبق ذكره- ص٢٢٩.
١٢٠- المصدر السابق- ص(٢٨٦- ٢٨٧).
١٢١- د. حسين شاويش- تخطيطات أولية في /مفهوم الثقافة وفائدته لتحديد الهوية

الجمعية- مجلة دراسات عربية (بيروت)- العدد (٩/١٠) ١٩٩٩- ص١٢.

١٢٢- إس. بورتيانيكوف- البلدان النامية- سبق ذكره- ص(٣١- ٣٤).

١٢٣- ستيبانوفا- ماركس (سيرة حياته)- سبق ذكره - ص(٣١٩- ٣٢٠).

١٢٤- المصدر السابق- ص(٤١٧- ٤١٨).

١٢٥- نيكيتين- اسس الاقتصاد السياسي- سبق ذكره- ص٨٤.

١٢٦- هانس – بيتر مارتين/ هارالدشومان١٠- فخ العولمة- سبق ذكره- ٢١٦.

١٢٧- سلامة كيلة- العولمة الراهنة- دار نينوى (دمشق)- الطبعة الأولى ٢٠٠٣- ص٢٢.

١٢٨- بول كينيدي- الأعداد للقرن الواحد والعشرين- ترجمة: نسيم واكيم يازجي- دار علاء الدين (دمشق)- الطبعة الأولى ٢٠٠٤ ص٥٠.

١٢٩- المصدر السابق- ص٥٣.

١٣٠- المصدر السابق- ص٦٠.

١٣١- د. حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- سبق ذكره- ص١١١.

١٣٢- سلامة كيلة- العولمة الراهنة- سبق ذكره- ص٤٤.

١٣٣- علي الشوك- حول زوال النظام الاشتراكي- مجلة الطريق (بيروت) – العدد الأول ٢٠٠٣- ص١١١.

١٣٤- المصدر السابق- ص١١٢.

١٣٥- سلامة كيلة- العولمة الراهنة- سبق ذكره- ص(٤٤- ٤٦).

١٣٦- د. منير الحمش- الاقتصاد السياسي للعولمة والحرب- سبق ذكره- ص(١٣٣- ١٣٤).

١٣٧- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (المجلد الثالث)- سبق ذكره –ص(١١٣٣/٨- ١١٣٤/٨).

١٣٨- هانس- بيتر مارتين/هارالدشومان- فخ العولمة- سبق ذكره- ص٣٥.

١٣٩- راسل جاكوبي- نهاية اليوتربيا- سق ذكره- ص٦٨.

المصادر والمراجع

- حسين مروة- دراسات في الفكر والأدب- دار الفارابي (بيروت) الطبعة الأولى ١٩٩٢.
- ماركس /انجلس- بصدد الدولة دار التقدم (موسكو)- طبعة ١٩٨٦.
- باربارا باومان/ بريجيتا أوبر له عصور الأدب الألماني- ترجمة: د. هبة شريف /مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي- عالم المعرفة (الكويت) – طبعة ٢٠٠٢.
- د. عبد الرحمن محمود القعود –الإبهام في شعر الحداثة- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠٢.
- جون كينيث جالبريت – تاريخ الفكر الاقتصادي /الماضي صورة الحاضر- ترجمة: أحمد فؤاد بلبع/ تقديم: اسماعيل صبري عبد الله- عالم المعرفة (الكويت) –طبعة ٢٠٠٠.
- ماركس /أنجلس لينين- بصدد الديموقراطية البرجوازية والديموقراطية الاشتراكية- دار التقدم (موسكو)- طبعة ١٩٨٨.
- لينين- المختارات في ثلاثة مجلدات- المجلد الأول/الجزء الأول- دار التقدم (موسكو) طبعة ١٩٧٦.
- جواهر لال نهرو- قصة حياتي- ترجمة: مروان الجابري- منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر (بيروت)- الطبعة الأولى ١٩٥٩.
- حازم الببلاوي- النظام الاقتصادي الدولي المعاصر- عالم المعرفة (الكويت) طبعة ٢٠٠٠.
- توم ليتل- جمال عبد الناصر- ترجمة: لجنة من الأساتذة الجامعيين- منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت)- الطبعة الأولى ١٩٥٩.
- د. مسعود ضاهر- النهضة العربية والنهضة اليابانية عالم المعرفة (الكويت) –طبعة ١٩٩٩.

- د. مجدي حماد- جامعة الدول العربي –عالم المعرفة (الكويت)= طبعة ٢٠٠٤.
- الجاحظ- البيان والتبيين- تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون در الجيل (بيروت) – طبعة ١٩٩٠.
- بيتر تيلور /كولن فلنت- الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر (الجزء الأول)- ترجمة عبد السلام رضوان/ د. اسحق عبيد – عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠٢.
- كيللي/ كوفالزون- المادية التاريخية – ترجمة: احمد داوود- دار الجماهير (دمشق).
- د. سلطان محيسن- عصور ما قبل التاريخ- مطبوعات جامعة دمشق – طبعة ١٩٨٨.
- نيكيتين- الاقتصاد السياسي- دار التقدم (موسكو) ١٩٨٤.
- ماركس /انجلس – منتخبات في (١٥) مجلداً- المجلد الأول دار التقدم (موسكو) ١٩٨٨.
- راسل جاكوبي- نهاية اليوتوبيا- ترجمة: فاروق عبد القادر- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠١.
- جوناثان كيرتش- حكايا محرمة في التوراة- ترجمة: نذير جزماتي- دار نينوى للدراسات والتوزيع والنشر (دمشق) – الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
- الشهرستاني – الملل والنحل- تحقيق محمد سيد كيلاني- دار صعب (بيروت) – طبعة ١٩٨٦.
- د. لطفي عبد الوهاب يحيى- العرب في العصور القديمة- دار النهضة العربية (بيروت) – طبعة ١٩٧٩.
- د. علي النشار- نشأة الدين – مركز الإنماء الحضاري (حلب) - الطبعة الأولى ١٩٩٥.
- د. قسطنطين زريق- الأعمال الفكرية العامة (٤ مجلدات).
- مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) – طبعة ١٩٩٤.
- د. ليلى صباغ- المرأة في التاريخ العربي- منشورات وزارة الثقافة

والإرشاد القومي (دمشق)- طبعة ١٩٧٥.

- د. حسين مروة- النزعات المادية (جزءان)- دار الفارابي (بيروت) طبعة ١٩٨٥.

- د. أحمد شلبي- مقارنة الأديان (الإسلام- المسيحية- اليهودية- أديان الهند الكبرى)- مكتبة النهضة العربية (القاهرة)- الطبعة التاسعة ١٩٩٠.

- توبي أ.هف- فجر العلم الحديث- ترجمة: د. محمد عصفور – عالم المعرفة (الكويت)- الطبعة الثانية ٢٠٠٠.

- د. عادل العوا- المدنية/ سرابها ويقينها- مطبعة جامعة دمشق- الطبعة الثانية ١٩٦٣.

- بليخانوف- فلسفة التاريخ- دار دمشق للطباعة والنشر.

- د. أحمد علبي – ثروة الزنج – دار الفارابي (بيروت) – الطبعة الجديدة ١٩٩١.

- د. فيليب حتى- تاريخ العرب- دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع- الطبعة التاسعة ١٩٩٤.

- الطبري- تاريخ الأمم والملوك- دار المكتبة العلمية (بيروت)- الطبعة الثالثة ١٩٩١.

- نخبة من الأساتذة السوفييت – الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني)- ترجمة: بدر الدين السباعي- دار الجماهير (دمشق).

- اليزابيت جينبواي- مكانة المراة في عالم الرجل- ترجمة: حسن بسام – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق) ١٩٨١.

- د. جورج حنا- قصة الإنسان – دار العلم للملايين (بيروت) الطبعة الرابعة ١٩٦٣.

- بازيلي- سوريا لبنان وفلسطين تحت الحكم التركي – ترجمة: د. يسر جابر/ مراجعة: د. منذر جابر – دار الحداثة (بيروت) – الطبعة الأولى ١٩٨٨.

- انجلس- الاشتراكية الطوباوية/ والاشتراكية العلمية- دار التقدم (موسكو).

- د. عبد الرزاق عيد- سدنة هياكل الوهم- دار الطليعة (بيروت) –

الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
- د. أحمد أبو زيد- الطريق إلى المعرفة- كتاب العربي ٤٦(الكويت) – الطبعة الأولى ٢٠٠١.
- ماركس/ انجلس- المختارات في أربعة أجزاء- دار التقدم (موسكو).
- ابن خلدون – المقدمة – دار إحياء التراث العربي (بيروت) ١٩٨٨.
- المسعودي – مروج الذهب – منشورات دار الهجرة (إيران – قم).
- ابن عبد ربه- العقد الفريد- تحقيق: د. مفيد محمد قميحة- دار الكتب العلمية (بيروت).
- ماركس – رأس المال (١٠ أجزاء رقم متسلسل)- ترجمة: (محمد عيتاني- لجنة من الجامعيين)- منشورات مكتبة المعارف (بيروت).
- إ. س. بورتيانيكوف – البلدان النامية- ترجمة: د.ماجد علاء الدين- مطبعة الكاتب العربي.
- لينين- حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية- دار التقدم (موسكو).
- لينين- المختارات في ثلاثة مجلدات – دار التقدم (موسكو) ١٩٧٦.
- د. غوستاف لوبون- حضارة العرب ترجمة: عادل زعيتر- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- هادي العلوي- شخصيات غير قلقة في الإسلام- دار الكنوز الادبية (بيروت) – الطبعة الثانية ١٩٩٧.
- آر. إيه بوكانان- الآلة قوة وسلطة – ترجمة: شوقي جلال- عالم المعرفة (الكويت)- طبعة ٢٠٠٠.
- ستيبانوفا- ماركس (سيرة حياته) – دار التقدم (موسكو)- الطبعة الرابعة ١٩٨٨.
- د. نقولا زيادة- إيقاع على أوتار الزمن – كتاب العربي ٤٧ (الكويت) – الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- كيث وايتلام- اختلاق إسرائيل القديمة – ترجمة د.سحر الهنيدي/مراجعة: د.فؤاد زكريا- عالم المعرفة (الكويت) – طبعة ١٩٩٩

- جان دزيد زيك/ تادوز والشتوفسكي- الأسرار والخفايا السياسية لحرب الأيام الستة- ترجمة: منصور أبو الحسن- دار علاء الدين (دمشق)- الطبعة الأولى٢٠٠٢.
- سلسلة دراسات مؤسسة الأرض (رقم ٥)- استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة- بإشراف حبيب قهوجي (دمشق)- الطبعة الأولى ١٩٧٨.
- د. أمال السُّبكي – تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦-١٩٧٩)- عالم المعرفة (الكويت) طبعة ١٩٩٩.
- أرزومانيان- أزمة الرأسمالية العالمية في المرحلة الحالية- دار التقدم- (موسكو).
- ابن المقفع- كليلة ودمنة- دار المسيرة (بيروت)- الطبعة الرابعة ١٩٨١.
- أ. غروميكو/ أ.كوكوشين- الأخوة كيندي- ترجمة: د. ماجد علاء الدين/شحادة العبد المجيد- دار علاء الدين (دمشق) الطبعة الأولى ١٩٨٦.
- أحمد حسن الفقرة- العالم الجديد في المنظور الثوري- دار علاء الدين (دمشق) – الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
- هانس- بيترمارتن/ هارالدشومان – فخ العولمة- ترجمة: د.عدنان عباس علي/ مراجعة وتقديم: أ.د. رمزي زكي- عالم المعرفة (الكويت) – طبعة ١٩٩٨.
- بول كينيدي- الأعداد للقرن الواحد والعشرين – ترجمة: نسيم واكيم يازجي- دار علاء الدين (دمشق)- الطبعة الأولى ٢٠٠٤.
- لينيين- الاشتراكية والحرب- دار التقدم (موسكو).
- لينين- في التعايش السلمي- دار التقدم (موسكو).
- الماريشال جوكوف- مذكرات وآراء – ترجمة: وزارة الدفاع في الجمهورية العربية السورية – الطبعة الثانية ١٩٧٢.
- د. عبد العزيز حمودة- الخروج من التيه- عالم المعرفة (الكويت) طبعة ٢٠٠٣.
- سلامة كيلة – العولمة الراهنة – دار نينوى (دمشق) – الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

الدوريات

- **مجلة الفكر السياسي (دمشق)**

العدد الأول ١٩٩٧.

العدد الثالث ١٩٩٨.

العددان (٦- ٧) ١٩٩٩.

العددان (٩- ١٠) ٢٠٠٠.

الأعداد (١١- ١٢- ١٣- ١٤) ٢٠٠١.

العددان (١٥- ١٦) ٢٠٠٢.

العددان (١٨- ١٩) ٢٠٠٣.

- **مجلة المعرفة (دمشق)**

العددان (٤٢٧- ٤٣١) ١٩٩٩.

العددان (٤٤٩- ٤٥٨) ٢٠٠١.

العدد (٤٦١) ٢٠٠٢.

العدد (٤٨٣) ٢٠٠٣.

الأعداد (٤٨٤- ٤٨٥- ٤٩٣) ٢٠٠٤.

- **مجلة الطريق (بيروت)**

العدد (٦) ١٩٩٨.

العدد (٣) ١٩٩٩.

العددان (٤- ٥) ٢٠٠٠.

الأعداد (٣- ٥- ٦) ٢٠٠١.

العدد (٥) ٢٠٠٢.

العدد (١) ٢٠٠٣.

- **مجلة دراسات عربية (بيروت)**

العدد (١٠/٩) ١٩٩٨.

العددان (٢/١- ١٠/٩) ١٩٩٩.

- **مجلة عالم الفكر (الكويت)**

العدد (٢) المجلد (٢٧) ١٩٩٨.

العددان (١- ٢) المجلد (٢٨) ١٩٩٩.

العدد (٣) المجلد (٣٠) ٢٠٠٢.

العدد (٤) المجلد (٣٢) ٢٠٠٤.

- **مجلة العربي (الكويت)**

العدد (٣٦٣) ١٩٨٩.

العدد (٤٧٤) ١٩٩٨.

العددان (٤٩٠- ٤٨٦) ١٩٩٩.

الأعداد (٥٠٧- ٥١٠- ٥١٢- ٥١٥- ٥١٦- ٥١٧) ٢٠٠١.

الأعداد (٥١٨- ٥١٩- ٥٢٠) ٢٠٠٢.

العددان (٥٣٦- ٥٣٧) ٢٠٠٣.

الأعداد (٥٤٥- ٥٤٦- ٥٥١- ٥٥٣) ٢٠٠٤.

العدد (٥٥٧) ٢٠٠٥.

- **مجلة الكويت (الكويت)**

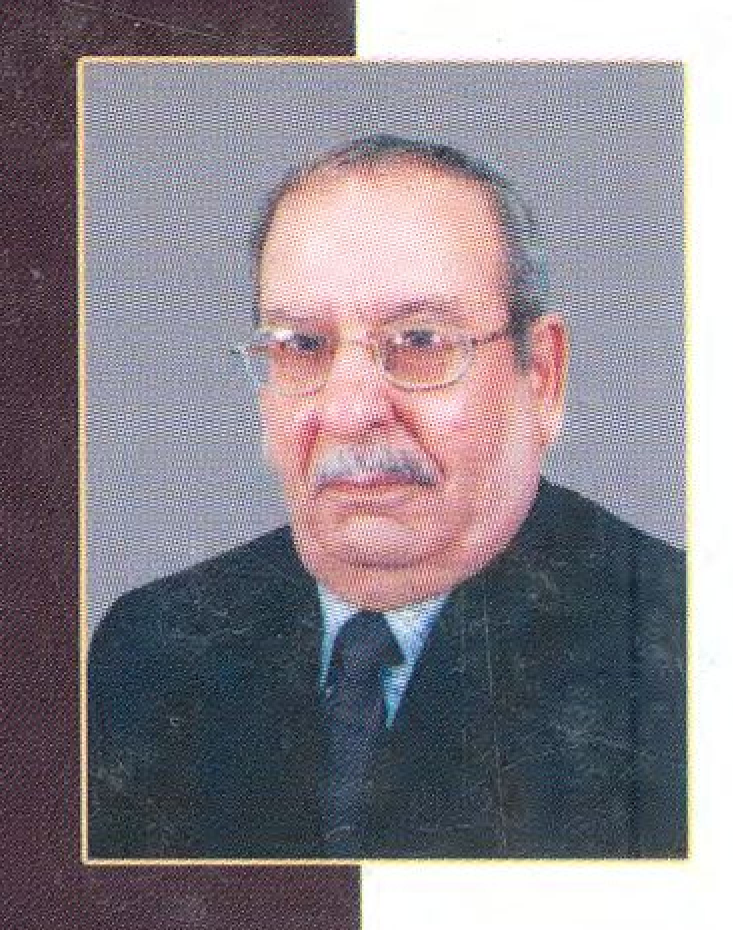
العدد /١٨٩/١٩٩٩.

- **مجلة الثقافة العالمية (الكويت)** العدد (١٠٢) ٢٠٠٠.
- مجلة دراسات **استراتيجية (جامعة دمشق)** العدد الأول ٢٠٠٠.
- **مجلة قضايا استراتيجية (المركز العربي للدراسات الاستراتيجية)**

العددان (٦- ٧) ٢٠٠١.

- **مجلة المستقبل العربي (بيروت)** العدد (٢٤٢) ١٩٩٩.
- **صحيفة المحرر العربي الأعداد** (٣٣٠- ٣٣٣- ٣٣٦) ٢٠٠٢.

العددان (٣٩٠- ٣٩٢) ٢٠٠٣.



الديموقراطية بين الوهم والحقيقة

المؤلف

الباحث والمفكر اليساري: أحمد حسن الفقرة. من كتبه:

- العالم الجديد في المنظور الثوري، صدر عن دار علاء الدين بدمشق عام ٢٠٠٣م.

أضواء /على/ وحدة (البورجوازية - إسرائيل)، صدر عن دار نور بدمشق عام ٢٠٠٦.

قريباً جداً للمؤلف: أضواء /على القرن الواحد والعشرين.

هذا الكتاب:

يجيب على ما تردّده الإمبريالية من عشق للديموقراطية، ويكشف الغطاء عن حقيقة هذا العشق (اللاعذري)... مبيناً أن البورجوازية منذ ولادتها عشقت الديكتاتورية لخطف ما بيد الغير، من أجل التراكم لرأسمالها. وإن الديموقراطية الحقيقية لم ترَ النور إلا في ظل الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، وبعد ... الخاصة تحولّت الديموقراطية إلى وهم وأسطور... المحتوى... ومن حيث الشكل بقيت شعاراً لخدا... الشعبية، من أجل تمرير مصالح النهابين في نهب الـ...

التاريخ يقول:

- الطبقة المستغِلّة ديكتاتورية بطبيعتها.
- الديموقراطية الحقيقية لا وجود لها مع استـ... للإنسان.



